

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0038776979

Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES



DATE DUE

FEB 15 2007

GAYLORD

PRINTED IN U.S.A.

PT60 -10% Khaniji 12/2/45

Bound

(C)

33



893.782

H95

v.2

جميع الحقوق محفوظة

مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

١٣٥٦ / ٥ / ١٩٣٧ م / ٧٦٥

45-39141

COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY

القدماء والمحدثون (١)

الجهاد بين القديم والجديد - مصدره
 ونائجه في فروع الحياة المختلفة -
 مظهره في الحياة الأدبية - آثاره
 العظيمة في الأدب اليوناني ، وآثاره
 الضئيلة في الأدب العربي .

لم يخل عصر أدبي في حياة الأمم ، التي كان لها نصيب من الأدب وحظ في إتقان القول وإجادته ، من هذه المسألة « مسألة القدماء والمحدثين » ولم تظهر هذه المسألة في عصر من العصور أو عند أمة من الأمم ، إلا أحدثت خلافا عظيما وجدالا عنيفا ، وقسمت الأدباء على اختلاف فنونهم الأدبية أقساما ثلاثة : قسم يؤيد القدماء تأييداً لا احتياط فيه ، وقسم يظهر المحدثين مظهرة لا تعرف اللين ، وقسم يتوسط بين أولئك وهؤلاء ، ويحاول أن يحفظ الصلة بين قديم السنة الأدبية وحديثها ، وأن يستفيد من خلاصة ما ترك القدماء ، ويضيف إليها ما ابتكرت عقول المحدثين من ثمرات أنتجها الرقي ، وأثرها تغير الأحوال وتبدل الظروف .

كذلك كانت الحال قديماً ، وكذلك كانت الحال في هذا العصر الذي نعيش فيه . وفي الحق أن الاختلاف بين القديم والمحدث ليس مقصوراً على الأدب وحده ، وإنما هو يتناول كل شيء ، يتناول الفن والعلم ، ويتناول الفلسفة ، ويتناول الحياة نفسها في فروعها المختلفة المادية ، والسياسية

(١) نشرت بجريدة السياسة في ١٧ ربيع الثاني سنة ١٣٤١ هـ ، ٦ ديسمبر سنة ١٩٢٢ م .

والاجتماعية؛ وذلك معقول ، لأن الحياة الانسانية كما قلنا غير مرة ، تقوم على أصليين لا ثالث لهما ولا محيد عنهما ، هما البقاء من ناحية ، والاستحالة من ناحية أخرى .

فنحن بحكم البقاء وحاجتنا اليه ، مضطرون إلى أن نصل بين أمس واليوم والغد ، مضطرون إلى أن نصل بين القديم والجديد ، مضطرون إلى أن نشعر بأن حياتنا الآن هي إن لم تكن نفس حياتنا قبل الآن ، فهي أثر قوى من آثارها ، ونتيجة لازمة من نتائجها .

ونحن بحكم الاستحالة والتطور مكرهون على أن نشعر بأن يومنا يغير أمسنا ، وبأن حياتنا الآن إن أشبهت حياتنا أمس من وجه أو وجهين فهي تغايرها من وجوه .

وإذن فنحن بين الشعور بالبقاء والحاجة إليه ، وبين الشعور بالتطور والحاجة إليه ، مترددون في ميولنا وأهوائنا وآرائنا . فمننا من يؤثر هذا الشعور بالبقاء فيغلبه على كل شيء في نفسه ، حتى تصبح غايته الحقيقية ألا يكون إلا ابن أمسه ، وإلا حلقة من حلقات هذه السلسلة المتصلة التي لا نعرف لها أولًا ولا آخرًا ، وهي سلسلة الحياة .

ومننا من يؤثر هذا الشعور بالتطور والاستحالة ، فيكلف بالجديد ويرغب فيه ، ويندفع في هذه الرغبة وذلك الكلف ، فلا يفكر إلا في شيء واحد : هو أن يعدو ، وأن يعدو ما استطاع إلى الأمام ، دون أن يقف فيفكر في حاضره ، أو أن يلتفت فينظر إلى ماضيه .

ويشتد الخلاف ويعظم بين هذين الطرفين المتناقضين ، بين أنصار

القديم المسرفين في نصره ، وأشباع الجديد الغلاة في التشيع له . يشتد هذا الخلاف ويعظم ، حتى يشعر به أوساط الناس وجماعاتهم المختلفة التي تخضع للحياة وتحياها هادئة وادعة غير شاعرة بتطور ولا ببقاء ، وإنما هي محققة لهذين الأصلين تحقيقاً طبيعياً غير متكلف ولا منتحل . تشعر هذه الجماعات الوسطى بما بين هذين الطرفين المتناقضين من جدال عنيف وخلاف عظيم ، فتوسط بينهما ، ويظهر منها هذا القسم الثالث الذي هو خلاصة الأمة ، والذي هو المحقق الوحيد لاعتدال الطبع وصفاء المزاج ، والذي هو المحقق الوحيد للصلة الصحيحة المنتجة بين القديم وبين الحديث .

نجد هذه النظرية في كل ضرب من ضروب الحياة العامة ، عقلية كانت أو شعورية ، سياسية كانت أو اجتماعية ، وهي منتجة نتائج تختلف قوة وضعفا باختلاف موضوعاتها . فأما نتائجها في الحياة الأدبية فهينة سهلة محتملة لا تتجاوز الخصومات اللفظية إلا قليلاً ، وكذلك الحال في الحياة العقلية الفلسفية . فأما في العلم فانتصار الجديد يسيرٌ محقق ، لا خوف عليه ولا شك فيه ، لأن العلم قد أصبح أقل الأشياء الإنسانية استعداداً للخلاف والمناقضات . ولكن هذه النظرية إذا ظهرت في الحياة الاجتماعية والسياسية أنتجت في أكثر الأحيان أقيس الآثار وأسوأها ، لأن الحياة الاجتماعية والسياسية هما أشد ضروب الحياة مساساً بالمنافع على اختلافها والمصالح على تباينها ، والإنسان بطبيعته عبد لمنفعته ، يبذل فيها حياته طيب النفس قرير العين . ومن هنا لم نعلم أن خلافاً أدبياً في أسلوب الشعر والنثر ، أو أن خلافاً في نظرية من نظريات الفلسفة ، أو أصل من أصول العلم ، أحدث ثورة سفكت

فيها الدماء ، وأزهقت فيها النفوس ، واختلّ لها نظام الأمن ، حينما الاختلاف في تقسيم الثروة ، أو في نظام الحكم ، كان - وسيظل دائماً - مصدر هذه الثورات التي أشرنا إليها .

وما لنا نذهب بعيداً ، ونحن لا نعلم أن شاعرا قتل شاعرا آخر لأنه يخالفه في الوجهة الشعرية ، أو أن فيلسوفا قتل فيلسوفا آخر لأنه يخالفه في أصل من أصول الفلسفة ، لا نعلم شيئا من هذا ، ولكننا نعلم أن الفرد قد يقتل الفرد ، وأن الجماعة قد تعلن الحرب على الجماعة ، لخلاف مصدره السياسة أو مصدره المال .

لا تذكر لي الخلافات الدينية التي أحدثت الثورات وضروب الاضطهاد ، فما أحدثت هذه الثورات من حيث إنها اختلافات في الحياة العقلية والأدبية أو الفنية الخالصة ، وإنما أحدثتها من حيث إنها اختلافات في ضروب الحياة الاجتماعية والسياسية نفسها .

ستقول لي : ولكن الاختلاف في السياسة والاقتصاد وما إليهما من نظم الحكم وتقسيم الثروة ، إنما هو أثر من آثار هذه الحياة العقلية والأدبية والفنية . وليس في هذا شك ، فإن سلسلة الحياة متصلة على اختلاف حلقاتها . ولسنا نزعم أن الحياة الأدبية مصدر الخير الخالص ، وإنما نزعم أن هذه الحياة أشد ضروب الحياة الإنسانية براءة من العنف والظلم والشر ، لأنها تكاد تنحصر في الكلام دون أن تمس الحكم ودون أن تمس المال .

إذن فالخلاف بين القديم والحديث أصل من أصول الحياة ، يشتد الجهاد بين أولئك وهؤلاء حتى يتم انتصار الجديد فيصبح هذا الجديد قديماً ويظهر جديد آخر يحاربه .

ولعل من ألد أنواع الجهاد بين القديم والجديد، وأحبها إلى النفس ، هذا الجهاد الذى يقع بين الشعراء والكتّاب فى عصورهم المختلفة . هذا الجهاد لذيذ لأنه برىء ، ولذيذ لأنه يمثل الاختلاف بين لونين من ألوان الحياة العقلية والشعورية ، أحدهما قد أخذ يضمحل وينمحي ، والآخر قد أخذ يظهر ويقوى . ولقد قلنا فى أول هذا الفصل إن الأمم التى كان لها حظ من الحياة الأدبية قد عرفت كلها هذا الخلاف بين القدماء والمحدثين ، ولكننا مضطرون إلى أن نلاحظ أن نفس هذا الاختلاف بين القدماء والمحدثين يتفاوت تفاوتاً عظيماً باختلاف الأمم والأجيال ، فهو منتج جداً فى أمة من الأمم ، عقيم جداً فى أمة أخرى ، معتدل الانتاج فى أمة ثالثة . ثم إن نوعه نفسه يختلف باختلاف هذه الأمم والأجيال ، فقد يختلف القدماء والمحدثون فى الألفاظ ، وقد يختلفون فى المعانى ، وقد يختلفون فى الألفاظ والمعانى ، وقد يختلفون فى الأنواع الفنية نفسها ، فتظهر الحياة الأدبية فى هذا العصر فى صور ومظاهر جديدة لم تألفها العصور الأولى ولم تعرف من أمرها شيئاً .

أنظر إلى الأمة اليونانية مثلاً وإلى الشعر ، تجد أن تطورها لم يستتبع تطور الشعر فى لفظه ومعناه فحسب ، وإنما استتبع تطوره فى نوعه أيضاً . فكان الشعر القصصى مظهر الشعور اليونانى أيام بداوة الأمة اليونانية وبدء تحضرها ، فلما عظم حظها من الحضارة المادية ، وأخذ عقلها فى التفكير ، وذائق لذة الترف والثروة ، كان الشعر الغنائى مظهر شعورها ، فلما قوى نصيبها من الحضارة ، وتأسست فيها المدن المختلفة ذات النظم السياسية

والاجتماعية المعقدة ، وأخذت الفلسفة تظهر وتبسط سلطانها ، كان الشعر التمثيلي مظهر شعورها .

فأخلاف بين القدماء والمحدثين عند الأمة اليونانية كان عظيماً معقداً مختلف المناحي ، لأنه كان يتناول اللفظ والمعنى والأسلوب والصورة والنوع والموضوع حينما هو عند الأمة العربية ضيق محصور لا يكاد ينتج شيئاً ، لأنه لا يتناول إلا اللفظ ، وقد يتناول المعاني في عصر من العصور ، هو أول العصر العباسي ، ذلك أن الخلاف قد وقع بالفعل في أواخر القرن الأول ، وأوائل القرن الثاني للهجرة بين أنصار الجاهليين والإسلاميين . وكان أبو عمرو بن العلاء يروى كارها شعر جرير ، لأن هذا « المولد » كان مجيداً . ثم ظهر الخلاف في منتصف القرن الثاني بين أنصار العرب جاهليين وإسلاميين وأنصار المحدثين ، أي ظهر الخلاف بين بشار وتلاميذه ومن كان ينتصر لهم من الأدباء ، وبين امرئ القيس وتلاميذه ومن كان ينتصر لهم من أئمة اللغة ورواة الشعر . ثم ظهر الخلاف في القرن الثالث بين الذين كانوا ينتصرون للبحر وأبي تمام ، والذين كانوا ينتصرون لأبي نواس ومسلم . ثم ظهر الخلاف في القرن الرابع بين الذين كانوا ينتصرون للمتنبي ، والذين كانوا ينتصرون لأبي تمام .

فأنت ترى أن كل هذا العصر الأدبي الذهبي عند العرب كان مملوءاً بالاختلاف بين القدماء والمحدثين ، وليس عليك إلا أن تنظر في كتب الأدب على اختلافها ، لترى هذا المقدار الوفور من الكلام الكثير الذي قليل وقيل

في الانتصار للشعراء ، وتفضيل بعضهم على بعض ، سواء منهم أبناء
الجيل الواحد والذين اختلفوا جيلا وعصرا . ولكنى أريد أن أعلم فيم كان
الاختلاف عند العرب بين القدماء والمحدثين ! وما تأججه الكبرى ؟ .

الحق أنى أكاد أعلم ذلك ، فقد كان الخلاف قبل كل شيء في اللفظ ، ثم
في المعنى ، ثم لم يتجاوز هذين الأمرين .

كان القدماء والمحدثون أيام بنى أمية يختلفون في اللفظ اختلافا ظاهرا ،
وكانوا يتخذون اللفظ مقياسا لجودة الشعر ، فكهما قرب هذا اللفظ من
البداوة ، وكلما كان رصينا يعلأ الفم ويهز السمع كان الشعر جيدا ، أى أن
جزالة اللفظ ، وشدة القرب بينه وبين ألفاظ البادية في العصر الجاهلى كانت
هى المزية الأولى للشاعر ، ثم تأتى بعد ذلك جودة المعنى والتعمق فيه .

ثم ظهر هذا الخلاف بعينه في أول العصر العباسى ، فاختلف الشعراء
العباسيون ، واختلف معهم الأدباء واللغويون في أىّ الشعرين أجمل وأرقى
وأحسن : الشعر الذى يحتذى شعراء الجاهلية والاسلام في متانة اللفظ
ورصائته وبدأوته ، أم الشعر الذى يتخير الألفاظ السهلة العذبة التى ألفها
الناس عامة ، لاعلماء اللغة خاصة ؟

وظهر إلى جانب هذا خلاف آخر في المعنى فاختلف الشعراء في معانى
الشعر : أتبقى كما كانت بدوية أعراية ، أم تتحضر كما تحضر الناس ؟ أتصف
الأطلال والخيام والصحراء والإبل والخيول والسلاح ، أم تعدل عن هذا كله
إلى القصور والأنهار والرياض والمدن ؟ ثم أتناول الشعور الإنسانى فتصفه
لا كما يشعر به الناس في بغداد ودمشق والبصرة والكوفة ومصر ، بل كما

كان يشعر به الأعراب في باديتهم وصحرائهم ، أم تتناول هذه المستحدثات الحضريّة والمستطرفات التي لم يعهدها الأعراب ؟ وعلى الجملة أيعيش الشعراء عصرهم الذي هم فيه ، أم يعيشون عصور الآباء والأجداد ؟

ظهر هذا الخلاف ، وكان أشد أنواع الخلاف إلتاجاً وأكثرها خصباً ، لأن أنصار الجديد - وعلى رأسهم أبو نواس - أقدموا غير خائفين ولا وجلين ، فوصفوا لنا الحياة الجديدة دقيقة وجليها ، مفصلها ومجملها ، فجددوا الشعر من ناحية ، ونفعوا التاريخ من ناحية أخرى . وكان هذا كل ما عرف العرب من اختلاف في الشعر بين القدماء والمحدثين :

اختلاف في اللفظ نشأت عنه مدرسة مسلم بن الوليد التي أخرجت أبا تمام والمتنبي وأمثالهما من أصحاب البديع ، واختلاف في المعنى نشأت عنه مدرسة أبي نواس التي أخرجت البحتري وغيره من أولئك الشعراء الذين آثروا اللفظ القديم والمعنى الجديد ، ولم يتكلفوا بديعاً ولا استعارة ولا جناساً . هذا كل ما عرف أهل الشرق العربي من اختلاف بين القدماء والمحدثين وهذا كل ما أنتجه الخلاف ، وهو على خطره ليس بالشئ الكثير ، فلم يتغير الشعر العربي في موضوعه ولا في صورته ولا في نوعه ، ولم يتغير في لفظه ومعناه إلا تغيراً قليلاً جداً . بقيت القصيدة كما كانت معتمدة على وحدة القافية والوزن غير معنية بوحدة المعنى ، وبقي موضوع الشعر كما كان مدحاً وهجاء ورثاء ووصفاً وغزلاً ، وإنما تجددت هذه الموضوعات دون أن تتغير ، ولم يكن تجدها جوهرياً ولا مطرداً ، وإنما هو التجدد الذي يكفي لشعرك بالفرق بين العصر القديم والعصر الجديد ، وقد مضت القرون وتعاقت ،

والشعر العربي في لفظه ومعناه وصورته وموضوعه كما كان قديما ، لم ينله
من التغير والتطور إلا هذا المقدار الضئيل الذي أشرنا إليه .
ولقد يكون من الخير أن نعرف العلة ، وأن نتبين الأسباب القوية التي
أكرهت الشعر العربي المحافظ على أن يتطور قليلا ، ولعلنا نستطيع أن
نحدثك عن ذلك في الأسبوع الآتي .

القدماء والمحدثون (١)

رأينا في الأسبوع الماضى أن الآداب العربية ، قد أخذت بحظها من هذه الظاهرة العامة التى تشترك فيها الآداب الحية جميعا : ظاهرة الخلاف بين القدماء والمحدثين ، ورأينا أن حظ الآداب العربية من هذا الخلاف على عظمه وكثرة الكلام فيه ، لم ينتج لهذه الآداب شيئا كثيراً فى الشعر على أقل تقدير ، وسنعرض للنثر فى غير هذا الفصل .

لم ينتج لها شيئا كثيراً ، فظل موضوع الشعر كما كان ، لا يكاد يتجاوز المدح والهجاء والرثاء والغزل والوصف وما يتصل بهذه الموضوعات ، وظل شكل الشعر كما كان ، لم يخترع فيه شكل جديد ، ولم تضاف إليه صورة طريفة ، وإنما بقيت القصيدة مظهرا للشعر محتفظة بأوزانها وقوافيها .

وإذن فلم يحدث تطورا للأمة العربية ولا اشتدادا لخلاف بين القدماء والمحدثين شيئا ذا خطر فى موضوع الشعر أو شكله كما يقول أهل القانون ، وإنما أحدث شيئا جديداً فى لفظ الشعر ومعناه كما قلنا فى الفصل الماضى ، وربما اضطررنا إلى أن نقول اليوم أيضاً إن هذا الشيء الجديد كان أقل جدا مما كنا ننتظر فإن الحياة العربية تطورت فى القرن الأول والثانى للهجرة تطورا يوشك أن يكون كاملا ، بل قد لانخشى الغلو إن قلنا إن هذه الحياة العربية تبدلت فى هذين القرنين تبديلا تاما ، فكان من المعقول أن يتحقق التناسب الصحيح

(١) نشرت بالسياسة فى ٢٤ ربيع الثانى سنة ١٣٤١ - ١٣ ديسمبر سنة ١٩٢٢ .

بين هذه الحياة الجديدة وبين الآداب ، فتتجدد هذه الآداب كما تجددت الحياة نفسها .

ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ، فبينما كانت الحياة في بغداد أبعد ما تكون عن الحياة في صحراء جزيرة العرب من كل وجه ، كان الشعر الذي ينشد في بغداد شديد القرب جداً من الشعر الذي كان ينشد في تلك الصحراء . وإذن فنحن بإزاء ظاهرتين لابد من تفسيرهما : الأولى أن الحياة العربية قد تطورت تطوراً كاملاً ، وأن الشعر العربي قد تطور معها تطوراً ما ؛ الثانية أن تطور الشعر لم يكن مناسباً لتطور الحياة في جميع فروعها .

وربما لم يكن من العسير جداً تفسير هاتين الظاهرتين ، ذلك أن الأمة العربية قد خضعت خضوعاً تاماً لمؤثرين مختلفين اختلافاً تاماً ، فبينما كان أحدهما يدفعها دفعا قويا إلى الأمام فتندفع ، كان الآخر يجذبها جذبا قويا إلى الوراء فتنجذب . كانت تندفع إلى الأمام اندفاعاً قويا في الحضارة المادية ، يمثل قوته هذا الفرق الظاهر بين قصور بغداد وحداثتها ورياضها ، وما تشتمل عليه هذه القصور والحداثق والرياض من مظاهر الحضارة وأدواتها وبين خيام الصحراء وما كانت تحتوى من مظاهر العيش الخشن والحياة الساذجة . وكانت تنجذب إلى الوراء بحكم الدين وبحكم اللغة التي لم تكن كغيرها من اللغات وإنما كانت لغة دينية ، فالاحتفاظ بأصولها وقواعدها والاحتياط في صيانتها من التطور وآثاره السيئة ، واجب ديني لا سبيل إلى جحوده أو التقصير فيه .

إذن فقد كانت الحضارة المادية تدفع العرب إلى الأمام ، وكانت حياة

الدين تجذبهم إلى الورا، وكان العقل العربي بطبيعة الحال موضوع الجهاد بين هذين المؤثرين المختلفين فكان يتقدم سريعاً إلى حيث لا يكون تقدمه مصدر شر على الدين أو لغة الدين ، وكان يبطئ في حركته حين يكون التقدم خطراً على هذه أوداك .

ومن هنا كان التناقض ظاهراً بين حياة العرب المادية في تفصيلها وبين حياتهم الأدبية في إجمالها، فكانوا أحراراً في الحياة المادية ، محافظين في الحياة الأدبية .

وكان الشعراء الذين يجرءون على أن ينكروا هذه المحافظة ، ويحاولون تحرير الشعر قليلاً أو كثيراً ، موضع سخط شديد من طائفة من الناس ليست قليلة الخطر، ولا ضئيلة الأثر في الحياة العامة ؛ كان هؤلاء الشعراء يتعرضون لسخط الأئمة والعلماء من رجال الدين ، لأن هؤلاء الأئمة والعلماء بطبيعة منازلهم الدينية حراس على القديم ، أعداء لكل جديد ، وكان هؤلاء الشعراء يتعرضون لسخط الأئمة والعلماء لأنهم بحكم منزلتهم اللغوية ، مضطرون إلى أن يحتفظوا بالبقواعد اللغة وأصولها فحسب ، بل بألفاظها وأساليبها أيضاً، فكانوا يكرهون كل لفظ دخيل ، وينفرون من كل أسلوب مستطرف . وكانت طائفة غير قليلة من عامة الناس وسوادهم تخضع لأولئك وهؤلاء فيما لا يضرها ولا يؤذيها ، فستمتع بالحياة المادية ما استطاعت غير سامعة لنهي الفقهاء والوعاظ ، ولكنها تحرص على الاحتفاظ بالسنن الموروثة والعادات القديمة فيما لا يمس الأكل والشرب واللباس والزينة وما إلى هذا من ضروب الحضارة ؛ أضف إلى هذا كله ، أن الأمة العربية بفطرتها

حريصة على سنتها القديمة ، محتفظة بما ورثت عن آبائها من مظاهر الحياة العقلية والشعورية ، وأن الآداب العربية القديمة في نفسها جذابة خلابة محبة إلى النفوس مستأثرة بالقلوب ، فكان من المعقول أن يتأثر الشعر بهذا كله ، وأن يكون موقف الشعراء المجددين ، كموقف الفلاسفة المجددين ، ثقيلًا شديد الحرج ، وأن يتعرض أولئك وهؤلاء للحبس والضرب والنفي وغير ذلك من ضروب الاضطهاد وألوان العذاب .

ومن الغريب أن هؤلاء الشعراء والفلاسفة الذين كانوا يلقون في العصر العباسي ضروباً من المحن تختلف قوة وضعفًا باختلاف الخلفاء والوزراء ، كانوا محبين إلى هؤلاء الخلفاء والوزراء ، فكثير من هؤلاء الخلفاء والوزراء كان يحب شعر بشّار ويلد لشعر أبي نواس ، ومع ذلك فقد ضرب بشّار ، حتى مات ، وحبس أبو نواس في عصر الرشيد كما حبس في عصر الأمين ، ولو أدركه المأمون لقتله ، ولو كان إعجاب المأمون بأبي نواس شديداً جداً .

ومصدر هذا التناقض في سيرة الخلفاء والوزراء مع الشعراء والفلاسفة أن هؤلاء الخلفاء ومشيريهم كانوا يحبون حياتين مختلفتين : حياة للشعب يحتفظون فيها بجلال الدين ومجده وعظمة الخلافة وقوتها السياسية ، فهم من هذه الناحية محافظون ؛ وحياة لأنفسهم ، وخلصائهم في القصور ومن وراء الحجب ، يتركون فيها لأنفسهم حريتها الفطرية ، فيلهون ويعبون وينادمون ويشربون ويقتربون ضروباً من الآثام .

أضف إلى هذين المظهرين المتناقضين من حياة الخلفاء وكبار الدولة ، أن حياة الشعراء والمفكرين لم تكن حياة شعر وتفكير فحسب ، وإنما

كانت تختلط بالمشاكل السياسية وما تستلزمه هذه المشاكل من الكيد والدسائس ؛ فكان الشاعر أو المفكر لا يفتن لأنه شاعر أو مفكر فحسب ، بل قد يفتن لأنه يرى رأيا سياسيا لا يراه السلطان ، لأنه من أنصار البرامكة أو من أنصار الفضل بن سهل أو الفضل بن الربيع ، لأنه يرى رأى العلويين ، لأنه يؤثر الفرس على العرب ، إلى آخر هذه المسائل الكثيرة التي نشأت عنها ضروب من المحن أصابت الشعراء والفقهاء والفلاسفة والمفكرين .

كل هذه الأسباب جعلت تطور الأدب عامة - والشعر خاصة - بطيئا قليل الإنتاج ؛ ولكن هناك سببا نعتقد أنه هو السبب الأساسي الذي حال بين الشعر العربي وبين ما كان ينتظر له من التجدد ، هذا السبب هو أن الأمة العربية لم تعرف من آداب الأمم الأخرى شيئا يذكر ، ولم تخاطب هذه الأمم الأجنبية من الوجهة الأدبية والعقلية إلا مخالطة ضيقة جدا ، فلم تعرف من آثارها إلا شيئا من العلم والفلسفة ، وتنفا من الحكم والأمثال ، فجهلت الأمة العربية جهلا تاما ، أو جهلا يوشك أن يكون تاما ، آداب الأمة اليونانية مع أنها قد أخذت من علم اليونان وفلسفتهم بالنصيب الوفور ، ولم تك تد تأخذ عن الفرس إلا الحضارة المادية ، وروايات مشوهة في الحكم والأمثال ، وسياسة الملوك ، ولم تك تعلم من أمر الهند إلا شيئا من النجوم ، و قليلا من المواعظ والوصايا .

ومن هنا لم يكن أمام الشعراء مثال أدبي جديد يحتذونه ويسعون في تقليده ومحاكاته ، فظلوا على ما كانوا عليه ، يرددون ما ألفوا من الشعر القديم بأوزانه وقوافيه وبألفاظه ومعانيه ، لا يحددون من هذا كله إلا

ما يضطرهم إلى تجديده نوع الحياة الجديدة الذى هم فيه ، وهم فى هذا التجديد
القليل نفسه ، مقيدون بما قدمنا من حكم المحافظة الدينية واللغوية والسياسية .
وقد علمنا تاريخ الأدب فى جميع العصور وعند جميع الأمم ، أن الحضارة
المادية وحدها لا تكفى لترقية الشعر ودفعه فى سبيل التطور المنتج ، وإنما
يجب أن تضاف إلى هذه الحضارة المادية أشياء أخرى ، أهمها المخالطة
الأدبية للشعوب الأجنبية ، فلولا أن الصلات اشتدت بين اليونان وبين
غيرهم من الأمم المعاصرة ، لما تطور شعرهم هذه الأنواع المختلفة من التطور .
وكذلك قل إن الرومان مدينون لليونان بتطور آدابهم ، وقل إن الأمم
الأوربية مدينة بتطور آدابها لهذه الحركة التى حدثت فى عصر النهضة ،
فأظهرت الإيطاليين وغير الإيطاليين على آداب اليونان والرومان .
ويطول القول إذا أردنا أن نذكر أثر الاختلاط بين الأمم الأوربية
نفسها فى الآداب الأوربية الحديثة ، وقد حُرم العرب هذا الاختلاط ،
فحرم الأدب العربى نتيجته ، وهى التجدد المنتج ، ولهذا لم يعرف العرب من
الشعر إلا ما ورثوا عن أهل البادية ، فجهلوا الشعر القصصى ، والشعر التمثيلى ،
وجهلوا من الشعر الغنائى نفسه فنونا كثيرة وضروبا مختلفة ، ومع هذا كله
فقد تطور الشعر العربى ، وتجدد تجدداً ما ، فيجب علينا أن نعرف ما حقيقة
هذا التجدد وما قيمته ، وأين يوجد الفرق الواضح القوى بين الشعر العربى
الجديد والشعر العربى القديم ، وموعداً بهذا الفصل الآتى . . .

القدماء والمحدثون (١)

تجدد الشعر في العصر الأموي - الغزل

الإباحي - الغزل العفيف - الشعراء

المتوسطون بين هذين الفئتين .

نظّم العصر الأموي ، ونظّم معه تاريخ الأدب العربي ، إن زعمنا أن التجديد الذي تناول لفظ الشعر ومعناه ، إنما حدث في العصر العباسي خاصة ، فإن العصر الأموي قد كان عصر تجديد أيضا ، بل قد كان عصر تجديد قوى ظاهر في اللفظ والمعنى .

وربما كان عصر الأمويين من هذه الناحية أخصب وأكثر إنتاجا من عصر العباسيين ، فقد حاول الشعر في هذا العصر أن يتجدد لافي لفظه ومعناه فحسب ، بل فيهما وفي الموضوع أيضا ، ولكن هذه المحاولة لم توفق توفيقا تاما ، لأن عصر الأمويين لم يطل ، ولأنه لم يكن عصر ثبات واطمئنان ، وإنما كان عصر تحول وانتقال ، وكان من الممكن أن يتمم العصر العباسي ما بدأه العصر الأموي من تجديد موضوع الشعر ، ولكننا سنرى في غير هذا الفصل أن هذا لم يتح للشعر العربي ، لأن العصر العباسي سلك بالأمة العربية طريقا جديدة ، مغايرة مغايرة شديدة للطريق التي سلكها العصر الأموي .

(١) نشرت بالسياسة في ٢ جمادى الأولى سنة ١٣٤١ - ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٢٢ .

لم يكدهم المسلمون في الفتح وبسط سلطانهم على أرض الفرس من جهة، والروم من جهة أخرى، حتى تغير كل شيء في حياة الطبقة العليا من الأمة العربية، وكان مصدر هذا التغير شيئين: أحدهما مادي، وهو كثرة ما أفاء الله على المسلمين، في هذا الفتح والتغلب، من المال والغنائم الموفورة، التي بدلت حياة هؤلاء الناس، فجعلتها يسيرة بعد عسر، سهلة بعد صعوبة، لينة ناعمة بعد شدة وخشونة. والثاني معنوي؛ فقد رأى العرب في هذه البلاد المفتوحة نظاماً للحكم والسياسة لم يألّفوها، وطرقاً للإدارة وتدير الأمور العامة لم يعدهوها من قبل، فتأثروا بما رأوا من ضروب الحياة السياسية أيضاً، ونتج عن هذا التأثير المزدوج، أن استبدل العرب بالخيام دوراً وقصوراً فيها ضروب الترف واللذة، وحاولوا أن يستبدلوا بالخلافة التي كانت بدوية في كل شيء ملكاً حضرياً في كل شيء، وما لبثوا أن وفقوا إلى الأمرين جميعاً.

ولم يكن بدّ من أن يترك هذان الأمران آثاراً ظاهرة قوية في حياة العقل والشعور، فإن الحضريّ يشعر ويفكر بطريقة تختلف طريقة البدوي في شعوره وتفكيره. وكذلك يشعر الرجل الغني بالمنعم الذي لا تشرق عليه الشمس إلا اشتد طعمه في اللذة والنعيم، بغير ما يشعر به الرجل الفقير المعدم الذي أخذ نفسه بضروب الصبر والقناعة واحتمال الشدة والمشقة. ثم إن الأمة العربية كانت أمة ذات عصبية شديدة، فلم تكن تنقاد بطبيعتها لزعيم، أو تدعن لسلطان ثابت الملك، وإنما كانت قبائل وشعوباً، ترى كل

قبيلة منها لنفسها السيادة والسلطان ، وكان هناك دين جديد يحاول أن يمحو هذه العصبية أو أن ينظمها فيؤسس الخلافة ، وكانت هناك فكرة جديدة تحاول أن تحو هذه العصبية أو تنظمها فتؤسس الملك مكان الخلافة .

ومن هنا كان تجدد الشعر ملائماً كل الملاءمة لتجدد الحياة ، فنشأ عند العرب في عصر بني أمية نوعان من الشعر لم يكن قد ألفهما الجاهليون ، أو على أقل تقدير لم يكن هؤلاء الجاهليون قد أحسنوا فهمهما والعناية بهما : الأول نشأ عن حياة الترف والغنى والثروة ، وهو « الغزل » وليس ينبغي أن يقال إن الغزل فن قديم عند العرب ، فنحن نعلم ذلك ولا نشك في أن الشعراء الجاهليين جميعاً قد تغزلوا وشببوا ووصفوا النساء ، وإنما نريد أن فنا جديداً قد نشأ في هذا العصر لم يكن موجوداً من قبل ، وهذا الفن هو الغزل يُقصد لنفسه ، لا ليتخذ وسيلة لشيء آخر ، هو فن الحب من حيث هو حب ، هو الفن الذي يعنى به شاعر قد فرغ من كل شيء ، لحياته المادية ميسرة ولذاته موفورة عليه . فكل ما يعنيه هو أن ينعم بهذه اللذات ، وأن يفنيها في شعره ، لا أكثر ولا أقل .

ومن الظاهر أن الجاهليين لم يعرفوا هذا الفن ولم يتذوقوه ، فلما عرف في العصر الجاهلي شاعراً قصر شعره على الغزل ، وحياته على الحب والغرام ، وإنما كان الغزل كغيره من فنون الشعر ، أو بعبارة أصح كان وسيلة إلى غيره من فنون الشعر ، كان العرب يبدئون قصائدهم - مهما يختلف موضوعها - بوصف الطلول والنساء كما كان اليونانيون يستهلون قصائدهم بمناجاة آلهة الشعر . وقاما كان الشاعر العربي قبل الإسلام يقصر قصيدة بأسرها على الغزل .

وليس الأمر كذلك في عصر بني أمية فقد نرى في هذا العصر شعراء يتخذون الغزل لنفسه صناعة وفناً مختاراً ، لا يتكلفون غيره ولا يعنون بسواه ، فهم لا يمدحون ولا يهجون ، وإنما حياتهم وصف النساء وما تبعث النساء في أنفسهم من عواطف وأهواء وميول ، فإن طلبت إليهم القول في شيء غير هذا أعرضوا أو عجزوا .

وفي الحق أن هذا الفن الجديد كان مختلفاً متنوعاً في هذا العصر باختلاف الشعراء ، واختلاف ظروف الحياة التي كانوا يحيونها ، فكان هناك شعراء يتخذون الغزل صناعة يصفون به لذاتهم وأهواءهم واقتنائهم فيما يتدوّنون من نعيم الحياة ، وزعيم هؤلاء الشعراء « عمر بن أبي ربيعة » ذلك الذي أقام بمكة فاتخذ كل شيء وسيلة إلى وصف المرأة والتغزل بها ، ولم يكتف بالوصف والقول ، وإنما أضاف إليهما حياة عملية فيها شيء من اللذة والترف كثير ، وكان هناك شعراء آخرون لا يقصدون إلى وصف اللذات وما تستتبعه ، وإنما يقصدون إلى شيء آخر ، يقصدون إلى وصف العواطف الحارة الصادقة ، التي تعذب صاحبها وتعنيه دون أن تتيح له لذة مادية ما ، وإنما اللذة الوحيدة التي يجدها ، والتي هو بها كلف وعليها حريص ، هي لذة الألم بأنه يحب ، ويجب من لا سبيل إلى وصله أو التقرب إليه ، وزعيم هؤلاء الشعراء « جميل » الذي أمضى حياته ، وقصر شعره على حب « بثينة » ، لا يطمع من هذا كله بشيء إلا الشعور بأنه يحب وبأن حبه لا حد له ، وبأن هذا الحب يرضيه ويعنيه ، وبأنه يجد في هذا الألم والعذاب لذة لا تعدلها لذة بل كان يطمع في شيء آخر ، وهو أن تحس صاحبته

ما يدخر لها من حب وما يلقى في سبيلها من ألم .

كان « عمر بن أبي ربيعة » زعيم المتغزلين الإباحيين ، وكان « جميل » زعيم المتغزلين العذريين ، وكان بين هذين الرجلين المتناقضين ، شعراء يتوسطون في الأمر فيدحون أحيانا ويعقّون أحيانا أخرى ، وربما كان كلفهم بالفن الشعري والإجادة فيه ، أشد من كلفهم بالذده لأنها لذة ، أو بالعفة لأنها عفة ، فلم يكن أحدهم يعنيه أن يقال إنه ماهر في تذوق لذات الحياة . أو إنه عفيف حقا مثال للعفة وطهارة القلب ، وإنما كان يعنيه أن يقال لقد تغزل فأجاد الغزل ، وشبب فأحسن التشبيب ، وهؤلاء الشعراء كثيرون ، ولكن جمهورهم لم يقصر حياته الفنية على الغزل وحده ، وإنما تناول مع الغزل فنونا أخرى . ومن هؤلاء الشعراء « كثير » الذي تغزل فأكثر الغزل ، واتخذ لنفسه صاحبة كانت هي مصدر حبه الغرامى وهي « عزة » ، ولكنه مدح وارتق من شعره . ولست أشك - والرواة لا ينكرون ذلك - أن كثيرا لم يكن صادق الحب ولا عفيفه ، وإنما كان يتخذ الغزل صنعة ، ويقفوفه أثر أستاذه جميل .

ولقد راج هذا الفن الجديد في عصر بني أمية رواجاً ظاهراً جداً ، نشأ عنه أن كلف به الشعب ، فأضاف إلى حياة جميل وكثير وعمر ما ليس منها ، واخترع شعراء ربما لم يوجدوا قط ، وألف لهم فصولاً من الحياة الغرامية ربما لم يعرفها التاريخ ، ونظم على لسان هؤلاء الشعراء الخياليين قصائد ومقطعات ربما لم يثق بصحتها الرواة ، فمن ذلك حياة « قيس بن الملوح » « وليلاه » ، ومن ذلك هذه الأخبار الكثيرة المرسفة التي تضاف إلى « قيس ابن ذريح » و « لبناء » .

ثم تكلف الشعراء الحقيقيون المبالغة في هذا الفن ، واختراع المواقف
الحرجة المعضلة التي ليس لها حلّ وليس منها مخلص ، ولعل أحسن مثال
لهذا التكلف هذان البيتان اللذان يضافان إلى ليلي الأخيلية :

وَذِي حَاجَةٍ قُلْنَا لَهُ لَا تَبْخُ بِهَا فَلَيْسَ إِلَيْهَا مَا حَيَّيْتَ سَبِيلُ
لَنَا صَاحِبٌ لَا يَتَبَغَّى أَنْ نُخُونَهُ وَأَنْتِ لِأَخْرَى صَاحِبٌ وَخَلِيلُ

فانظر إليها كيف اخترعت هذا الموقف العسير ، موقف عاشقين
كلفين، ليس إلى وصالهما سبيل، لأن كليهما متزوج، ولأن كليهما وفيّ عفيف.
لا أشك في أنك ستقول ليس في هذا الموقف شيء من الغرابة ، فقد
كانت ليلي متزوجة وكان «توبة» متزوجا ، وليس غريبا أن يكون كلاهما وفيّا
عفيفا ، لا أشك في أنك ستقول هذا ، وقد أقوله أنا أيضا ، ولكني لا أدري
لماذا أميل ميلا قويا جدا إلى اعتقاد أن هذا الموقف موقف فنيّ اخترعته
الشاعرة لتجديد في الفن ، فهو إلى الشعر أقرب منه إلى الحياة الواقعة .

ومهما يكن من شيء ، فقد نرى أن هذا الفن الجديد قد عظم شأنه عند
العرب في هذا العصر ، واختلفت مذاهب الشعراء فيه ، فذهب بعضهم فيه
مذهب اللذة ، وذهب الآخرون فيه مذهب العفة .

وربما كان من الخير أن نلاحظ أن الذين ذهبوا مذهب اللذة في هذا
الفن كانوا المترفين من أهل الحجاز وأبناء المهاجرين والأنصار ، الذين ورثوا
الثروة الطائلة الضخمة عن آبائهم ، وحيل بينهم وبين العمل السياسي لأمر ما .
ومن هنا كانت مكة والمدينة - في هذا العصر - أقرب إلى اللهو والمجون
والتفنن في اللذة ، وما تستتبعه من لعب وشرب وغناء وغزل ، من دمشق
عاصمة الملك ومستقر الخليفة .

وأن الذين ذهبوا مذهب العفة وأسرفوا في هذا المذهب كانوا من أهل
البادية ، بل إن الشعراء الذين اخترعوا - ولم يعرفهم التاريخ - كانوا أيضا
يخترعون في البادية ، وكانت عشيقاتهم من نساء البادية أيضا ، ولقد يكون
من العسير تعليل هذا فنحن نعلم من أخلاق العرب البادين أنهم إلى المادة
والإباحة ، أقرب منهم إلى هذه الحياة العذرية .

وإذن فقد يحسن أن نفترض أن شعورا جديدا قد أخذ في هذا العصر
يستأثر بالنفوس العربية ، وأن هذه النفوس قد خضعت في هذا العهد الجديد
لنزعة جديدة هي الطموح إلى المثل الأعلى والسمو إلى حياة عقلية وشعورية
جديدة راقية لم تكن معروفة من قبل ، ولكن هذا افتراض لم أوفق إلى
تحقيقه بعد .

على أن الشعراء الآخرين الذين كانوا يمثلون السنة الموروثة ، ويذهبون
مذهب الجاهليين فيمدحون ويهجون ويصفون ، قد تأثروا بهذا الفن الجديد ،
فمع أن حياتهم الشعرية لم تكن مقصورة على الغزل ، فإن هذا الغزل نفسه
قد رق ولطف في شعر الفرزدق وجريز والأخطل حتى أصبح الفرق بينه
وبين غزل الجاهليين ظاهرا بينا ، فقليل ما تجد في شعر الجاهليين غزلا يقارب
في عذوبة اللفظ وسحره ، وفي لطف المعنى ودقته قول جرير :

إِنَّ الَّذِينَ غَدَوْا بِبُلبُكِ غَادَرُوا وَشَلًّا بِعَيْنِكَ مَا يَزَالُ مَعِينَا
غِيصُنْ مِنْ عِبْرَاتِهِنَّ وَقُلْنَ لِي مَاذَا لَقِيتَ مِنَ الْهُوَى وَلَقِينَا

فانظر إلى هذا الشطر الأخير « ماذا لقيت من الهوى ولقينا » انظر
إلى جمال لفظه وسهولته وخفته على السمع ، وحسن موقعه من النفس ،

وانظر إلى دقة معناه ولطفه ، وإلى سعة هذا المعنى التي لاحد لها ، والتي عجز الشاعر عن أن يستقصيها ، وأراد أن يشعرك بهذا العجز ، فعمد إلى الاستفهام « ماذا لقيت من الهوى ولقينا ؟ » شيء ليس إلى وصفه ولا إلى تحديده من سبيل ، فهذا هو الفن الأول الذي استحدث في الشعر العربي أيام بني أمية . ولنختصر

نشأ عند العرب فنّ جديد هو الغزل ، ذهب فيه الشعراء مذهبين مختلفين (مذهب اللذة) ورافع لوائه « عمر بن أبي ربيعة » و (مذهب العفة) ورافع لوائه « جميل بن معمر » ومضى بين هذين المذهبين الشعراء الآخرون ، فمنهم من اتخذ الغزل صنعة وفنا فحذا حذو أولئك أو هؤلاء ، ومنهم من سلك مسلك الشعراء الجاهليين فتناول فنون الشعر كافة ، ولكن غزله تأثر بمذهب الفن الجديد فرقّ لفظه وسهل ، ودقّ معناه ولطف .

أما الفن الآخر الذي استحدث أيام بني أمية فهو « الشعر السياسي » ، وقد نشأ عن استحالة الخلافة إلى ملك ، وعما كان من حرب بين العصبية من جهة ، ومن حرب بين العصبية والدين من جهة أخرى ، ولعل من الخير أن نرجى بحث هذا الموضوع إلى حديث الأسبوع الآتي . .

القدماء والمحدثون (١)

تطور الشعر في العصر العباسي -
أسبابه العامة - نموذج من نماذج
هذا التطور .

رأينا أن تطوّر الشعر في عصر بني أمية كان قويا منتجا من بعض الوجوه ، فقد تناول اللفظ والمعنى وأحدث فنّين جديدين : فن الغزل وفن الشعر السياسي . وقلنا في آخر الفصل الماضي ، إن تغير الحياة العربية أيام بني العباس أثر في حياة الشعر تأثيرا ظاهرا ، فمحا الفن السياسي محوا ، وحوّل الغزل عن طريقته الأموية .

وفي الحق أن الشعر قد سلك في أيام بني العباس طريقا تكاد تخالف كل المخالفة طريقه أيام بني أمية ، فنشأت معانٍ جديدة ، وذهب الشعراء مذاهب مختلفة في وصف هذه المعاني والتعبير عنها ، ونشأ عن هذه المذاهب المختلفة ضروب من التصرف في فنون القول والاختيار بين ألوان الكلام . ذلك أن الحياة في عصر بني العباس كانت جديدة من كل وجه ، فانقطعت الصلة شيئا فشيئا أو كادت تنقطع ، بين هذه الحضارة البديعة التي كانت تزدهر في بغداد وضواحي بغداد ، وبين هذه البداوة القاسية الخشنة التي كانت تبسط سلطانها على بلاد العرب ؛ فبينما كانت دمشق ، على حضارتها أيام الأمويين ، ملتقى للجديد

(١) نشرت بالسياسة في ١٦ جمادى الأولى سنة ١٣٤١ هـ - ٢ يناير سنة ١٩٢٣ م

والقديم ، وبينما كان الحضريّ الخالص يستطيع أن يعيش فيها عيشة راضية مطمئنة ، وكان البدوي المعرق في البداوة يستطيع أيضا أن يعيش هذه العيشة ، وكان كلاهما يستطيع أن يفهم صاحبه بدون مشقة أو عناء ، وبينما كان الخلفاء من الأمويين على ضخامة ملكهم وسلطانهم ، وعلى كثرة ثروتهم وغنائم ، وعلى تذوّقهم أنواع الترف واللذة ، بادين في لغتهم وسيرتهم الظاهرة ، بينما كانت دمشق وأهلها على هذه الحال ، كانت بغداد على حال تخالفها كل المخالفة ، فهي مدينة بنتها الحضارة الجديدة ، وبنتها في أرض قد بعد عهدا بالبداوة ، واختلفت عليها الحضارات الكثيرة ، وأتاحت لها الطبيعة من خصب الأرض و ثرائها واعتدال الإقليم وصفاء الجو ما يجعل الحضارة سهلة ميسورة مستعدة للرقى والنموّ في وقت سريع ؛ فليس عجيبا أن يأنس إليها أهل الحضرة وينفر منها الأعراب ومن يشبه الأعراب من الذين لم تصقلهم الحضارة ، ولم يبعد عهدهم بالنعيم .

كان الحضريّ يأنس إلى بغداد ، وكان البدوي ينفر منها وينكر نفسه فيها ، ولم يكن خلفاء بني العباس يحبون البادية ولا يحنون إليها ولا يتكلفون في قصورهم عيشة أهلها ، وإنما قطعوا بينهم وبين هذه العيشة كل صلة ، واتخذوا لأنفسهم من ملوك الفرس مثلاً يحتذونها في ضروب الحياة ، ولم يحيطوا أنفسهم بالقوّاد والمشيرين من زعماء العرب ورؤساء القبائل كما كان يفعل الخلفاء من بني أمية ، وإنما استوزروا الفرس واستشاروهم ، وقصروا أو كادوا يقصرون عليهم قيادة الجيش ومناصب الدولة ، فليس غريبا أن تكون بغداد غير دمشق والعراق غير الشام ، وليس غريبا أن يُنشد في بغداد والعراق شعر يخالف ما كان ينشد في دمشق والشام .

على أن الحياة السياسية نفسها تغيرت في هذا العصر تغيرا شديدا مختلفا ، فكان السلطان الفعلي للفرس كما قدمنا ، وكانت الحكومة المركزية في بغداد قوية شديدة البطش ممتدة في الأمصار والأقاليم ، ومن قوة الحكومة المركزية وامتدادها نشأ شيء من ضيق الحرية قضى على النزعات الحزبية القديمة ، وأكره الشعراء على أن يتركوا السياسة لأهل السياسة ، فانمحي هذا الفن الذي أزهرا أيام بني أمية ولم يخلفه في الشعر فن جديد .

وهناك تغير آخر شديد الخطر وهو تغير الحياة العقلية ، فقد اشتد الاختلاط بين الأمة العربية وغيرها من الأمم الأخرى التي سبقتها إلى الحضارة ، فلم يقف هذا الاختلاط عند المجاورة والمعاشرة والحديث والتقليد ، وإنما تجاوز هذا كله إلى ما هو أشد منه وأقوى أثرا في الحياة المادية والمعنوية ، تجاوزه إلى الإصهار والتوالد من جهة ، وإلى الاختلاط العقلي الخالص من جهة أخرى فنشأت أجيال ورثت إلى المزاج العربي المزاج الفارسي أو غير الفارسي ، ونقلت إلى هذه الأجيال آثار الفرس والهند واليونان في الحكمة والموعظة ، وفي النملك والنجوم ، وفي السياسة والأخلاق وفي العلم والفلسفة فلا جرم ، كان هذا كله مصدر تغير قوى شديد في حياة النفس العربية ، أنتج أدبا لم تنتجه تلك الحياة البدوية الخالصة في الجاهلية وصدر الإسلام ، وأتلك الحياة البدوية المتحضرة في أيام بني أمية أنتج أدبا حضريا خالصا يعبر عن شعور حضري خالص ولولا قوة الآداب العربية القديمة وشدة سلطانها على النفوس وقدرتها على المقاومة من جهة ، ولولا أن هذه الأجيال الجديدة لم تقرأ شيئا من آداب هذه الأمم ، وإنما قرأت آثارها العلمية والفلسفية من

جهة أخرى ... نقول ، لولا هذان الشيطان لاستحال الشعر العربي استحالة
أشد وأعظم أثرا وأكثر إنتاجا من هذه الاستحالة التي نريد أن نتبين حقيقتها
ومقدارها في هذه الفصول ؛ ومهما يكن من شيء فقد كان ما وصفنا من تغير
الحياة المادية والسياسية والعقلية في القرن الثاني للهجرة ، تغيرا للحياة
الشعرية ليس إلى إنكاره من سبيل .

ادرس هذا العصر درسا جيدا ، واقرأ بنوع خاص شعر الشعراء وما
كان يجري في مجامعهم من حديث ، تدهشك ظاهرة غريبة هي ظاهرة
الإباحة والإسراف في حرية الفكر وكثرة الازدراء لكل قديم ، سواء أكان
هذا القديم ديناً أم خلقاً أم سياسة أم أدبا .

فقد ظهرت الزندقة وانتشرت انتشارا فاحشا ، اضطر الخلفاء من بني
العباس إلى أن يبطشوا بالشعراء والكتاب ، لأنهم اتهموا بهذه الزندقة ، وظهر
ازدراء الأدب العربي القديم والعادات العربية القديمة والسياسة العربية
القديمة ، بل ظهر ازدراء الأمة العربية نفسها وتفضيل الأمة الفارسية عليها ،
وكانت مجالس الشعراء والكتاب والوزراء مظهرا لهذا كله .

وليس يعنينا الآن أن تكون النهضة السياسية الفارسية ، وحرصها على
الانتقام من العرب والاستئثار دونهم بالسلطان مصدر هذا التغير ، وإنما الذي
يعنينا أن هذا التغير قد وجد وقوى حتى ظهر في الشعر ظهورا جعل إنكاره
مستحيلا ؛ فيكفي أن تقرأ شعر أبي نواس ، وما كان بينه وبين أصحابه
وخصومه من معارضة ومناقضة ، لتعرف مقدار هذا التغير ، ثم إن هذا التغير
نفسه قد أنتج نتيجته الطبيعية . فنهض القديم للدفاع عن نفسه ، واشتد الجهاد

بينه وبين الجديد ، وكان هذا الجهاد بالسيف مرة وباللسان أخرى . . . بالسيف حين يتعرض الدين أو السلطان السياسى للخطر ، وباللسان حين لا يتعرض لهذا الخطر إلا الأدب وأساليبه المختلفة .

ولعل من ألد ما يقرأ عبث أبى نواس بالفقهاء والمحدثين ، وإشفاق الفقهاء والمحدثين من أبى نواس وأمثال أبى نواس . . . لذيذ هذا الإشفاق وذلك العبث ، لأنه ينبئنا باستحالة غريبة فى الحياة العربية ، فقد كان أبو نواس محدثاً روى عنه الشافعى ، وكان مع ذلك فاجراً ماجناً يذيق المحدثين ألواناً من الأذى ؛ كان هؤلاء المحدثون يعظون أبا نواس مرة ، وينكرون عليه فجوره مرة أخرى ، ويشهرون به فى دروسهم مرة ثالثة ، فكان أبو نواس يجد لكل شىء من هذا جواباً ، فيرد الواعظ ردّاً حسناً فيه شىء من التهديد ، ويهجو من ينكر عليه فيشدد النكير ، ويكذب على من يشهر به ، حتى لقد نظم مرة شعراً اختلق فيه حديثاً رفعه إلى النبى ورواه عن أحد المحدثين المعاصرين ، ثم كتب هذا الشعر وبعث به إلى هذا المحدث المسكين وكان تقيّاً ورعاً . روى ابن عساکر أن صاحباً من أصحاب هذا المحدث دخل عليه فوجده يبكى ، فلما سأله عن ذلك قال للجارية : هات الرقعة ! ودفع الرقعة إلى صاحبه ، وهو يقول : انظر إلى الفاسق !! لقد كذب على النبى صلى الله عليه وسلم ، والله ما حدثته بهذا قط .

وكان أبو نواس وأصحابه على فسقهم ومجونهم يتدينون وقيمون الصلاة ، ولكنهم كانوا يعيشون فى هذا كما يعيشون فى غيره ، وربما قضوا الوقت الطويل عاكفين على الحمر ، ثم يذكرون الصلاة فيقيمونها . . .

ولعلمهم أقاموا الصلاة في مثل هذه الحال يوما ، وأمهم أحد الندماء ، فغلط وهو يقرأ « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » فاستحالت الصلاة من خشوع لله ، إلى استهزاء بهذا الإمام الجاهل ، فقال أبو نواس :

أَكْثَرَ يَحْيَى غَلَطًا فِي قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ
وقال العباس بن الأحنف :

قَامَ طَوِيلًا سَاهِيًا حَتَّى إِذَا أَعْيَا سَجَدَ
وقال الحسين الخليع :

يَزْحَرُ فِي مَحْرَابِهِ زَحِيرَ حُبْلَى بَوْلَدَ
وقال الرابع ولعله مسلم بن الوليد :

كَأَنَّمَا لِسَانُهُ شُدَّ بِحَبْلٍ مِنْ مَسَدٍ

ومثل هذا ما تحدث به الجاحظ : أن خمسة من الظرفاء ذهبوا إلى دير يبتغون الشرب والهو ، وإنهم لفي ذلك إذ قام أحدهم يصلى ، وأقبلت دلالة فأخذوا يسألونها عن أمرهم ، قالت : كم أتم ؟ قالوا : أربعة ! وأهملوا صاحبهم لأنه يصلى ، ولكن هذا صاحب لم يهمل نفسه فقال : سبحان الله !! وعرفت الدلالة أنهم خمسة . . .

كان هذا العصر إذن عصر شك في كل شيء ، وعصر مجون وإباحة وتهتك في الحياة العملية وفي القول أيضا ؛ ومن هنا نجد في هذا العصر شعرا كثيرا نستطيع أن نقرأه في الكتب ، دون أن نستطيع ترديده في الصحف ، بل في دار الكتب المصرية كتاب في أخبار أبي نواس ليس إلى نشره من سبيل ، لأن قوانينا لا تبيحه ، وليس إلى إصلاحه من سبيل لأن هذا الإصلاح يذهب بخير ما فيه .

على أننا نستطيع مع هذا أن نعطيك صورة واضحة من هذا العصر ، دون أن
نضطر إلى مثل هذا الفحش إذا روينا لك قصيدة من شعر أبي نواس ، ولم
نحذف منها إلا بيتا واحدا ليس إلى روايته من سبيل ، ولكننا نحب أن
نلاحظ أن الشاعر كان يستطيع أن يقول معنى هذا البيت في غير إثم ولا فحش ،
لولا أنه تعمد الإثم ، لأن الإثم والفحش كانا بدع بغداد في ذلك العصر :

دَعَّ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءُ وَدَاوِنِي بِأَلَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ
صَفْرَاءُ لَا تَنْزِلُ الْأَحْزَانُ سَاحَتَهَا لَوْ مَسَّهَا حَجَرٌ مَسَّتُهُ سَرَاءُ

قَامَتْ بِإِبْرِيْقِهَا وَاللَّيْلُ مُعْتَكِرُ فَلَاخَ مِنْ وَجْهَهَا فِي الْبَيْتِ لِأَلَاءِ
فَأَرْسَلَتْ مِنْ فَمِ الْإِبْرِيْقِ صَافِيَةً كَأَنَّمَا أَخَذَهَا بِالْعَيْنِ إِغْفَاءُ
رَقَّتْ عَنِ الْمَاءِ حَتَّى مَا يَلَأُمُهَا لَطَافَةً وَجَفَاءَ عَنْ شَكْلِهَا الْمَاءِ
فَلَوْ مَزَجْتَ بِهَا نُورًا لَمَازَجَهَا حَتَّى تَوَلَّدَ أَنْوَارُ وَأَضْوَاءُ
دَارَتْ عَلَى فِتْنَةٍ دَانَ الزَّمَانُ لَهُمْ فَمَا يُصِيبُهُمْ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَ
لِتِلْكَ أُنْبُكِي وَلَا أُنْبُكِي لِمَنْزِلَةٍ كَانَتْ تَحُلُّ بِهَا هِنْدٌ وَأَسْمَاءُ
حَاشَا (لِدُرَّةَ) أَنْ تُبْنَى الْخِيَامُ لَهَا وَأَنْ تَرْوَحَ عَلَيْهَا الْإِبِلُ وَالشَّاءُ
فَقُلْ لِمَنْ يَدْعِي فِي الْعِلْمِ فَلَسَفَةٌ حَفِظْتَ شَيْئًا وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ
لَا تَحْظُرِ الْعَفْوَانُ كُنْتُ أَمْرًا أَحْرَجًا فَإِنَّ حَظْرَكَهُ فِي الدِّينِ إِزْرَاءُ

فانظر إلى هذه القصيدة على قصرها ، كيف تمثل هذا العصر تمثيلا
صادقا ، فليس فيها لفظ واحد غريب ، وإنما ألفاظها كلها مألوفا تجري على
ألسنة الناس جميعا في أحاديثهم العادية ، وليس فيها معنى واحد بدوى ،

ولأنما معانيها كلها حضرية لا تخطر إلا لمن نشئوا في المدن وامتلات رءوسهم
بما يملأ رءوس أهل المدن من جدّ ولعب ، بل في هذه القصيدة بيت ينكر
كل العصر القديم وأساليبه الشعرية ، فهو يريد أن يبكي على الخمر لآعلى
الأطلال والدّمن :

لِتِلْكَ أُنْبُكِي وَلَا أُنْبُكِي لِمِنْزِلَةٍ كَانَتْ تَحُلُّ بِهَا هِنْدٌ وَأَسْمَاءُ
فإذا أردت أن تدرس هذه القصيدة درسا مفصلا ، رأيت هذه الإباحة
في البيت الذي لم نزوه ، ورأيت في آخر القصيدة بيتا يعتزّ بالدين نفسه في
نصر هذه الإباحة وتأبيدها ، فهو يريد أن يكون ماجنا فاسقا ، وأن يستمتع
بالذات على اختلافها دون أن يقنط من رحمة الله ، وهو ينكر على صديقه
« النظام » وأصحابه من المعتزلة تشددهم في أمر العفو والخطيئة والتوبة ، ويؤثر
مذهب أهل السنة الذين يفتحون باب العفو أمام المذنبين ، ذلك لأن شاعرنا
وأصحابه يريدون أن يفوزوا بالدنيا والآخرة ، وأن يلهوا في مستقبل الشباب حتى
إذا أدركهم الكبر تابوا واستغفروا وانتظروا عفو الله . وكان المعتزلة يغلّقون
على الناس هذا الباب ، فلا عجب إذا انصرف عنهم الشعراء وأهل المجون .
ويقال إن أبانواس لما حضره الموت اختلف إليه أصحابه ، فأخذوا
يعظونه ويلومونه على ما أنفق من عمره في طاعة الشيطان . وغلا بعضهم حتى
أيأسه من الآخرة ، فقال : اسندوني ! وتكلف النهوض ، وروى حديثا
يضمن له عفو الله .

وقد تحدث الرواة بعد موته أنه دخل الجنة ، لأن أحدهم رآه في المنام
فسأله عما فعل الله به ، فقال : غفر لي بأبيات قلتها ، وهذه الأبيات في الزهد

والندم قائلها في مرض موته ، وزعم الرواة أنها وجدت تحت وسادته ،
وسنعرض لها حين نعرض لزهد أبي نواس .

إلى جانب هذا كله نجد في هذه القصيدة معاني لا يمكن أن توجد ،
إلا في نفس من قرأ الفلسفة اليونانية وخالط المتكلمين والمتفلسفين ، فانظر
إلى قوله :

رَقَّتْ عَنِ الْمَاءِ حَتَّى مَائِلًا مُمُّهَا لَطَافَةً وَجَفَاءً عَنْ شَكْلِهَا الْمَاءِ
فهذا أسلوب « النظام » وغير النظام حين كانوا يتكلمون في الجزء الذي
لا يتجزأ ، وفي كثافة الأجسام ولطافتها ، وفيما بينها من ملاءمة ومباينة ،
وكذلك قوله « حتى تولد أنوار وأضواء » فلفظ التولد من ألفاظ المتكلمين
واصطلاحات المعتزلة بنوع خاص ، والبيت الأخير من هذه القصيدة :

لَا تَحْظُرِ الْعَفْوَانُ كُنْتُ أَمْرًا حَرَجًا فَإِنَّ حَظْرَكَ فِي الدِّينِ إِزْرَاءُ
ليس إلا وضعا لمذهبين كلاميين أحدهما بإزاء صاحبه : مذهب المعتزلة
ومذهب أهل السنة .

هذه القصيدة إذن تمثل الحياة الشعرية في بغداد أيام أبي نواس ، ولكنها
تمثلها تمثيلا مجملا ، فإذا أردت تفصيل هذه الحياة وأن تتخذ منها صورة بينة
تثبت ما قلناه من أن هذا العصر قد كان عصر شك وإباحة ، وجب أن تدرس
حياة الجماعات الأدبية في بغداد والبصرة وهي شيء يشبه « الصالونات الأدبية »
(Les Salons Littéraires) في فرنسا إبان القرن الثامن عشر ، وسنحدثك
عن هذا في الأسبوع الآتي ..

القدماء والمحدثون (١)

تطور الشعر في العصر العباسي -

الأندية الأدبية - الشك والمجون.

كان أمر العرب مع الفرس ، كأمر الرومان مع اليونان من وجوه كثيرة ، فقد سبق الفرس إلى الحضارة والنظام ، وأخذوا منهما بنصيب موفور ، قبل أن يخضعوا لسلطان الأمة العربية ، فلما جاء الإسلام ، وكان الفتح ، ومكن الله للعرب في بلاد الفرس ، كان الجهاد والتغالب بين الحضارة الفارسية ، والبداءة العربية ، بين اللين والخشونة ، بين الحياة المترفة المعقدة ، والحياة الساذجة الهينة .

لم يكن هذا الجهاد عنيفا حين كانت الحياة المادية موضوعه ، فكل الناس يؤثر اللين على الخشونة ، ويفضل النعمة على البؤس ، ويحرص على أن يستبدل الإثراء بالعدم ، وإنما كان الجهاد عنيفا بعض العنف حين كانت الحياة العقلية موضوعا له ، فاشتد النضال بين أنصار العادات العربية القديمة ، والسنن العربية الموروثة ، وأنصار العادات والسنن الفارسية . وكان القرن الأول للهجرة عصر هذا الجهاد ، ولكنه لم يكد ينقضى ، حتى ظهر انتصار الجديد ، وأخذ القديم ينهزم أمامه ، وينحصر في البلاد العربية الخالصة ، وأخذ سلطان الحضارة يسود بلاشريك ولا منازع ، في العراق والشام وغيرها

(١) نشرت بالسياسة في يوم الأربعاء ٢٣ جمادى الأولى سنة ١٣٤١ هـ ١٠ يناير ١٩٢٣ م .

من البلاد التي خضعت للعرب ، وكانت متحضرة قبل وصول العرب إليها ، وكذلك كانت حال الرومان بعد أن أخضعوا اليونان ، فقد فتح الرومان بلاد اليونان فتحاً سياسياً ، ولكن اليونان فتحوا روما فتحاً أدبياً ، كما قال الشاعر الروماني هوراس .

انتصرت الحضارة ، واشتدت فيها رغبة العرب من أهل المدن على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم الاجتماعية ، وكان هذا الانتصار عاماً ، تناول الحياة المادية والعقلية ، وتناول معهما حياة الشعور . ففكر العرب المحدثون بطريقة تخالف مخالفة شديدة تفكير العرب القدماء ، وعاشوا كذلك في دورهم وقصورهم عيشة تخالف عيشة آبائهم ، وظهرت عندهم العلوم وضروب الفلسفة ، وتغير لهذا كله حسهم وشعورهم ، فتغير لسان هذا الحس وهذا الشعور ، وهو الأدب ، ثراً كان أو شعراً .

وقد أشرنا في الفصل الماضي إلى أن أول العصر العباسي قد كان عصر شك واستهتار ، أنكر العقل العربي فيه قديمه ، ولم يشتد اطمئنانه إلى الجديد ، فلم يتخذ لنفسه قاعدة ثابتة في الحياة ، وإنما عاش من يوم إلى يوم ، فاحتمل الآلام كارها ، واستمتع بالذات ، راغباً فيها ، مستزيداً منها ، وكانت هذه الذات كثيرة مختلفة ، وكانت هذه الذات ميسرة له ، موفورة عليه ، فكانت هناك لذة الصلات الاجتماعية بين الرجل والمرأة ، ولم تكن هذه المرأة عريية ، وإنما كانت فارسية أو غير فارسية ، ولم يكن الوصول إليها عسيراً ، وإنما كان شيئاً سهلاً ميسوراً ، فقد كانت المرأة تباع وتشتري ، وكثيراً ما كانت تنال بالهبة والعطاء .

لم تكن هذه المرأة عربية ولم تكن بدوية، وإنما كانت أعجمية متحضرة،
قد بعد عهد أهلها وبلادها بالحضارة فرق طبعها وصفا مزاجها، وافتتت في
تلطيف الحياة وترفيهها، وفي اختراع ضروب اللهو، وصنوف النعيم، ولم
تكن جاهلة، وإنما كانت متعلمة، ومتعلمة تعلمًا متقنا، فقد وجدت في ذلك
الوقت تجارة واسعة عظيمة الإنتاج، وكان الرقيق موضوع هذه التجارة،
فكان يعلم أحسن تعليم، ويدرب أحسن تدريب على روع الحياة المختلفة،
ولم تكن هذه المرأة حرة، محتفظة بكرامتها الشخصية، حريصة على أن تكون
لها منزلة السيدة، وإنما كانت مبتذلة ممتنه، تباع وتشتري، كما يباع
المتاع ويشري.

وكان العرب مندفعين في هذا النوع من اللذة، يستمتعون به في غير
قصد ولا احتياط؛ وإلى جانب هذه اللذة كانت توجد اللذات الأخرى،
لذات الطعام، ولذات الشراب، ولذات الأثاث، ولذات اللباس؛ ثم كانت
توجد اللذات العقلية، كانت تترجم لهم آثار الفرس وآثار اليونان، فيقرءون
ويفهمون، ويتأثرون في حياتهم العملية بما يقرءون وما يفهمون، ولم يكن
من شأن هذه الآثار المترجمة أن تؤيد سلطان الحياة القديمة، أو ترغب فيها،
وإنما كانت تصرف عنها، وتنفر منها، وتملأ قلوب الناس لها بغضا، وعليها
سخطا، فلا جرم أثر هؤلاء المحدثون من العرب عيشة الفرس، وغير الفرس
وتفكيرهم، على عيشة العرب وتفكيرهم، ووُجد هؤلاء الشعراء والكتاب
والفلاسفة الذين كانوا يسخرون من كل قديم، ويحفلون بكل جديد، يجهرون
بذلك حينًا ويسرون حينًا آخر، يأمنون معه دهرًا، ويلقون في سبيله الموت من

وقت إلى وقت . وُجد «مطيع بن إياس» الذي كان لا يبالي أكان عفيفاً أم غير عفيف، ولا يبالي أكان حراً كريماً نقى العرض، أم ممتناً مبتذلاً مردول السيرة، ووُجد «حماد بن عمار» الذي لم يكن يحفل بدين ولا بدنيا، وإنما كان يأخذ اللذة حيث وجدها ، وينوءها ما استطاع إلى تنويعها سبيلاً ، والذي أسرف في المجون والتهتك، حتى لامه أبو حنيفة وشهر به ، فلم يجد حماد ردّاً على ذلك إلا هذه الأبيات المشهورة التي يتهم فيها أبا حنيفة بأنه حديث النسك ، وأنه كثيراً ما شاركه في الإثم والمعصية :

إِنْ كَانَ نُسُكَكَ لَا يَتِمُّ بِغَيْرِ شَتْمِي وَأَنْتِقَاصِي
فَاقْعُدْ وَقُمْ بِي حَيْثُ شِئْتُ مَعَ الْأَدَانِي وَالْأَقَاصِي
فَلَطَمًا زَكَيْتَنِي وَأَنَا الْمُقِيمُ عَلَى الْمَعَاصِي
أَيَّامَ نَأْخُذُهَا وَنُعْطِي فِي أَبَارِيقِ الرِّصَاصِ

ووُجد رفيقهما « يحيى بن زياد » الذي كان يقاسمهما حظهما من كل إثم في القول والعمل ، ثم أدركه الكبر، فتاب وأناب . وظهر «بشار» الذي كان يؤثر النار على الطين ، أي كان يميل إلى دين الفرس القديم ، ويزدري الإسلام ، والذي مهر في وصف الفسق والمجون ، حتى حبسه المهديّ ، وحتى شكاه منه ، إلى الخليفة ، أشرفُ الناس ، لأنه كان يفسد عليهم نساءهم . ووُجد « والبة بن الحُبَاب الأسدي » الذي عرضت منادمته على الرشيد، فأبى وأشفق، وأعلن إباءه وإشفاقه في ألفاظ لا تسمح بنشرها القوانين ولا الأخلاق ، ومصدر هذا الإباء والإشفاق شعر لوالبة، أعلن فيه بغيه وفجوره، إعلاناً خاف الرشيد عاقبته على نفسه، فيما ذكر الرواة ، وكان الرشيد مازحاً من غير شك ،

ولكنه كان يجلسه عن مثل هذا الشاعر ، الذي لا يستر فسقه . وكان أبو نواس تلميذاً لوالبة بن الحباب هذا ، وعنه أخذ الفسق العملى واللفظى ، بل قل : إنه أخذ عنه الإباحة بأشنع معانيها .

ولقد وجدت بعد هذه الطبقة التى ذكرنا بعض أسمائها طبقة أخرى كانت أشد منها مجونا ، وأكثر منها فجوراً ، وأقل منها حرصاً على الاستتار ؛ وكان « أبو نواس » من زعماء هذه الطبقة ، وكان معه « الرقاشى » « والعباس ابن الأحنف » « ومسلم بن الوليد » « والحسين الخليل » وغيرهم من الشعراء ، كان هؤلاء الناس لا يستترون فى معصية ، ولا يكفون عن فاحشة ، وكانوا يتنقلون بمعاصيهم وآثامهم بين بغداد والكرخ والبصرة والكوفة والرقعة ، كانوا يأخذون اللذة حيث وجدوها ، فإذا أخذوها لم يتركوها حتى تتركهم ، وكانوا لا يخشون فى ذلك خُلُقاً ولا ديناً ، وربما أصابهم من وقت إلى وقت غضب الخليفة ، فاستتروا حيناً ، أو اضطروا إلى السجن ، حتى ينالهم العفو ، فما هى إلا أن يستأنفوا سيرتهم الأولى . ومن هذا قصة منتحلة - فيما أعتقد - ولكن لها قيمتها التاريخية لأنها تمثل رأى هذه الطبقة فى الخلفاء .

رُوى عن أبى نواس أنه قال : لما حبسنى الأمين رأيت بشاراً فى المنام ، فقال لى : بماذا حبسك هذا الغلام ؟ يعنى الأمين ، قلت : بقولى :

أَلَا فَاسَقْنِي حَمْرًا وَقُلْ لِي هِيَ الْخَمْرُ وَلَا تَسْقِنِي سِرًّا إِذَا أَمَكْنَ الْجَهْرُ
فَقَالَ : أَوْ يَحْظُرُ عَلَيْكَ شَيْئًا وَهُوَ يَجَاهِرُ بِهِ ؟ هَلَا بَدَأَ بِنَفْسِهِ ، لعن الله من

نقل إليهم الملك ! فقلت : فبماذا حبسك جده المهدي ؟ قال بقولى :

قَاسِ الْهُمُومَ تَنَلْ بِهَا نُجُحًا وَاللَّيْلَ إِنَّ وَرَاءَهُ صُبْحًا

عُسْرُ النِّسَاءِ إِلَى مُيَاسَرَةٍ وَالصَّعْبُ يَسْلُسُ بَعْدَ مَا جَمَحَا

قلت : فبِمِ افْرَجْ عَنْكَ ؟ قَالَ يَقُولِي :

يَا مَنْظَرًا حَسَنًا رَأَيْتُهُ
وَمُخَضَّبٍ رَخِصِ الْبِنَا
بَعَثْتَ إِلَيَّ تَسْوُمِي
وَاللَّهِ رَبِّ سَرِيرَتِي
أَعْرَضْتُ عَنْكَ وَرُبَّمَا
إِنَّ الْخَلِيفَةَ قَدْ أَبَى
وَنَهَانِي الْمَلِكُ الْهُمَا
لَا بَلَّ وَفَيْتُ وَلَمْ أُضِعْ

وبقولي أيضاً :

وَاللَّهِ لَوْ لَا رِضَا الْخَلِيفَةِ مَا اخْتَمَلْتُ ضِيَاءَ عَلَى فِي شَجْوِي
قَدْ عَشْتُ بَيْنَ الرَّيْحَانِ وَالرَّاحِ وَالْمَرْ
ثُمَّ نَهَانِي الْمَهْدِي فَأَنْصَرَفْتُ
نَفْسِي صَنِيعَ الْمُوَفَّقِ اللَّقْنِ

فانتبهت وقد حفظت الأبيات ، وبشار ألقى فقلت :

أَعَادِلَ أَعْتَبْتُ الْإِمَامَ وَأَعْتَبَا
وَأَعْرَبْتُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ وَأَعْرَبَا
وَقُلْتُ لِسَاقِيهَا أَجْزُهَا فَلَمْ أَكُنْ
لِيَأْبَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَشْرَبَا

وقلت أيضاً :

أَطْعِ الْخَلِيفَةَ وَأَعْصِ ذَا عَرْفٍ وَتَنَحَّ عَنْ طَرْبٍ وَعَنْ قَصْفٍ

فصارت هذه الأبيات إحدى منجياتي ، وكان الشيخ بشار سببها !!

ولا تنس أن الأمين الذي حبس أبا نواس كان ينادمه ، وكانت أبو نواس به كلفا . ويقال إن الرشيد كان قد كلف الكسائي تأديب الأمين ، وكان أبو نواس صديقا للكسائي ، فقال له أبو نواس يوما : أحب أن أقبل الأمين !! فجزع الكسائي لذلك ، وأشفق منه ، وألح فيه أبو نواس ، ولم يكتف بالألحاح ، بل أئذروا صنع هذين البيتين ، وأظهر أنه سيرفعهما إلى الرشيد ، وهما :

قُلْ لِلْإِمَامِ جَزَاءُ اللَّهِ صَالِحَةً لَا يَجْمَعُ الدَّهْرُ بَيْنَ السَّخْلِ وَالذِّيبِ
السَّخْلُ غَرٌّ وَهُمْ الذِّيبُ غَفْلَتُهُ وَالذِّيبُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّخْلِ مِنْ طِيبِ
فاشدد جزع الكسائي ، واحتال لأبي نواس ، فقال له : أطل الغيبة ، ثم أقبل كأنك قادم من سفر ، فأعانقك ، ويعانقك الأمين فتقبله !! ففعل أبو نواس ، ثم خرج ، فقال في ذلك شعرا .

فهذا القليل الذي رويته لك ، والذي ليس هو شيئا يذكر بالقياس إلى ما تستطيع أن تقرأه في كتب الأدب المختلفة ، يبين لك إلى أي حد وصل هؤلاء الناس في هذا العصر من المجون والتهتك والاندفاع في الحرية ، والاستمتاع باللذة ، ولا يزرهم عن ذلك حياء ولا دين .

خسرت الأخلاق من هذا التطور ، ورجح الأدب ، فلم يعرف العرب عصرا أكثر فيه المجون وأتقن الشعراء التصرف في فنونه وألوانه ، كهذا العصر . . . ثم كان من كثرة المجون ، أو بعبارة أصح ، كان من فساد الخلق في ذلك العصر والعصور التي وليته ، أن ظهر فن جديد من الغزل لم يكن معروفا في الجاهلية ، ولا في صدر الإسلام ، ولا في أيام بني أمية ، وإنما هو أثر

من آثار الحضارة العباسية ، هو أثر أنشأته هذه الحضارة الفارسية عند ما خالطت العرب ، أو عند ما انتقل العرب إليها ، فاستقر سلطانهم في بغداد ، وهذا الفن الجديد هو « الغزل بالغلمان » الذي سنحدثك عن خصائصه في غير هذا الفصل .

وإنما الذي يعيننا الآن أن نلاحظه ، أن هؤلاء الناس ، الذين وصفنا لك ما وصلوا إليه من شك في كل شيء ، وعبث بكل شيء ، وإسراف في المجون واللهو ، كانوا يجتمعون ، ويجتمعون كثيراً أكثر مما كان يجتمع أسلافهم ، وكانت اجتماعاتهم ناعمة غضة ، فيها اللهو ، وفيها الترف ، كانوا لا يجتمعون إلا على لذة ، إلا على كأس تدار ، أو إثم يقترب ، وكانت اللذة والآثام حديثهم إذا اجتمعوا ، يتحدثون فيها شعرا ونثرا ، وكان الدين واللغة والفلسفة حديثهم أيضا ، ولم تكن اجتماعاتهم تخلو دائما من النساء ، فقد كان الإماء الطريقات يأخذن منها بنصيب عظيم ، وكانوا يجتمعون في الحانات والأديرة ، وفي بيوت الأمراء والوزراء وفي بيوتهم الخاصة ، فيلذون ويتحدثون .

فأنت تستطيع أن تتنبأ بمقدار ما كان لأحاديثهم هذه من أثر عظيم في الأدب العربي والعقل العربي ، كانت هذه الأحاديث عذبة غير متكلفة ، ولا ثقيلة الروح ، كانت تصدر عنهم عفواً ، فتمثل عقولهم وشعورهم ، وقوة حرصهم على الذات ، وشدة شغفهم بالجديد أحسن تمثيل ، ولكننا لم نحدثك بعد عن هذه الأندية الغريبة ، وإنما وصلنا بك إلى باب من أبوابها ، فلننتظر اليوم ، لنستمع إليهم في الأسبوع الآتي .

القدماء والمحدثون^(١)

تطور الشعر في العصر العباسي —
الأندية الأدبية — الألفاظ والمعاني.

انتهى بنا الحديث في الأسبوع الماضي إلى الأندية الأدبية، التي كان لها أيام بني العباس أثر في الأدب لا يحصى، ويد على الشعر لن ينالها النسيان. لم تكن هذه الأندية تجتمع في أماكن معينة، أو منازل معروفة، وإنما كانت تجتمع حيث يتاح لها الاجتماع، كانت تنقل بأدبها وعلمها، وبجدّها وهزلها بين مدن العراق المختلفة، وبين ما كان في هذه المدن وضواحيها من الحدائق والبساتين ومن الأديرة والمساجد ومن الحانات وبيوت الإثم، وكانت تجتمع بنوع خاص في قصور الخلفاء والوزراء والقادة وكبار الدولة، وكانت تتألف من هؤلاء الناس الذين سمينا لك بعضهم في الأحاديث الماضية، وكان هؤلاء الناس الممتازون بالشك في كل شيء، والعبث بكل شيء، يلقون في مجالس الخلفاء والوزراء وفي المساجد طبقات أخرى من الناس لا تشك ولا تعبث ولا تتعاطى الجون، كانوا يلقون الفقهاء والمحدثين، وكانوا يلقون المتكلمين والرواة وعلماء اللغة، فكانت أحاديثهم في هذه المجالس متأثرة بجدهؤلاء العلماء، وبمهاجرة الأمراء والوزراء، فكانوا قلمًا يتجاوزون جدال القول إلى هزله، وقلمًا يمعنون فيما كانوا يمعنون فيه إذا خلوا إلى أنفسهم من

(١) نشرت بالسياسة في ٣ جادى الأولى سنة ١٣٤١ — ١٧ يناير سنة ١٩٢٣

الفحش الذي لاحد له ، والمجون الذي لا يعدله مجون ؛ كانوا في هذه المجالس يتناولون جد الحياة فيحسنون فيه ، فتراهم يروون الشعر ، وينقدون الشعراء ، ويتحدثون بطرائف الحديث وغرائبه ، ويتناولون الخلفاء والأمراء والوزراء بالمدح وضروب الشناء ، فيخرجون وقد امتلأت أيديهم بخيرات الدنيا ، فإذا خرجوا ذهبوا بما كسبوا من العطاء إلى حيث ينفقونه في اللهو واللعب ، وفي اللذة والفسوق .

فأنت ترى أن الإنصاف ، وحسن الوفاء للتاريخ يضطرانا إلى أن نعترف بأن الشك والمجون لم يكونا كل شيء في ذلك العصر ، وإنما كان إلى جانب الشك يقين ، وإلى جانب الهزل جد . كان الشعراء والكتاب والأدباء بوجه عام يشكّون ويعبثون ، وكان الفقهاء والمتكلمون والرواة مستيقنين ، يؤثرون الجد ويغلون فيه .

ولكن إذا أردت أن تتخذ من هذا العصر صورة صادقة ، تحكم بها عليه حكما صادقا ، فأنت مضطر إلى أن ترجع إلى هؤلاء الشعراء والكتاب ، أكثر من رجوعك إلى هؤلاء الفقهاء والمتكلمين والرواة ، لأن الشعراء والكتاب يمثلون الجماعة حقا ، ويعبرون عن أهوائها وميولها ، ويصفون ما تضرب فيه من ضروب الحياة ، أفطن أن شاعرا كأبي نواس يبلغ ما بلغ من الشهرة حتى يُفتنَ به الناس في بغداد ، وغيرها من مدن العراق ، بل في الشام ومصر حين ذهب إلى الشام ومصر ، فيحفظون شعره ويتناشدونه ، ثم يضيفون إليه كل ما أعجبهم من شعر فيه هزل ومجون وليس له قائل معروف ، ثم لا يكتفون بذلك ، بل يروون عنه الروايات ، ويتحلون له القصص ، ويتحدثون

عنه في اللعب واللهو بالأعاجيب ، أفتظن أن الناس يتخذون أبا نواس مثلاً
للذة ونعيم الحياة ، فيكافون به هذا الكلف إذا لم يكن أبونواس لسانهم
الصادق، ومرآتهم الصافية ؟ كلا ! ليس من شك في أن صلة حقيقية قوية
كانت تصل بين هؤلاء الشعراء ، وبين طبقات الناس المختلفة ، وتجعل
هؤلاء الشعراء تراجمة صادقين ، لما يخطر لهذه الطبقات من خواطر ،
وما يضطرب في نفوسها من عواطف ، حينما كان الفقهاء والمتكلمون ورواة
الحديث والأخبار عاكفين على الفقه يستنبطونه ، وعلى الكلام يحصونه ،
وعلى الحديث يروونه ، وعلى الأخبار يتلقطونها ويديعونها بين الناس ، وكانوا
في هذا كله لا ينطقون بلسان أحد ، ولا يعبرون عن رأي أحد ، ولا يمثلون إلا
العلم الذي يعنون به ، ويعكفون عليه .

بل ربما وجب علينا أن نشك بعض الشك ، ونحتاط بعض الحيطه ،
حين نذكر ورع هؤلاء العلماء وإمعانهم في البر والتقوى ، فقد كان منهم
الأبرار والأتقياء حقاً ، ولكن كان منهم أيضاً الذين يحبون الحياة ويتذوقون
لذاتها ، ويظهرون للناس براً وديناً من وراءهما شيء كثير !!

ولعلك تذكر ما يروى من أخبار « يحيى بن أكثم » الذي كان قاضي
المأمون ونديمه ، ولعلك تذكر ما يروى من أخبار « أبي عبيدة معمر بن المثنى » ،
وما كان بينه وبين الشعراء ، بل لعلك تذكر ما يروى من أخبار الخلفاء
أنفسهم ، وما كانوا يعنون فيه من لهو ولعب ، دون أن يمنعهم ذلك من أن
يظهروا مظهر الأئمة الأتقياء . ولقد آن لنا ألا نخدع أنفسنا بما كان يخدع
به ابن خلدون نفسه في أمر الرشيد وأمثال الرشيد ، فقد تحدثوا أن الرشيد

كان يصلى فى كل يوم مائة ركعة ، وأنه أمضى خلافته بين الحج والغزو ،
فظن ابن خلدون أن هذا وحده يكفى لتبرئة الرشيد مما أضيف إليه من
أنه كان يلهو ويسكر . وكذلك ذكروا عن المأمون خلالا تقية ، وخصالا
طاهرة ، ربما صحت كلها ، ولكنها لم تمنع المأمون من أن يلهو ويشرب الخمر .
كان هذا العصر عصر شك ومجون ، وكان عصر رياء ونفاق ، فكان
لكثير من الناس مظهران مختلفان : أحدهما للعامة والجمهور ، وهو مظهر
الجد والتقوى ، والآخر للخاصة ولأنفسهم ، وهو مظهر اللهو والمجون ،
الذى يُخلع فيه العذار ، وتترك فيه للشهوات حريتها المطلقة !

وإذن فقد كان هؤلاء الشعراء الذين كانوا يجهرون بالشك ، ويعلمون
المجون أصدق لهجة وأصح تمثيلا للعصر الذى كانوا يعيشون فيه من العلماء
والخلفاء والوزراء وكبار الدولة ، وليس هذا مقصورا على العرب ، ولا على
العباسيين ، ولا على بغداد ، فقد عرفه اليونان والرومان والأوربيون ، وعرفته
أثينا وروما وباريس ، ومالنا نطيل فى هذا ، ويكفى أن تقرأ عصر بريكليس
وأغسطس ، ولويس الرابع عشر ، لتفهم عصر الرشيد والأمين والمأمون .

كان هؤلاء الشعراء إذن يمثلون عصرهم تمثيلا صحيحا ، فلنا أن نتخذهم
مقياسا للحكم على هذا العصر . ولكن تغير الحياة أيام بنى العباس لم يحدث
الشك والمجون وحدهما ، ولم يغير الشعر من هذه الناحية فحسب ، وإنما أحدث
شيئا آخر ، وغير الشعر من ناحية أخرى : أحدث سهولة فى التعبير عما فى
النفس لأنه أطلق للعواطف والأهواء حريتها ، فانطلقت الألسنة بوصف
هذه العواطف والأهواء ضعف رقيب الدين والأخلاق على الحياة ، وضعف

رقيب السلطان السياسى أيضا ، ففكر الناس كما أحبوا ، وعاشوا كما أحبوا ،
تاركين السياسة لأهل السياسة ، وتركتم السياسة أحراراً ، واستفادت من
هذه الحرية ، فبينما كانوا يلهون ويلعبون ، وبينما كانوا يعبثون ويسرفون فى
الهزل ، كانت السياسة تقوى سلطانها ، وتبسط ظلها على جميع الأقاليم الإسلامية .
أصبحت العواطف حرة ، فأصبحت الألسنة حرة ، ونشأ من حرية
العواطف تنافس فى اللذة ، واستباق إليها ، فنشأ من هذا التنافس فى اللذة
العملية ، تنافس فى وصفها ، واستباق إلى إجادة هذا الوصف ، وكان هؤلاء
الشعراء إذا اجتمعوا إلى لذة تنافسوا أيهم يسبق صاحبه فى الشرب وغير
الشرب ، ثم يتنافسون أيهم يسبق صاحبه فى وصف الشرب وغير الشرب ،
ومن هنا كثر الافتنان فى اللذات ، وكثر معه الافتنان فى القول .

ثم تغيرت ألفاظ الشعر لهذا السبب نفسه ، فإن العاطفة التى أصبحت
تستطيع أن تحيا من غير جناح ولا رقيب ، أصبحت تستطيع أن تصف
نفسها من غير تكلف ولا تقيد بالقديم ، وإذا كان الشاعر يستطيع أن يشرب
جهرًا دون أن يستخفى من الشرطة ، فماله لا يصف الخمر كما يحب دون أن
يخشى سطوة الأصمعى أو أبى عبيدة !!

نشأ عن هذا كله أن اشتد توقد الأذهان عند الشعراء ، وأصبح قول الشعر
أيسر وأسهل فى هذا العصر منه فى العصور الأخرى ، وكانت النتيجة الشعرية
لهذا القرن الثانى من الهجرة أضخم وأعظم منها لغيره من العصور الماضية ،
كان هؤلاء الناس إذا اجتمعوا تحدثوا أو كادوا يتحدثون شعرا لا نثرا ،
وكثيرا ما كانوا يوفقون إلى القول البديع ، والشعر الطريف ، وكثيرا

ما كانوا يسقطون إلى سخيـف اللفظ ومتكلفه . وإلى ردىء المعنى وفاتره ، ولم يكن ذلك يؤذيهم أو ينال منهم ، فهم كانوا لا يُعنون فى هذه المجالس بإجادة أو إتقان ، وإنما كانوا يعنون بوصف شعورهم وعواطفهم من جهة ، وبالتفوق والغلب من جهة أخرى .

فانظر إلى هذه الجماعة من الشعراء ، وقد اجتمعت مرة تتناشد وتتحدث ، حتى إذا كان الظهر سأل واحد منها : أين نحن العشيّة ؟ فأخذ كل واحد يدعو الجماعة إلى بيته ، وعرض عليهم أبو نواس أن تكون هذه الدعوة شعرا لا نثرا ، وأن تذهب الجماعة إلى أشد الشعراء إجادة ، وأحسنهم كلاما ، فقال داود بن رزين الواسطى :

قُومُوا لِمَنْزِلِ هَؤُلَاءِ	وَضَلَّ يَتِّ كَنِينِ
فِيهِ مِنَ الْوَرْدِ وَالزَّرِّ	جِسِّ وَالْيَاسَمِينِ
وَرِيحِ مِسْكِ ذِكِّيٍّ	وَفَأْمِحِ الْمَرْزَجُونِ
وَقَيْنَةِ ذَاتِ غُنَجِ	وَذَاتِ عَقْلِ رَصِينِ
تَشْدُو بِكُلِّ طَرِيفٍ	مِنْ مُحْكَمِ «ابْنِ رَزِينِ»

وقال أبو نواس :

لَا ، بَلْ إِلَى ثِقَاتِي	قُومُوا بِنَا حَيَاتِي
قُومُوا نَلَذَّ جَمِيعًا	بِقَوْلِ هَاكَ وَهَاتِي

... ..

... ..

فَنَاوِرُوهُ مُجْبُونًا فِي وَقْتِ كُلِّ صَلَاةٍ

وقال الخليع :

إِلَى «الْخَلِيعِ» فَقُومُوا
إِلَى شَرَابٍ لَذِيذٍ
وَنَيْلٍ أَحْوَى رَخِيمٍ
فِي رَوْضَةٍ جَادَهَا صَوْ
قُومُوا تَنَالُوا وَشَيْكًا
إِلَى شَرَابِ الْخَلِيعِ
وَأَكْلِ جَذْيِ رَضِيعٍ
بِالْخَنْدَرِيسِ صَرِيعٍ
بُ غَادِيَاتِ الرَّيِّيعِ
مَنَالِ كُلِّ رَفِيعِ

وقال الرقاشي :

لِلَّهِ دَرْءٌ عُقَّارٍ
عَذْرَاءُ ذَاتِ احْمِرَارٍ
قُومُوا نَدَامَايَ رَوْوَا
وَنَاطِحُ جُونِي بِكَأْسٍ
فَإِنْ نَكَلْتُ فَحِلٌّ
حَلَّتْ بَيْتِ «الرَّقَاشِي»
إِنِّي بِهَا لَا أَحْشِي
مُشَاشَكُمْ وَمُشَاشِي
نِطَاحِ سُودِ الْكِبَاشِ
لَكُمْ دَمِي وَمُشَاشِي

وقال عمرو والوراق :

عُوجُوا إِلَى بَيْتِ «عَمْرٍو»
وَنَاشِجَاتِ عَلَيْنَا
فَهَاكَ أَحْلَى وَأَشْهَى
هَذَا، وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ
إِلَى سَمَاعٍ وَخَمْرِ
تُطَاعُ فِي كُلِّ أَمْرٍ
مِنْ صَيْدٍ بَازٍ وَصَفْرِ
أُولَى وَلَا وَفْتٍ عَصْرِ

وقال الحسين الحياط :

قَصَّتْ عِنَانٌ عَلَيْنَا
وَأَنْ تَمَرَّ لَدَيْهِ
بِأَنْ تَزُورَ «حُسَيْنَا»
بِاللَّهِوِ وَالْقَصْفِ عَيْنَا

فَمَارَأَيْنَا كَظَرَفِ «الْحَسَنِ» فِيمَا رَأَيْنَا
قَدْ قَرَّبَ اللَّهُ زَيْنًا مِنْهُ وَبَاعَدَ شَيْنًا

وقالت عنان :

مَهْلًا أَفْذِيكَ مَهْلًا «عِنَانُ» أُخْرَى وَأَوَّلَى
بَانَ تَنَالَ لَدَيْهَا أَشْهَى النَّعِيمِ وَأَحْلَى
فَإِنَّ عِنْدِي حَرَامًا مِنْ الشَّرَابِ وَحِلًّا
لَا تَطْمَعُوا فِي سِوَايَ مِنَ الْبَرِيَّةِ كَلَّا
يَا إِخْوَتِي خَبِّرُونِي أَجَازَ حُكْمِي أَمْ لَا ؟!

ومضى كل واحد يقول كلاما كهذا ، فيه ترغيب ، وفيه حث على اللذة ،
وفيه تفضيل لما عنده ، يقول ذلك كما قاله أصحابه في لفظ سهل رشيق غير
متكلف ، بل غير مَعْنَى به ، حتى يسقط في الخطأ اللفظي ، أو في الضرورة ،
فرأى أبو نواس أن القوم قد استبقوا ، فلم يسبق أحد صاحبه ، فاقترح ألا
يذهبوا إلى بيت أحد ، بل إلى حانة ، فقال :

أَلَا قُومُوا إِلَى الْكَرْنِخِ إِلَى مَنْزِلِ خَمَّارٍ
إِلَى صَهْبَاءٍ كَالْمِسْكِ إِلَى جُودَةِ عَطَّارٍ
وَبُسْتَانٍ بِهِ نَخْلٌ لَهُ زَهْرٌ بِأَشْجَارٍ
فَإِنْ أَحْبَبْتُمْ لَهُوًّا أَتَيْنَاكُمْ بِمِزْمَارٍ

أتريد أحسن من هذا الشعر دلالة على ما كان يمتاز به هذا العصر في
حياته المعنوية والمادية ، بل في تصوره وشعوره ، وتعبيره عن هذا التصور
والشعور ! عواطف حرة يصفها كلام حر ، ومعان سهلة مألوفة لم يبحث

عنها صاحبها ، ولم يطل البحث ، وإنما وجدها في نفسه ، فأظهرها في لفظ لم يتكلف تخيره ولا نظمه ولا تنسيقه .

فأنت ترى أن هذا العصر إنما كان يمتاز في حياته الأدبية بخلال أربع :

الشك ، والمجون ، وحرية العواطف ، وسهولة اللفظ .

وإذا أردنا مثلاً يختصر هذا العصر ويشخصه ، فهذا المثال هو أبو نواس ،

الذي سنتخذ درسه الخاص سبيلاً إلى درس هذا العصر كله .

القدماء والمحدثون^(١)

أبونواس

أنكر بعض الناس علينا وعلى السياسة حديث الأربعاء ، وألحوا في الإنكار ، وكتبوا في الصحف يعلنون إنكارهم ، ويطلبون إلينا وإلى السياسة أن نصلح هذا الحديث ، ونعدل به عن الشر إلى الخير ، وعن الهزل إلى الجد ، وزعموا أن ما نرويه في هذا الحديث من شك الشعراء حيناً ، ومجونهم حيناً آخر ، مفسد لأخلاق الشباب ، مدنس لقلوبهم الطاهرة ، وتجاوزوا هذا إلى أكثر منه ، فزعموا أنا متكلفون مخطئون ، حين نصف القرن الثانى للهجرة بأنه كان عصر شك ومجون ، وأن الناس كانوا فيه أحراراً ، لا يكادون يأخذون أنفسهم فى اللهو بخلق أو دين ، زعموا أننا مخطئون ، وأنا قد اتخذنا طائفة من الشعراء الماجنين ليس لهم وزن ، فجعلناهم مقياساً للعصر الذى عاشوا فيه ، وأعرضنا عن العلماء والفقهاء وأهل الجد وأصحاب الحديث ، قالوا وليس هذا من الإنصاف فى شيء .

كتبوا هذا كله ، وتجاوزوه إلى شتم نعرض عنه ، ونشكره لكتابيه ، ولعل حديث الأربعاء الماضى يغنينا عن الرد على هؤلاء الكاتبين ، من بعض الوجوه ، فقد بينا فى ذلك الحديث أن هؤلاء الشعراء كانوا يمثلون عصرهم حقاً ، وكانوا أشد له تمثيلاً ، وأصدق لحياته تصويراً ، من الفقهاء والمحدثين

(١) نشرت فى ٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٤١ هـ ٢٤ يناير سنة ١٩٢٣ م

وأصحاب الكلام ، وأن هؤلاء العلماء على ارتفاع أقدارهم العلمية ، ومنازلهم الاجتماعية والسياسية ، وعلى أن كثيراً منهم كان ورعاً مخلصاً طيب السيرة ، لم يأمّنوا أن يكون من بينهم من شك كما شك الشعراء ، ولها كما لها الشعراء ، واستمتع بلذات الحياة في سره ، كما استمتع بها الشعراء في جهرهم .

فلسنا إذن في حاجة إلى إعادة هذا الحديث والخوض فيه ، وإنما نلفت ساداتنا المشفقين على أخلاق الشباب وطهارته ، إلى أنهم ليسوا أشد منا إشفاقاً على هذا الشباب ، أن يسوء خلقه ، أو يفسد قلبه ، ولكننا لسنا نرى رأيهم في هذا التحرج ، ولسنا نحب أن يكون شبابنا من الجهل والغفلة والضعف بحيث نخشى عليه بيتاً من الشعر ، ليس حظه من المجون والفتنة شيئاً يذكر ، فنحن نخير لهذا الشباب من هذا الشعر الدنس أقله من الإثم حظاً ، وأنزروه من الفجور نصيباً ، ولسنا نروى لك ما يسمع وما لا يسمع ، ولسنا نحدثهم بما يقال وما لا يقال ، وإنما ننظر في هذا كله إلى الذوق والمنفعة جميعاً ، وأين يقع مانرويه وما نتحدث به مما يقرأ الشبان ويسمعون ويرون من آداب الفرنجة وأحاديثهم ، وفي ملاعبهم وملاهيهم ؟ !

ولو أن مانرويه وما نتحدث به هو الخطر الوحيد ، الذي نخشاه على أخلاق الشبان ، لكننا أسرع الناس إلى إجماله ، ولتحدثنا إلى قرائنا في الزهد والتقوى ، وفي الطاعة والنسك ، ولكن نخشى على الأخلاق أخطاراً أعظم وأسوأ وقعاً من هذا الحديث البريء ، الذي ننشره كل أسبوع . وهل يجب سادتنا أن يجهل الناس بشاراً وأبانواس والرشيد والأمين ؟ أم هل يحبون أن نعطيهم من هذا العصر صورة كاذبة كلها جيد ، حين كان حظ هذا العصر

من الهزل عظيما؟ على أن هؤلاء السادة الذين يتحرّجون ويعتصمون بالدين ،
يضيّقون على الناس ما وسع الدين ، ويعسرون وقد أمرهم الدين أن ييسروا .
ونستطيع أن نؤكد لهم أن السلف الصالح من المسلمين ، كان أشدّ
منهم بالله إيمانا ، وأكثر منهم لله طاعة ، وكان في الوقت نفسه أرحب منهم
صدرا ، وأشدّ احتمالا ، فكان يسمع للجبد ، وكان يسمع للهزل ، بل كان يجدّ
وكان يهزل وإن أخلاقنا العامة وعاداتنا لتمنعنا أن ننشر للناس ما أنشد
عبد الله بن عباس في المسجد الحرام ، وقد سئل عن الشعر «أينقض الوضوء»؟
وإن أخلاقنا وعاداتنا لتمنعنا أن ننشر للناس ما أنشد عبد الله بن الزبير حين
لقى الفرزدق بالمسجد الحرام أيضا ، وكان عبد الله خليفة ، وكانت الثّوار زوج
الفرزدق قد شكت إليه زوجها ، بل إن أخلاقنا وعاداتنا تمنعنا أن ننشر
للناس بيتا قاله حسان ، يهجو به هنداً زوج أبي سفيان ، فلما سمعه النبي صلى
الله عليه وسلم أعجب به ، وقال لشاعره فيما ذكر الرواة : قل وروح
القدس معك .

نعم ! تمنعنا الأخلاق أن ننشر هذا الآن ، لأن العصر قد تبدل ،
وقد تطورت نظم الحياة ، ولكن هناك أشياء نستطيع نشرها دون أن نجنى
على الأخلاق ، أو نعرضها للخطر ، ونحن نستأذن هؤلاء السادة في أن نرغب
في ألا تكون حياتنا خلا ، وإنما نريد ألاّ تخلو من الفكاهة واللذة ، ولقد
قال بعض الشعراء يمازح فقيها من فقهاء هذا العصر الأول :

سَأَلْتُ الْفَتَى الْمَكِّيَّ ذَا الْعِلْمِ مَا الَّذِي يَحِلُّ مِنَ التَّقْبِيلِ فِي رَمَضَانَ ؟
فَقَالَ لِي الْمَكِّيُّ : أَمَّا لِزَوْجَةٍ فَسَبْعٌ ، وَأَمَّا خَلَّةٌ فَثَمَانٍ !

وقال شاعر آخر في مثل هذا المعنى :

سَأَلْتُ الْفَتَى الْمَكِّيَّ هَلْ فِي تَعَانُقٍ وَصَمَّةٍ مُشْتَقٍ الْفُؤَادِ جُنَاحُ ؟
فَقَالَ : مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يُذْهَبَ الثَّقَى تَلَاصُقُ أَكْبَادُ بَيْنَ جِرَاحُ !
ومثل هذا كثير كان يرويه العلماء والفقهاء ويعجبون به ، ويرتاحون له ،

وكان سفيان الثوري يقول : إن أبا نواس أشعر الناس لقوله :

يَا قَرَأَ أَبْصَرْتُ فِي مَأْتَمٍ يَنْدُبُ شَجَوًّا بَيْنَ أَتْرَابِ
يَبْكِي فَيَذَرِي الدُّرَّ مِنْ نَرْجِسٍ وَيَلْطِمُ الْوَرْدَ بَعْنَابِ



وقد أنتهى بنا الحديث إلى أبي نواس ، وأنا أريد أن أحدثك عن أبي نواس ، ولست أذكر لك أنه ولد سنة ١٤١ هـ ، ومات سنة ١٩٩ هـ ، فأنت تعلم ذلك ، وتستطيع أن تجد في أي كتاب من كتب الأدب ، ولست أصف لك نشأته الأولى ، ففيها غموض كثير ، وفيها اختلاف واضطراب ، وربما كان من الحق على ألا أنشر لك ما تحدث الناس به من شباب أبي نواس ، ففيه شيء من الإثم كثير ، قد يغضب ساداتنا المتحرجين ، وهو في الوقت نفسه يخالف أخلاقنا وذوقنا العام .

لا أحدثك إذن عن نشأة أبي نواس ، بل لا أريد أن أحدثك في هذا المكان عن سيرة أبي نواس وحياته ، فإن ذلك يحتاج من البحث والتحقيق العلميين إلى ما لا تحتمله الصحف السيارة ، ولكني قلت ، إن أبا نواس كان مثالا صادقا للعصر الذي عاش فيه ، وإن هذا العصر كان يمتاز بالشك

والمجون وإيثار اللذة ، وقلت في حديث آخر ، إن شعراء هذا العصر وأدباءه كانوا قد اتخذوا لأنفسهم قاعدة ، هي أن يستمتعوا بلذات الحياة ما استطاعوا ، فإذا أدركهم الشيب والضعف لجئوا إلى عفو الله ، ولاذوا به ، ولهذا كان أبو نواس يكره المعتزلة ، وينكر على النظام رأيه في الخطيئة والتوبة .

قلت هذا كله ، وأريد في هذا الفصل أن أثبت لك أن أبا نواس لم يكن قليل الخطر ، ولا رجلاً لا يؤتبه له ، وإنما كان ذا مكانة عالية ، وعالية جداً ، وأنه على هذه المكانة قد كان ما جئنا ، مجاهرًا بالمجون ، مستمتعاً باللذة ، لا يخشى في ذلك سخط الأمراء ، ولا إنكار الفقهاء والمحدثين ، وإنما يعتمد على شيء واحد ، هو عفو الله ، وأنه قد أخذ من الحياة لذاتها جميعاً ، فلما مرض وعلم أنه ميت ، أنفق مرضه يتوب وينيب ، ويعتذر ويستغفر ، فلما مات رأى بعض الرواة في المنام أن الله قد غفر له ، وأنه قد دخل الجنة !!! . . .

ولست أروى لك ما سأرويه من كتب ليست موضع الثقة ، وإنما أعتمد في حديث اليوم على كتاب واحد معروف لا أتجاوزُه ، وهو « تاريخ دمشق » للحافظ بن عساكر ، فانظر إلى الذين روى عنهم أبو نواس ، وأنظر إلى الذين رَوَوْا عن أبي نواس من العلماء والفقهاء وأصحاب الحديث ، فأما الذين روى عنهم - فيما ذكر ابن عساكر - فهم : حماد بن حماد ، وحماد ابن زيد ، وعبد الواحد بن زياد ، ومعتمر بن سليمان ، ويحيى القطان ، وأزهر ابن سعد السمان ، وأما الذين رَوَوْا عنه فهم - فيما ذكر ابن عساكر أيضاً -

محمد بن إبراهيم، وأبن كثير الصيرفي، وعبيد الله بن محمد العبسي، ومحمد
أبن جعفر غندر، وأحمد بن حمزة بن زياد الريفي، وعمرو بن بحر الجاحظ،
ويعقوب بن زيد الفارسي، ومحمد بن إدريس الشافعي، وجماعة سواهم .

فإذا أردت أن تعرف أقدار هؤلاء الفقهاء والمحدثين، فارجع إلى
طبقات الفقهاء والمحدثين، وستثق بأن شاعرنا لم يكن رجلاً ما، وإنما كان
رجلاً يقدره أهل عصره، ويكبرونه في كل ما عرض له من الفنون،
فكان أهل اللغة يقولون: إنه أعلم الناس بالغريب، وكان الأدباء يقولون:
إنه أرق الناس أدباً وأحسنهم شعراً، وكان الخلفاء والوزراء والأمراء
يُعجبون بظرفه، وحسن حديثه، وكان الشعراء يعترفون له بالزعامة والتفوق،
وكان الفقهاء والمحدثون لا يأنفون أن يحدثوه، وأن يتحدثوا عنه، ولو رويناه
لك الأدلة على هذا كله لأسرفنا في الإطالة .

ولكننا ننتقل من هذا إلى ذكر شيء من دُعابة أبي نواس ومجونه، مع
الفقهاء والمحدثين والخلفاء .

تحدث ابن عائشة أنه قال: كنا على باب عبد الواحد بن زياد، ومعنا أبو نواس،
فقال: ليسأل كل واحد منكم. ثم قال: سل يافتي! فأنشأ أبو نواس يقول:

وَلَقَدْ كُنَّا رَوَيْنَا عَنْ سَعِيدٍ عَنْ قَتَادَةَ

عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ أَنَّ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ

قَالَ: مَنْ مَاتَ مُحِبًّا فَلَهُ أَجْرُ شَهَادَةٍ

فالتفت إليه عبد الواحد بن زياد، فقال: اعزُب عني يا خبيث، والله

لاحدثتك بشيء وأنا أعرفك ، فقام أبو نواس ، وقال : والله لا أتيت مجلسك
وأنت تردّ الصحيح من الأحاديث !!

وتحدّث محمد بن جعفر قال : لقي شيبه أبا نواس ، فقال له : يا حسن ،
حدثنا عن ظرفك فقال :

وَحَالِدُ الْحَذَاءِ عَنْ جَابِرٍ	حَدَّثَنَا الْخَفَّافُ عَنْ وَائِلٍ
يَرْفَعُهُ الشَّيْخُ إِلَى عَامِرٍ	عَنْ مِسْعَرٍ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ
عُلِقَهَا ذُو خُلُقٍ طَاهِرٍ	قَالُوا جَمِيعًا : أَيُّمَا طِفْلَةٍ
عَلَى وَصَالِ الْحَافِظِ الذَّاكِرِ	فَوَاصِلَتُهُ ثُمَّ دَامَتْ لَهُ
تَرْتَعُ فِي مَرْتَعِهَا الزَّاهِرِ	كَانَتْ لَهَا الْجَنَّةُ مَفْتُوحَةً
بَعْدَ وَصَالٍ دَائِمٍ نَاصِرٍ	وَأَيُّ مَعْشُوقٍ جَفَا عَاشِقًا
نَعَمْ وَسُحْقٍ دَائِمٍ دَاحِرٍ	فِي عَذَابِ اللَّهِ بُعْدًا لَهُ

فقال له شيبه : إنك لجميل الأخلاق !!

فما رأى ساداتنا المتحرجين ؟؟ ...

وتحدّث سليم بن منصور قال : رأيت أبا نواس في مجلس أبي - وكان
واعظا - يبكي بكاء شديداً ، فقلت : إني لأرجو ألا يعذبك الله بعد هذا
البكاء أبداً ، فأنشأ يقول :

لَمْ أَبْكُ فِي مَجْلِسِ مَنْصُورٍ	شَوْقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْحُورِ
وَلَا مِنْ الْقَبْرِ وَأَهْوَالِهِ	وَلَا مِنْ النَّفْخَةِ فِي الصُّورِ
لَكِنْ بُكَائِي لِبُكَاشَادِنِ	تَقِيهِ نَفْسِي كُلَّ مَحْذُورِ

ثم قال : أما ترى الأمر الذي عن يمين أهلك ! إنما بكيت رحمة

لبكائه !!

وتحدث ابن الزيات ، عن محمد بن ضوء بن الصلصال بن الدهميس ، قال :
كان أبو نواس يزورني في الكوفة ، فيأتي بيت خمار بالحيرة ، يقال له جابر ،
وكان نظيف الثوب ، يعتق الشراب ، فيكون عنده ما يأتي عليه سنون ،
قال فرأى في يده يومًا شيئًا عجيبًا ، في نهاية الحسن ، وطيب الرائحة ، فقال لي :
يا أبا جعفر ! لا يجتمع هذا والهم في صدر . قال : وكان معجبًا بضرب
الطنبور ، فكان إذا جاءني جمعت له ضرب الطناوير ، ومعدنهم الكوفة ،
فكان يسكر في الليلة سكرات ، قال : فجاءني مرة من داره ، فقال : قد
حدث أمر ، قلت ماهو ؟ قال : نهاني أمير المؤمنين محمد عن شرب
الحمر ، وأنشدني :

أَيْهَا الرَّائِحَانِ بِاللَّوْمِ لَوْ مَا لَا أَذُوقُ الْمُدَامَ إِلَّا شَعِيمًا

القصيدة ...

فقلت : ما تريد أن تفعل ؟ قال : لا أشربها أخاف أن يبلغه أنى شربتها ،
فأتينا به بنبيذ ، وجلسنا في منزل جابر ، فلما دارت الكأس بيننا أنشأت
أقول ، وأذكر قوله لي :

خَفِيتُ عَلَيْكَ مَحَاسِنُ الْخَمْرِ أَمْ غَيَّرْتَكَ نَوَائِبُ الدَّهْرِ
فَصَرَفْتَ وَجْهَكَ عَنْ مُعْتَمَةٍ تَفَرَّتْ عَنْ خُلُقٍ مِنَ الْبَشْرِ
وَلَسِمْتَ قَوْلَكَ حِينَ تَمْرُجُهَا فَتُرِيكَ مِثْلَ كَوَاكِبِ النَّسْرِ

لَا تَحْسِبَنَّ عُقَارَ خَابِيَةٍ وَالْهَمَّ يَجْتَمِعَانِ فِي صَدْرٍ
 فَأَخَذَ يَسِبُ الْأَمِينَ فِي كَلَامٍ لَانُزْوِيهِ . وَشَرِبَ الْحُمْرَ ، ثُمَّ شَخَصَ إِلَى
 مُحَمَّدٍ ، فَقَالَ لَهُ : أَيْنَ كُنْتَ ؟ قَالَ : عِنْدَ صَدِيقِ الْكُوفِيِّ ، وَحَدَّثَهُ الْحَدِيثَ ،
 قَالَ : فَقَالَ لِي : مَا صَنَعْتَ حِينَ أَنْشَدَكَ الشَّعْرَ ؟ قَالَ : شَرَبْتُهَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ،
 قَالَ : أَحْسَنْتَ وَأَجَمَلْتَ !! ثُمَّ قَالَ : اشْخَصْ حَتَّى تَحْمِلَ إِلَى صَدِيقِكَ هَذَا ،
 قَالَ : فَشَخَصَ فَحَمَلَنِي إِلَيْهِ فَلَمْ أَزَلْ مَعَ مُحَمَّدٍ حَتَّى قَتَلَ .

وَلَكِنَّا قَدْ أَكْثَرْنَا مِنْ رِوَايَةِ هَذَا الْمَجُونِ ، وَنَخْشَى أَنْ نَكُونَ قَدْ أَثْقَلْنَا
 عَلَى الْمُتَحَرِّجِينَ ، فَلَنُرْوِهِمْ شَعْرًا لِأَبِي نَوَاسٍ مَلُؤُهُ الْبَرِّ وَالْثَقْوَى ، وَفِيهِ
 الزَّهْدُ وَالْمَوْعِظَةُ .

نَقَلَ عَنْ عَبْدِ دُوسٍ رِوَايَةَ أَبِي نَوَاسٍ أَنَّهُ قَالَ : دَخَلْتُ عَلَى أَبِي نَوَاسٍ
 الْحَسَنِ بْنِ هَانِيٍّ ، فِي عِلَّتِهِ الَّتِي مَاتَ فِيهَا ، فَقُلْتُ لَهُ : كَيْفَ تَجِدُكَ يَا أَبَا نَوَاسٍ ؟
 فَقَالَ أَجِدُنِي قَائِلًا :

سُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ الْخَلْقَ مِنْ ضَعِيفٍ مَهِينٍ
 يَسْوَقُهُ مِنْ قَرَارٍ إِلَى قَرَارٍ مَكِينٍ
 يَحُولُ شَيْئًا فَشَيْئًا فِي الْحُجْبِ دُونَ الْعِيُونِ
 حَتَّى اسْتَوَتْ حَرَكَاتُ مَخْلُوقَةٍ مِنْ سُكُونِ

قَالَ : ثُمَّ أَطْرَقَ فَنَزَلَتْهُ وَانْصَرَفَتْ ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ غَدٍ دَخَلْتُ عَلَيْهِ ،
 فَقُلْتُ لَهُ : كَيْفَ تَجِدُكَ يَا أَبَا نَوَاسٍ ؟ قَالَ أَجِدُنِي قَائِلًا :

وَعَظَمَتِكَ أَجْدَاثُ صُمْتُ وَنَعَتِكَ أَزْمَنَةُ خُفْتُ

وَتَكَلَّمْتُ عَنْ أَوْجِهٍ تَبَلَى وَعَنْ صُورٍ سُبُتْ
وَأَرْتِكَ قَبْرَكَ فِي الْقُبُورِ وَأَنْتَ حَيٌّ لَمْ تَمُتْ
وَلَرُبَّمَا انْقَلَبَ الشَّمَاتُ فَحَلَّ بِالْقَوْمِ الشُّمْتُ

ثم أطرق فتركته ، فلما كان في اليوم الثالث دخلت عليه ، فقلت له :
كيف تجدك يا أبا نواس ؟ قال أجدني قائلاً :

يَا نُوَاسِي تَفَكَّرْ وَتَعَزَّ وَتَصَبَّرْ
سَاءَ لَكَ الدَّهْرُ بِشَيْءٍ وَبِمَا سَرَّكَ أَكْثَرُ
يَا كَثِيرَ الذَّنْبِ عَفْوُ اللَّهِ مِنْ ذَنْبِكَ أَكْثَرُ
أَكْثَرُ الْعِصْيَانِ فِي أَصْعَرِ عَفْوِ اللَّهِ يَصْغُرُ

فلما كان في اليوم الرابع دخلت عليه فقلت له : كيف تجدك يا أبا
نواس ؟ قال أجدني قائلاً :

كُنْ مَعَ اللَّهِ يَكُنْ لَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ لَعَلَّكَ
لَا تَكُنْ إِلَّا مُعِدًّا لِلْمَنَآيَا فَكَأَنَّكَ
إِنَّ لِلْمَوْتِ لَسَهْمًا وَاقِعًا دُونَكَ أَوْ بِكَ
فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْ وَبِتَقْوَاهُ تَمَسَّكَ
نَحْنُ نُمْسِي بَيْنَ أَسْبَابِ سُكُونٍ وَتَحَرُّكٍ

قال : ثم أطرق فتركته وأنصرفت ، فلما كان في اليوم الخامس دخلت
عليه فقلت له : كيف تجدك يا أبا نواس ؟ قال أجدني قائلاً :

يَا نَاطِرًا يَرْنُو بَعَيْنِي رَاقِدٍ وَمُشَاهِدًا لِلْأَمْسِ غَيْرِ مُشَاهِدٍ

مَنَّكَ نَفْسُكَ ضَالَّةً فَأَبْجَحَهَا طَرَقَ الْحِمَامِ وَأَنْتَ غَيْرَ مُرَاصِدٍ
تَصِلُ الذُّنُوبَ إِلَى الذُّنُوبِ وَتَرْتَجِي دَرْكَ الْجَنَانِ بِهَا وَفَوْزَ الْعَابِدِ
وَنَسِيتَ أَنَّ اللَّهَ أَخْرَجَ آدَمًا مِنْهَا إِلَى الدُّنْيَا بِذَنْبٍ وَاحِدٍ
قال : ثم أطرق فتركته وأنصرفت ، فلما كان في اليوم السادس
دخلت عليه فقلت له : كيف تجددك يا أبا نواس ؟ قال أجدني قائلاً :

دَبَّ فِي الشَّقَامِ سُفْلًا وَعُلُوءًا وَأَرَانِي أَمُوتُ عُضْوًا فَعُضُوءًا
لَيْسَ تَأْتِي مِنْ سَاعَةٍ بِي إِلَّا تَقْتَضِينِي بِمِرَّهَا بِي جَزُوءًا
ذَهَبَتْ جِدَّتِي بَطَاعَةَ نَفْسِي وَتَذَكَّرْتُ طَاعَةَ اللَّهِ نِضُوءًا
قَدْ أَسَانَا كُلَّ الْإِسَاءَةِ يَا رَبَّ فَصَفَحْنَا عَنَّْا إِلَهِي وَعَفَّوْنَا
ثم أطرق وأنصرفت ، فلما كان في اليوم السابع دخلت عليه فقلت
له : كيف تجددك يا أبا نواس : قال أجدني قائلاً :

إِنِّي وَمَا جَمَعْتُ مِنْ صَفَدٍ وَحَوَيْتُ مِنْ سَبَدٍ وَمِنْ لَبَدٍ
هَمِّمْ تَصَرَّفْتَ الْخُطُوبُ بِهَا فَعَدَوْتُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ
لَوْ لَمْ تَكُنْ لِلَّهِ مُتَّهِمًا لَمْ تُنْسَ مُحْتَاجًا إِلَى أَحَدٍ
ثم أطرق فتركته وأنصرفت ، فلما كان في اليوم الثامن جئت لأدخل ،
فلقيني الغلام في الطريق ومعه رقعة مختومة ، فسألته عنه ، فقال : أعظم الله
أجرَكَ في أبي نواس ، فقد تَوَفَّى ، وكان كتب إليك هذه الرقعة قبل موته ،
فقرأتها فإذا فيها :

شِعْرُ حَيٍّ أَتَاكَ مِنْ لَفْظِ مَيِّتٍ صَارَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ وَفَقَا

لَوْ تَأَمَّلْتَنِي وَأَبْصَرْتَ وَجْهِي لَمْ تَجِدْ مِنْ مِثَالِ رَسْمِي حَرْفًا
نَفْسُهُ خَافَتْ وَجِسْمُهُ نَحِيلٌ أَرْمَضَتْهُ الْأَسْقَامُ حَتَّى تَعْفَى
فَجِئْتُ مَعَهُ إِلَى مَنْزِلِ أَبِي نَوَاسٍ ، فَإِذَا بِهِ قَدْ مَاتَ ، وَنَظَرْتُ فِيمَا خَلْفَ ،
فَإِذَا مِقْدَارُ ثَلَاثَةِ دَرَاهِمٍ ، وَإِذَا بَيْنَ مِخْدَتَيْهِ رَقْعَةٌ فِيهَا هَذَا الشَّعْرُ :

يَا رَبِّ إِنْ عَظُمَتْ ذُنُوبِي كَثَرَةً فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ
أَدْعُوكَ رَبِّ كَمَا أَمَرْتَ تَضَرُّعًا فَإِذَا رَدَدْتَ يَدِي فَمَنْ ذَا يَرْحَمُ
إِنْ كَانَ لَا يَرْجُوكَ إِلَّا الْمُحْسِنُ فَمَنْ الَّذِي يَرْجُو وَيَخْشَى الْمُجْرِمُ
مَالِي إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ إِلَّا الرَّجَا وَجَمِيلُ عَفْوَكَ ثُمَّ أَنِّي مُسْلِمٌ

قال : فوقفْتُ حتى جَهَزَنَاهُ وَصَلَيْنَاهُ عَلَيْهِ وَدَفَنَاهُ وَانصرفت .



أكثر هذا الشعر لأبي نواس من غير شك ، ولكن هذه القصة التي
رويناها متكلفة من غير شك أيضاً ، وإنما نعتقد أن الرجل قال أكثر هذا
الشعر في أوقات مختلفة من حياته ، وقال بعضه عند ما أحس الموت .
ولسنا نلح في هذا البحث ولا نفصله ، فقد أطلنا أكثر مما ينبغي ، وإن
كان ذنب هذه الإطالة يقع على أبي نواس أكثر من وقوعه علينا ، فقد
رأيت مكانة شاعرنا ورأيت مذهبه في الدين والمجون والشك ، فلنترك هذا
كله ، ولنحدثك عن قيمة أبي نواس الشعرية في الأسبوع الآتي .

القدماء والمحدثون (١)

أبو نواس - النقد في عصره -
نقد الفقهاء - نقد الأدباء -
أشعر الشعراء -

زعمت لك في الأحاديث الماضية أن أبا نواس كان مثلاً لعصره ، وأن الذين عاصروه كانوا يعجبون به الإعجاب كله ، ويقدمونه على شعراء عصره جميعاً إلا بشار بن برد ، وأريد اليوم أن أويد هذا الزعم ، وأن أستوفي هذا الموضوع حقه من البحث ، ويخيل إليّ أن بحثاً كهذا - على ما فيه من الرواية والنقد - لن يخلو من فائدة ، وإن خلا من لذة ، أو بعبارة أصح ، وإن لم يحدث في نفسك هذه اللذة التي يحدثها الشعر الماجن الضريف .

لن يخلو هذا البحث من فائدة ، لأنه سيظهر لك على ما كان للأدباء والشعراء والفقهاء وأصحاب الكلام وأئمة اللغة من رأى في هذا الشاعر ، الذى اخترت شعره موضوعاً لهذه الأحاديث ، ولأنه سيبين لك طريقة هؤلاء الناس جميعاً في نقد الشعر ، وفي فهمه ، وفي تصويره والحكم عليه .

وليس هذا بالشىء القليل ، ولقد أضطر إلى أن أستاذن رجال الأدب القديم ، من المعاصرين ، فى أن أكون جريئاً وحرّاً فى هذا البحث ، وأرجو ألا تغضبهم هذه الجرأة ، ولا تسوءهم هذه الحرية ، وأؤكدهم أنى لم أعمد

(١) نشرت بالسياسة فى ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٤١ هـ - ٣١ يناير سنة ١٩٢٣ م

إليهما عمداً ، وإنما اضطررت إليهما اضطرارا ، اضطررتني إليهما بحث أعتقد أنه صحيح ، وصدق في التاريخ أعتقد أنه واجب على الباحثين .

إذن فأنا أستاذ أئمة الأدب ، وشيوخه المعاصرين في أن أكون حراً ، وفي أن أكون جريئاً ، وفي أن أزعم أن الذين عاصروا أبانواس وجاءوا بعده من الأدباء والشعراء وأئمة اللغة ، لم يكن لهم في النقد مذهب معروف ، أو خطة واضحة ، وإن شئت فقل : إنهم قد كانوا يذهبون في النقد مذاهب لا ترضينا ، ولا تحقق ما أصبحنا نسمو إليه من مثل أعلى في النقد خاصة ، وفي الأدب عامة .

ولست أدري أكانت هذه المذاهب تحقق ما كان يسمو إليه أدباء العصر العباسي أم لا ؟ ولست أدري أكانت تظل حال النقد على ما كانت عليه أيام الجاحظ والمبرد ، لو أن حياة العرب السياسية لم تفسد ، ولم تغلب أجناس أخرى أعجمية على السلطان العربي ؟ ولكنني أستطيع أن أقول إن هذه المذاهب التي نجد لها منبثاً في كتب الأدب على اختلافها قبل أن يصبح البيان علماً ذا قواعد وأصول ، ليس من شأنها أن ترضى باحثاً أو تقنع أديباً ، وإنما نستطيع أن نقول إن أدبنا العربي يخلو أو يكاد يخلو من النقد الصحيح خلواً تاماً .

إلام تقصد إذا عرضت لشاعر من الشعراء وأردت أن تقرأ شعره وتفهمه ثم تنقده ؟ تقصد فيما أظن إلى أشياء :

(الأول) أن تصل إلى شخصية الشاعر ، وتفهمها وتحيط بدقائق نفسه

ما استطعت ، فتعرف كيف أحس ما أحس ، وكيف شعر بما شعر به ،
ثم كيف وصف إحساسه ، وأعرب عن شعوره ؟

(الثانى) أن تتخذ هذه الشخصية وما يؤلفها من عواطف وميول
وأهواء ، وسيلة إلى فهم العصر الذى عاش فيه هذا الشاعر ، والبيئة التى
خضع لها هذا الشاعر ، والجنسية التى نجم منها هذا الشاعر ، فأنت لا تقصد
إلى فهم الشاعر لنفسه ، وإنما تقصد إلى فهم الشاعر من حيث هو صورة
من صور الجماعة التى يعيش فيها .

ومهما تكن مقتصداً ، ومهما تكن متواضعا ، فأنت سواء شعرت
بذلك أم لم تشعر به ، لا تقنع بالأشخاص ، وإنما تطمع فى الجماعات ، لا ترضى
بالجزئى ، وإنما تسمو إلى الكلى ، كما يقول أهل المنطق ، فأبو نواس وحده
لا يعنيك ، وإنما يعنيك أبو نواس من حيث إنه كان يعيش ، لا أقول مع
فلان وفلان ، وقل مثل ذلك فى شوقى ، وقل مثله فى حافظ .

فالشاعر ليس شاعراً لأنه يقول فيحسن ، وإنما هو شاعر لأن قوله
الحسن هذا يمثل عواطف الذين يسمعون ويقرءونه ، يرضيهم ويقع من
نفوسهم موقع الإعجاب ، ولم يرضك البيت من الشعر إلا لأنه يوافق
هوى فى نفسك ، ويلائم عاطفة من عواطفك ، ويرضى حاجة من حاجتك
إلى الجمال .

إذن فأنت تنقد الشاعر لتفهم شخصيته أولاً ، ثم جماعته أو عصره
أو بيئته ، أو هذا كله ثانياً ، وهناك شىء ثالث تقصد إليه حين تقرأ الشعر

وتحاول نقده ، وهو اللذة ... اللذة الفنية ، اللذة التي تجدها إذا نظرت إلى شكل جميل ، أو استمعت إلى قطعة من الموسيقى ، أو خضعت لمظهر من مظاهر الطبيعة الساحرة ، عقلك وشعورك يعملان إذن حين تقرأ الشعر ، وحين تنقده ، لأنك تريد أن تفهم ، وتريد أن تلتذ .

ولا تقل إن في هذا شيئاً من التخرج ، أو إن فيه تضيقاً ومحاولة من هذه المحاولات ، التي أرادت غير مرة أن تجعل النقد علماً ذا قواعد وأصول فلم تفلح ، ولم توفق إلى شيء كثير . لا تقل هذا ، فإنني لا أتخرج ، ولا أضيق ، ولا أحاول أن أضع للنقد قواعد وأصولاً معينة ، وإنما أحاول أن أفهم معك معنى النقد ، وما يرمى إليه الناقد ، ومهما تختلف مذاهب النقاد المحدثين ومسالكتهم ، فهم يقصدون إلى هذا كله أو بعضه .

سل «سانت بوف» (Sainte - Beuve) ينبئك بأنه يعني قبل كل شيء إذا قرأ قصيدة من الشعر ، أو فصلاً من النثر ، بأن يجد شخص الشاعر أو الكاتب ، وبأن يحلل هذا الشخص ، ويصل إلى دقائقه ودخائله ، كما يفعل علماء التاريخ الطبيعي في معاملهم ، ولكن الشخص وحده لا يكفي ولا يعنيه وإنما هو يتخذ هذا الشخص وسيلة إلى النوع ، يتخذ هذا الجزئ وسيلة إلى الكلي .

ثم سل «تين» (Taine) ينبئك بأن شخص الشاعر ، أو الكاتب ومزاجه وعواطفه وكل مايكوّن نفسه ، لا يعنيه إلا من حيث هو أثر من آثار

العصر الذى عاش فيه ، والبيئة التى خضع لها ، والأمة التى نجم منها ، فالشخص عنده أثر من آثار هذا العصر ، وهذه البيئة ، وهذه الأمة .

ثم سل « جول لمتر » (Jules Lemaitre) ينبئك بأن هذا كله لغو وثرثرة ، وأن الفن وحده هو الذى يعنيه ، ويعنيه من حيث إنه يؤثر فى النفس ، فيبعث فيها العواطف على اختلافها ، ويبعث فيها الرضا والإعجاب .

وفى الحق إن الناقد لا يقنع بما كان يقنع به « سانت بوف » أو « تين » أو « جول لمتر » أو غيرهم من النقاد ، وإنما يؤدّ لو استطاع أن يوفق إلى هذا كله ، ويستخلص منه غرضا شاملا يطلبه ويسمو إليه حين ينقد ، فيفهم شخصية الشاعر أو الكاتب ، وعصره ، وفنه .

ولست أريد أن أتعق فى تفصيل هذا كله ، فإن فصلا من فصول الصحف السيارة لا يتسع لمثل هذا التعق ، وإنما أردت أن أنتهى بك إلى ما نطلبه الآن إلى النقد ، لانتقل من هذا إلى ما كان يطلبه المعاصرون لأبى نواس إلى هذا النقد . والحق أن الفرق بين الغرضين عظيم جدا . . . نطلب نحن كثيرا ، ولم يكن يطلب القوم إلا شيئا قليلا



قلت فى أول هذا الفصل ، إن القوم لم تكن لهم مذاهب واضحة فى النقد ، أو إن مذاهبهم لم يكن من شأنها أن ترضينا ، وكلا القولين صحيح ، فإننا لا نعرف لأدباء القرن الثانى والثالث للهجرة مذهباً فى النقد معروفاً ، أو خطة فيه واضحة .

ومع ذلك فقد تقدوا ، وحكموا على الشعر والنثر ، فاستحسنوهما وازدروهما ، ولم تكن أحكامهم متفقة ، ولم تكن أهواؤهم متشاكلة ، وإنما كانوا يختلفون ، ويختلفون اختلافاً كثيراً ، ولعلنا لأنخطيء إذا قلنا إن كل فريق من أهل ذلك العصر كان يتخذ صناعته وفنه الذى غلب عليه مقياساً لنقده ، وميزاناً لرأيه ، فى جودة الأثر الأدبى أو رداءته .

فالجيد عند أبى عبيدة ، ويونس بن حبيب ، وأبى عمرو الشيبانى ، وابن الأعرابى : ما شتمل على الألفاظ الجزلة المتينة ، والأساليب الفخمة الرصينة ، وما كان إلى لغة الأعراب أقرب منه إلى لغة أهل الحضر .

والجيد عند الجاحظ وأمثال الجاحظ من الكتاب والشعراء ورواة الأدب الذين لم يقصروا حياتهم على اللفظ ، ولم يختصوا بالبحث مادة اللغة ، وإنما تناولوا الأدب من حيث هو ، وعنوا بالمعاني عناية لا تقل عن عنايتهم بالألفاظ ، وربما تفوقتها : ما شتمل على المعنى الطريف فى اللفظ المستعذب ، الذى لم يعن فى الغرابة ، ولم يسفل إلى لغة السوق .

والجيد عند الفقهاء والمحدثين : ما لاءم أصلاً من أصول الدين ، أو غرضاً من أغراضه ، أو نزعاً من نزعاته .

ومن هنا كان يونس بن حبيب وأبو عبيدة يؤثران الفرزدق على جرير ، وكان بشار وأبو نواس يؤثران جريراً على الفرزدق . ولما كُلم بشار فى ذلك قال : ليس ذا من عمل أولئك القوم ، وإنما يعرف الشعر من يضطر إلى أن يقول مثله الخ ... وروى مثل هذا فى أمر أبى نواس ومسلم ، فقد كان الأدباء والشعراء يفضلون أبا نواس ، وكان ثعلب يفضل مساماً . وسئل البحتري

عن ذلك ففضل أبا نواس ، فلما ذكر له أمر ثعلب قال كلاما كالذي
قاله بشار .

ولعل مما يمثل لك هذا المعنى تمثيلا حسنا ما كان بين المأمون وابن
الأعرابي ، فقد سأل المأمون هذا الإمام اللغوي عن أجود ما قيل في الحمر ،
فأخذ يذكر له شعر الأعشى والأخطل ، ومما رواه له قول الأعشى :
تُرِيكَ الْقَذَى مِنْ فَوْقِهَا وَهِيَ فَوْقَهُ إِذَا ذَاقَهَا مِنْ ذَاقَهَا يَتَمَطَّقُ
فلم يحفل المأمون بشيء من ذلك ، بل أثار قول أبي نواس :

فَتَمَشَّتْ فِي مَقَاصِ إِيَّاهُمْ كَتَمَشَّى الْبُرْءُ فِي السَّقَمِ
فَعَلَتْ فِي الْبَيْتِ إِذْ مُزِجَتْ مِثْلَ فِعْلِ الصُّبْحِ فِي الظُّلَمِ
فَاهْتَدَى سَارِيَ الظَّلَامِ بِهَا كَاهْتِدَاءِ السَّفَرِ بِالْعَلَمِ
فانظر إلى هذين الذوقين المختلفين ، فأما المأمون فحصرى يؤثر المعنى الجيد

في اللفظ السهل ، وأما ابن الأعرابي فحجب للغريب ، مؤثر للفظ الجزل .
وكان أبو عمرو والشيباني يقول : لولا ما أخذ فيه أبو نواس من الرِّفْتِ
لاحتجنا بشعره . وكان كثير من أئمة اللغة والفقهاء والمحدثين والمتكلمين
يعجبون بأبي نواس ، ولا يكرهون منه إلا هذا الرِّفْتِ والمجون ، ذلك لأن
مقامهم وصناعاتهم كانت تضطرهم إلى هذا التحفظ .

فأما الأدباء والشعراء ومن إليهم فكانوا يعجبون بأبي نواس إعجابا لا حد
له ، لا يصرفهم عنه أنه أثار السهل على الغريب ، أو الهزل على الجد ، وربما رغبتهم
ذلك في شعره ، وحبب إليهم سيرته .

ولو أنني ذهبت أروى لك آراء هؤلاء العلماء ، والأدباء والشعراء في

أبي نواس ، لأطلت عليك إطالة ثقيلة مملولة ، ولكنك تستطيع أن تصدقني ،
وأن ترجع إلى الكتب فترى أن إجماع هؤلاء منعقد على أن أبا نواس أشعر
المحدثين ، لا يستثنون منهم إلا بشار بن برد .

ومع هذا فلست أرى لهذا الإجماع قيمة ولا خطراً ، لأن القوم حين
استحسنوا شعر أبي نواس لم يستحسنوه عن درس مفصل مستقصى ، وإنما
كان يعجب أحدهم البيت أو البيتان أو المقطوعة أو القصيدة ، فلا يأتى أن
يقول إن أبا نواس أشعر الناس ، فانظر إلى من فضل أبا نواس على الشعراء
جميعاً لأنه قال :

يَا قَرَأَ أَبْصَرْتُ فِي مَأْتَمٍ يَنْدُبُ شَجْوًا بَيْنَ أَتْرَابِ
القصيدة ...

وانظر إلى الأصمعيّ يفضل أبا نواس لأنه قال :
أَمَّا تَرَى الشَّمْسَ حَلَّتِ الْحَمَلَا وَقَامَ وَزْنُ الزَّمَانِ فَاعْتَدَلَا
وانظر إلى ابن الأعرابي ، الذي كان يفضل أبا نواس على الشعراء
جميعاً لقوله :

تَغَطَّيْتُ مِنْ دَهْرِي بِظِلِّ جَنَاحِهِ فَعَيَّنِي تَرَى دَهْرِي وَلَيْسَ يَرَانِي
فَلَوْ تُسْأَلِ الْأَيَّامُ مَا نَسِي لِمَا دَرْتُ وَأَيْنَ مَكَانِي مَا عَرَفَنِي مَكَانِي
وانظر إلى أبي العتاهية والعتابي ، اللذين كانا يفضلان أبا نواس على الشعراء
جميعاً لقوله :

إِذَا نَحْنُ أَثْنَيْنَا عَلَيْكَ بِصَاحِلٍ فَأَنْتَ كَمَا تُثْنِي وَفَوْقَ الَّذِي تُثْنِي
وكان أبو نواس نفسه يفضل أبا العتاهية على الشعراء جميعاً لقوله :

النَّاسُ فِي غَفْلَاتِهِمْ وَرَحَا الْمَنِيَّةِ تَطْحَنُ

وفضل المبرد أبو نواس على المحدثين جميعا ، لأنه شبيب ومدح في أربعة أبيات ، فقال :

تَقُولُ غَدَاةَ الْبَيْنِ إِحْدَى نِسَائِهِمْ لِي الْكَبِيدُ الْحَرَّى فَمِيرَ وَلَكَ الصَّبْرُ
وَقَدْ خَضَّبَتْهَا عَبْرَةٌ فَلِدَمْعِهَا عَلَى خَدَّهَا خَدٌّ وَفِي نَحْرِهَا نَحْرُ
وَقَالَتْ إِلَى الْعَبَّاسِ ؟ قُلْتُ فَمَنْ إِذَنْ وَمَالِي عَنِ الْعَبَّاسِ مَعْدَى وَلَا قَصْرُ
فَهَلْ يَكْلَفُنْ إِلَّا بَرَاخَتِهِ النَّدَى وَهَلْ يَزْهُونَ إِلَّا بِأَوْصَافِهِ الشُّعْرُ

وأعجب من هذا أن هؤلاء الناس الذين كانوا يفضلون أبو نواس في هذه اللحظة ، كانوا يفضلون غير أبي نواس في لحظة أخرى ، فلو أنك أردت أن تعرف من أشعر الناس عند هؤلاء الأدباء والعلماء ، لكان الناس جميعا أشعر الناس !!

وما زال العرب يسأل بعضهم بعضاً مَنْ أشعر الناس ؟ فيجيب المستؤل أشعرهم من قال ، ثم يروى بيتاً أعجبه ، ولا يمنع ذلك أن يروى غداً بيتاً آخر لشاعر آخر ، على أن هذا البيت أجمل الشعر ، وعلى أن هذا أشعر الناس ، وعلى هذه القاعدة وصل كل شاعر إلى هذه المنزلة ، لأن لكل شاعر بيتاً جيداً على أقل تقدير .

فأنت ترى أن مثل هذه الأحكام لا يمكن أن يطمئن إليها ناقد في نفسها ، ولا أن يطمئن إليها من حيث إنها تمثل آراء أصحابها ، فإن هؤلاء النقاد إنما كانوا يجيئون بما يحضرم لا أكثر ولا أقل .

ومع هذا كله فما زلت أرى أن معاصري أبي نواس كانوا يقدمونه

ويدينون له بالزعامة ، وليس هذا الاقتناع عندي أثراً من آثار هذه الأحكام
التي رويت لك طرفاً منها ، وإنما هو أثر القراءة الطويلة في الكتب الكثيرة ،
وأثر المقارنة بين هذا الشاعر ومن عاصره ومن جاء بعده .

كان القدماء ^{prefer} يؤثرون أبانواس على معاصريه ، وكانوا في ذلك محقين ،
ولكنهم لم يقولوا ، ولعلهم لم يعلموا ، لماذا كانوا يؤثرون أبانواس ؟ فمن الحق
أن نبحت نحن عن مصدر هذا الإيثار ، أو عن مصدر هذا التفوق الذي ليس
فيه شك ، وأن نبحت عن هذا المصدر ، لا كما بحت المتقدمون في البيت
أو البيتين أو القصيدة ، وإنما في الديوان كله ، ومن الحق ألا يكون
سبيلنا في هذا البحث جودة اللفظ والمعنى وحدهما ، وإنما سبيلنا فيه اللفظ
والمعنى ، وما بين اللفظ والمعنى ونفس الشاعر من صلة ، وما بين نفس الشاعر
وعصره من صلة أيضاً ، وهذا هو الذي سنبدأ به في الأسبوع الآتي ..

إلى الأستاذ طه حسين^(١)

سيدي الأستاذ !

أطالع بشوق وإمعان مقالاتكم الأسبوعية على أدب القدماء والمحدثين، أو «حديث الأربعاء»، ومما يلفت النظر، ويستدعي التمهّص والحذر في ذلك الحديث حكمكم أن أبانواس ومن في طبقتة أو على شاكلته من الشعراء كانوا مثالا صادقا للعصر الذي عاشوا فيه، وأن الرشيد والمأمون ذهباً من الشك والاستمتاع بالذائد في ذلك العصر، مذهب أبي نواس وأضرابه من شعراء المجون، وقد سردتم طائفة من الشعر والأخبار المنسوبة إليهم، واستنتجتم منها ذلك الحكم الذي يحتاج إلى تمهّص كثير.

نعم إن المقدمات التي استخرجتم منها تلك النتيجة ربما ظهرت صحيحة لأول وهلة، لأنها تستند إلى أشعار وأخبار مكتوبة ومنسوبة إلى ناقلها وقائلها، وهم معروفون مشهورون في التاريخ، لكن هذا وحده لا يكفي لمثل ذلك الاستنتاج، ولا تبني عليه أحكام سوداء في تاريخ أبيض ناصع، كتاريخ الرشيد والمأمون ومن عاصرها من العلماء والفضلاء، وأرى أن الأستاذ تعجل في الحكم، لتلقيه أخبار أبي نواس وما نقل إلينا من شعره، كأخبار صحيحة لا غبار على نسبتها إليه، وصدورها عنه، وهذا ما لا يصح للمؤرخ المحصّ التسليم به، والسكوت عليه.

(١) نشرت بالسياسة في ٢١ جادى الآخرة سنة ١٣٣١ هـ - ٧ فبراير سنة ١٩٢٣ م

إن الحقائق التاريخية ، ولا سيما في تاريخ الإسلام ، تشبه الدرّ الملقى بين
أشواك ، يحتاج مريد استخراجها من تلك الأشواك ، إلى أناة وروية ونظر
في وجوه السلامة من أذى الشوك . ولا نريد أن نذهب بعيداً في مذاهب
الشك التي ذهب إليها الأستاذ ، وإنما يكفي أن ننبهه بما نقول - وهو العليم -
إلى ما عاناه رواة الحديث ، ونقله الأخبار النبوية في تمحيص تلك الأخبار
وتنظيفها من شوائب الوضع المكذوب ، ولا سيما في أيام الفتنة الكبرى
التي انقسم فيها المسلمون إلى شيع سياسية ، كانت تعمل للسياسة باسم الدين ،
وتضع من الأخبار ما يوافق مذاهبها السياسية ، وإن كان فيه مساس بالدين
وتشويه له ، هذا فيما له صلة بأصل الشريعة ، وانتساب إلى صاحب الشرع ،
فما بالك بأخبار الخلفاء ووقائع التاريخ وأخبار الناس

نقرأ شيئاً في التاريخ وشيئاً في كتب القصاصين ، عما أُنْتِجَ التنازع
بين الشيع الدينية والسياسية على الأصح ، في عصور الحنة التي مرت على
المسلمين ، نقرأ في كتب التاريخ أخباراً نسبها شيع العباسيين إلى خلفاء بني
أمية ، وأخباراً نسبها شيع آل علي إلى خلفاء بني العباس ، هي أحط ما ينسب
إلى خلفاء أو ملوك أو سمهم ما شئت ، كانوا في مثل مرتبتهم من العزة
والمنعة وبسطة الجاه والملك ، وكان من المحال أن يكونوا من انحطاط
الأخلاق والسيرة في المنزلة التي أنزلهم إليها الوضعاء ، ويدوم لهم طويلاً
ذلك الملك العريض والشهرة الذائعة في التاريخ .

ونقرأ ما هو أقبح من ذلك في كتب القصاصين منسوباً إلى الخلفاء

وأهل العلم والأدب ، فلو سلمنا بكل ما جاء في تلك الكتب والأفانصص ، واعتبرناها أخباراً صحيحة ليس فيها شائبة من شوائب الكذب والاختلاق والتلفيق ، لكان لنا أقبح مثال من أمثلة العصور الإسلامية الأولى ، التي نعتبرها من مفاخر تاريخنا الغابر المجيد .

الحقيقة التي ينبغي أن تقال ، إن التنازع السياسي بين الشيعة الإسلامية أدخل من روايات بعض الأخباريين شوائب في التاريخ الإسلامي ليست هي منه في شيء ، وإنما هي من وضع المتزلفين لبيوت الإمارة والملك ، أو المتشيعين لبعض المذاهب السياسية أو الدينية .

ولما أنكر ابن خلدون أقوال الملقين الذين لفقوا على الرشيد تلك الحكايات الشائنة ، لم يكن في إنكاره إلا على حق لما عرف عنه من بعد النظر في التاريخ وصحة بحثه في طبائع الاجتماع وأخلاق الأمم ومنازعتها ، شأن كل مؤرخ بحاث لا يلقى الكلام على عواهنه ، ولا يأخذ الحوادث بظواهرها ، ولا شك عند كل منصف أن ابن خلدون أوثق وأصدق كلاماً من أبي نواس وأمثاله من المجونين ، هذا إذا صحت كل أخبار المجون المنسوبة إلى هؤلاء .

أما القصص أو كتب القصاصين فلها شأن آخر ، لأن واضعيها إنما وضعوها لأغراض وبواعث تجارية ، أو سياسية ، أو دينية . أما الأغراض التجارية فهي الكسب والأنتفاع ، وأما البواعث السياسية ، أو الدينية فهي منع العامة عن الخوض في سياسة الخلفاء والحكام ، والخوض في أخبار

الصحابة وما شجر بينهم على ما يقال أو يظن ، إذ من المعلوم أنه لم يكن في القرون الأولى للإسلام من وسائل التسلية وأما كن اللهو العامة ما يقضى فيه العامة أوقات الفراغ ، وهم بالضرورة في حاجة إلى الاجتماع ، فكانت أكثر أحاديثهم في مجتمعاتهم ، تدور على أخبار الصحابة وحوادث الصدر الأول لقرب العهد به ، ثم سياسة الخلفاء وحكامهم ، وقد كان ذلك يجرّ في كثير من الأحيان إلى الشجار ثم الفتنة كما نقرأ في أخبار أهل السنة والشيعة في بغداد عاصمة الملك والخلافة ، وكانت هذه المنازعات والفتن تقضى أحياناً إلى إهراق الدماء بين العامة . الذين يتشيع كل فريق منهم لرأيه ومذهبه ، بلا علم ينفع ، أو فهم يردع .

فكان هذا سبباً على ما يظهر لتفكير العلماء في وسيلة من الوسائل تشغل العامة عن الخوض في مثل تلك الأخبار ، فأخذ بعض الأذكياء في وضع قصص تتلى في المجتمعات ، فيلهو بها العامة عن الأخبار المثيرة للعواطف أو الأحقاد ، فكان منها المختصر المبعثر في ثنايا الكتب ، ومنها المطول المجموع في كتب على حدة ، ومن ذلك أخبار الفتوحات ، كفتوح الشام ، وفتوح مصر ، وفتوح اليمن ، المنسوبة إلى الواقدي وهي ليست له . وكتاب قصة عنترة العبسي وواضعها مجهول ، وكتاب ألف ليلة وليلة و كاتبها مجهول أيضاً ، وقد قالوا إنها مترجمة عن الفارسية ولكن أخبارها لا تدل على ذلك . ولما استطاب الناس أمثال هذه القصص والأخبار ، وأصبحت ضرورة من ضرورات الحياة ، لأن فيها نوعاً من التلهي وترويح النفس ، تنافس الرواة والقصاصون في تدوين الأخبار ووضعها تارة مجموعة وتارة متفرقة في كتب

الأدب كأخبار العشاق والشعراء والبخلاء والكرام وغير ذلك . . . فكان
منها الغثّ والسمين ومنها الملقق والقريب من الصحة .

وقد غالى بعض الأخباريين فى إيراد أخبار المجون والتهتك والانغماس
فى الشهوات ، مغالاة تكاد تشهد على نفسها بالغلو والتلفيق ، لما فيها من
العبث بالأخلاق ، والتجرد عن معنى الأدب ، الذى أخذ منه الشعراء والأدباء
المنسوبة إليهم بسبب كبير ، ينافى ما ينسب إليهم من اطراح رداء الحشمة
والمروءة . ولا أظننى مخطئاً إذا قلت إن ما نقل من هذا القبيل عن أبى نواس
وأضرابه من شعراء ذلك العصر ، ويسميه حضرة الأستاذ طه حسين عصر
الشك والمجون ، ويتخذ دليلاً على حكمه على أهل ذلك العصر ، إنما هو
تلفيق قصصى يراد به أحد أمرين : إما تشويه سمعة بعض الخلفاء العباسيين
كالرشيد والمأمون ، وإما سد نهات العامة إلى أمثال تلك القصص الخزية
والروايات الملفقة . على أنه لو صح شيء منه ، لما كان لنا أن نتخذ دليلاً على
شيوع الفحش والفجور والشك بين أهل ذلك العصر ، لأنه مجون لا يجوز
أن يتعدى الماجن مهما تطاول إلى النيل من سواء باسم المجون .

على أنى أعتقد كما قلت أن ما نسب إلى أولئك الشعراء كأبى نواس
وبشّار ومن فى طبقتهم محل للشك ، ولا سيما إذا صح أن شعر أبى نواس
لم يجمع فى كتاب (ديوان) على حدة فى حياته ، وإنما جمعه رواة القصص
وأخبار شعراء المجون ، وتناولوه بعد وفاته بزمّن قريب أو بعيد ، ومحل هؤلاء
الرواة من الثقة أو عدمها ، لا يحتاج إلى تعريف بعد الذى قدمناه . وحسبنا

أن الأستاذ طه حسين نفسه تردد في قبول رواية عبدوس عن المقاطيع الشعرية التي قال إن أبا نواس أنشدها له قبيل وفاته في أيام متتابعة في التوبة والاستغفار ، تردد الأستاذ في صحتها وقال إنها قصة متكلفة من غير شك ، وإنما نعتقد أن الرجل قال أكثر هذا الشعر في أوقات مختلفة من حياته .

فالذي جَوَّز للأستاذ الشك في صحة هذه القصة يحوز الشك في صحة أكثر القصص ، والروايات التي نقلت عن أبي نواس وغيره من شعراء المجون ، ويثبت أنها قصص موضوعة ليس لها قيمة تاريخية ، فلا يصح أن تتخذ مثالا صادقا لذلك العصر ، وإذا قرئت فإنما تقرأ لأن فيها فكاهة وترويحاً للنفس لا لأنها أمثلة من تاريخ أمة كان عصرها ذاك عصر جِدٍّ لا هزل ، وعصر نهضة علمية بلغت فيه أقصى ما يمكن أن تبلغه أمة في عشرات من السنين .

ولقد أحسن الأستاذ في مقالته الأخيرة بالإشارة إلى ذلك في قوله « إنه لا يرغب أن تكون حياتنا كلها خلا ، وإنما يريد ألا تخلو من الفكاهة واللذة » فإن في قوله هذا دليلا على أنه يريد أن يخفف عن أبي نواس عبء الحمل الذي ألقاه على عاتقه ، وأن يستدرجنا ، ونعم ما فعل ، إلى الشك في صحة تلك القصص المخزية ، وأنه إنما أوردتها للفكاهة ، ولا سيما بعد أن عزز ذلك بقوله « إن أبا نواس لم يكن قليل الخطر ، ولا رجلا لا يؤبه له ، وإنما كان ذا مكانة عالية ، وعالية جداً » ثم سرد عن تاريخ الحافظ بن عساكر أسماء من رَوَوْا عن أبي نواس ، وروى عنهم أبو نواس .

ولا جرم أن المجاهرة بالمجون ، والاستمتاع باللذات ، ثم رواية الحديث ،
نقيضان لا يجتمعان ، وهذا ما يؤيد رأينا في أن أكثر ما نقل عن أبي نواس
وأضرابه من شعراء المجون ، إنما هي روايات قصصية بعيدة عن الصحة ،
وأنه لا يصح أن تتخذ دليلا على حالة الأمة الروحية والخلقية في ذلك العصر ،
وفوق كل ذي علم عليم

رفيق العظم

رد على نقد^(١)

كيف نفهم التاريخ ؟ - المؤرخون
في عصور المجد - المؤرخون في
عصور الانحطاط .

ما زلت أذكر هذا المقال الرائع الذي نشرته « السياسة » للأستاذ رفيق بك العظم منذ أسبوعين ، ووعدت بالرد عليه ، ثم حالت حوائل بيني وبين هذا الرد إلى الآن . ما زلت أذكر هذا المقال ، وأريد أن أرد عليه ، فإن الخلاف بين هذا العالم الجليل وبينى لا يتناول أشياء مفصلة فحسب ، وإنما يتناول مبدأ عاماً قبل كل شيء .

وقد عرف الناس رأى هذا العالم الجليل في هذا المبدأ ، وأريد أن يعرف رأى فيه ، ولست أدري أأطعم في إقناع هذا العالم الجليل أم أياس منه ؟ لأن الخلاف بينه وبينى جوهرى جداً ، وشديداً جداً ، يذهب مذهباً في التاريخ وفهمه ، وأذهب مذهباً آخر في التاريخ وفهمه ، ويخيل إلى أن ليس إلى الاتفاق بين هذين المذهبين من سبيل .

لا يزال العالم الجليل رفيق بك العظم ، وكثير من العلماء المعروفين في الشرق ، يسبغون على التاريخ الإسلامى صفة من الجلال والتقديس الدينى ، أو الذى يشبه الدينى . تحول بين العقل وبين النظر فيه نظراً يعتمد على النقد

(١) نشر في ٦ رجب سنة ١٣٤١ هـ - ٢٢ فبراير سنة ١٩٢٣ م .

والبحت العلمى الصحيح ، فهم يؤمنون بمجد القدماء من العرب وجلال
خطرهم وتقديس مكانتهم ، وهم يضيئون إليهم كل خير ، وينزهونهم عن كل
شر ، وهم يصفونهم بجلال الأعمال ، ويرفعونهم عن صغائرها ، وهم يتخذون
ذلك قاعدة من قواعد البحث ، ومقياساً من مقاييس النقد ، فإذا أضفت
إلى الرشيد شيئاً فليس هذا الشيء صحيحاً إلا إذا كان فى نفسه خليقاً بالرشيد ،
يليق به وبمكانته ، وليست هذه المكانة هى مكانته فى نفسها ، وإنما هى المكانة
التي خلعها عليه القدم ، وبعد العهد ، وجلال الخلافة ، وكرامة الدين ، وسطوة
الأمة العربية .

فأما النقد التاريخى من حيث هو نقد تاريخى ، فأما النظر إلى الناس
من حيث هم ناس ، ووصفهم بما يمكن أن يوصف به الناس ، وتحليل أخلاقهم
وعاداتهم كما تحلل أخلاق الناس وعاداتهم ، والملاءمة بين هذه الأخلاق
والعادات ، وما اكتنفها من الظروف والأحوال ، فذلك شئ قلما يفكر
فيه هؤلاء العلماء أو يلتفتون إليه .

ولست أغض من هؤلاء العلماء وإنما أجلهم وأكرمهم ، وحسبك أن
إمامهم فى هذا المذهب هو ابن خلدون ، ولعلك تعلم أنى أجل ابن خلدون
وأكبره ، ولكنى أخالفهم فى رأى ، وأرى أن مذهبهم فى التاريخ غير مستقيم ،
وأنه خليق بأن يتغير ، وأنه سيتغير بدون شك ، بل أنا أرى أكثر من هذا ،
أرى أن هذا المذهب - مذهب تقديس السلف وتنزيهه عن الصغائر ، مذهب
إسباغ الدين على التاريخ - طور من أطوار التاريخ لا بد من أن يمر به ، بل طور
من أطوار الحياة العقلية والسياسية للناس ، لا بد من أن يمروا به ، وقد خضعت

لهذا الطور أمم أخرى غير العرب ، فكتب مؤرخوها كما يكتب
الأستاذ رفیق بك العظم ، ورأوا في الآباء والأجداد ما يرى في قدماء العرب .
ذلك أن هذه الأمم إذا اضطرتها صروف الحياة إلى أن تنزل عن مجدها ،
وتحط عن مكانتها العالية ، فتخضع لخطوب الدهر حيناً ، وتنال من العزة
والسلطان ، ثم استفاقت من هذا النوم ، وتنبهت بعد الغفلة ، وطمحت إلى أن
تسترد المجد القديم ، وتستأنف سيرها في سبيل العلياء ، فأول شعور تجده
في نفسها إنما هو الشعور بهذا المجد القديم ، والحاجة إلى إجلال أصحابه
وإكبارهم واتخاذهم مثلاً علياً .

فأنت لا تنظر إلى هؤلاء الناس نظراً علمياً مجرداً بريئاً ، وإنما تنظر
إليهم نظراً متهماً ، ملوّه الإعجاب والإكبار ، لأنك تتأثرهم ، وتحتذى على
مثالهم . وإذن فرأيك فيهم غير صحيح ، وحكمك لهم أو عليهم متهم ،
وكيف تستطيع أن تجمع بين الإعجاب الذي لاحدّ له ، وبين النقد العلمى الذى
لا يعرف الهوى ، ولا يتأثر بالميول والعواطف ! ومن هنا يتأثر بحمك ونقدك
بهذا الإعجاب ، وهذا الميل إلى الاحتذاء والتقليد ، فتصرف همتك إلى أن
تبرىء موضع إعجابك من كل عيب ، وتدفع عنه كل مكروه ، وتبذل
ما تستطيع من قوة وجهد ، لتوجد فناً من النقد التاريخى له قيمته وخطره .

ولكن الغاية التى يسمو إليها ليست علمية بالمعنى الصحيح ، لأنه يسمو
إلى التنزيه والتمجيد ، لا إلى التحقيق الذى لا يسمو إلى مدح ولا إلى ذم ، والذى
لا يحفل بحمد أو هجاء .

انظر إلى مقدمة ابن خلدون ، وإلى القسم الأول من هذه المقدمة ،
انظر بنوع خاص إلى منهجه التاريخي ، وإلى هذا النقد الذي بسطه ليبين
أغلاط المؤرخين وتورطهم في ضروب من الخطأ في الحكم ، تجده قد تصور
قواعد علمية لا بأس بها ، فهو يكره الغرض والهوى ، ويحذر من أخطار
كثيرة تحيط بكتاب التاريخ ، ويجب عليك ، أو يحتم عليك ، تحكيم العقل
فيما يروى لك من الحوادث ، وهو يصل من هذا كله إلى استكشاف قوانين
قيمة في النقد التاريخي ، ولكنه لا يكاد يعرض لتطبيق هذه القوانين كما
يقولون ، حتى يتورط في مثل ما تورط فيه المؤرخون من قبل ، لأنه متأثر بمجد
القدماء ، وصلاح القدماء ، وطهارة القدماء ، وانحطاط المعاصرين ، وفساد
أخلاقهم وأحوالهم .

فهو إذا أراد مثلاً أن يصحح نسب الدولة الإدريسية في المغرب الأقصى
لم يعتمد إلى بحث تاريخي ، وإنما استدل على صحة هذا النسب بحديث
شريف ، فيه أن الولد للفراس وللعاشر الحجر ، وهو إذا أراد أن يدفع عن
الرشييد ما اتهم به من العبث والمجون ، لم يذهب مذهب المؤرخين في ذلك ،
وإنما تحدث إليك بأن الرشييد كان يصلي مائة ركعة في اليوم ، وكان يحج
سنة ويفز سنة أخرى ، وإذا كان هذا شأنه فليس من الممكن أن يعبت ،
ولا أن يلهو .

ولم يفكر ابن خلدون في أن من حق مؤرخ آخر ، أن ينكر عليه أن
الرشييد كان يصلي مائة ركعة في اليوم ، أو أن يزعم له أن الرشييد كان يجمع بين
الصلاة وبين العبث ، ولم يخطر ذلك لابن خلدون ، لأن ابن خلدون كان

يعجب بالرشيد ويكبره ، ويريد أن يضعه هو وأمثاله من الخلفاء موضع القدوة الصالحة والمثل الأعلى .

ولقد أذكر رسالة صغيرة قرأتها للمؤرخ اليوناني « بلوتارك » « Plutarque » قصد بها إلى نقد « هيرودوت » « Hérodote » واتهمه فيها بالكذب والافتراء ، وكان لهذه الرسالة في العصر القديم شهرة أساءت إلى « أبي التاريخ » فظن فيه الناس الظنون ، لأنه اتهم قدماء اليونان وأبطالهم في الحرب الفارسية اليونانية بالنقائص المختلفة ، فوصف بعضهم بالخيانة ، وبعضهم بالغدر ، وبعضهم بالجن ، وبعضهم بالرشوة . ونهض « بلوتارك » للدفاع عن هؤلاء الأبطال فزعم أن « أبا التاريخ » كاذب ، وأن هؤلاء الأبطال أرفع مكانة ، وأعلى منزلة ، وأجل خطرا ، من أن يقعوا في مثل هذه الآثام .

وقتن اليونان بهذا النقد لأنه يبرئ الآباء والأجداد من هذه النقائص ، فلما كان العصر الحديث ، وكان استكشاف الآثار اليونانية ، وكان استكشاف مناهج النقد الحديثة في التاريخ ، ظهر أن « هيرودوت » لم يكذب ولم يتكلف ، وأن « بلوتارك » هو الذي تكلف تقديس الناس وتبرئتهم مما لا يبرأ منه الناس .

وليس هذا بغريب ، فقد عاش « أبو التاريخ » في أيام مجد اليونان وعزتهم فلم يكن يؤذيه ، ولم يكن يؤذى اليونان ، أن يصف أبطالهم بما لا يسلم منه الناس من العيوب ، وعاش « بلوتارك » أيام ذلة اليونان ، وانحطاطهم

السياسى ، فكانت هذه النقائص تؤذيهم ، وكانوا محتاجين إلى المبالغة في مجدهم التليد حين أعوزهم المجد الطريف .

هذه حالنا ... ليس لنا مجد ولا مآثرة ، فنحن ننتحل مجد الآباء والأسلاف زينة لنا واقتخارا ، ويخيل إلينا أن وصف هذا المجد بأوصافه الطبيعية لا يغض من الأسلاف وخدمهم ، وإنما يغض منهم ومنا . أليس كذلك وإلا فما مفاخرتنا بالعرب ؟ وما مفاخرتنا بالفراعنة ؟ وما مفاخرتنا بآثار العرب والفراعنة ؟ ضرب من الغرور ، نخفى به مانحن فيه من جهل وانحطاط وضعف .

لقد كان رواة العرب ومؤرخوهم الذين عاشوا أيام مجد العرب وعزتهم ، لا يكرهون أن يصفوا خلفاء العرب وأمراءهم ، بما يتصف به الناس من نقص ، لأن هذا الوصف لم يكن يؤذيهم ، ولا يؤذى العرب في أيامهم ، وحسبك أن تقرأ ، لأقول كتابا بعينه ، وإنما أقول فى أى كتاب من كتب الأدب والتاريخ ، لترى خلفاء العرب وأمراءهم وذوى المكانة فيهم ، يوصفون بالخير والشر ، بالرفعة والضعفة ، بما هو مشرف وبما هو مُزِر ، ذلك لأن هؤلاء الناس كانوا ناساً لاملانكة .

يقول الأستاذ وأصحابه إن هذه الأخبار مختلفة منتحلة ، وأنا أول من يعترف بأن كثيرا من الأخبار مختلف منتحل ، ولكنى لأستطيع أن أومن بأن كل خبر يصف القدماء بما لا يرضى منتحل ، وأن كل خبر يصفهم بما يرضى صحيح .

هذا إسراف ، وإسراف كثير ، وإنما القصد والإنصاف هو أن

تعرض لهذه الأخبار المختلفة بالنقد والتمحيص ، فتبين بقدر ما تستطيع ما كان منها صادقا ، وما كان منها متحلا ، وأنا أزعم أن كثيرا جدا من هذه الأخبار صادق ، وأزعم أن كثيرا جدا من خلفاء بني أمية وبني العباس كانوا كما يقول الرواة يعبثون ويصطنعون ضروب اللهو ، ويستمتعون بفنون من اللذات كان يكرهها الدين . لقد كان « اغسطس » و « نيروس » و « نيرون » كبار الكهنة في روما ، ولكنهم كانوا قياصرة أيضا ، فكانوا يؤدون للدين حقه ، وكانوا يؤدون للدنيا حقه .

ولقد كان لويس الرابع عشر والخامس عشر مظهرًا لقوة المسيح في فرنسا ، ولكنهما كانا في الوقت نفسه مظهرًا لسلطان الفرنسيين ، وثرثرة الفرنسيين ومجون الفرنسيين ، فكانا يصليان ، وكانا يعبثان ، وكانا يسمعان وعظ آباء الكنيسة وخطبائها ، وكان هذا الوعظ يوجه إليهما عنيقا خيفا كأنه الصواعق ، فيعجبان ويفزعان من سخط الله ، ثم ينصرفان إلى القصر فما هي إلا أن يتورطا في الموبقات .

ولا تقل كان هذان مسيحيين ، وكان قياصرة الرومان وثنيين ، وكان خلفاؤنا مسلمين ، فقد تختلف الديانات في جوهرها ، ولكن الأثر الديني في نفوس الناس واحد لا يكاد يختلف ، فمن المسيحيين والوثنيين أتقياء ورعون ، كما أن من المسلمين والإسرائيليين أتقياء ورعين ، ولا تقل إن مجد العرب وما كانوا يأتون من جلائل الأعمال وما كانوا يقومون به من فتح وبسط للسلطان ، كان يحول بينهم وبين اللهو والعبث ، فأنا أؤكد لك أن « اغسطس » لم يكن خاملا ولا عاجزا ، وأن لويس الرابع عشر لم يكن كسلا ولا مغرقا في النوم .

وما رأيك في أن عصر الثورة الفرنسية ، وهو عصر هذا الجد المفزع
الخفيف كان أشد العصور الفرنسية دعابة ومجونا ، وكانت تجري فيه أنهار
الدماء وأنهار الحمر .

وما رأيك في هذا العصر الذي نعيش فيه ؟ وما رأيك في الحرب
الكبرى ، وما جرت على أوروبا من هول ؟ أأتظن أن الأوروبيين انصرفوا
إلى جد هذه الحرب وأخطارها ، عما في الحياة من عبث ولهو ؟ كلا ! لقد ازداد
سلطان اللهو ثباتا في أوروبا ، ولقد كان الجندي يقتتل ويتعرض لألوان
الهول حتى إذا ظفر باليوم ، أو الأيام بعيدا عن ساحة القتال ، اندفع في لذاته
وشهواته اندفاعا لم يكن يعرفه قبل الحرب . . . ماذا أقول ؟ لقد كانت تحمل
إليهم اللذات في ميدان القتال ، فكانت أصوات المدافع ودويها لا تمنع
أصوات المغنين والمغنيات والممثلين والممثلات أن تصل إلى آذان الجند ،
وكانت المنايا ترقص أمام هؤلاء الجند فترعهم ، فإذا ساموا منها وظفروا
بوقت الراحة ، ذهبوا فاستمتعوا برقص الراقصات ، ولم يمنعهم هذا كله أن
يظفروا بالمجد سواء منهم الغالب والمغلوب .

فلم يكن الدين إذن ليمنع الأمويين والعباسيين أن يستمتعوا بلذات الحياة ،
ولم يكن الفتح ليمنعهم أن يستمتعوا بهذه اللذات ، ولم يكن العلم ليحول بينهم
وبين ذلك ، فما كان حظهم من العلم ، بأكثر من حظ المعاصرين من أهل
أوروبا وأمريكا ، ولقد كان حظهم من اللذة أقل من حظ المعاصرين من أهل
أوروبا وأمريكا .

خليق بنا أن نتدبر حين نقرأ التاريخ ، ونحاول فهمه وتفسيره ، خليق

بنا أن نفهم قانونين وضعهما ابن خلدون ، ولكن أن نفهمهما أحسن مما فهمهما ابن خلدون ، وهما : أن الناس جميعا متشابهون مهما تختلف أزمntهم وأمكنتهم ، وأن الناس جميعا مختلفون مهما تشتد بينهم وجوه الشبه .

يجب أن نفهم هذين القانونين ، وأن نحسن الملاءمة بينهما ، وأن نعرف فيم يختلف الناس ، وفيم يتشابهون ، وما أثر هذا الاختلاف وهذا التشابه ؟ ونحن إذا فهمنا هذين القانونين عرفنا أن العصر العباسى قد كان كغيره من عصور المجد والحضارة ، فيه جد وهزل ، وفيه شك ويقين .

وأنا أزعـم - وأعتقد أنى قادر على إثبات ما أزعـم - أن القرن الثانى للهجرة قد كان عصر لهو ولعب ، وقد كان عصر شك ومجون ، وكل شىء يثبت صحة هذا الرأى ، فقد كان هذا العصر عصر انتقال من بدواة إلى حضارة ، ومن سذاجة إلى تعقيد ، ومن فطرة خالصة إلى علم وفلسفة ، وقد كان فوق هذا كله عصر امتزاج بأمم مختلفة ، وشعوب متباينة ، منها البدوى والحضرى ، ومنها الجاهل والعالم ، ومنها الغنى والفقر .

أقترى أن تختلط هذه الأمم وتمتزج هذه الشعوب ، دون أن تضطرب لهذا الاختلاط والامتزاج أخلاق وعادات ونظم ؟ دون أن ينهار بناء قديم ويقوم بناء جديد ؟ إنك لاتستطيع أن تعزج طائفة من عناصر الكيمياء المختلفة دون أن يحدث لهذا الامتزاج اضطراب وانقلاب جديدان ، أقترى أن يمتزج العربى والفارسى والمصرى والرومى . وأن تبقى الأخلاق والعادات كما كانت دون أن ينالها فساد أو اضطراب ؟ ذلك شىء . تستطيع أن تفترضه فى الخيال ، فأما فى الحياة الواقعة فليس إليه من سبيل .

هأنحن أولاء عاشرنا الأوروبيين معاشرة ليست بالقوية ولا المتصلة ،

فانظر إلى أثرها القوى العميق في حياتنا العامة والخاصة ، ثم حدثني عما يمكن أن يحدث لو أن الاتصال بيننا وبين الأوروبيين كان من القوة والعمق بحيث كان الاتصال بين العرب والفرس والروم ، لست أدري لم تفرق بين هذه العصور والأجيال المتشابهة وإن اختلفت ، المتفقة وإن افرقت .

يجب أن نفهم قانوني ابن خلدون . فالناس جميعا متشابهون مهما تختلف أزمتهم وأمكنهم ، مختلفون مهما تشدد بينهم وجوه الشبه .

أنا أزعم إذن أن القرن الثاني للهجرة كان عصر شك ومجون ، وأزعم أن كل شيء في هذا العصر يؤيدني في هذا الرأي ، وحسبي أن ألفت الأستاذ رفيق بك إلى أن هذا القرن قد بدأ بخلافة الوليد بن يزيد ، وختم بخلافة الأمين بن الرشيد ، وأحب أن يقارن بين هذين الخليفتين ، ثم ألفت الأستاذ إلى بشار ، وطيع ، وأبي نواس ، والرقاشي ، والعباس بن الأحنف ، ومسلم ابن الوليد ، وحماة مجرد ، ويحيى بن زياد ، وابن المقفع ، وأبان بن عبد الحميد ، وغيرهم من الشعراء والكتاب والمفكرين ، ولا أريد أن أذكر الفقهاء وأصحاب الكلام مخافة أن يغضب المتحرجون .

ألفت الأستاذ إلى هؤلاء جميعا ، وأحب أن يقرأهم ويدرس حياتهم على هذه القاعدة وهي أنهم ناس لاملائكة . ولكنني أخشى ألا يفعل الأستاذ لأنه اتخذ لنفسه قاعدة تقديس القدماء ، أما أنا فلا أقدر القدماء ، وإنما أنظر إليهم كما أنظر إليك وإلى نفسي ، وأعلم أنهم مثلك ومثلي يجدون ويمزحون ، يحسنون ويسيثون ، وعلى هذه القاعدة وحدها حدثتك فيما مضى ، وعلى هذه القاعدة نفسها سأحدثك في الأسبوع الآتي عن الحمر عند أبي نواس .

الحجر قبل أبي نواس^(١)

الأعشى - عدى بن زيد العبادى -

المنخل اليشكرى - عصر الخلفاء -

عصر الأمويين - الأخطل -

الوليد بن يزيد .

لا يمتاز أبو نواس من معاصريه بالمدح ولا بالهجاء ، ولا بالفخر ، ولا بالوصف ، ولا بغير هذه الفنون مما ألف الشعراء المتقدمون أن يخوضوا فيه ، وإن كانت شخصية أبي نواس ظاهرة محبة إليك وإلى في هذه الفنون نفسها ، كما سنرى ذلك عند ما نعرض لهذا النحو من شعره ، وإنما يمتاز أبو نواس بشعره في الحجر ، وبافتقانه في المجون كما يمتاز بغزله وحسن مداعبته للنساء والغلمان .

ومع هذا فأبو نواس لم يخترع هذه الفنون ، ولم يسبق إليها ، بل هو لم ينفرد بها في عصره ، وإنما سبقه إليها كثير من الشعراء في الجاهلية وفي الإسلام ، ونافسه فيها كثير من معاصريه إن لم نقل جميع معاصريه ، سبقه إليها كثيرون ، ونافسه فيها كثيرون ، ولكنه امتاز ممن سبقه ومن عاصره ومن لحقه ، وظل زعيم القدماء ، وزعيم المحدثين في الحجر والغزل والمجون . ولو أننا نعنى في هذه الأحاديث بالتعميق في البحث العلمى ، لكان من

(١) نشرت بالسياسة في ١٢ رجب سنة ١٣٤١ هـ ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٣ م .

الحق علينا قبل أن نصف خمریات أبی نواس أن ندرس مع شیء من التفصیل
 خمریات الشعراء الذین سبقوا أبی نواس ، وأن نجتهد فی أن نتبین المقدار الذی
 سبق إليه أبو نواس ، لنعرف ما اخترع وما استحدث ، ولیکون حکمنا له أو
 علیه صحیحاً من کل وجه ، ولکنک تذكر أننا لا نزعّم لهذه الأحادیث صفة
 البحث العلمی المستقصی ، لأن هذا البحث لا یلیق بالصحف السیارة ، ولا
 بالأحادیث التی تقرأ ، أو تسمع فی أى مکان وعلى أى حال ، دون أن یختصها
 القارئ أو السامع بعناية أشد من عنايته بما ینشر فی هذه الصحف من
 ضروب الکلام .

قلیل من شعراء الجاهلیة من لم یرض للخمر فی شعره ، فأكثر هؤلاء
 الشعراء كانوا یشربون الخمر ، ومنهم من کان شربه لها متصلاً ، ومنهم من
 کان یلمّ بها إلاماً ، وكانوا یصفون هذه الخمر وأقداحها وآنيتها المختلفة ،
 ولهم فی ذلك الکلام الجید الكثير ، ولاسیما « الأعشى » الذی أكثر فی
 الخمر وأطال ، واشتهر بأنه من وصافها المجیدین ، واستطاع ابن الأعرابی أن
 یزعم للمأمون أنه أشعر من وصف الخمر لقوله :

ثُرَیْكَ الْقَدَى مِنْ فَوْقِهَا وَهِيَ فَوْقَهُ إِذَا ذَاقَهَا مَنْ ذَاقَهَا يَتَمَطَّقُ
 بل ربما کان لنا أن نقول إن أبی نواس نفسه قد عدا على الأعشى فأخذ

منه شیئاً لیس بالقلیل ، وأخذ منه بنوع خاص نصف هذا البیت المشهور :

دَعْ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءٌ وَدَاوِنِي بِأَلَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ

فالصلة ظاهرة بین هذا الشطر الأخير « وداونی بالتی كانت هی الداء »

وبین قول الأعشى :

وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

فليس من شك في أن أبو نواس قد ذكر هذا البيت حين قال شطره السابق ، ولكنّ أبو نواس لم يأخذ اللفظ ، بل ولم يأخذ المعنى دون أن يصلح ويغير ويضيف ، فإن قوله « دع عنك لومي فإن اللوم إغراء » ليس في شعر الأعشى ، وهو يكفي لأن يحتفظ لأبي نواس بالبيت كله ، وقوله « وداوني بالتي كانت هي الداء » يذكر بقول الأعشى ، ولكنه ليس إياه ، لأن الأعشى لم يرد أن يقول إلا أنه كان يشرب كأسا ويتداوى بكأس أخرى ، فعناه ضيق محدود ، بينما أبو نواس قد مدّ هذا المعنى وبسط أطرافه ، فأصبح لا حدّ له ، أصبح يرافق الحياة ، أصبحت الحُر داء ملازما لمن يشربها ، وأصبحت هي دواء لهذا الداء . فهو يتداوى طول حياته من الحُر بالحُر . أما الأعشى فكان يتداوى من كأس بكأس ، كان لا يذكر الداء والدواء إلا اذا شرب ، بينما أبو نواس لا ينفك يذكرهما ، لأنه لا ينفك في داء ودواء .

وللأعشى غير هذا كثير ، ولكننا لا نعرض له ، لما قدمنا ، وهناك شاعر آخر جاهلي ، يظهر أنه قد عني بالحُر وأجاد فيها اجادة لا بأس بها ، وكان مسيحيا عاش قبل الاسلام ، ولم يكن باديا بمعنى الكلمة ، وإنما كان حاضرا أو كالحاضر ، وكان يعيش في هذا الإقليم الذي عاش فيه أبو نواس ، وكان يختلف إلى الأديرة ومساكن الرهبان التي ربما اختلف إليها أبو نواس بعده بنحو قرنين ، وكان هذا الشاعر يجيد في معان أجاد فيها شعراء العراق ، كان يجيد في الحُر ، وكان يجيد في الزهد ، والنسك ، وضرب الأمثال ، وإطلاق

الحكيم البالغة ، كان يجيد حيث أجاد أبو نواس ، وكان يحسن حيث أحسن أبو العتاهية ، ويروى له غزل لا بأس به ، وهو «عدي بن زيد العبادي» الذي عاش في الحيرة في أواخر العصر الجاهلي . لم يرو الرواة له كثيراً في البحر ، ولكن ما يروى عنه يدل على أنه كان بها كلفاً ، وفيها مجيداً ، وانظر إلى هذه الأبيات القليلة ، التي يختلف فيها الرواة اختلافاً كثيراً ، والتي كانت تغنى للوليد بن يزيد فيستعذبها ويشرب عليها حتى يسكر :

بَكَرَ الْعَاذِلُونَ فِي وَضَحِ الصُّبْحِ حِ يَقُولُونَ لِي أَمَا تَسْتَفِيقُ
وَيَلُومُونَ فِيكَ يَا بَنَةَ عَبْدِ اللَّهِ وَالْقَلْبُ عِنْدَكُمْ مَوْثُوقُ
لَسْتُ أَذْرِي إِذَا كَثُرُوا الْعَذْلَ فِيهَا أَعْدُوْهُ يَلُومُنِي أَمْ صَدِيقُ
ثُمَّ تَارُوا إِلَى الصَّبُوحِ فَقَامَتْ قَيْنَةٌ فِي يَمِينِهَا إِبْرِيْقُ
قَدَّمَتْهُ عَلَى عُقَارٍ كَعَيْنِ الْإِ دِيكَ صَفَى سُلَافَهَا الرَّأْوُوقُ
مُرَّةً قَبْلَ مَرْجِهَا فَإِذَا مَا مُرَجَّتْ لَدَى طَعْمَهَا مَنْ يَذُوقُ
وَطَفَتْ فَوْقَهَا فَقَافِعُ كَالدُّ رِّ صِغَارُ يُثِيرُهَا التَّصْفِيقُ

ففي هذه الأبيات على جاهليتها رقة الحضارة ، دون أن تخلو من رصانة البداوة ، ولا بأس بهذا البيت الأخير الذي يصف ما يبدو على البحر حين تمزج ، فيذكر على بعد بقول أبي نواس :

كَأَنَّ صُغْرَى وَكَبْرَى مِنْ فَقَافِعِهَا حَصْبَاءَ دُرٍّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ
ولا بأس بهذه الصورة التي يظهرها قوله :

ثُمَّ تَارُوا إِلَى الصَّبُوحِ فَقَامَتْ قَيْنَةٌ فِي يَمِينِهَا إِبْرِيْقُ
ولو أن لدينا شيئاً كثيراً من شعر هذا الشاعر في البحر وغير البحر ،

لاستطعنا أن نتبين شيئاً من الصلة القوية بينه وبين شعراء العراق في العصر العباسي ، وأن نستخلص من هذا بوضوح أثر الإقليم العراقي ، والبيئة العراقية في الشعراء على اختلاف عصورهم وأحوالهم الاجتماعية ، ولكن ما يروى عن هذا الشاعر قليل جداً ، وأكثره مشكوك فيه ، وأحسب أن الحظ الموفور منه - ولا سيما الزهد والحكم - قد نحل في العصر الإسلامي وأضيف إلى هذا الشاعر ، لأن ذاكرة الرواة حفظت عنه قليلاً من الزهد ، فأضاف المنتحلون إلى هذا القليل ما يجعله كثيراً ، وهذا الانتحال على الجاهليين معروف مشهور .

فالجاهليون إذن وصفوا الخمر ، وأجادوا فيها بعض الإجادة ، ولكن وصفهم لم يكن عميقاً ، ولم يصطنع فيه التدقيق ، وإنما كانوا يقتنعون بالظواهر فيصفون لون الخمر ومظهرها ، ويصفون أقداحها وأباريقها وصفاً مجملاً ، ويصفون طعمها ، ويصفون ما تحدث من نشوة غير مبالغين في هذا الوصف ولا مسرفين في البحث عن الدقائق ، بل إنما كانوا يقصدون ، حين يصفون الخمر ، إلى الفخر والتمدح بالمحاسن وكرام الخلال ، فكثير جداً في ذلك العصر ما يشبه قول عنتره :

وَإِذَا شَرِبْتُ فَإِنِّي مُسْتَهْلِكٌ مَالِي وَعِرْضِي وَافِرٌ لَمْ يُكَلِّمْ
وكثير جداً ما يشبه هذه الأبيات التي قالها « المنخل اليشكري » في وجهتها ، وهي الفخر ، لافي معانيها . وهي من أبدع ما يروى عن الشعراء الجاهليين ، ولكن لا تنس أن المنخل اليشكري شاعر من شعراء العراق أيضاً ، كان يعيش في الحيرة ، وينادم النعمان ، ويعاصر النابغة ، وهذه هي الأبيات :

وَلَقَدْ دَخَلْتُ عَلَى الْفَتَاةِ الْخَدَرِ فِي الْيَوْمِ الْمَطِيرِ

فَلْ فِي الدَّمَقْسِ وَفِي الْحَرِيرِ	الْكَاغِبِ الْحُسْنَاءِ تَرَى
مَشَى الْقَطَاةَ إِلَى الْغَدِيرِ	فَدَفَعَتْهَا فَتَدَفَعَتْ
كَتَنَفُسِ الظَّيِّ الْبَهِيرِ	فَلَتَمَّتْهَا فَتَنَفَسَتْ
مَعَ الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ	وَلَقَدْ شَرِبْتُ مِنَ الْمَدَا
رَبُّ الْخَوَزِ نَقِ وَالسَّيْرِ	فَإِذَا سَكِرْتُ فَإِنِّي
رَبُّ الشَّوْهِةِ وَالْبَعِيرِ	وَإِذَا صَحَوْتُ فَإِنِّي
يَاهِنْدُ لِلْعَانِي الْأَسِيرِ	يَاهِنْدُ مَنْ لِمُتِّمٍ

فانظر إلى أول هذا الشعر، كيف أحسن تصوير هذه الفتاة، وكيف ذكر يوم لهوه، ثم انظر إلى هذين البيتين، أحدهما يشبه تدافع الفتاة بمشى القطاة إلى الغدير، والآخر يصور رغبة الفتاة ورهبتها، ويتخذ اضطراب تنفسها صورة لانخلاع قلبها، ثم انظر إليه كيف عرض للخمر، فلم يزد على أنه قد شرب منها بالكأس، وشرب منها بالقدرح، وعلى أنه قد يسكر فيخيل إليه أنه الملك ذو القصر، وينسى حياته الحقيقية فلا يذكرها، إلا إذا صحا فرأى الشاة ورأى البعير.

وانظر إلى قول الآخر، من شعراء الجاهلية:

وَمُعَرَّسٍ عَرَضَ الرَّدَى عَرَسُهُ	وَالصَّبْحُ سَاطِعٌ لَوْنُهُ لَمْ يَنْجَلِ
فَأَتَيْتُ حَانُوتًا بِهِ فَصَبَحْتُهُ	مِنْ عَاتِقٍ بَزَاجِهَا لَمْ تُقْتَلِ
صَهْبَاءَ صَافِيَةِ الْقَدَى أَغْلَى بِهَا	يَسَرُّ كَرِيمُ الْخِيَمِ غَيْرُ مُبْخَلِ

فالجاهليون كانوا يصفون الخمر، ولكنهم لم يكونوا يعنون في هذا الوصف إمعانهم في وصف الخيل والإبل، وما إلى الخيل والإبل، لأنهم لم

يكونوا من النعمة ولين العيش بحيث يستطيعون أن يعكفوا عليها ،
ويعاشروها معاشرة متصلة ، كما كانوا يعاشرون الابل والشاء ، وإنما كانت
تسبح للكثير منهم فرصة اليوم أو الساعة ، يشرب فيها ويلهو ، فإذا فرغ
من شربه ولهوه تحدث بذلك مفاخرا ، وربما وصف الخمر وذكر اللهو وهو
لم يشرب ، ولم يأخذ من اللهو بحظ ، وإنما دعاه إلى ذلك الفخر والفن ، فقد
دخل وصف الخمر والإلحاح بها في فن الفخر ، والتحدث بما يمتاز به
المفاخر من الكرم والسخاء ، ومن العفة حين يدعو كل شيء إلى اطراح
العفة ، إلى غير ذلك من هذه المعاني الشائقة ، التي تجدها عند الجاهليين جميعا .
فإذا أردت أن تذكر هذا الفن عند الجاهليين بشيء يشخصه ، وجدت
صفتين اثنتين : الأولى أن الشعراء كانوا يلمون بالخمر إلحاحا ، ولا يلحون في
وصفها ولا يكثر من منه ولا يدقون فيه ، وإنما كانوا يعرضون له مع شيء
من الاحتياط . الثانية : أنهم لم يتخذوا وصف الخمر فنا مستقلا من فنون
الشعر ، كما اتخذوا المدح والهجاء والفخر وما يشبه هذه الفنون .

ولم يكن من الممكن أن يستقل وصف الخمر في هذا العصر ، ويصبح فنا
قائما بنفسه يقصد من حيث هو ، لأن الحياة الجاهلية لم تكن تسمح بذلك
ولا تدعو إليه ، ولهذا اشتهر الأعشى ، وعدى بن زيد بكثارتها في وصف الخمر
لأن ذلك لم يكن شيئا مألوفاً ، فلما جاء الإسلام سكنت الناس عن الخمر حينئذ ،
صرفهم عنها الدين ، وصرفهم عنها جد الخلفاء ، وصرفهم عنها الفتح والاستعمار ،
ومع ذلك فيظهر أن الشعر وحده ، هو الذي سكنت عن الخمر خوفا وإشفاقا ،
وأن كثيرا من العرب ، البادين والمتحضرين ، كانوا لا يرضون على أنفسهم

هو الذى فتح هذا الباب لمن جاء بعده من الشعراء . وهو من هذه الجهة
سيئ الحظ ، لأن شعره ضاع ولم يحفظ ، وتفرقت شخصيته بين الشعراء ،
فلم يبق منها إلا خيال ضئيل تنم به أخباره فى الأغاني .

نقول : إن الوليد هو الذى فتح للشعراء باب المجون ، ونريد مع هذا أن
تحفظ ونحتاط ، حتى لا يغضب الأستاذ رفيع بك العظم وأصحابه ، فنحن
نعلم أن الوليد كان مضطهدا فى حياته أيام عمه هشام ، وأنه اضطهد بعد موته ،
ولاسيما أيام بنى العباس ، وأن خصومه وأعداءه من الأمويين والعباسيين قد
أضافوا إليه من الشعر والحوادث ما لم يقل ، ولم يعمل ، وإذن فيجب الاقتصاد ،
والحذر ، عند قراءة ما يضاف إليه ، ومع هذا الاقتصاد والحذر فليس من شك
فى أن الوليد كان ماجنا خليعا ، وكان مسرفا فى الخلاعة والمجون .

ولم يكن إسرافه فى الخلاعة والمجون أثرا من آثار اللذة ، والكلف بها
خسب ، وإنما كان فيما يظهر أثرا من آثار اضطراب الدين ، وفساد العقيدة
فى نفسه ، كان أثرا من آثار البدع الجديد ، الذى نشأ من اختلاط المسلمين
بأهل النحل المختلفة ، فأحدث الشك والإلحاد فى نفوس نفر منهم غير قليل ،
فلم يكن مؤمنا بالبعث ، ولا بالعقاب والثواب ، وكان مع هذا يؤدى فرائضه
الدينية ، فيصلى ويصوم لأن الناس كانوا يصلون ويصومون ، ولأنه كان
وليا لعهد الناس ، أو خليفة على الناس ، وانظر إلى هذه الآيات :

أَدِرِ الْكَأْسَ يَمِينًا لَا تُدْرِهَا لَيْسَارَ
اسْقِ هَذَا ثُمَّ هَذَا صَاحِبَ الْعُودِ النَّضَارَ
مِنْ كُمَيْتٍ عَتَقَوَهَا مُنْذُ دَهْرٍ فِي جَرَارِ

خَتَمُوهَا بِالْأَفَاوِيهِ وَكَافُورٍ وَقَارٍ
فَلَقَدْ أَتَيْتُ أَنِّي غَيْرُ مَبْعُوثٍ لِنَارٍ

وَذَرُّوا مَنْ يَطْلُبُ الْجَنَّةَ يَسْـَٔلِي لَتَبَارٍ

في هذا الشعر شيء من روح أبي نواس ، ولكنه لم يبلغ من الصقل ، وصفاء الأديم ، ما بلغه أبو نواس ، والوليد يعترف فيه بأنه لن يبعث ولن يعذب ، وإذن فليستمتع بالذات ، وليدع الأتقياء يشقون بخيال الجنة الذي يسعون إليه ، بل هو لا يريد أن يدع هؤلاء الناس ، وما يسعون إليه من نعيم ، حق أو باطل ، وإنما يريد أن يروضهم ، حتى يصل بهم إلى ما يريد من إنكار كل شيء ، والعبث بكل شيء ، سواء في ذلك الدين والخلق والعادة . ولقد تحدث بعض الرواة أنه حضر الوليد وهو خليفة ، فلما كانت العصر نهض فصلاها ، ثم جلس يتحدث ، فلما كانت المغرب نهض فصلاها ، ثم تعشى ، ثم صلى العشاء ، وأخذ يتحدث ، ثم قال : استقيني ، فأقبلت جوار ، فقم بينه وبين الراوى ، فسقينه ، وأخذ يقول : استقيني ، وأخذ الجوارى يسقينه ، حتى أقبل الفجر ، قال الراوى : فأحصيت له سبعين قدحا .

ومثل هذا كثير في أخبار الوليد ، والناس يروون أنه سكر يوما ، فأمر جارية له ، فصلت بالناس ، ولم يكن الوليد مغرقا ، ولا مندفعاً في اللذات اندفاعاً غير منظم ، لم يكن سكيراً معربداً ، وإنما كان في قلبه مكان للحب ، وللحب القوى المتين ، فقد كلف بسامى بنت سعيد بن عمرو بن عثمان ، وكان قد تزوج أختها فطلقها وأراد أن يتزوج سامى ، فحال هشام بينه وبين

باللهو، يختلسونه اختلاسا ويسترقونه استراقا، وللرواة في ذلك أحاديث منها الصحيح، ومنها المتكلف المنحول. فهناك بيت يحضرنى ولست أدري لمن هو، ولكنى أعلم أنه قيل أيام عمر رضى الله عنه، وأنه موجه إليه وهو:

لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسْوُوهُ تَنَادُّمُنَا فِي الْجَوْسَقِ الْمُتَهَدِّمِ

وقصة الوليد بن عقبة - عامل عثمان رضى الله عنه على الكوفة - شائعة معروفة، والرواة يزعمون أنه كان يدمن على الشراب، وأنه صلى بالناس الصبح مرة وهو سكران، فركع ثلاثا ثم التفت إلى المصلين وقال «إن شئتم زدنا كم!!» ويروى الرواة أن عثمان أمر بحجده! وأن عليا رضى الله عنه هو الذى ضربه، والرواة يتحدثون بشيء كهذا عن عمرو بن معد يكرب الزبيدى، فيزعمون أنه كان يحب الخمر، ويعكف عليها، وكأنه كلم في ذلك، وذكر بآيات الله فقال كلاما لانزويته...!!

وما كاد ينتهى عصر الخلفاء، ويثبت سلطان بنى أمية، حتى ضعف سلطان الدين، وانصرف الخلفاء وولاتهم عن الحدود والشرائع، إلى الخصومة السياسية والجهاد بين الأحزاب والعصبيات، وكثرت الغنائم، وعظمت الثروة، واضطر أفراد كثيرون من أحفاد المهاجرين والأنصار وأشراف قريش، إلى أن يقيموا في الحجاز مستمتعين بثروة ضخمة وغنى كثير، وقد حيل بينهم وبين العمل السياسى خوفا منهم أو عقابا لهم، فانصرفوا إلى اللهو، وعكفوا على اللذة وأسرفوا فيهما وتغيرت الآية... فكانت مكة والمدينة وطن الشعراء الغزلين وموطن المغنين ومجتمع طلاب اللهو، وكانت لهؤلاء الناس جميعا مجالس معروفة مشهورة، كثر ذكرها في كتب الأدب والتاريخ، وكثرت

حولها الأخبار والإشاعات ، واضطر الخلفاء من بنى أمية إلى أن يظهرُوا في بعض الأحيان ضروبا من القسوة ، فنكلوا ببعض هؤلاء الناس ، وعذبوا بعضهم ثم نفوه ، وخبر الأحوص بن محمد الأنصارى معروف ، وخبر المختين في المدينة معروف أيضا ، وشعر عمر بن أبى ربيعة ، وأخبار الدلال أكثر وأشهر من أن نلح في ذكرها .

ومع هذا فقد كان المسلمون يشربون ويلهون ، ولكنهم كانوا يحتشمون فلا يكادون يذكرون ذلك في الشعر إلا إلماها ، كانوا يحتشمون إشفاقا ووقاراً ، ولم يكن المسيحيون مكلفين أن يحتشموا ، ولا أن يخافوا ، بل كانوا يجهرون بلذاتهم ، وظهر في ذلك وبرع فيه الأخطل شاعر بنى أمية ، ولسانهم الناطق بسياستهم ، المناضل عن حزبهم ، كان مسيحياً ، وكان كلفا بالحجر مشغوفاً بها ، حتى كره ذلك منه القسس ، ويقال إنهم عذبوه وضربوه ، لأنه كان شديد الخضوع للدين ، وكان يقبل من رؤساء دينه ما لم يكن يقبل من خلفاء المسلمين .

أكثر الأخطل من الشرب ، وأكثر من وصف الحجر ، وأجاد فيه ، وجاهر بشربه ، ولهوه ، واستخدمه في السياسة . فيروى أنه دخل ذات يوم على عبد الملك بن مروان وهو سكران يترنح ، فأنشده هذين البيتين :

إِذَا مَا نَدَيْتَنِي عَلَّنِي ثُمَّ عَلَّنِي ثَلَاثَ زُجَاجَاتٍ لَهْنٌ هَدِيرُ
خَرَجْتُ أَجْرُ الدَّيْلِ تَيْهًا كَأَنِّي عَلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمِيرُ

فلما سأل عبد الملك عن شأنه ، ذكر الأخطل ما كان من زفر بن الحارث

ذلك ، فأنطقه هذا الحب بشيء من الغزل كثير ، فيه نقاء وجودة ، وفيه رقة ووفاء ، فلما ولى الخلافة وصل إلى ما أراد ، ولكن سلمي لم تقم عنده إلا أربعين يوما ، ثم ماتت فجزع الوليد ، ورثاها بالشيء الكثير ، وأكثر ما قال الوليد في سلمي غنى فيه ، وروى أبو الفرج منه طائفة لا بأس بها ، فإذا أردت أن تتعرف روح الوليد وشخصيته الشعرية ، فاقراء هذا الشعر في الأغاني ، ولكني أروى لك أبياتا له في الحمر لا تشك ، حين تقرأها في أنك تقرأ أبا نواس .

إِصْدَعْ نَجِيَّ الْهُمُومِ بِالطَّرَبِ	وَأَنْعَمْ عَلَى الدَّهْرِ بِابْنَةِ الْعِنَبِ
وَأَسْتَقْبِلِ الْعَيْشَ فِي غَضَارَتِهِ	لَا تَقْفُ مِنْهُ آثَارَ مُعْتَقِبِ
مِنْ قَهْوَةِ زَانِهَا تَقَادُمَهَا	فَهِيَ عَجُوزٌ تَعْلُو عَلَى الْحَقَبِ
أَشْهَى إِلَى الشَّرْبِ يَوْمَ جَلَوْتَهَا	مِنْ الْفَتَاةِ الْكَرِيمَةِ النَّسَبِ
فَقَدْ تَجَلَّتْ وَرَقَّ جَوْهَرُهَا	حَتَّى تَبَدَّتْ فِي مَنْظَرٍ عَجَبِ
فَهِيَ بَغَيْرِ الْمِزَاجِ مِنْ شَرَرٍ	وَهِيَ لَدَى الْمَزْجِ سَائِلُ الدَّهَبِ
كَأَنَّهَا فِي زُجَاجِهَا قَبَسٌ	تَذْكُوهُ ضِيَاءُ فِي عَيْنِ مُرْتَقِبِ
فِي فِتْنَةٍ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ أَهْلُ	الْمَجْدِ وَالْمَأَثَرَاتِ وَالْحَسَبِ
مَا فِي الْوَرَى مِثْلُهُمْ وَلَا بِهِمْ	مِثْلِي وَلَا مُنْتَمٍ لِمِثْلِ أَبِي

فانظر إلى هذا الشعر الجيد السهل ، وانظر إلى ما فيه من تشبيه بديع

ينم عن حضارة وترف .

فَهِيَ بَغَيْرِ الْمِزَاجِ مِنْ شَرَرٍ وَهِيَ لَدَى الْمَزْجِ سَائِلُ الدَّهَبِ

ثم ألت تحس في هذا الشعر كله ، رقة أبي نواس ، وخفة روحه ، ومع هذا ، فالوليد محتفظ بالسنة القديمة ، يتخذ الحمر وسيلة إلى الفخر .

لم يكد يبتدىء القرن الثانى إذن حتى ظهر المجون ، وانتشر ، ووصل إلى قصور الخلفاء ، ثم كانت ثورة العباسيين ، قتم انتصار الفرس على العرب ، وانتقل مركز الخلافة من الشام إلى العراق ، وأصبح الأدب عراقيا ، لاشاميا ولابدويا ، أى أصبح خاضعا من كشب ، لتأثير الفرس ، وحضارة الفرس .

قتم انتصار العبث والمجون ، وتمت استحالة الطبع العربى ، وانقطع - أو كاد ينقطع - العهد بين هذا الطبع وبين بداوة العصر الأموى ، وأقبل أبو نواس وأصحاب أبي نواس ، فوجدوا سنة موروثة وطريقا ممهدة ، فأحيوا السنة ، وسلكوا الطريق ، ورثوا الوليد وأصحاب الوليد ، فلم يضيعوا الميراث ، ولم يفسدوه ، وإنما نموه ورقوه ، وكان هذا الشعر العباسى الذى نزع من أن أبان نواس يمثله ، والذى سنحدثك عنه فى الأسبوع الآتى .

الذى عادى بنى أمية ، وكلفهم ضروبا من العناء ، فلما أنزلوه على حكمهم ، قرب به عبد الملك وأخذ يحبه ، فاغتاز لذلك الزعماء ، وأغروا به الأخطل ، فدخل على الخليفة فى هذه الحال ، وأنشده هذين البيتين ، وكان زفر جالسا على سرير عبد الملك ، فروى الأخطل من شعر زفر هذين البيتين :

أَرِنِي سِلَاحِي لَا أَبَالِكَ إِنِّي أَرَى الْحَرْبَ لَا تَزْدَادُ إِلَّا تَمَادِيَا
فَقَدْ يَنْبُتُ الْمَرْعَى عَلَى دِمَنِ الثَّرَى وَتَبْقَى حَزَازَتُ الصُّدُورِ كَمَا هِيَا
فيقال إن عبد الملك ضرب برجله فى صدر زفر ، فألقاه على السرير ، وكاد يقتله .

ولسنا نريد أن نطيل فى شعر الأخطل ووصفه للخمر ، فشعر الأخطل معروف ، وديوانه مطبوع ، ولكننا نستطيع أن نقول بالإجمال : إن الأخطل على إكثاره فى وصف الخمر ، لم يكد يتجاوز ما سبقه إليه الأعشى وغيره من شعراء الجاهلية ، فهو أكثر فى وصف الخمر ، ولكنه لم يخترع شيئا كثيرا . أخذ الزمن يتقدم ، وأخذ الناس يترقون ، وأخذ الاحتشام يقل ويضعف فى الطبقات المختلفة ، وأخذ الميل إلى اللذة والإسراف فيها ينتقلان من مكة والمدينة إلى دمشق ، ولسنا نذكر يزيد بن معاوية ، فقد كان الإنكار عليه شديدا ، وكان سخط الناس عليه يدل على أن عهدهم بالاحتشام لم يزل قريبا ، وحرصهم عليه لم يزل قويا ، بل لاندكر أبناء عبد الملك ، فقد كانوا يحتاطون فى اللهو ، ويتسترون .

ولكن القرن الأول للهجرة لم يكد ينتهى ، حتى كان الجيل قد تغير ، والعهد قد تبدل ، وحتى كان الاختلاط بين العرب ، والفرس ، وهذه الأمم

الكثيرة المتباينة في الشام ، قد عمل عمله ، وأخذ يظهر آثاره الكثيرة المختلفة ، ومن أعظمها وأشدها خطراً ، المجون ، وحب اللهو ، وحرية الفكر والسيرة ، ولقد أشرنا في الحديث الماضي إلى أن هذا القرن الثاني للهجرة قد كان عصر مجون وشك ، وقلنا يكفي أن يكون هذا القرن قد بدى بالوليد بن يزيد ، وختم بالأمين بن الرشيد .

ولقد كنا نود لو أتيح لنا البحث عن حياة الوليد بن يزيد ، وعما سلك من طرق الهزل ، وما ابتدع من ألوان المجون ، حين كان ولياً للعهد ، وحين كان أميراً للمؤمنين ، ولسنا نود ذلك حباً فيه ، أو كلفاً به ، بل لأن الوليد بن يزيد أثراً قوياً جداً عرفه المتقدمون أنفسهم في شعر أبي نواس ، فإن صاحب الأغاني مثلاً يتحدث بأن الشعراء العباسيين أخذوا كثيراً عن الوليد في الخمر ، ويختص منهم أبا نواس ، لأنه أكثر الانتفاع بشعر الوليد .

وليس في هذا شيء من الغرابة ، فقد كان الوليد سيئ الحظ في حياته وبعد موته ، ولم يجمع شعره ، بل تفرق وضاع أكثره ، فعدا عليه الشعراء ، وأمنوا أن يتهموا بالسرقة ؛ كان الوليد سيئ الحظ ، فقد كان عمه هشام يكرهه ويحقد عليه ، ويريد أن يخلعه من ولاية العهد ، ويضع ابنه مكانه ، فكان لذلك يضطهده ، ويضطهد أوليائه ، فلما مات هشام واستخلف الوليد ، لم يطل عهده بالخلافة ، وما أسرع ما آثار الناس به وقتلوه ؟ ! .

وليس يعنينا أن يكون الوليد ظالماً أو مظلوماً ، وليس يعنينا أن نحكم في أمر الوليد من جهة الدين والسياسة ، وإنما الذي يعنينا الآن ، هو أن نقول : إن الوليد كان شاعراً مجيداً ، وماجناً ماهراً في المجون ، مفطوراً عليه ، وإنه

الحمر عند أبي نواس^(١)

سحر الشعر - إدمان الحمر -

وعبادتها - المذهب السياسى -

تفضيل الفرس على العرب .

رأيت فى الأسبوع الماضى أن الحمر قد وُصفت قبل أبى نواس بنحو قرنين ، فأحسن وصفها ، وأن الشعراء قد كلفوا بها وتهالكوا عليها ، وأن الوليد بن يزيد كان أول من اتخذ وصف الحمر وسيلة إلى إعلان المجون فيما نعلم ، وأن شعراء آخرين قد تبعوا الوليد واقتفوا أثره ، فأحسنوا وأجادوا ، ولكن أبا نواس هو زعيم هذا الفن كما قلنا .

والناس مجمعون على ذلك ، فلا نعرف من يقدم أحداً على أبى نواس فى وصف الحمر ، والافتتان فيها ، ولقد كان بعض الرواة يغلو فى ذلك ، فيزعم أن أبا نواس قد وصف الحمر وصفاً لو سمعه الحسنان لهاجرا إليها ، ولعكفا عليها « يريد الحسن البصرى وابن سيرين » ولسنا ندرى إلى أى حد كان ينصف هذا الرواية ، ولكننا نعلم أن أبا نواس قد أحسن وصف الحمر إحساناً لم يسبق إليه ، ولم يلحق فيه ، ونعلم أيضاً أن هذه الأوصاف التى نستحسنها ونستعذبها ، ليست من الجودة أو الحسن بحيث ترغبنا فى الحمر ، أو تحملنا على أن نهاجر إليها ، ونعكف عليها ، بل نستطيع أن نقول أكثر من ذلك ،

(١) نشرت بالسياسة فى ١٩ رجب سنة ١٣٤١ - ٧ مارس سنة ١٩٢٣ م .

فنزعم أن كثيراً من هذا الإحسان ، وهذه الإجابة قدير بنا دون أن نلاحظه أو نلتفت إليه ، إلا إذا كنا قد أتقنا درس هذا العصر الذي عاش فيه أبونواس ، وتبيننا ذوق أهله ، وما كانوا يحبون ويكرهون ، ففي هذا الإحسان والإجابة شيء كثير إضافي ، أي أنه إحسان وإجابة بالقياس إلى العصر الذي قيل فيه ، وإلى الناس الذين سمعوه ، فإذا تغير الزمان واستحال الذوق ، فليس بالإحسان ولا بالإجابة ، وربما كان أدنى إلى الثثرة ولغو الكلام ، ولهذا الملاحظة خطرهما ، فهي تدل على شيئين قيمين .

أحدهما : أن الحكم على شعر القدماء - ولا سيما الشعر الغنائي - لا ينبغي أن يتخذ فيه الذوق العصري وحده مقياساً للجودة والرداءة ، وإنما ينبغي أن يكون مقياس ذلك ذوق العصر الذي عاش فيه الشاعر ، فإن الشعر الغنائي بطبعه مرآة لعواطف الشاعر ومعاصريه ، ممثل لما كان يحس الشاعر وقومه وما كانوا يشعرون به ، وواضح أن هذه العواطف ليست متحدة على اختلاف الأزمنة والأمكنة ، وأن أهل بغداد كانوا يحبون ما لا نحب ، ويكفون بما لا نكلف به ، ويميلون إلى ما لا نميل إليه ، فليس غريباً أن يستعذبوا من الشعر ما لا نستعذب ، وأن يفتنوا منه بما نقرؤه نحن غير مكترئين .

الثاني : أن قليلاً جداً من هذا الشعر الغنائي ما يبق على الدهر ، ويخلد على مر الأيام ، وأن قليلاً جداً من الشعراء المعننين من يظفرون بإعجاب الجيل الذي يعيشون فيه ، والأجيال التي تليه ، فإذا ظفر أحدهم بهذا الإعجاب المتصل فذلك آية نبوغه ، وقدرته على وصف العواطف ، التي تهز قلوب الناس من

حيث هم ناس ، لا من حيث إنهم بغداديون أو مصريون ، ولا من حيث إنهم من أهل القرن الثاني أو الرابع عشر للهجرة .

ولأبي نواس حظ غير قليل من هذا الإعجاب ، كما رأينا فيما مضى ، وكما سنرى فيما نعرض له من شعره ، ولكن لأبي نواس شعراً كثيراً أعجب به الناس في عصره ولا نحفل به نحن الآن ، وهذا الشعر كثير في الحخر ، وربما كان أحسن مثال له هذه القصائد الطوال ، التي قالها أبو نواس وغير أبي نواس في قدم الحخر وتعتيقها ، وأنها قد شهدت عصر نوح ، ثم عاد وثمود ، وأنها تستطيع أن تتحدث إليك بأخبار الأولين ، إلى آخر ما هناك ، مما هو كثير يعلأ شعر القدماء ولا نعجب به نحن إلا إعجاباً إضافياً ، لأننا نعلم أن القدماء كانوا يعجبون به ويتنافسون فيه ، ومن ذلك أيضاً هذا الشعر الكثير الذى يصف الشعراء فيه بحثم عن الحخر ، وارتياحهم إياها ، ومغالاتهم في ثمنها ، فيشبهونها بالعدراء تخطب إلى أبيها الدهقان ، ويغالى هذا الدهقان في مهرها ، ويتمنع في تزويجها من شاريها ، لأنه يريد أن يتخذ لها الأكلفاء ، ومن ذلك أيضاً الإكثار فى وصف طعم الحخر وريحها ، وأنها تقطب الجبين ، وتزيل الزكام ، إلى آخر ما هناك مما لا نحفل نحن به الآن .

ثم هذا الكلام الكثير فى أن الحخر لا تطبخ على النار ولم ترها الشمس وإنما عتقت وتخمرت فى جوف الأرض بمعزل عن حر الشمس والنار ، وقد نقرأ الشعر الذى يتناول هذه المعانى فنعجب به لأن لفظه جيد ، أو لأن فيه مغالاة تدهشنا ، وتخالف ما ألفنا ، أو لأن فيه شيئاً من الإحالة والبعد عن معقول الناس .

فإذا أردنا أن نحلل هذا الشعر ونلتمس مافيه من الجمال الصحيح ،
ونلائم بينه وبين ميولنا وأهوائنا وعواطفنا وأذواقنا ، لم نجد شيئاً . وأغرب
من هذا أن الشعراء المعاصرين الذين يحتذون القدماء ، ويقتفون آثارهم قد
يبلغون منا هذه المنزلة ، ويسجروننا بكلام نسمعه فنعجب به ، حتى إذا
حاولنا فهمه واستقصاء مافيه لم نجد شيئاً ، أو وجدنا مالا يروق ، فأى الناس
سمع هذا الشعر من قول حافظ ثم لم يفتن به .

يَا غُلَامُ الْمُدَامَ وَالْكَاسَ وَالطَّاسَ وَهَيَّ لَنَا مَكَانًا كَأَمْسِ
وَاسْقِنَا يَا غُلَامُ حَتَّى تَرَانَا لَا نَطِيقُ الْكَلَامَ إِلَّا بِهِمْسِ
خَمْرَةً قِيلَ إِنَّهُمْ عَصَرُوهَا مِنْ خُدُودِ الْمَلَّاحِ فِي يَوْمِ عُرْسِ
فانظر إلى هذا البيت الأخير كيف يفتنك لفظه ويسحرك ؟ وكيف
لا تفتنك حدود الملاح في يوم عرس ؟ ولكن تكلف أن تتبين هذه الخمر
التي تعصر من حدود الملاح ، وحدثني أتستطيع أن تشربها ، أو أتستطيع
أن تنظر إليها دون أن تتأذى وينالك شيء من الألم غير قليل ؟ إذن فينبغي
أن نحْتَاط ونقتصد في الإعجاب بالشعر عامة ، وبشعر القدماء خاصة ، فإن سحر
الشعر كثير قوى ، مختلفة أسبابه وبواعثه .

والآن وقد بسطنا هذه المقدمة التي لم يكن منها بد ، نستطيع أن نعرض
لوصف الخمر في شعر أبي نواس ، وأول ما ذكر من ذلك هذه القصيدة
التي نستطيع أن نعتبرها مقياساً لذوق الشعراء في ذلك العصر ، وللموضوعات
التي كانوا يلمون بها ، ويقصدون إليها ، وهي .

يَا خَاطِبَ الْقَهْوَةِ الصَّهْبَاءِ يَمْهَرُهَا بِالرَّطْلِ يَا خُذْ مِنْهَا مِلَّةً ذَهَبًا

قَصَّرْتُ بِالرَّاحِ فَاحْذَرُ أَنْ تَسْمَعَهَا
 إِنِّي بَدَلْتُ لَهَا لَمَّا بَصُرْتُ بِهَا
 فَاسْتَوْحَشَتْ وَبَكَتْ فِي الدَّنِّ قَائِلَةً
 فَقُلْتُ لَا تَحْذَرِيهِ عِنْدَنَا أَبَدًا
 قَالَتْ فَمَنْ خَاطَبِي هَذَا؟ فَقُلْتُ أَنَا
 قَالَتْ لِقَاحِي؟ فَقُلْتُ الشَّلَجُ أَبْرَدُهُ
 قُلْتُ الْقَنَانِي وَالْأَقْدَاحُ وَلَدَهَا
 لَا تُمَكِّنِي مِنَ الْعَرِيدِ يَشْرُبُنِي
 وَلَا الْمَجُوسَ فَإِنَّ النَّارَ رَبُّهُمْ
 وَلَا السِّفَالِ الَّذِي لَا يَسْتَفِيقُ وَلَا
 وَلَا الْأَرَادِلَ إِلَّا مَنْ يُوقِّرُنِي
 يَا قَهْوَةً! حُرِّمَتْ إِلَّا عَلَى رَجُلٍ

فانظر إلى هذه القصيدة ، فلن تجد فيها معنى يخلبك ، أو شيئاً يستهويك ،
 ومع ذلك ، فأستطيع أن أوكد لك أن القدماء كانوا يكلفون بهذه المعاني ،
 ويستعذبون الشعر الذي ترد فيه ، وكانوا يحبون هذا التشبيه « تشبيه الخمر
 بالعروس تخطب ويغالى في مهرها » وكانوا يحبون هذا الحوار يجري بين
 الخمر ومن يرتادها ، وكانوا يحبون هذه الأبيات الأخيرة التي تقص عن
 الخمر من ليس لشربها أهلاً ، وكانوا يعجبون بنوع خاص بهذا البيت
 الأخير الذي يحل الخمر للغنى يتلف ثروته فيها ، أما نحن فلعلنا لا نحب من

هذا كله شيئاً ولعلنا نقرأ هذه القصيدة، فلا نجد فيها ما يستخف، ولا ما يرغب في الخمر .

ولكن أبا نواس كان يحب الخمر حباً ربما كان أشبه بالدين، كان يعبدها ويقدها تقديساً، فانظر إلى هذه الأبيات، ولست أشك في أنك ستستحسنها، وتُعجب بها الإعجاب الكثير، وتشعر بأنها ليست مدحاً للخمر، وإنما هي صلاة إلى الخمر :

أَنْ عَلَى الْخَمْرِ بَالاًهَا	وَسَمَّهَا أَحْسَنَ أَسْمَاءَهَا
لَا تَجْعَلِ الْمَاءَ لَهَا قَاهِراً	وَلَا تُسَلِّطْهَا عَلَى مَاءِهَا
كَرْخِيَّةٌ قَدْ عُنُقَتْ حِقْبَةً	حَتَّى مَضَى أَكْثَرُ أَجْزَائِهَا
فَلَمْ يَكَدْ يُدْرِكُ خَمَارُهَا	مِنْهَا سِوَى آخِرِ حَوْءِهَا
دَرَاتٍ فَأُخِيتَ غَيْرَ مَذْمُومَةٍ	نُفُوسَ حَرَاهَا وَأَنْضَاءِهَا
وَالْخَمْرُ قَدْ يَشْرِبُهَا مَعْشَرٌ	لَيْسُوا إِذَا عُدُّوا بِأَكْفَاءِهَا

فانظر إلى هذا البيت :

أَنْ عَلَى الْخَمْرِ بَالاًهَا وَسَمَّهَا أَحْسَنَ أَسْمَاءَهَا

أليس الشطر الأول منه تسبيحاً للخمر؟!، أليس الشطر الثاني منه تقديساً للخمر؟ أليس في هذا البيت على سهولته وبرأته من ألفاظ المجون أشد ألوان المجون؟ أليس فيه الاستهزاء بالدين والسخرية منه؟ أليس يذكر القرآن؟ أليس يذكر قول الله تعالى : « وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا » . ثم انظر إلى ما جاء بعد هذا البيت ، انظر إلى سهولة اللفظ، وخلوه من التكلف ، انظر إلى هذا النظم يكاد يكون نثراً ، وانظر إلى دقة هذا المعنى

الذى قد لا يعجبك في نفسه ، ولكنه على هذا جميل دقيق ، يمثل عقل
أبي نواس ، واصطباغه بالصبغة الفلسفية التي كانت عامة في عصره :

كَرْخِيَّةٌ قَدْ عُنِقَتْ حَقَبَةً حَتَّى مَضَى أَكْثَرُ أَجْزَائِهَا
فَلَمْ يَكَدْ يُدْرِكُ خَمَارُهَا مِنْهَا سِوَى آخِرِ حَوْبَائِهَا

فهذه الدقة لا تستهويك ولا ترغبك في الخمر ، ولا تنزع بك إلى حب
الشراب ، ولكنها في نفسها جميلة محبة . وانظر إلى استئناف الشاء على
الخمر ، في لفظ حلوسهل غير متكلف ولا متصنع :

دَارَتْ فَأَحْيَتْ غَيْرَ مَذْمُومَةٍ نُفُوسَ حُرَّاهَا وَأَنْصَائِهَا
وَالْخَمْرُ قَدْ يَشْرِبُهَا مَعْشَرٌ لَيْسُوا إِذَا عُدُّوا بِأَكْفَائِهَا

فقد رأيت في هاتين القصيدتين شيئين مختلفين :

رأيت في الأولى معاني لا تعجبك ولا تروقك ، وكانت تعجب
القدماء وتروقه ، ورأيت في الثانية معاني ليست جميلة لأنها تصف الخمر
وتحث عليها ، وإنما هي جميلة لنفسها ، لأنها تدل على قدرة الشاعر ودقته ،
وحسن غوصه على المعاني ، وهي تعجبك كما كانت تعجب المتقدمين .
وانظر إلى هذه الأبيات التي تجمع بين إعجابك وإعجاب القدماء . لأنها
تصف شيئاً ترغب أنت كما كان يرغب القدماء في وصفه :

كَمْ مُتَرَفٍ عَقَلَ الْحَيَاءُ لِسَانَهُ فَكَلَامُهُ بِالْوَحْيِ وَالْإِيمَاءِ
لَمَّا نَظَرْتُ إِلَى الْكَرَى فِي عَيْنِهِ قَدْ عَقَلَ الْجَفْنَيْنِ بِالْإِغْفَاءِ
حَرَّ كُتُهُ بِيَدِي وَقُلْتُ لَهُ انْتَبِهْ يَا سَيِّدَ الْخُلَطَاءِ وَالْثَدَمَاءِ
حَتَّى أَرْيَحَ أَلْهَمَ عَنْكَ بِشْرَبَةٍ تَسْمُو بِصَاحِبِهَا إِلَى الْعَلِيَاءِ

فَأَجَابَنِي وَالشُّكْرُ يُخَفِّضُ صَوْتَهُ وَالصُّبْحُ يَدْفَعُ فِي قَفَا الظَّالِمَاءِ
إِنِّي لَأَفْهَمُ مَا تَقُولُ وَإِنَّمَا رَدَّ التَّعَاثُفِ سَوْرَةَ الصَّبْهَاءِ

ومع ذلك فأنت لا توقظ نديك من نومه ، ولا تحركه بيدك ، ولا
تستأنف الشراب إذا أقبل الصباح كما كان يفعل القدماء ، ولكن انظر إلى
هذا البيت بنوع خاص :

فَأَجَابَنِي وَالشُّكْرُ يُخَفِّضُ صَوْتَهُ وَالصُّبْحُ يَدْفَعُ فِي قَفَا الظَّالِمَاءِ
كان أبو نواس إذن يعبد الحمر ويدمن عليها ، فيشربها إذا أمسى ،
ويشربها إذا أصبح ، وربما عكف عليها ليله ويومه . وربما عكف عليها
الأسبوع كله ، لا ينصرف عنها إلا حين يثقله النوم ، كما ترى ذلك في قصيدته
التي مطلعها :

يَاطِيْبِنَا بِقُصُورِ الْقَفْصِ مُشْرِقَةً فِيهَا الدَّسَاكِرُ وَالْأَنْهَارُ تَطْرِدُ
وقد اشتهر ذلك عنه وعن مولاه الأمين الذي كان ينادمه ويساقيه ،
واتخذ أنصار المأمون في خراسان هذا سلاحا يحاربون به الأمين ، فكان
ينشد مجون أبي نواس في المسجد الجامع عند الصلاة ، ويلعن من قاله ، ومن
أحبه ، وكان هذا قد وصل إلى الأمين في بغداد فأشفق منه ، وأراد أن يحتاط
ويصطنع الوقار ، فنهى أبا نواس عن شرب الحمر ، وأظهر أبو نواس الطاعة ،
ولكن ذلك شق عليه ، فقال فيه شعرا كثيرا جدا ، منه هذه الأبيات :

أَعَاذِلَ أَعْتَبْتُ الْإِمَامَ وَأَعْتَبَا وَأَعْرَبْتُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ وَأَعْرَبَا
وَقُلْتُ لِسَاقِيهَا أَجْزُهَا فَلَمْ أَكُنْ لِيَأْبَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَشْرَبَا
خَوَزَهَا عَنِّي سُلَافًا تَرَى لَهَا إِلَى الْأَفْقِ الْأَعْلَى شُعَاعًا مُطَنَّبَا

إِذَا عَبَّ فِيهَا شَارِبُ الْقَوْمِ خِلْتَهُ يُقْبَلُ فِي دَاجٍ مِنَ اللَّيْلِ كَوْكَبًا
وقال هذه القصيدة الأخرى التى تبين مقدار ما يعانى من الألم والحُرمان

لطاعة الأُمِين :

أَيُّهَا الرَّاحِمَانِ بِاللَّوْمِ لَوْمًا	لَا أَذُوقُ الْمَدَامُ إِلَّا شِمِيمًا
نَالَنِي بِالْمَلَامِ فِيهَا إِمَامٌ	لَا أَرَى لِي خِلَافَهُ مُسْتَقِيمًا
فَاصْرِفَاهَا إِلَى سِوَايَ فَإِنِّي	لَسْتُ إِلَّا عَلَى الْحَدِيثِ نَدِيمًا
كَبُرَ حَظِّي مِنْهَا إِذَا هِيَ دَارَتْ	أَنْ أَرَاهَا وَإِنْ أَشَمَّ النَّسِيمَا
فَكَأَنِّي وَمَا أَزِينُ مِنْهَا	قَعَدِي يُزِينُ التَّحْكِيمَا
كَلَّ عَنْ حَمْلِهِ السَّلَاحَ إِلَى الْحَرْبِ	بِ فَأَوْصَى الْمَطِيقَ الْأَيُّقِيمَا

وليس كل الناس قادرًا على أن يفهم هذين البيتين الأخيرين على أنهما لا يخلوان من جمال ، فهو يشبه نفسه فى وصفه للخمر وحثه الناس على شربها ، دون أن يستطيع لها مذاقًا ، بالخارجى الذى عجز عن الحرب ، فقعده وأخذ يحث الناس عليها .

على أن أبا نواس لم يتب قط عن الخمر ، ولم يكن يستطيع أن يتوب . ولعل التوبة لم تدركه إلا حين أدركه الموت ، وقد ذكرنا لك فى غير هذا الفصل ما كان من أمر صديقه الكوفى ، الذى ما زال به حتى حمله على خلاف الأُمِين ، فشرب الخمر ، وسب زُبيدة ، وعاد إلى الأُمِين فأخبره أنه قد خرج عن طاعته ، فلم يغضب لذلك الأُمِين ، بل حمده ورضى عنه ، وأمر أبا نواس فحمل إليه صديقه الكوفى ، فاتخذته نديما !! ..

على أن من الحق أن نعرف لأبى نواس شيئًا غير هذا الفسق والإغراق

في المجون ، وهو أنه كان يريد أن يتخذ - ويتخذ الناس معه - في الشعر مذهباً جديداً ، وهو التوفيق بين الشعر وبين الحياة الحاضرة ، بحيث يكون الشعر مرآة صافية تتمثل فيها هذه الحياة ، ومعنى ذلك العدول عن طريقة القدماء ، لأن هذه الطريقة كانت تلائم القدماء ، وما ألفوا من ضروب العيش ، فإذا تغيرت ضروب العيش هذه ، وجب أن يتغير الشعر الذي يتغنى بها ، فليس يليق بساكن بغداد ، المستمتع بالحضارة ولذاتها ، أن يصف الخيام والأطلال ، أو يتغنى الإبل والشاء ، وإنما يجب عليه أن يصف القصور والرياض ، ويتغنى الحمر والقيان ، فإن فعل غير ذلك فهو كاذب متكلف .

أراد أبو نواس أن يشرع للناس هذا المذهب ، فجذ فيه ووفق التوفيق كله ، واتخذ وصف الحمر وما إليها من اللذات وسيلة إلى مدح طريقته الحديثة ، وذم طريقة القدماء .

ولولا ما عرفه من سيرته وإدمانه ، لكان من الحق أن نشك في أنه من اللهو والمجون بحيث يصف نفسه ، وأن نتساءل أليس هذا الغلو والإسراف ، أثراً من آثار التعصب لمذهبه الجديد ؟

على أن هذا المذهب الجديد ، على حسنه واستقامته ، وعلى أن أبا نواس موفق فيه ، لم يسلم من أشياء تمكننا من أن نفهم بغض الناس له ، ونعيمهم عليه ، فهو ليس مذهباً شعرياً فحسب ، وإنما هو مذهب سياسي أيضاً .

يذم القديم - لا لأنه قديم - بل لأنه قديم ، ولأنه عربي ، ويمدح

الحديث - لأنه حديث - بل لأنه حديث ، ولأنه فارسي ، فهو إذن مذهب
تفضيل الفرس على العرب ، مذهب الشعوبية المشهور .

ومن هنا نفهم سخط كثير من العرب وأنصار العربية ، على هذا المذهب
الجديد ، ونفهم أيضاً أن الرشيد حبس أبو نواس لقصيدة هجا بها العرب ،
ومهما يكن من شيء ، فالخرجات التي عرض أبو نواس فيها لتأييد مذهبه
الجديد ، ودم المذهب القديم ، هي أجود ما يروى عن أبي نواس ، ولا بد من
أن نلم بكل هذه القصائد ، لنستطيع أن نستخلص أصول هذا المذهب الجديد ،
كما كان يتصوره أبو نواس ، ولكننا نرجى هذا إلى الأسبوع الآتي ،
ونختم حديث اليوم بهذه الأبيات في هذا الموضوع :

لَاتَبِكْ لَيْلَى وَلَا تَطْرُبْ إِلَى هِنْدٍ وَأَشْرَبْ عَلَى الْوَرْدِ مِنْ خَمْرَاءِ كَالْوَرْدِ
كَأَسَا إِذَا أَحْدَرْتَ مِنْ حَلْقٍ شَارِبَهَا أَجْدَتْهُ خُمَرَتَهَا فِي الْعَيْنِ وَالْخَدِّ
فَالْخَمْرُ يَأْفُوتُهُ وَالْكَأْسُ لَوْ لَوَةٌ فِي كَفٍّ جَارِيَةٍ مَمْشُوقَةِ الْقَدِّ
تَسْقِيكَ مِنْ يَدِهَا خَمْرًا وَمِنْ فَمِهَا خَمْرًا فَمَالِكَ مِنْ سُكْرَيْنِ مِنْ بُدِّ
لِي نَشْوَتَانِ وَلِلنَّدَمَانِ وَاحِدَةٌ شَيْءٌ خُصِّصْتُ بِهِ مِنْ يَدَيْهِمْ وَحَدِي

ويتحدث الرواة أن أبا نواس أنشد هذه الأبيات طائفة من أصحابه ،
فخروا له سجداً ! فقال : فعلتموها ! أعجمية ! والله لا كلتكم ثلاثاً وثلاثاً
وثلاثاً !! ثم ندم ، وقال : تسعة أيام في هجر الإخوان كثير ! وربما كان أصحاب
أبي نواس مسرفين حين سجدوا له إعجاباً به !

ولكن الشيء الذي لاشك فيه ، هو أن هذه الأبيات من أحسن شعره
وأجوده ، وليس من السهل أن تقول لماذا حسنت هذه الأبيات ، ولكنك

تشعر فيها بجمال يجذبك ويستهويك ، دون أن تستطيع له تحديداً ؛ جمال في اللفظ وجمال في المعنى ، فليس في اللفظ كلمة غريبة أو حرف ينبو على السمع ، بل هي ألفاظ متخيرة ليست بالمتذلة ، ولا التي لا يفهمها عامة الناس ، وليس في المعنى شيء مستغلق أو شيء مبتذل ، بل هي معان مألوفة ، ولكن استطاع الشاعر أن يقارب بينها ، فيحدث من هذه المقاربة جمالا ولذة ، ما كنت لتحسهما ، لو لا أن قرن لك الشاعر هذه المعاني بعضها إلى بعض ، انظر إلى قوله « واشرب على الورد من حمراء كالورد » وانظر إلى قوله :

فَالْحَمْرُ يَا قُوْتَةٌ وَالْكَأْسُ لُوْلُوَةٌ فِي كَفٍّ جَارِيَةٍ تَمْشُوْقَةٌ الْقَدَّ
تَسْقِيَاكَ مِنْ يَدِهَا خَمْراً وَمِنْ فَمِهَا خَمْراً فَمَا لَكَ مِنْ سُكْرَيْنِ مِنْ بُدَّ
فهذه الطائفة من التشبيهات يتلو بعضها بعضا ، ويكمل بعضها بعضا ، هي التي تحدث في نفسك اللذة ، وتبعثها على الإعجاب ؛ وانظر إلى هذا البيت الأخير ، وإلى شطره الثاني بوجه خاص ، تجده حضريا ، فانيا في الحضارة ، ومترفا مغرقا في الترف ، يعبر عن حضارته وترفه ، بلفظ يكاد يصل إلى قلبك ، دون أن تسمعه :

لِي نَشَوْتَانِ ، وَلِلنَّدْمَانِ وَاحِدَةٌ شَيْءٌ خُصِّصْتُ بِهِ مِنْ يَنِينِهِمْ وَحَدِي
ولست أدري لماذا لم أسمع هذا البيت مرة ، إلا وددت لو سمعته من فم مغن يجيد الغناء !!

الخنز عند أبي نواس^(١)

الشعر لسان الحياة - تجديد في

الأساليب والمعاني - صعوبة الاعتراف

بالتطور - المجنون من مظاهر

الحياة - الحنين إلى الفرس .

بعد العهد بيننا وبين أبي نواس ، فقد مضت أشهر بيننا وبين آخر مقال ، كتبناه عن وصف الخنز في شعره ، وما إخالك إلا قد نسيت هذا المقال ، كما هو شأن القارئ لما يكتب في صحيفة سيارة ، مهما يكن هذا الذي يكتب ، سياسة أو أدبا أو غير السياسة والأدب ، ما إخالك إلا نسيت هذا المقال ، على أنه لم يكن إلا مقدمة ، لما نريد أن نقوله موجزين عن خمریات أبي نواس .

فقد رأينا أن أبا نواس كان - بعد الوليد بن يزيد - أشد الشعراء عناية بالخنز وأكثرهم افتنانا فيها ، وأن الناس جميعا شهدوا له في ذلك بالسبق والتقدم ، لم يفضلوا عليه أحداً من الشعراء ، الذين جاءوا قبله أو بعده ، ورأينا أن الناس محقون في هذا ، ولكننا رأينا أن معاني أبي نواس في الخنز - على أنها كثيرة مختلفة - يكاد ينالها الإحصاء ، ونستطيع أن نقسمها إلى قسمين اثنين :

القسم الأول ، هذه المعاني الكثيرة ، التي كانت تعجب القدماء ، وتفتن النقاد

(١) نشرت بالسياسة في ٢٦ ذى القعدة سنة ١٣٤١ هـ - ١١ يولية سنة ١٩٢٣ م

منهم ، ثم أصبحت لا تعجبنا ، أو لا تفتننا على أقل تقدير ، كتشبيه الخمر
بالعذراء تخطب إلى أبيها الدهقان ، وكالإسراف في وصف قدم الخمر وما صر
عليها من الأجيال والعصور ، وكلافتنان في وصف طعم الخمر وريحها .

القسم الثاني ، هذه المعاني التي أعجبت القدماء وفتنتهم ، وما زالت تعجبنا
وتفتننا ، لأنها لاءمت ذوق القدماء وحياتهم ، وما زالت تلائم ذوقنا وحياتنا ،
ولأنها حببت إلى القدماء شرب الخمر ، وما زالت تحبب إلى المحدثين شرب
الخمر . وهذه المعاني قليلة في شعر أبي نواس ، قليلة في شعر غيره من الشعراء ،
قليلة في الخمريات قلتها في غير الخمريات ، ذلك لأن المعاني التي تتفق على
استحسانها العصور المتباعدة ، والأجيال المتباينة ، قليلة بطبعها في كل فن من
فنون الشعر والأدب .

ثم مثلنا في ذلك المقال لهذه المعاني وتلك ، وأشرنا إلى أن شعر
أبي نواس في الخمر لم يكن هزلاً كله ، ولم يكن الغرض منه المجون وحده ،
أو الإسراف في وصف اللذات ، وإنما كان أبو نواس يتخذ الخمر وسيلة إلى
شيء من الجد ، له خطره في الأدب ، ووسيلة إلى شيء آخر من الجد ، له
خطره في غير الأدب .

كان أبو نواس إذن حين يصف الخمر ، أو حين يتغزل ، يقصد إلى
ما يقصد إليه الشعراء المجيدون من وصف الحس والشعور ، وتمثيل العاطفة
تمثيلاً صحيحاً ، ولكنه كان يقصد - مع هذا الشيء المشترك بينه وبين الشعراء -
إلى شيئين آخرين ، أشرنا إليهما فيما مضى ونعود إليهما اليوم .

كان أبو نواس يريد أن ينهج بالشعر منهجاً جديداً ، لم ينهجه
المتقدمون ، أو قل أنهم نهجوه ، ولكنهم لم يشعروا بذلك ، ولم يتخذوه

عقيدة أو مذهباً في الأدب ؛ كان يريد أن ينهج بالشعر منهجاً يشبه المنهج الذي نريد نحن وأصحابنا أن نهجه بالكتابة ، كان يريد أن يتخذ الشعر لساناً للحياة الحاضرة ، وأن يلائم بين الشعر وبين ذوق الشعراء ، والذين يسمعون للشعراء ، كان يريد - بعبارة مجملة - أن يعدل عن أساليب القدماء في وصف الأطلال والبكاء عليها ، وفي تغنى الإبل والشاء ، إلى وصف الحياة التي يحياها الشعراء والمستمعون لهم ، إشاراً للصدق وبعداً عن الكذب .

كان أبو نواس إذن في هذا الشعر المخالف للأخلاق وأصول الفضيلة ، محباً للأخلاق وأصول الفضيلة ، كان يؤثر الصدق وينكر الكذب ، ولكن يجب أن تفهم هذا على وجهه ، فلم يكن أبو نواس مؤثراً للصدق لأنه صدق ، لم يكن واعظاً ولا ناسكاً ، لم يكن حكيماً يشر بالحكمة ، أو فيلسوفاً يدعو إلى الفلسفة ، وإنما كان شاعراً يصدق في شعره ، ويجب أن يتحدث إلى الناس بما يفهمونه ، فينال منهم موضع الإعجاب والفتنة ، كان يحب الصدق حباً عملياً ، أو قل كان يحب الصدق حباً فنياً ، ولم يكن يدعو إليه ، لأن الدعوة إليه ترضى الدين ، أو ترضى الفضيلة ، وإنما كان يدعو إليه ، لأن الدعوة إليه ترضى الذوق ، وترضى الجمال الفني .

وهو لم يكن يدعو إلى تجنب أساليب القدماء في وصف الأطلال والبكاء عليها وحدها ، لم يكن يدعو إلى تجنب أساليب القدماء في المعاني فحسب ، وإنما كان يدعو إلى تجنب سنة القدماء في المعاني ، وفي الألفاظ جميعاً ، كان يريد ألا يستعير المحدثون معاني القدماء ، لأن لهم معانيهم ، ولهم حياتهم ، وكان يريد ألا يسرف المحدثون في استعارة ألفاظ القدماء ، لأن

لهم ألفاظهم ، أى لأن لغتهم تطورت كما تطورت حياتهم ، أو لأن حياتهم تطورت ، فيجب أن تتطور اللغة لتلائم هذه الحياة .

حدثت معان لم يكن يألفها القدماء ، فيجب أن تحدث لهذه المعانى ألفاظ غير الألفاظ التى ألفها القدماء ، رقت حاشية الحياة الحديثة ، وظهر فيها الترف ولين العيش ، فيجب أن تصطنع الألفاظ الرقيقة لهذه الحياة الرقيقة . ويجب أن نلاحظ هنا شيئين (الأول) أن هذا التطور فى اللغة واقع على كل حال ، سواء أراده الشعراء والكتاب أم لم يريدوه ، وآية ذلك ظاهرة فى اللغة العربية وغير العربية ، فشعر الأمويين ليس كشعر الجاهليين ، وإن كان الشبه بين هذين النوعين من الشعر قويا ، وشعر العباسيين ليس كشعر الأمويين ، وقُل مثل ذلك فى النثر أيام بنى أمية وأيام بنى العباس ؛ التطور إذن واقع ، لأنه قانون لا منصرف عنه لأى جماعة من الجماعات ، والناس خاضعون لهذا التطور ، راضون عنه ، ولكن المشقة كل المشقة ليست فى خضوعهم له ورضاهم عنه ، وإنما هى فى « اعترافهم » به ، واتخاذهم مذهبا وطريقا .

وهذا هو الشئ (الثانى) الذى نريد أن نلاحظه ، وهو أن الخلاف بين القدماء والمحدثين ، يكاد يكون فى « الاعتراف » بالحديث لا فى « قبول » الحديث ، فالحديث مقبول بطبعه ، لأنه الحياة ، ولكن الاعتراف به شاق ، لأننا فطرنا على المحافظة والاتصال بالسنن الموروثة .

ومن هنا نفهم أن أبانواس كان أشد الناس إلحاحا فى تغيير الأسلوب الشعرى ، وتحديد اللفظ والمعنى ، ونفهم أنه لم يكن وحده مغير الأسلوب

الشعري ولا مجدّد اللفظ والمعنى ، وإنما كان الشعراء المعاصرون له - سواء منهم أنصاره وخصومه - يغيرون الأسلوب الشعري ، ويحدّدون اللفظ والمعنى ، وكان منهم من يعترف بهذا التغيير ، ويرى أنه مشروع ، فيمضى فيه ، ويحرص عليه ، وكان منهم من ينكر هذا التغيير ، ويتكلف الفرار منه .

وقع هذا أيام أبي نواس ، ووقع هذا في القرن السابع عشر الفرنسي ، ووقع هذا في كل عصر من العصور التي تطورت فيها الأمم ، وتطورت فيها اللغات أيضا .

كان أبو نواس إذن يطالب الشعراء بأن يكونوا صادقين ، غير منافقين مع أنفسهم ، وانظر إلى طريقه في الدفاع عن رأيه ، وأخذ الناس بهذا الرأي :

عَاجَ الشَّيْءِ عَلَى رَسْمٍ يُسَائِلُهُ	وَعُجِبْتُ أَسْأَلُ عَنْ خَمَارَةِ الْبَلَدِ
يَبْكِي عَلَى طَلَلِ الْمَاضِينَ مِنْ أَسَدٍ	لَا دَرَ دَرَكُ قُلُوبِي مَنْ بَنُو أَسَدٍ؟
وَمَنْ تَمِيمٌ؟ وَمَنْ قَيْسٌ وَلَفْهُمَا	لَيْسَ الْأَعَارِيبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَحَدٍ
لَا جَفَّ دَمْعُ الَّذِي يَبْكِي عَلَى حَجَرٍ	وَلَا صَدَا قَلْبٍ مَنْ يَصْبُو إِلَى وَتَدٍ
كَمْ بَيْنَ نَاعَتِ خَمْرِ فِي دَسَاكِهَا	وَبَيْنَ بَاكِ عَلَى نُؤْيٍ وَمُسْتَضِدٍ
دَعَا، عِدْمَتِكَ وَاشْرَبَهَا مُعْتَقَةً	صَفَرَاءَ تَفَرَّقَ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ
مِنْ كَفِّ مُضْطَمَّرِ الزُّنَارِ مُعْتَدِلٍ	كَأَنَّهُ غَضَنُ بَانَ غَيْرُ ذِي أَوْدٍ
أَمَّا رَأَيْتَ وَجْهَ الْأَرْضِ قَدْ انْضَرَّتْ	وَالْبَسَتْهَا الزَّرَابِي نَثْرَةَ الْأَسَدِ
حَاكَ الرِّيعُ بِهَا وَشَيًّا وَجَلَّلَهَا	يَبَانِعِ الزَّهْرِ مِنْ مَثْنَى وَمِنْ وَحَدٍ

فانظر إليه ، كيف أثر العنف في خطاب خصمه ، فأسرف في ذم القديم ،

والنعي على من يتكلفه ، وأسرف في مدح الجديد ، والحث عليه ، وانظر إلى تبرئته بأسد ، ومن يميكي على أسد ، وإلى ذمه لتييم وقيس والعرب كافة ، ثم انظر إليه كيف يحقر هذا القديم ، ويرفع من شأن الجديد ، ويأخذ الناس بأن ينظروا إلى ماحولهم ، من جمال الطبيعة ، فيألفوه ويصفوه ، ولا يشغلوا عن رياض العراق وجناته ، بطول الجزيرة العربية وصحاريها ؛ ومثل هذا الشعر كثير في خمريات أبي نواس ، كثير في غير الخمريات أيضا ، يكفي أن ترجع إلى ديوانه ، لتقنع منه بما تريد .

هذا أحد الشئيين اللذين كان يقصد إليهما أبو نواس ، حين يفتن في وصف الخمر واللذة .

(الشئ الثاني) مذهبه في الحياة لافي الأدب ، ذكرناه كثيرا ، فسخط الناس وأشفقوا ، وغلا بعضهم في السخط والإشفاق ، حتى ظن بنا أننا نأتمر بالدين والعادة والخلق ، حين لم نكن نفكر إلا في شئ واحد ، هو التاريخ ، هذا الشئ الذي نريد اليوم أن نمر به مسرعين ، هو المجون ، فقد كان أبو نواس مجددا في كل شئ ، مجددا في الشعر ، ومجددا في الحياة ، ويقيننا نحن أن أبا نواس لم يكن مجددا وحده ، وإنما كان أهل عصره كلهم مجددين .

والفرق بين أبي نواس وغيره من معاصريه ، أنه كان يريد أن يحمل هؤلاء المعاصرين على أن يعترفوا بحياتهم ، ولا يكذبوا على أنفسهم ، فإذا كانوا قد نبذوا القديم واجتنبوه في واقع الأمر ، فمن الحق عليهم ألا يخفوا هذا ولا يفروا منه ، فهو إذن في قضية المجون ، يسلك نفس الطريق التي يسلكها في قضية الأسلوب الأدبي ، يرى أن هناك تطورا واقعا ، وأنا خاضعون لهذا التطور ، وأننا ننكر هذا التطور ، ولا ننكر خضوعنا له ، وإنما نؤمن به إيمانا ،

وانعترف به اعترافا ، وحجته في ذلك أن هذا سبيل الصادقين ، وأنت
 قد تستطيع أن تخفي ما تشاء على من تشاء ، ولكنك لن تستطيع أن تخفي
 على الله شيئا ، والله وحده هو الذي يجب أن تصدقه في شرك وجهرك ،
 فإذا اجترأت على معصية الله ومخالفة حدوده ، فما يعينك أن يقول الناس
 فيك ؟؟ ... وانظر إلى هذه الآيات :

لَا تَسْقِنِي إِنْ كُنْتَ بِنِي عَالِمًا إِلَّا الَّتِي أَضْمَرْتُ فِي صَدْرِي
 هَاتِ الَّتِي تَعْرِفُ وَجَدِي بِهَا وَأَكُنْ بَمَا شِئْتَ عَنِ الْخَمْرِ
 يَا حَبَّذَا الْجَهْرُ بِأَمْرِ الصَّبَا مَا كُنْتُ مِنْ رَبِّكَ فِي سِتْرٍ

هو إذن مقتنع بوجوب العدول عن القديم ، والاعتراف بالجديد ، وهو
 شديد الاقتناع ، قد يتكلف في سبيله ما يتكلفه المقتنعون ، من الإسراف
 والتعصب والخروج من الطور ، وانظر إلى هذه الآيات ، التي لم يحفل فيها
 أبونواس بقاعدة دينية أو خلقية ، وإنما اتخذ الإباحة والصراحة مذهبا وسبيلا:
 أَلَا فَاسْقِنِي خَمْرًا وَقُلْ لِي هِيَ الْخَمْرُ وَلَا تَسْقِنِي سِرًّا إِذَا أُمَكَّنَ الْجَهْرُ
 فَعَيْشُ الْفَتَى فِي سَكْرَةٍ بَعْدَ سَكْرَةٍ فَإِنْ طَالَ هَذَا عِنْدَهُ قَصُرَ الدَّهْرُ
 وَمَا الْغَبْنُ إِلَّا أَنْ تَرَانِي صَاحِبًا وَلَا الْغَنَمُ إِلَّا أَنْ يَتَعَنَّنِي الشُّكْرُ
 فَبُحْ بِاسْمِ مَنْ أَهْوَى وَدَعْنِي مِنَ الْكُنَى فَلَا خَيْرَ فِي اللَّذَاتِ مِنْ دُونِهَا سِتْرُ
 وَلَا خَيْرَ فِي فَتْكِ بَغِيرِ مَجَانَةٍ وَلَا فِي مُجُونٍ لَيْسَ يَتَّبِعُهُ كُفْرُ
 ولا تحسبن أبانواس شاذا في هذا أو منتحلا إياه انتحالا ، وإنما هو أثر
 البيئة فيه ، وهو نفسه يحدثنا بهذا ، فيقول :

وَقَائِلٍ هَلْ تُرِيدُ الْحَبِجَّ قُلْتُ لَهُ
أَمَّا وَقَطْرُبُلٌ مِنْهَا بِحَيْثُ أَرَى
فَالصَّاحِيَّةُ فَالْكَرْخُ الَّتِي جَمَعْتُ
فَكَيْفَ بِالْحَبِجِّ لِي مَا دُمْتُ مُنْعَمًا
وَهَبَكَ مِنْ قَصْفٍ بَعْدَادٍ تَحْلُصُنِي

ويقول بعد أن حبج :

قَالُوا تَنْسَكَ بَعْدَ الْحَبِجِّ قُلْتُ لَهُمْ
أَخَشَى قُضَيْبَ كَرَمٍ أَنْ يُتَارِعَنِي
مَا أَبْعَدَ النَّسْكَ مِنْ قَلْبٍ تَقَسَّمَهُ
فَإِنْ سَلِمْتُ ، وَمَا قَلْبِي عَلَى ثِقَةٍ
مَا شِئْتُ مِنْ بَلَدٍ دَانَ مَنَازِلُهُ
وُقِحًا تَوَاصَوْا بِتَرْكِ الْبِرِّ بَيْنَهُمْ
لَيْسُوا أَكْثَوَمٌ إِذَا حَازَيْتَ مَجْلِسَهُمْ
هُنَاكَ لَا تَتَخَطَّى الْأُذُنَ لِأَعْمَةٍ

نَعَمْ إِذَا فَنَيْتَ لَدَاتُ بَعْدَادٍ
فَقِنَّةُ الْفَرَكِ مِنْ أَكْنَافِ كَلَوَاذٍ
شَذَّاذَ بَعْدَادَ مَا هُمْ لِي بِشَذَّاذٍ
.....
كَيْفَ التَّحْلُصُ لِي مِنْ طَيْرٍ نَابَازٍ

أَرَى وَأَرْجُو وَأَخْشَى طَيْرَ نَابَازَا
رَأْسَ الْقِطَارِ وَإِنْ أَسْرَعْتُ إِغْدَاذَا
قُطْرُبُلٌ فَقَرَى بُنَى فَكَلَوَاذَا
مِنْ السَّلَامَةِ لَمْ أَسْلَمْ بِبَعْدَاذَا
.....

تَقُولُ ذَا شَرُّهُمْ بَلْ ذَاكَ بَلْ هَذَا
أُنْفِذْتَ بِالْتَّرَكِ وَالْأَزْكَانِ إِنْفَاذَا
وَلَا تَرَى قَائِلًا مَنْ ذَا وَلَا مَاذَا

فقد رأيت مما رويناه ، أن أبا نواس لم يبتدع مذهبه في القديم ، ولا في
المجون ابتداء ، ولم يتكلفه تكلفاً ، وإنما عاش في عصر وبيئة ، كانا يضطرانه
إلى أن يرى هذا الرأي ، وينهج هذا المنهج ، وكل الفرق - كما قلنا - بينه وبين
خصومه وأنصاره ، أنه كان صريحاً يؤثر الاعتراف بحياته التي يحياها ، على
التستر والتكتم ، ولسنا نقول إنه مصيب ، ولسنا نقول إنه مخطئ ، فقد
يختلف الناس في أن الصراحة خير أو شر ، إذا كان موضوعها الإثم والمجون ،

وليس يعني أن تكون صراحة أبي نواس شراً أو خيراً ، وليس يعني أن
 إثم أبي نواس أو مجونه ، أو بغضه للقديم وجبه للحديث ، ليس يعني شيء
 من هذا في نفسه ، فنحن لا نتخذ أبا نواس قدوة ولا إماماً ، ولا نعتقد أن
 أبا نواس يصلح قدوة أو إماماً في ضروب الحياة المختلفة ، وإنما نحن نذهب
 مذهب المؤرخ ، ونخيل إلينا أن هذا البحث على إيجازه ، ينتج لنا أن شعر
 أبي نواس في الخمر على ما فيه من جمال فني يعجب الأدباء والنقاد ، كان يرمى إلى
 غرضين اثنين : الاعتراف بالجديد في الأدب : والاعتراف بالجديد في الحياة ،
 بل نستطيع أن نوجز فنقول ، كان شعر أبي نواس كله ، رفضاً للقديم في كل
 شيء ، وكلفاً بالجديد في كل شيء .

والآن وقد عرفنا فلسفة أبي نواس في الخمر ، لا ينبغي أن ننصرف عن
 هذا الباب من شعره ، دون أن نشير إلى ماله من المقطوعات ، والقصائد التي
 تنظر إليها في نفسها النظر الفني الخالص ، فلا تستطيع إلا أن تعجب بها
 وترضى عنها ، فتقرأها ، وتقرأها ، وتميل إلى حفظها ، وتميل إلى أن تسمعها
 في الغناء .

كثير جداً هذا النوع من شعر أبي نواس في الخمر ، وكأنه كان يريد
 حين يضع هذه المقطوعات أن تتخذ للغناء والتلحين ، تمجيداً للخمر ، وتأيداً
 لمذهبيه في الأدب والمجون ، فأنت تذكر همزته المشهورة :

« دَع عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللُّومَ إِغْرَاءُ »

وتذكر أني قد حللتها في غير هذا المكان ، وتذكر قصيدته الأخرى :

أَعَاذِلُ أَعْتَبْتُ الْإِمَامَ وَأَعْتَبَا وَأَعْرَبْتُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ وَأَعْرَبَا

وانظر إلى هذه القصيدة ، وقد كان فيها جدال بينه وبين مسلم بن الوليد :

ذَكَرَ الصَّبُوحَ بِسُحْرَةٍ فَارْتَاخَا	وَأَمَلَهُ دِيكَ الصَّبَاحَ صِيَاخَا
أَوْفَى عَلَى شَرَفِ الْجِدَارِ بِسُدْفَةٍ	غَرِدًا يُصَفِّقُ بِالْجَنَاحِ جَنَاخَا
بَادِرَ صَبَاحِكَ بِالصَّبُوحِ وَلَا تَكُنْ	كَمُسَوِّفِينَ غَدَوْا عَلَيْكَ شِحَاخَا
وَحَدِيثَ لَدَاتٍ مُعَلَّلٍ صَاحِبِ	يَقْتَاتُ مِنْهُ فُكَاهَةً وَمُرَاخَا
نَبَّهْتُهُ ، وَاللَّيْلُ مُلْتَبِسٌ بِهِ	وَأَزَحْتُ عَنْهُ نِقَابَهُ فَانْزَاخَا
قَالَ ابْغِنِي الْمِصْبَاحَ قُلْتُ لَهُ اتَّيَدُ	حَسْبِي وَحَسْبُكَ ضَوْءُهَا مِصْبَاخَا
فَسَكَبْتُ مِنْهَا فِي الزُّجَاجَةِ شَرِبَةً	كَانَتْ لَهُ حَتَّى الصَّبَاحَ صَبَاخَا
مِنْ قَهْوَةٍ جَاءَتْكَ قَبْلَ مِزَاجِهَا	عُطْلًا فَالْبَسَهَا الْمِزَاجُ وَشَاخَا
شَكَّ الْبَزَالُ فُوَادَهَا فَكَأَنَّهَا	أَهْدَتْ إِلَيْكَ بِرِيحِهَا تَفَاخَا
صَهْبَاءُ تَقْتَرِسُ النُّفُوسَ فَمَا تَرَى	مِنْهَا بَيْنَ سَوَى السُّبَاتِ جِرَاخَا
عُمِرَتْ يُكَامِلُكَ الزَّمَانُ حَدِيثَهَا	حَتَّى إِذَا بَلَغَ السَّامَةَ بَاخَا

وانظر إلى هذه المقطوعة ، التي تكلف أبو نواس فيها البديع ،

فأحسن التكلف :

عَاذَلِي فِي الْمُدَامِ غَيْرَ نَصِيحِ	لَا تَأْمَنِي عَلَى شَقِيقَةِ رُوحِي
لَا تَأْمَنِي عَلَى الْآتِي فَتَنْتَنِي	وَأَرَتَنِي الْقَبِيحَ غَيْرَ قَبِيحِ
قَهْوَةٌ تَتْرُكُ الصَّحِيحَ سَقِيًّا	وَتُعِيرُ السَّقِيمَ ثَوْبَ الصَّحِيحِ
إِنَّ بَذْلِي لَهَا لِبَذْلُ جَوَادٍ	وَاقْتِنَايَ لَهَا اقْتِنَاءُ شَحِيحِ

وانظر إلى هذه الأبيات ، التي لا يشك قارئها أنها قيلت أمس أو اليوم ،

لأنها تصف شيئاً مما نحن فيه ، وأحسب أنها ستظل جديدة على الدهر :

تَقْتِيرُ عَيْنَيْكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنْكَ تَشْكُو سَهْرَ الْبَارِحَةِ
 عَلَيْكَ وَجْهَهُ مَيِّبٌ حَالُهُ مِنْ لَيْلَةٍ بَتَّ بِهَا صَالِحُهُ
 وَنَفْحَةُ الْخَمْرِ وَأَنْفَاسُهَا وَالْخَمْرُ لَا تَخْفَى لَهَا رَائِحَةُ
 وَغَادَةُ هَارُوتَ فِي طَرْفِهَا وَالشَّمْسُ فِي مَفْرَقِهَا جَانِحَةُ
 تَسْتَقْدِحُ الْعُودَ بِأَطْرَافِهَا وَنَعْمَةٌ فِي كَبِدِي قَادِحَةُ
 وانظر إلى هذه الأبيات أيضا ، وحدثني ، أليست وضعت لتغني :

أَلَهُ بِالْبَيْضِ الْمِلَاحِ وَبِقَيْنَاتٍ وَرَاحِ
 لَا يَصُدُّكَ لَاحِ هُوَ عَنْ سُكْرِكَ صَاحِ
 لَيْسَ لِلَّهِمْ دَوَاءُ كَاغْتِبَاقِ وَاضْطِبَاحِ
 فَلَعَمْرِي مَا يُدَاوِي الْهَلَمَّ بِالْمَاءِ الْقَرَّاحِ

ولو أنني أردت أن أروى لك كل ما يعجب من هذا الشعر لما فرغت ،
 ولكنني أريد أن أختم هذا الفصل بقصيدة كلها جد ، وقد أعجب بها العلماء
 والنقاد في القرن الثالث ، لأن أبا نواس عرض فيها للوصف فأجاده ، وأحسنه
 إحساناً عظيماً ، وأعجب بها أنا ، لأن أبا نواس أراد أن يبكي الأطلال والديار
 فبكاه ، ولكنه لم يبكي أطلال البادية ، وإنما بكى أطلال الحاضرة ... لم يبكي
 أطلال حي ارتحل ، وإنما بكى أطلال الشرب وأصحاب اللهو ، بعد أن فرغوا
 من لهوهم ، وانصرفوا عن ملهاتهم ، فتركوا فيه ماترك أمثالهم من الآثار ،
 فأبو نواس لا يذكر الخيمة ولا النوى ، ولا الود وإني أذكر ما تستسمع :

وَدَارِ نَدَامَى عَطَّلُوهَا وَأَدْجُوا بِهَا أَثَرُ مِنْهُمْ جَدِيدٌ وَدَارِسُ
 مَسَاحِبٍ مِنْ جَرِّ الزَّقَاقِ عَلَى الثَّرَى وَأَضْعَافُ رِيحَانٍ جَنَى وَيَابِسُ

حَبَسْتُ بِهَا صَحْبِي فَجَدَّدْتُ عَهْدَهُمْ وَإِنِّي عَلَى أَمْثَالِ تِلْكَ حَابِسُ
 وَلَمْ أَذَرِ مِنْهُمْ غَيْرَ مَا شَهِدْتُ بِهِ بِشَرْقٍ سَابَاطِ الدِّيَارِ الْبَسَابِسُ
 أَقْنَا بِهَا يَوْمًا وَيَوْمَيْنِ بَعْدَهُ وَيَوْمًا لَهُ يَوْمُ التَّرْحُلِ خَامِسُ
 تُدَارُ عَلَيْنَا الْكَأْسُ فِي عَسَجَدِيَّةٍ حَبَّتْهَا بِأَنْوَاعِ التَّصَاوِيرِ فَارِسُ
 قَرَارَتِهَا كِسْرَى وَفِي جَنَابَاتِهَا مَهْيَ تَدْرِيهَا بِالْقِسِيِّ الْفَوَارِسُ
 فَلَا حَمْرَ مَا زُرْتُ عَلَيْهِ جُيُوبُهَا وَلِلْمَاءِ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْقَلَانِسُ

أَرَأَيْتَ إِلَى هَذِهِ الْآثَارِ، تَرَكَهَا جَرِ الدَّنَانِ؟ أَرَأَيْتَ إِلَى هَذَا الرِّيحَانِ جَنِيهِ
 وَيَابِسِهِ؟ هَذِهِ هِيَ أَطْلَالُ أَبِي نَوَاسٍ، ثُمَّ أَتَحَسُّ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ شَيْئًا مِنْ
 الْمِيلِ إِلَى الْفَرَسِ وَالْإِعْجَابِ بِهِمْ، وَالْحَنِينِ إِلَى عَهْدِهِمُ الْقَدِيمِ؟ ثُمَّ أَتَرَى وَصْفَ
 الْكَأْسِ وَمَا فِيهَا مِنْ صُورَةٍ، وَتَقْسِيمَ هَذِهِ الصُّورَةِ بَيْنَ الْحَمْرِ وَمَزَاجِهَا؟
 ثُمَّ انْظُرْ إِلَى هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي يَبْتَدِئُ بِهِ أَبُو نَوَاسٍ إِحْدَى قِصَائِدِهِ، وَانْظُرْ إِلَى
 مَا فِيهِ مِنْ هَذِهِ السَّخَرِيَّةِ الْعَصْرِيَّةِ بِأَصْحَابِ الْأَطْلَالِ وَالْبَاكِينَ عَلَيْهَا، بِأَمْرِ
 الْقَيْسِ وَأَصْحَابِهِ:

قُلْ لِمَنْ يَبْكِي عَلَى رَسْمٍ دَرَسَ وَاقِفًا مَا ضَرَّ لَوْ كَانَ جَلَسَ
 تَصِفُ الرُّبْعَ وَمَنْ كَانَ بِهِ مِثْلَ سَلَمَى وَلَيْمَنَى وَخَنَسَ
 اتْرُكْ الرُّبْعَ وَسَلَمَى جَانِبًا وَاصْطَبِخْ كَرْخِيَّةً مِثْلَ الْقَبَسِ

هَذِهِ طَائِفَةٌ مِنْ شَعْرِ أَبِي نَوَاسٍ فِي الْحَمْرِ، لَمْ تَتَكَلَّفْ اخْتِيَارَهَا، وَلَا نَشَأَ
 فِي أَنْ لَا أَبِي نَوَاسٍ خَيْرًا مِنْهَا، وَلَكِنَّمَا أَطْلَنَّا فِي هَذَا الْبَابِ، فَلَنَنْتَقِلَ مِنْهُ
 إِلَى الْغَزَلِ فِي الْأُسْبُوعِ الْآتِي.

الغزل في شعر أبي نواس^(١)

غزله بالنساء — غزله بالعلماء —

الإملاء في بغداد — الحرائر في العصر

العباسي — حبه لجنان .

رأينا مذهب أبي نواس في وصف الخمر وتعجيدها ، وعرفنا أنه لم يصف الخمر عبثاً ، وإنما اتخذ وصفها وسيلة ، إلى إعلان رأيه في تجديد الأدب ، وإعلان مذهبه في المحون ، وإعلان ما يكنّ للخمر من حب ، وما يختصها به من كلف .

ونريد اليوم أن نعرف مذهب أبي نواس في الغزل ، ولكنني أتعجل فألفتك إلى أن هذا غير ميسور ، لأن أبا نواس لم يتغزل كغيره من الشعراء الذين سبقوه ، ولم يسلك السبيل التي مهدت من قبله ، وإنما سلك سبلاً أخرى ليس يباح لنا ، في صحيفة سيارة ، أن نسلكها معه ، أو نتبعه فيها .

لأبي نواس غزلان : غزله بالنساء ، وغزله بالعلماء ، وهو مجيد في الثاني ، محسن الإحسان الفنى كله ، صادق أيضاً أشد الصدق ، ولكنك تقرنا على أننا لا نستطيع أن نطرق هذا الباب ، إلا في كتاب مخصص لأبي نواس ، يقرؤه الخاصة ، ولا تصل إليه يد العامة ، إلا مصادفة وبعد مشقة .

أما غزله بالنساء فكثير ، وفيه الجيد ، ولكن فيه الرديء ، ولعلك إذا

(١) نشرت بالسياسة في ١٨ ذى الحجة سنة ١٣٤١ هـ — أول اغسطس سنة ١٩٢٣ م

أردت أن تميز هذا الغزل ، أو تصفه بوصفه الصحيح ، لم تستطع أن تعدل عن هذا الحكم ، وهو أن أبا نواس لم يكن جاداً ولا صادقاً حين كان يتغزل بالنساء ، وإنما كان مازحاً ، أو بعبارة أصح كان مُخادعاً ، وكان كذاباً ، كان مغروراً وكان مفتوناً ، وكان مع هذا كله شاعراً ، يريد أن يطرق أبواب الشعر جميعها ، ومنها التغزل بالنساء ، فتغزل بهن ، حتى لا يفوته هذا الفن ، وفي الحق أنه لم يقصر في هذا الفن ، فقد وصف النساء فأحسن وصفهن ، وقد وصف ما بين النساء والرجال من صلة ، فأجاد الوصف ، وأتقن التصوير . ولكنه لم يصف النساء جميعاً ، وإنما وصف منهن طائفة خاصة ، ولم تكن هذه الطائفة أقرب النساء إلى الطهر والعفاف ، ولا إلى البر والصون ، وإنما كانت طائفة مبتذلة ممتحنة ، حظها من الطهر والعفاف قليل . لم يعرض أبو نواس أو لم يكده يعرض للمحصنات من النساء ، ولا للحرائر منهن ، وإنما عرض للإماء ، فأحسن وصفهن ، وترك لنا منهن صورة إن لم تكن صحيحة صادقة كل الصدق ، فهي قريبة جداً من الحقيقة الواقعة ، عرض للإماء ولطائفة بعينها من الإماء ، لهذه الطائفة التي كانت تتألف من إماء مہذبات ، قد أحسن تأديبهن ، فروين الشعر وقرضنه ، وأحسن الموسيقى ، ونبغن فيها ، وأخذن من العلم والأدب المعروفين حينئذ بطرف لا بأس به ، فكنّ يثبتن لمناظرة الشعراء والعلماء وأئمة اللغة ، وكنّ يمتزّن بذلك ، ويتقدمن على الحرائر والمحصنات ، لأن حرية هؤلاء وإحصانهم كانا يحولان بينهما وبين التحدث إلى الرجال ، والتبذل في هذا الحديث .

كان الإماء إذن مظهر المرأة في بغداد، ولكنه كان مظهراً سيئاً جداً من جهة، وحسناً جداً من جهة أخرى، كان مظهراً سيئاً، لأنهن كن مبتذلات خليعات، يتهالكن على الخلاعة، ويسرفن في المجون، ويتخذن من تهاالكن على الخلاعة، وإسرافهن في المجون سلاحاً قويا، يتملقن به لذة الرجال وشهواتهم، ويحاربن به الحرائر المحصنات حرباً غير متكافئة. وكن مظهراً حسناً لأنهن كن أديبات عالِمات، يتصرفن في فنون الأدب والعلم على اختلافها.

ومن هنا وجب القصد والاحتياط في الحكم على نساء هذا العصر، بما نرى في شعر أبي نواس وغير أبي نواس، وبما نرى في الأغاني وغير الأغاني، مما يشهد بتفوقهن العقلي من جهة، وانحطاطهن الخلق من جهة أخرى، يجب القصد والاحتياط، لأن الكثرة المطلقة من هؤلاء النساء لا تمثل المرأة العربية الحرة، بل لا تمثل المرأة المسلمة الحرة، وإنما تمثل هذا الرقيق الذي كان يجلب إلى بغداد وغير بغداد من حواضر المسلمين، فيتخذ فيها تجارة وهوأ، كما يتخذ تجارة وهوأ فاخر الأثاث وحسن الرِّياش.

هؤلاء النساء لا يمثلن المرأة الحرة، وإنما يمثلن الرجل الحر، فقد كن له لذة وهوأ، وكن لأخلاقه وحياته خارج البيت مرآة مجلوة، تمثلها أحسن تمثيل، فلو لا أن هؤلاء الإماء اللاتي ذكرهن أبو نواس كن يحبين اللهو، ويتهاالكن على المجون، ويقبلن فيه من ضروب الخلاعة والابتذال ما لا يقبله الحرائر، لما استطاع أبو نواس وغير أبي نواس أن يقولوا فيهن ما قالوا، أو أن يصفوهن بمثل ما وصفوهن به.

كان في جاهلية العرب وصدر الإسلام وأيام بني أمية شعراء يحبون الفتك ، ويتحدثون به ، فلا مرئ القيس وعمر بن أبي ربيعة في ذلك شعر كثير ، ولكن هؤلاء الشعراء كانوا يؤثرون العفة وحسن القول ، حتى في الفتك والفحش ، وكان شعرهم الفاحش قليلاً جداً ، بالقياس إلى شعرهم العفيف ، وكان الشعراء الصادقون في الحب ، المؤثرون للعفة والطهارة في كل ما يقولون ، كثيرين جداً بالقياس إلى هؤلاء الشعراء الفاتكين ، ذلك لأن سلطان الإماء كان ضعيفاً جداً ، أو لم يكن موجوداً في هذه العصور ، ولأن الرجال الأحرار كانوا يؤثرون كرامتهم على لذاتهم ، فكانوا يؤثرون نساءهم على إماءهم . أما في أيام بني العباس فقد تغيرت الحال تغيراً شديداً ، كثر الإماء كثرة فاحشة ، وتفوقن تفوقاً فاحشاً ، في الأدب والشعر والغناء ، وفي ضروب الزينة واستهواء الرجال ، وتغيرت أخلاق الرجال ، فتهالكوا على اللذة ، واستبقوا إلى الشهوات ، فاعتقلوا الحرائر المخصنات ، وكلفوهن ما تتكلفه المرأة الحرة المخصنة ، من الإشراف على حياة الأسرة في عفة وكرامة ، ولكن من وراء حجاب ، ثم أسرفوا في اتخاذ الرقيق ، وأباحوا لأنفسهم مع هذا الرقيق من ضروب اللذات ، ما تأبى الكرامة وإكبار الحرائر اتخاذهم مع الزوجات ، فكان هذا الفساد العظيم ، الذي يمثله غزل أبي نواس بالنساء والغلمان ... أتعظ أن أبا نواس كان يستطيع أن يقول في حرة محصنة مثل هذه القصيدة :

وَنَابِهٍ فِي الْهَوَى لَنَا نَاسِي قَطَعَ بِالْهَجْرَانِ أَنْفَاسِي
لَسْتُ لَهَا وَاصِفًا مَخَافَةَ أَنْ يَعْرِفَ مَا بِي جَمَاعَةُ النَّاسِ

أَكْثَرَ وَصَفِي لَهَا شِكَايَةُ مَا
يُطْمَعُنِي لِحْظَهَا وَيُؤْيِسُنِي
فَصِرْتُ بِاللَّحْظِ مِنْ مُعَذِّبِي
أَسْعَدُ يَوْمٍ لَهَا حَظِيْتُ بِهِ
لِذَلِكَ الْيَوْمِ مَا حَيِّتُ وَمَا
تَقُولُ لِي وَالْمُدَامُ مُرْسَلَةٌ
هَلْ لَكَ أَنْ تَطْرُدَ النَّعَاسَ فَقَدْ
قُلْتَ لَهَا فَابْتَدَى وَهَاتِي فَمَا
وَعَايَتِي أَنْ أُنَالَ فَضْلَتَهَا
ثُمَّ أَظُنُّ الْحِذَارَ نَبَهَهَا
قَالَتْ فَدَعِ عَنْكَ الْاِحْتِيَالَ لِمَا
أَعْرَضْتُ عَنْهَا وَقَدْ فَهِمْتُ لَكَ
ثُمَّ دَعَتْهَا الْمُدَامُ مِنْ كَثْبِ
فَاخْتَلَبَتْ زِقْنًا فَجَجَ بِهَا
ثُمَّ تَحَسَّتْ حَتَّى إِذَا شَرِبَتْ
نَازَعَتْهَا الْكَأْسُ فِيهِ فَضْلَتَهَا
فَكَادَتْ النَّفْسُ لِلشُّرُورِ بِهَا

فِيهَا قَضَى اللَّهُ لِي عَلَى رَأْسِي
بِالْلَفْظِ مِنْهَا فَوَادَهَا الْقَاسِي
وَاللَّفْظِ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْيَاسِ
مَقَالَهَا لِي وَلَسْتُ بِالنَّاسِي
تَرْجَمَ قَوْلِي سَوَادُ أَنْفَاسِي
تَفِيضُ حَوْلِي نُفُوسُ جُلَاسِي
طَابَ انْضَوَاعُ الْمُدَامِ وَالْآسِ
حَسَوْتُ مِنْهَا فَإِنِّي حَاسِي
فِي الْكَأْسِ مِنْ شُرْبِهَا أَوِ الطَّاسِ
وَمَا بِهَا قَدْ أَرَدْتُ مِنْ بَاسِ
أَرَدْتُ سُكْرِي لَهُ وَإِنْعَاسِي
تَحَسَّبَ أَنِّي لِقَوْلِهَا نَاسِي
وَاللَّيْلُ ذُو سُدْفَةٍ وَإِدْمَاسِ
فِي الْكَأْسِ رَاحًا كَضَوْءِ مِقْبَاسِ
نِصْفًا كَمَا قَيْسَ لِي بِمِقْيَاسِ
فَقُرْتُ بِالْكَأْسِ بَعْدَ إِمْرَاسِ
تَخْرُجُ بَيْنَ الْمُدَامِ وَالْكَاسِ

أترى إلى امرأة حرة محصنة تستحث أبانواس على المندامة ومنازعة
الكأس ؟ أترى إليها تذهب هذه المذاهب الملتوية في اجتذابه إليها ،
وترغيبه فيها ، تطمعه حينا ، وتؤيسه حينا آخر ؟ بل أترى إلى امرأة حرة

محصنة بتبذل نفسها ، فتنزل إلى المنادمة والمداعبة ؟ كلا ! وإنما هي أمة من الإماء ، وامرأة من هؤلاء النساء اللاتي بذلن أنفسهن ، فابتذلهن الرجال ، ومن هنا لم يكن أبونواس صادقا ، ومتحدثا عن عاطفة قوية متقدمة في أكثر الأحيان ، حينما كان يذكر هؤلاء النساء ، أو يتغزل بهن ، وإنما كان يترصّاهن ترصيا ، ويتملقهن تملقا ، ويتخذهن وسيلة إلى إرضاء مجونه من جهة ، وفنه من جهة أخرى .

أضف إلى هذا أن أبانواس كان معتدلا جداً في الميل إلى النساء ، وكان مسرفا جداً في ميل آخر . . . فمن المعقول ألا يتحدث عن نفسه وعواطفه حين يتغزل بالنساء ، ولا تكاد تقرأ قصيدة أو مقطوعة من شعر أبي نواس في هذا الفن من الغزل ، إلا رأيت فيها التكلف ظاهراً ، والكذب واضحاً ، لأريد التكلف اللفظي ، وإنما أريد تكلف المعنى ، واتتحال الحب .

وربما كان من الحق أن نستثني من هذا الشعر شعره في « جنان » فقد يظهر أنه كلف بها حقاً ، وهام بها بعض الهيام ، وتجشّم في سبيلها مالا يتجشّمه الماجن المداعب ، ولكنه مع ذلك لم يكن مقتصدا ولا عفيفا في كل ما قال في « جنان » ، وإنما أسرف وورط نفسه في شيء من الإثم ، فانظر إلى هذه الأبيات :

وَعَاشِقَيْنِ التَّفَّخَـذَ أَهْمَا	عِنْدَ التَّشَامِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ
فَلْتَقِيَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَأْتِيَا	كَأَنَّمَا كَانَا عَلَى مَوْعِدِ
لَوْلَا دِفَاعُ النَّاسِ إِيَّاهُمَا	لَمَا اسْتَفَاقَا آخِرَ الْمُسْنَدِ
قُلْنَا كَلَانَا سَاتَرَتْ وَجْهَهُ	مِمَّا يَلِي جَانِبَهُ بِالْيَدِ

نَفَعَلُ فِي الْمَسْجِدِ مَا لَمْ يَكُنْ يَفْعَلُهُ الْأَبْرَارُ فِي الْمَسْجِدِ

وليس من شك في أنهما كانا على موعد ، فانظر إلى هذه الآيات :

أَلَمْ تَرَ أَنِّي أَفْنَيْتَ مَعْرِي بِمَطْلِبِهَا وَمَطْلِبُهَا عَسِيرٌ

فَلَمَّا لَمْ أَجِدْ سَبِيلًا إِلَيْهَا يُقَرِّبُنِي وَأَعْيَتَنِي الْأُمُورُ

حَجَجْتُ وَقُلْتُ قَدْ حَجَجْتُ جَنَّاتٍ فَيَجْمَعُنِي وَإِيَّاهَا الْمَسِيرُ

وأنا أحسب أن حب أبي نواس لجنان لم يكن من الحب الصادق العفيف ،

وإنما كان نوعاً من الأمل ، يتحرق الرجل لتحقيقه ، ويعسر عليه هذا

التحقيق ، فأما إشارتها بالخير ، وتقديم لذتها على لذته ، وأمنها على أمنه ،

فعاطفة أحسب أنها لم تجد إلى نفسه سبيلاً ، وهذه الآيات أصدق دليل

على ذلك :

يَا قَرَأَ أَبْصَرْتُ فِي مَا تَمَّ يَنْدُبُ شَجْوًا بَيْنَ أَتْرَابِ

يَبْكِي فَيُذْرى الدُّرَّ مِنْ تَرْجِسٍ وَيَلْطِمُ الْوَرْدَ بِعُنَابِ

أَبْرَزُهُ الْمَاءُ تَمَّ لِي كَارَهَا بَرَّغَمَ بَوَّابِ وَحُجَّابِ

لَا زَالَ مَوْتًا دَابُّ أَحْبَابِهِ وَكَانَ أَنَّ أَبْصَرُهُ دَابِي

أتظن أنه يحبها حقاً حين يتمنى أن يموت أحبابها في كل يوم ، لتظهر

مُعْوَلَةٌ ، نادرة ، وليستطيع هو أن يراها ؟ ألسنت ترى في هذا أن الرجل

كان أثراً مسرفاً في حب نفسه ولذته ، يريد أن يستمتع بمنظر هذه المرأة ،

عما تكلفت هذه المرأة في هذا من شر ، واحتملت من خطوب ؟ لم يكن

أبو نواس إذن صادقاً في حب النساء ، وليس شعره صادقاً في تمثيل النساء كما

هو صادق في تمثيل الرجال ، ولكنه على هذا كله يُظهِرنا على وجه من وجوه الحياة الأدبية والعادية في بغداد أيام بني العباس .

ومن الحق أن نتبين هذا الوجه ونحسن درسه ، فقد يعيننا ذلك على فهم أشياء كثيرة لم نفهمها بعد من أمر هذا العصر ، وإذن فمن الحق أن نتناول هذا الفن من شعر أبي نواس بشيء من البحث المفصل الدقيق ، وأن نعرض في شيء من التفصيل لمن عُرِفَ مِنْ هَؤُلَاءِ الإماء اللاتي تعشقهن أبو نواس ، ونرجو أن نفي بذلك في مقال آخر .

الغزل عند أبي نواس^(١)

صدق الغزل الأموى — تكلف الغزل

العباسى — الغزل بالعلمان

بعيد جدا ما بين هذا الغزل النّوأسىّ العباسىّ ، الذى أشرت فى الفصل الماضى إلى أنه ضعيف متكلف ، وذلك الغزل الأموى العربىّ ، الذى أشرت فى فصل مضى أول هذا العام إلى صدقه وقوته .

نعم إن الفرق عظيم بين هذا الغزل النّوأسىّ ، وبين ذلك الغزل الذى كان ينشره جميل أو كثير أو عمر بن أبى ربيعة . الفرق عظيم جدا ، وليس عظيم هذا الفرق شيئا غريبا فى نفسه ، فيكفى أن تنظر إلى العصر الأموىّ والعصر العباسىّ من جهة ، وتنظر إلى نفسية الشعراء الأمويين ، ونفسية أبى نواس من جهة أخرى ، لتقتنع بأن هذا الفرق لا ينبغى أن يكون غريبا ، بل ينبغى أن يكون واجبا محتوما . يجب أن تنظر إلى العصرين ، لترى فى أولهما ، على رقيه وعناية الناس فيه باللذة والعاطفة ، سذاجة ظاهرة ، مصدرها أن الاختلاط بين العرب وغير العرب لم يشتد ، ولم ينته إلى نتائج المعقولة . وفى ثانيهما ، لترى أن النفس العربية قد أخذت تبرأ قليلا قليلا من عريبتها ، وتتأثر بهذه الأجناس المختلفة من الناس ، التى كانت تفد على العراق ، وعلى

(١) نشرت بالسباسة فى ٨ صفر سنة ١٣٤٢ هـ — ١٩ سبتمبر سنة ١٩٢٣ م

بغداد بنوع خاص ، فتحمل أمزجتها وأهواءها ولذاتها ، وكل ما فيها من خير
وشر بعيد ما بينه وبين ما في نفس الأجناس العربية من صلة .

يكفى أن تنظر إلى هذا كله ، لتعرف هذا الفرق بين الغزل العباسي
عامة ، وبين الغزل الأموي عامة ، فإذا فهمت هذا ، وعرفت له أثره في نفس
أبي نواس ، وجب عليك أن تنظر إلى أبي نواس نفسه ، وإلى ما قدمت من
حياته وميوله وأهوائه ، وأن تنظر بعد ذلك إلى أئمة الغزل من شعراء العصر
الأموي ، وإلى نفسياتهم المختلفة ، فتزداد بهذا الفرق إيماناً ، ويزداد هذا
الفرق أمامك وضوحاً .

كان « جميل » وأمثال « جميل » قوما غزّلين بطبيعتهم ، غزّلين لأنهم
يحبون النساء ، أو يحبون امرأة بعينها بين النساء ، يحبونها ويكلفون بها ،
فيملك عليهم هذا الحب نفوسهم وحياتهم ، حتى لا يعيشون إلا به وله ، وحتى
لا يصدّرون إلا عنه ، ولا يردون إلا عليه ، وكانت نفوسهم صافية لم تكدرها
آثام الحضارة ، سهلة لم تعقدها حاجات المدنية ، فكانوا إذا ذكروا النساء ،
أو تغنّوا بحبهن ، وصفوا عواطف قوية صادقة ، فصدقوا في الوصف ، وكانوا
فيه أقوياء .

ثم كان « كُثَيِّر » وأمثال « كُثَيِّر » يحبون النساء ، ويحبون ذكر
النساء ، يتخذونه فناً ، ويحاولون الإجادة فيه ، فلم يكونوا من صدق العاطفة
وقوتها بمكان جميل وأصحاب جميل ، ولكنهم كانوا قريبين منهم ، لأنهم كانوا
يتأثرونهم ، ويسلكون سبيلهم ، ويريدون أن يخدعوا الناس عن أنفسهم ،
وأن يمثّلوا أنفسهم في صورة العاشقين حقاً ، كان الأولون صادقين ، وكان

الآخرون يريدون أن يظهروا مظهر الصادقين ، وربما لم يحرّموا الصدق حرماناً تاماً .

أما عمر بن أبي ربيعة ، ومن سار سيرته من شعراء بني أمية ، فلم يكونوا يصدّرون عن عاطفة عُذرية ، ولم يكونوا يتكلفون هذه العاطفة العذرية ، لم يكونوا ينظرون إلى المرأة من حيث هي المثل الأعلى للجمال والحب ، وإنما كانوا ينظرون إليها من حيث هي المثل الأعلى للجمال واللذة ، والفرق بين هاتين الوجهتين عظيم . كان ابن أبي ربيعة رجلاً يحب الحياة ، ويحب المرأة ، لأنها زينة الحياة ، أو لأنها اللذة في الحياة ، وكان صادقاً في حب المرأة ، من حيث هي لذة الحياة ، فكان غزله على بعده من العذرية أو من الأفلاطونية ، كما يقول المحدثون ، مؤثراً ، لأنه كان صادقاً ، ولأنه كان يترجم عن عواطف صحيحة ، تؤثر في نفس الشاعر ، وتؤثر في حياته العملية أيضاً ... كذلك كان شعراء بني أمية ، سواء منهم العُذريون حقاً ، ومن تكلفوا العُذرية ، ومن أعرضوا عنها ، ولم يلتفتوا إلا إلى اللذات ، وضروب اللهو بالنساء .

أما أبو نواس فأمره غير هذا كله ، لم يكن عُذرياً ، وما كان يستطيع أن يكون عُذرياً ، وهو الرجل الذي شك في كل شيء ، أو قل أنكر كل شيء ، ولم يؤمن إلا بالجون واللذة ، يلتصق بهما حيث يجدهما ، لا يتقيد في ذلك بمرج أو جُنّاح ، لم يكن عُذرياً ولم يكن يتكلف أن يكون عُذرياً ، وإنما كان يسخر من العرب ، ومما كان العرب يتكلفون ، لم يكن يتكلف العذرية ، وإنما كان يهيم باللذة ، وبلذة غير التي كان يهيم بها عمر بن أبي

ربيعة ، لم يكن أبو نواس يحب النساء ، وكان ينفر منهن نفوراً شديداً ،
حتى لم يفلح الذين أرادوه على أن يتزوج ، على رغم إلحاحهم عليه ، وتوسلهم
إليه . لم يفلحوا ، لأن أبا نواس لم يكن يتصور حياة الزوجية ، ولم يكن
يستطيع أن يعيش عيشة متصلة مع امرأة .

لم يكن إذن يحب النساء ، فلم يكن من الميسور أن يهيم بهن ،
أو يحسن الغزل فيهن ، ومع ذلك فقد تغزل ، تغزل لأنه شاعر ، ولأن
من الحق على كل شاعر أن يتغزل ، فالغزل فن من فنون الشعر ، يجب على
الشعراء المجيدين أن يطرقوه ، ويأخذوا منه بنصيب ، وقد طرقه أبو نواس ،
وأخذ منه بنصيب ، ولكننا نظلم أبا نواس إن قلنا إنه لم يكن قط صادقاً في
غزله ، ن ظلمه لأنه كان صادقاً في غزله ، بل كان شديد الصدق فيه ، بل
قد نستطيع أن نقارن بينه وبين عمر بن أبي ربيعة في صدق العاطفة ،
وإجادة الوصف ، وقوة التأثير إذا احتفظنا بشيئين : الأول الفرق بين العصر
العباسي والعصر الأموي ؛ والثاني أن أبا نواس لم يكن يجيد الغزل بالنساء ،
وإنما كان يجيد الغزل بالعلمان ... فلأبي نواس في هذا الباب ما لابن
أبي ربيعة في الغزل بالنساء ، بل أنا أزعم أن أبا نواس في هذا الباب أشعر
من ابن أبي ربيعة في الغزل بالنساء ، ولست أمتدل على هذا إلا بشيء
واحد ، وهو أن أبا نواس يكرهك حين تقرأ غزله بالعلمان على أن تعجب
بهذا الغزل ، على رغم ما فيه من منافرة للطبع والخلق والدين ، أما ابن أبي
ربيعة فهو لا يكرهك على أن تعجب بغزله ، بل كل شيء يحملك على أن
تعجب بغزله ، فطبيعتك تجب إليك ذكر النساء والتغزل بهن ، وإذا أسرف

أَبْن أَبِي رِيعة فَتَجَاوَزَ الْخَلْقَ أَوْ الدِّينَ ، فَلَيْسَ فِي هَذَا الْإِسْرَافِ خُرُوجٌ عَنِ الطَّبِيعَةِ ، أَوْ تَجَاوُزَ لَهَا ، وَإِنَّمَا هُوَ جُزْءٌ مِنَ الطَّبِيعَةِ ، أَوْ قُلْ إِنَّهُ الطَّبِيعَةُ بِنَفْسِهَا ، جَاءَ الدِّينَ وَالْأَخْلَاقَ لَتَقْيِيدِهَا وَإِصْلَاحِهَا .

أَبُو نَوَاسٍ إِذْنٌ مَجِيدٌ حِينَ يَتَغَزَلُ بِالْغُلَامَانِ ، وَلَكِنَّهُ فَاتِرٌ أَوْ كَاذِبٌ أَوْ مُتَكَلِّفٌ حِينَ يَتَغَزَلُ بِالنِّسَاءِ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ حَالٍ لَا يَصِفُ حِينَ يَذْكُرُهُنَّ عَاطِفَةً قَوِيَّةً فِي نَفْسِهِ ، أَوْ حُبًّا صَحِيحًا ، وَإِنَّمَا يَصِفُ ضَرْبًا مِنَ اللُّهُوِّ ، وَفَنُونَا مِنَ الْمَجُونِ ، وَقَدْ يَصِفُ أَحَدُنَا الْحُبَّ فَيُحَسِّنُ الْوَصْفَ ، لِأَنَّهُ يَشْعُرُ بِهِ ، بَلْ لِأَنَّهُ شَاعِرٌ مَجِيدٌ ، يَتَكَلَّفُ الشَّيْءَ فَيُحَسِّنُهُ أَحْيَانًا .

وَقَدْ يَمْتَازُ غَزْلُ أَبِي نَوَاسٍ بِشَيْءٍ فُسِّرَتْهُ فِي الْفَصْلِ الْمَاضِي ، وَهُوَ أَنَّهُ لَمْ يَتَغَزَلْ بِمَجْرَةٍ ، وَإِنَّمَا وَقَفَ غَزْلُهُ كُلَّهُ عَلَى الْإِمَاءِ ، وَذَلِكَ وَاضِحٌ ، فَقَدْ عَرَفْنَا أَنَّهُ يَكْرَهُ الزَّوَاجَ ، وَعَرَفْنَا أَنَّهُ كَانَ مَاجِنًا مُسْرِفًا فِي الْمَجُونِ ، فَلَمْ يَكُنْ مِنَ السَّهْلِ عَلَيْهِ ، وَلَا مِنَ الْمَيْسُورِ لَهُ ، أَنْ يَخَالِطَ الْحَرَائِرَ ، أَوْ يَتَحَدَّثَ إِلَيْهِنَّ ، حِينَ كَانَ مِنَ الْيَسِيرِ عَلَيْهِ أَنْ يَدَاعِبَ الْإِمَاءَ ، وَيُسْرِفَ فِي مَدَاعِبَتِهِنَّ ، وَلَا سِيَّامَا بَعْدَ مَا قَدِمْتَ لَكَ فِي الْفَصْلِ الْمَاضِي ، مِنْ رَقِي الْأُمَّةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ ، وَتَفَوَّقَهَا عَلَى الْحُرَّةِ ، وَتَهَالَكَهَا عَلَى اللُّهُوِّ وَالْمَجُونِ . فَإِذَا عَرَفْنَا هَذَا كُلَّهُ ، وَأَنْزَلْنَا غَزْلَ أَبِي نَوَاسٍ بِالنِّسَاءِ مَنَزَلَتَهُ الصَّحِيحَةَ ، كَانَ مِنَ الْيَسِيرِ أَنْ تَتَبِينَ شَيْئًا مِمَّا فِي هَذَا الْغَزْلِ مِنْ جُودَةِ اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى ، لِأَعْلَى أَنْ تَتَّخِذَ هَذِهِ الْجُودَةَ مَقْيَاسًا لِنَبُوغِ أَبِي نَوَاسٍ فِي الشَّعْرِ ، أَوْ لَصَدَقِهِ فِي الْحُبِّ ، فَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَبْحَثَ عَنْ مَقْيَاسٍ لَذَلِكَ ، فَلَيْسَ أَمَامَنَا إِلَّا وَصْفُهُ لِلْخَمْرِ ، وَغَزْلُهُ بِالْغُلَامَانِ ، وَإِنَّمَا نَبْحَثُ عَنْ غَزْلِهِ بِالنِّسَاءِ ، لَنَعْرِفَ شَيْئًا مِنْ أَخْلَاقِ الْعَصْرِ ، وَمِنْ أَخْلَاقِ الْإِمَاءِ فِيهِ ، وَلَنَعْرِفَ

أيضاً شيئاً من ظرف النساء في بغداد ، وإن شئت فقل . من ظرف الغزل
بالنساء في بغداد ، ولهذه الأشياء قيمتها في الأدب وفي التاريخ .

وانظر إلى هذا العبث الذي يمثل الحياة البغدادية ، حياة المجون والدعابة

تمثيلاً صحيحاً :

أَرْسَلَ مَنْ أَهْوَى رَسُولًا لَهُ	إِلَى وَالْمَنْسُوبُ مُحَبُّوبُ
فَقُلْتُ أَهْلًا بِكَ مِنْ مُرْسَلٍ	وَمِنْ حَيِّبٍ زَانَهُ طِيبُ
جَمَشْتُهُ فِي كَلِمَةٍ فَاثْنِي	وَقَالَ هَذَا مِنْكَ تَجْرِبُ
مِثْلِكَ لَا يَعْشَقُ مِثْلِي وَقَدْ	هَامَ بِهِ بَيْضَاءُ رُعُوبُ
وَجَاءَتِ الرُّسُلُ بِأَنْ آتِنَا	فَجِشْتَهَا وَالْقَلْبُ مَرْعُوبُ
قَالَتْ : تَعَشَّقْتَ رَسُولِي لَقَدْ	بَدَتْ لَنَا مِنْكَ الْإِعْجَابُ
ذَاكَ وَهَذَا لَكَ يَا غَادِرًا	فِي دَفْتَرِ الْحَاصِلِ مَكْتُوبُ
مَنْ يَأْمَنُ الذَّنْبَ عَلَى مَعْزَةٍ	أَهْلُ لَأَنْ يَخْفِرَهُ الذَّيْبُ
فَقُلْتُ فِي رِفْقٍ وَفِي تَوَدَّةٍ	مَقَالَةٌ قَدْ قَالَ يَعْقُوبُ
الذَّنْبُ لَا يُؤْمَنُ لَكِنَّهُ	عَلَيْهِ فِي يُوسُفَ مَكْذُوبُ
هُمْ طَرَحُوا سُفَّ فِي جُبِّهِ	عَمْدًا وَقَالُوا خَانَهُ الذَّيْبُ

أترى إليه كيف كان يحب صاحبتة حباً قوياً صادقاً ، حتى خانها في
رسولها ، فداعب هذا الرسول ، وهو يعترف بهذه المداعبة فيما بينه وبينك ،
ولكنه حين يلقى حبيبته ، ويريد أن يدافع عن نفسه ، يضع نفسه موضع
الذنب في قصة يوسف ، ولكن أعجب من هذا أن تكتفي صاحبتة منه بهذا

الدفاع ، بل أن تلومه في هذا الرفق واللين ، ولكننا في بغداد ، وبين قوم يلهون لأكثر ولا أقل .

وانظر إلى هذه الأبيات الأخرى التي يسخر فيها من نفسه ، فيحسن الشخرية :

وَقَصْرِيةٍ أَبْصَرْتُهَا فَهَوَيْتُهَا هَوَى عُرْوَةَ الْعُذْرَى وَالْعَاشِقِ النَّهْدَى
فَلَمَّا تَمَادَى هَجْرُهَا قُلْتُ وَاصِلِي فَقَالَتْ بِهَذَا الْوَجْهَ تَرْجُو الْهَوَى عِنْدِي
فَقُلْتُ لَهَا لَوْ كَانَ فِي الشُّوقِ أَوْجُهُ تُبَاعُ بِنَقْدٍ حَاضِرٍ وَسِوَى نَقْدٍ
لَغَيَّرْتُ وَجْهِي وَاشْتَرَيْتُ مَكَانَهُ لَعَلَّكَ أَنْ تَهْوَى وَصَالِي مِنْ بَعْدِ
وَإِنْ كُنْتُ ذَا قُبْحٍ فَإِنِّي شَاعِرُهُ فَقَالَتْ وَلَوْ أَصْبَحْتُ نَابِغَةً جَعْدِي
ثم انظر إلى هذا الظرف :

سَأَلْتُهَا قُبْلَةً فَقُرْتُ بِهَا بَعْدَ امْتِنَاعٍ وَشِدَّةِ التَّعَبِ
فَقُلْتُ بِاللَّهِ يَا مُعَذِّبِي جُودِي بِأَخْرَى أَقْضِي بِهَا أَرْبِي
فَابْتَسَمْتَ ثُمَّ أَرْسَلْتَ مَثَلًا يَعْرِفُهُ الْعُجْمُ لَيْسَ بِالْكَذِبِ
لَا تُعْطِينَ الصَّبِيَّ وَاحِدَةً يَطْلُبُ أُخْرَى بِأَعْنَفِ الطَّلَبِ

وانظر إلى هذه القصيدة ، التي لا أستطيع أن أصفها إلا بأنها بغدادية ، لأنها تمثل رقة بغداد ، وتمثل هذه النزعة الدينية التي تجدها في العامة ، والتي تحملهم على أن يقسموا بالقرآن ، وسور القرآن ، وبالحيج ، ومناسك الحج ، حين ينبغي أن يقسموا بشيء آخر :

مَالِي وَلِلْعَازِلَاتِ زَوْفَنَ لِي ثُرَاهَاتِ
سَعَيْنَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ يُلْمَنَ فِي مَوْلَاتِي

يَأْمُرُنِي أَنْ أُخَلِّيَ مِنْ رَاحَتِي حَيَاتِي
وَذَكَ مَالًا وَلَا لَا يَكُونُ حَتَّى الْمَمَاتِ
و«اللَّهُ» مُنْزِلَ «طَه» و«الطُّور» وَ«الذَّارِيَاتِ»
«الرَّ» «وَصَاد» وَقَاف و«الْحَشْرِ» وَالْمُرْسَلَاتِ^(١)
وَرَبِّ «هُودٍ» وَ«نُونٍ» و«النُّورِ» وَ«النَّازِعَاتِ»
لَارْمَتْ هَجْرَكَ حَبِي حَتَّى وَإِنْ لَمْ تُوَاقِي
تَجْمَعُوا عَلَّامُونِي يَا إِخْوَتِي كَيْفَ آتِي
يَا وَيْلَنَا أَيُّ شَيْءٍ بَيْنَ الْحَشَى وَاللَّهَاءِ
مِنْ لَوْعَةٍ لَيْسَ تُطْفِئُ تَطِيرُ فِي جَانِحَاتِي
أَنَا الْمُعْتَى وَمَنْ لِي يَرِنِي لِطُولِ شَكَاتِي
الظَّاهِرُ الْعَبْرَاتِ الْبَاطِنُ الزَّفَرَاتِ
مُنِيتُ بِالْمُتَحَرِّى فِي كُلِّ أَمْرٍ مَسَاتِي^(٢)
يَا سَائِلِي عَنْ بِلَائِي أَنْظُرْ إِلَى لَحْظَاتِي
يَخْفَى الْهُوَى فِي سُكُونِ الْمُحِبِّ وَالْحَرَكَاتِ
وَاللَّهُ لَوْ كُنْتُ أَعْمَى عُرِفْتُ فِي سَحْنَاتِي
حَلَفْتُ بِالرَّاقِصَاتِ فِي جُلَّةِ الْفَلَوَاتِ
وَمُنَّ بِنِي بِالْهَدَايَا يُطْعَمَنَّ فِي اللَّبَّاتِ
وَمَا تَوَافَى بِجَمْعٍ وَ«الشَّعْبِ» فِي «عَرَافَاتِ»

(١) يريد الف لام وراء وهو مفتتح سور من القرآن .

(٢) يريد : مساتي .

لَوْ جَاءَ مِنْكَ رَسُولٌ
لَقُلْتُ هَاكَ خُذْنَهَا
وَيَلَاهُ نَارُ النَّصَابِي
فَأَبْكَتِ الْعَيْنُ مِنِّي
وَصَاحِبِ كَأَن لِّي فِي
لَمْ يَطَّلِعْ طَلَعُ شَأْنِي
فَبَيْنَمَا نَحْنُ نُنْسِي
إِذْ قِيلَ شَمْسُ ضُحَاهَا
فَقُلْتُ شَمْسُ وَرَبِّي
وَقَدْ نَسِيتُ الَّذِي بِي
لِرِيحِ حُبِّ جَرَّتْ لِي
وَأَنْزَقَتْ مَاءَ عَيْنِي
وَقَدْ تَغَيَّرَ لَوْنِي
فَالْحُبُّ فِيهِ هِنَاةٌ
يُعْقِبُنِ طَوْرًا سُرُورًا
يَقُولُ نَفْسِكَ هَاتِ
مُسَلِّمًا لَوْ فَاتِي
رَقْتُ إِلَى اللَّهَوَاتِ
بِمِثْلِ مَاءِ الْفُرَاتِ
هَوَايَ ذَا تُهْمَاتِ
إِلَّا اتِّهَامَ هِنَاتِي
نَسِيحُ فِي الطُّرُقَاتِ
فِي أَرْبَعِ عَطِرَاتِ
قَدْ جَلَّتِ الظُّلُمَاتِ
مِنْهَا مِنَ الْكُرْبَاتِ
فَالنَّشَاتُ عَبْرَاتِي
وَأَضَعَدْتُ زَفْرَاتِي
كَمِثْلِ نَفْسِ الدَّوَاةِ
مَوْصُولَةٍ بِهِنَاةِ
وَثَارَةٍ حَسَرَاتِ

أُلسْتُ تَرَى أَنَّهُ قَدْ أَحْسَنَ التَّحَدُّثَ إِلَى النِّسَاءِ ، بِلُغَةِ النِّسَاءِ ،

وَلُهْجَةِ النِّسَاءِ ! ..

وَلَقَدْ أَرَادَ أَنْ يَسْلُكَ سَبِيلَ امْرِئِ الْقَيْسِ وَعَمَرَ بْنِ أَبِي رَيْعَةَ ، فَمَا كَانَ يَقْصُرُ
مِنْ زِيَارَتِهِمَا لِعَشِيقَاتِهِمَا ، فَقَالَ فِي ذَلِكَ شَعْرًا لَا بَأْسَ بِهِ ، وَلَكِنْ لَا أُرَوِّى
لَكَ مِنْهُ إِلَّا هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ ، لِأَنَّ فِي أَوَّلِهِمَا إِيجَازًا ظَرِيفًا ، وَفِي الْآخِرِ تَمْثِيلًا
لِلْأَمْرِ بِغَدَادٍ :

فَكِدْنَا وَلَمَّا غَيْرَ أَنَّ شِفَاهَنَا تَعَاطَتْ خَلِيطِي سُكَّرٍ وَعُقَّارِ
وَوَدَّعْتُهَا صُبْحًا وَلَمْ أَنْسَ صَدَّهَا وَقَدْ بَادَلْتَنِي خَاتَمًا بِسِوَارِ

وانظر إليه كيف يمازح صاحبتة ، ويتمنى عليها الوصل ، وينكر عليها الهجر ،
ويعدها بأن لا يكون ثقيلًا ، ولا مطيلًا إن وصلته . كل ذلك في بيت واحد
ظريف ، وهو :

فَرَا جِئِي الْوَصْلَ ، فَإِنْ زُرْتُكُمْ قَدَرُ فُوقٍ فَأَحْلِقِي رَاسِي
وانظر إلى هذه الأبيات التي لا أصفها إلا بأنها تصلح للغناء إذا أسقطت
منها بيتا واحداً ، لأن لفظ « الأُنْقَاس » فيه غريب قد نستثقله :

إِنِّي عَشِقتُ وَمَا بِالْعِشْقِ مِنْ بَاسٍ مَا مَرَّ مِثْلُ الْهَوَى شَيْءٌ عَلَى رَاسِي
مَالِي وَلِلنَّاسِ كَمْ يَلْحَوْنِي سَفْهًا دِينِي لِنَفْسِي ، وَدِينُ النَّاسِ لِلنَّاسِ
مَا لِلْعُدَاةِ إِذَا مَا زُرْتُ مَالِكِي كَانَ أَوْجُهُهُمْ تُطْلَى بِأُنْقَاسِ !
اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَرَكِي زِيَارَتَكُمْ إِلَّا مَخَافَةَ أَعْدَائِي وَحُرَّاسِي
وَلَوْ قَدَرْنَا عَلَى الْإِتْيَانِ جِئْتُكُمْ سَعْيًا عَلَى الْوَجْهِ أَوْ مَشْيًا عَلَى الرَّاسِ
وَقَدْ قَرَأْتُ كِتَابًا فِي صَحَائِفِكُمْ « لَا يَرْحَمُ اللَّهُ إِلَّا رَاحِمَ النَّاسِ »

ولأبي نواس من هذا شيء كثير ، لا أستطيع أن أرويّه ، وتستطيع أنت
أن تقرّأه في ديوانه ، فتجد فيه ما شاء الله أن تجد من ألوان الكذب ،
والغرور ، والدُّعَابَةِ ، والمجون ، والعبث بكل شيء ، وتجد فيه من القصص
ما يَلْذُّ وما يَضْحَكُ ، ولكني قلت لك إن أبا نواس يمتاز في غزله بأنه كاذب .

وأريد أن أختم هذا الفصل بييتين يشهدان عليه بأنه كاذب في غزله ، وبأنه
 إنما يتكلف الغزل بالنساء ليرضى حاجته الفنية ، أو ليخدع النساء عن
 أنفسهن ، على أن أحد هذين البيتين في نفسه حكمة صادقة ، يحسن أن يفكر
 فيها كثير من الناس :

يَا مَنْ يُوجِّهُ الْفَاطِي لِأَقْبَحِهَا لِأَنَّهُ سَاحِرُ الْعَيْنَيْنِ مَعْشُوقُ
 لَوْ كَانَ مَنْ قَالَ نَارٌ أُحْرِقَتْ فِيهِ لَمَا تَفَوَّهَ بِاسْمِ النَّارِ مَخْلُوقُ



وسأحدثك في الفصل الآتي عن شعر أبي نواس في الصيد والطرود .

جد أبي نواس^(١)

المدح

وما رأيك في أن تترك القديم والجديد ، وكلاما لن يفيد ، ونعود إلى أبي ناس ، فنستأنف البحث عن شعره ، بعد أن انصرفنا عنه حيناً طويلاً . على أنا حين نستأنف البحث عن شعر أبي نواس ، لن نترك القديم والجديد ، وإنما نوغل فيهما إيناعاً ، فلقد كتبنا عن أبي نواس في السنة الماضية فصلاً طويلاً ، أثبتت - فيما نعتقد - أنه صاحب الجديد وحامل لوائه ، وأنه خصم القديم وأشد أعدائه ، حتى خيل إلى الناس أن الأسباب كانت قد انقطعت بين هذا الرجل ، وبين الأدب العربي القديم ، وأنه كان يريد أن يهدم كل شيء ، ويبنى على أنقاضه شيئاً آخر ، فمن الناس من أحب أبا نواس لهذه الخصلة ، لأنها صادفت في نفسه هوى ، وفي قلبه ميلاً ، ومن الناس من كره أبا نواس لهذه الخصلة ، لأنه من أنصار القديم المشغوفين به ، الملحين في البكاء عليه .

ولكن أبا نواس خليق بأن يحبه أولئك وهؤلاء معاً ، لأنه على حبه للجديد ، وإلحاحه في الدعوة إليه ، كان محباً للقديم ، مُلِحّاً في الحرص عليه ، كأنه كان يعرف أن الناس سينقسمون إلى فريقين مختلفين ، وكان يحرص

(١) نشرت بالسياسة في ٢٣ رجب سنة ١٣٤٢ هـ - ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٤ م

على أن يأخذ من رضا كليهما بنصيب ، وما لنا نتحدث بشيء من ذلك
وقد قلنا ألف مرة ومرة : إن انقسام الناس إلى أنصار الجديد وأنصار القديم ،
فطرة في الناس ، تلزمهم في كل زمان ومكان ، إن كان لهم حظ من حياة ؟
وقد كان الناس أحياء أيام أبي نواس ، فكان منهم محب الجديد ، وكان
منهم محب القديم ، وكانوا جميعاً أقوياء في حبهم ، وكان من المعقول أن
يتحدث إليهم جميعاً شاعر كأبي نواس بما يحبون وما يفهمون . بل مالنا
نذكر شيئاً كهذا ، ونحن نعلم أن الشاعر المجيد والكاتب البارع ، مهما
يسرفا في حب الجديد والتهاك عليه ، فهما لم ينشأ من لاشيء ، وهما لن
يستطيعا أن يقطعا الصلة بينهما وبين القديم ، الذي غذاها وأنشأها ، فهما
بطبيعة الحال يمثلان الجديد الذي يصبوان إليه ، ويمثلان القديم الذي
نشأ منه .

ولقد كان أبو نواس من أكثر الشعراء رواية للقديم وحفظاً له ، قالوا
إنه تحدث عن نفسه أنه روى لستين امرأة ، فكيف بالرجال !! ولسنا نستطيع
أن نتصور أبا نواس إلا على أنه قد حفظ أو قرأ ما كان يرويه أئمة
الشعر واللغة من شعر الجاهليين والإسلاميين وأحاديثهم ، وليس من اليسير
ولا من الممكن ، أن يخلص أبو نواس من هذا كله ، فيكون جديداً صرفاً
في كل ما يقول .

فإذا تحدثنا عن أبي نواس فنحن نتحدث عن القديم والجديد ، ولن نستطيع
أن نتحدث عن شاعر مجيد حقاً ، أو عن كاتب بارع حقاً ، إلا إذا تحدثنا عن
القديم والجديد ، لأن إجادة الشعر ، والبراعة في الكتابة ، تستلزمان شيئين

لا بد منهما (الأول): الاحتفاظ بالخير من القديم ، (والثاني): استغلال الجديد واجتناء ثمراته الطيبة . ففي الشاعر المجيد والكاتب البارع شخصان . أحدهما قديم ، والآخر جديد ، أوفيهما شخصية واحدة ، هي المزاج المعتدل لاتصال القديم بالجديد ، ونشوء أحدهما عن الآخر .

على أن الحياة في عصر أبي نواس ، كانت تضطر هذا الشاعر وأصحابه إلى أن يظهروا مظهرين ، يكادان يختلفان اختلافا تاما . أحدهما مظهر المجدد المسرف في التجديد ، والآخر مظهر الحريص على القديم ، المسرف في الاستمساك به . ذلك أن أبا نواس وأصحابه كانوا يعيشون عيشتين مختلفتين : إحداهما عيشتهم الخاصة ، يعكفون فيها على لذاتهم ، ويفرغون فيها لحاجاتهم المادية والمعنوية المختلفة ، فيتصلون فيها بعامة الناس وأوساطهم ، وأصحاب الحرف والصناعات منهم ، ويتصلون فيها أيضاً بأولئك ، الذين كانوا يقومون على الذات يبيعونها للناس ، ويعمدون لهم أسبابها ووسائلها ، من الخمارين والمغنين ، والحسان ، من الذكور والإناث ، فيتحدثون إلى هؤلاء الناس جميعا لغة يفهمونها ويدوقونها ، وتعبر حقا عما يجدون ويشعرون . وأما عيشتهم الثانية ، فهي تلك العيشة المتصلة بالأمراء وأشراف الناس في حياتهم الظاهرة الرسمية ، إن صح هذا التعبير ، وهم في هذه العيشة مضطرون أن يتخذوا ما ألف الناس من شكل وصورة ، ترضاها الأخلاق ، وتقرها النظم الاجتماعية والسياسية ؛ وهم مضطرون إلى أن يتحدثوا إلى أمراء الناس وأشرافهم لغة شريفة محتارة ، ترتفع عن الابتذال ، وتبرأ من تافه القول ، وربما اشتد فيها التكلف ، وعظم حظها من التصنع .

كانوا مضطرين إذن إلى أن يصدقوا في حياتهم الأولى ، ويتكلفوا الكذب والنفاق في حياتهم الثانية ، وهذا دأب الأجيال المختلفة ، فلك في بيتك وبين أصدقائك وخلانك عيشة ولغة، تخالفان كل المخالفة أو بعضها عيشتك ولغتك حين تكون الصلة بينك وبين الناس عامة ، وحين تكون الصلة بينك وبين الكبار والزعماء خاصة ، فليس عجيباً إذن أن تقرأ لأبي نواس في الحمر والمجون والغزل وما يشبه ذلك هذا الشعر الرقيق العذب ، الذي هو مرآة النفس حقاً ، والصورة الصحيحة الجلية للعواطف والشعور ، هذا الشعر الذي رقّ لفظه ، ودق معناه ، وبرىء من التكلف ، وانحط في بعض الأحيان ، حتى كاد يبعد عن الفصاحة الماثورة ، وليس عجيباً أن تقرأ لأبي نواس شعراً آخر قد قوى متنه ، واشتد أسره ، وتُخَيَّرت فيه الألفاظ تحييراً دقيقاً ، وتقيد فيه الشاعر بطائفة من القيود اللفظية والمعنوية والعروضية ، ما كان ليتقيد بها في شعره الآخر .

وفي الحق أنك ترى أبا نواس حين يذكر الحمر والمجون وما يشبه ذلك من فنون الشعر ، لا يكتفي بإطلاق العنان لشعوره وعاطفته ، وإيثار اللفظ السهل العذب ، للمعنى الرقيق الحلو ، وإنما يضيف إلى ذلك شيئاً آخر ، فهو يؤثر من الأوزان الشعرية أخفها وأقصرها ، وأيسرها على الأذن ، وأقربها من النثر ، وألينها قياداً للمعنى . فإذا تحدث إلى الأمراء والأشراف عمّد إلى اللفظ الضخم الفخم ، وإلى الأسلوب المتين الرصين ، وإلى الأوزان الطوال ، التي لا تخلو من نخامة وجلال ، فاتخذها وسيلة للتعبير عما يريد أن يتحدث به إلى هؤلاء الناس ، وكان فنون الشعر كانت تنقسم إلى

ضربين مختلفين : أحدهما هذا النحو الذى يقصد به إلى وصف اللذات وأهواء النفس وعواطفها ، وفى هذا الضرب من الشعر كان الشاعر حراً ، يرسل نفسه على سجيته ، فلا يكاد يتقيد بشيء ؛ من ذلك الغزل ، والمجون ، ووصف الحمر ، والهجاء . والآخر هذا النحو الذى يقصد به إلى الجد وفنونه ، من مدح ، وثناء ، ووصف ، وفخر ، وفى هذا النحو يتخير الشاعر أشرف اللفظ ، ويتقيد فى الوزن والقافية والأسلوب بقيود ترفعه عن متناول العامة ، وتكسبه شيئاً من الأرسطراطية ، يلائم الموضوع الذى يقول فيه . ولقد تحاول أن تقارن بين أبى نواس حيث يعجُن ، ويتغزل ، ويصف الحمر ، ويهجو ، وحين يمدح ، أو يرثى ، أو يفخر ، فلا تكاد تشعر بوجه للمقارنة ، وإنما يظهر الفرق عظيماً بين الرجلين . وأنت مضطر إلى أن تكون ناقدًا بصيراً ، لتتميز شخصية الشاعر فى هذين الفنين المختلفين من الكلام ، بل أنا أذهب إلى أكثر من هذا ، فأزعم أن شخصية الشاعر تنمحي أو تكاد تنمحي فى هذا الشعر الجِدِّى ، بحيث تلتبس أشخاص الشعراء على غير النقاد العلميين بضروب الشعر ، حين تظهر هذه الشخصية ناصعة جليلة كل الجلاء فى فنون الهزل واللعب ، بحيث يشعر بها ويمسها الناقد وغير الناقد ، بل أزعم أن من اليسير أن تضيف مدح أبى نواس أو فخره إلى غير أبى نواس من الشعراء المجيدين ، وأن تضيف إلى أبى نواس من مدح مسلم ووصفه وفخره ، دون أن يكون خطؤك عظيماً من الوجهة الفنية ، لأن هنالك مثلاً أعلى من الإجادة والإتقان قد وضعه الشعراء أمامهم ، فهم يحتذونه ويتأثرونه ، وهذا المثل الأعلى إنما هو أسلوب القدماء من الجاهليين والإسلاميين ، فإذا

أحسنوا تأثر هذا الأسلوب وتقليده ، فهم راضون .

ومالى لا أقيم الدليل على ما أقول ؟ فانظر إلى هذه الأبيات من شعر
أبى نواس الجدّي ، وحدثني أترى فيها شخصية الشاعر بارزة واضحة ؟ ثم
حدثني أتكدأ تصدق أن قائل هذا الشعر هو الذى رويت لك عنه فى السنة
الماضية مارويت من العبت والمُجُون :

لَمَّا نَزَعْتُ عَنِ الْغَوَايَةِ وَالصَّبَا وَخَدْتُ بِي السَّدَنِيَّةَ الْمِذْعَانُ
سَبَطْتُ مَشَافِرُهَا دَقِيقَ خَطْمُهَا وَكَأَنَّ سَائِرَ خَلْقِهَا بُنْيَانُ
وَاحْتَازَهَا لَوْنٌ جَرَى فِي جِلْدِهَا يَقَقُّ كَقَرَطَاسِ الْوَلِيدِ هِجَانُ

هو يصف ناقته التى حملته إلى ممدوحه الرشيد ، فيجب أن يسلك فى وصف
الناقة تحمله إلى ممدوحه طريق غيره من الشعراء ، الذين حملتهم النوق إلى
الملوك والأمراء ، وليس يعنيه أن يفهمه عامة الناس ، وإنما يعينه أن يتحدث
إلى أشراف الناس أشرف اللغة ، بل ليس يعنيه أن يكذب ، فلعله لم يركب
إلى الرشيد ناقة ، ولم تحمله إلى الرشيد إلاّ قدماءه ، ولكنه مضطر أن يسلك
مسلك جرير والفرزدق والأخطل والشَّماخ وغيرهم من الشعراء ، الذين كانوا
يتكلفون الأسفار الطوال ، ليلغوا من يمدحون . ثم قارن بين الشعر الذى
لا تكاد تفهمه حتى تستشير معاجم اللغة وبين قوله :

دَمْعَةٌ كَاللُّوْلُؤِ الرَّطْبِ مِنَ الطَّرْفِ الْكَحِيلِ
ذَرَفَتْ فِي سَاعَةِ الْبَيْنِ عَلَى الْخَدِّ الْأَسِيلِ
إِنَّمَا يَفْتَضِحُ الْعُشَّاقُ فِي وَقْتِ الرَّحِيلِ

أتجد فى هذا الشعر لفظا غريبا ، أو معنى عويضا ؟ أشعر بأن بينك وبين

قائل هذا الشعر من بعد الأمد ، ما بينك وبين قائل تلك الآيات الثلاثة
في وصف الناقة ؟

ثم أريد أن أروى لك من جد أبي نواس هذه القصيدة التي سيعسر
عليك فهمها عسرا شديدا ، كما عسر فهمها على غير واحد من علماء اللغة
وأصحاب النحو ، وقد قالها يمدح بها العباس بن عُبيد الله بن أبي جعفر
المنصور أمير المؤمنين :

أَيُّهَا الْمُتَّكَبُ عَنْ عُفْرَةٍ	لَسْتُ مِنْ لَيْلِي وَلَا سَمَرَةٍ
لَا أَذُودُ الطَّيْرَ عَنْ شَجَرٍ	قَدْ بَلَوتُ الْمَرْءَ مِنْ ثَمَرَةٍ
فَاتَّصِلْ إِنْ كُنْتَ مُتَّصِلًا	بِقُوَى مَنْ أَنْتَ مِنْ وَطَرَةٍ
خِفْتَ مَا تُورِ الْحَدِيثَ غَدًا	وَعَدُّ أَدْنَى لِمُتَّظِرَةٍ
خَابَ مَنْ أَسْرَى إِلَى بَلَدٍ	غَيْرَ مَعْلُومٍ مَدَى سَفَرَةٍ
وَسَدَّدَتْهُ ثَنَى سَاعِدِهِ	سِنَّةٌ حَلَّتْ إِلَى شُفْرَةٍ
فَامْضِ لَا تَمُنْ عَلَى يَدَا	مَنْكَ الْمَعْرُوفَ مِنْ كَدَرَةٍ
رُبَّ فَتَيَانٍ رَبَّاهُمُ	مَسْقَطَ الْعَيُوقِ مِنْ سَحَرَةٍ
فَاتَّقُوا بِي مَا يَرِيهِمُ	إِنَّ تَقْوَى الشَّرِّ مِنْ حَذَرَةٍ
وَابْنِ عَمٍّ لَا يُكَاشِفُنَا	قَدْ لَبَسْنَاهُ عَلَى غَمَرَةٍ
كَمَنْ الشَّنَّانُ فِيهِ لَنَا	كَكُمُونِ النَّارِ فِي حَجَرَةٍ
وَرُضَابٍ بَتَّ أَرْضُفُهُ	يَنْقَعُ الظَّمْآنُ مِنْ خَصَرَةٍ
عَلَّيْهِ خَوْطُ إِسْجَلَةٍ	لَا مَتْنَاهُ لِمُهْتَصِرَةٍ

ذَا وَمُعَبَّرٌ مَخَارِمُهُ
تَحْسِرُ الْأَبْصَارُ عَنْ قُطْرِهِ
لَا تَرَى عَيْنُ الْبَصِيرِ بِهِ
مَا خَلَا الْأَجَالَ مِنْ بَقَرِهِ
ثم يقول في وصف الفرس :

يَكْتَسِي عُشُونُهُ زَبَدًا
فَنَصِيحِي لَاهٍ إِلَى نُحْرِهِ
ثُمَّ يَعْتَمُ الْحَجَاجُ بِهِ
كَاعْتِمَامِ الْفُوفِ فِي عُشْرِهِ
ثُمَّ تَذَرُوهُ الرِّيحُ كَمَا
طَارَ قُطْنُ النَّدْفِ عَنْ وَتَرِهِ
كُلُّ حَاجَاتِي تَنَاوَلَهَا
وَهُوَ لَمْ تُنْفَضْ قُوَى أَشْرِهِ
ثم يتخلص إلى صاحبه فيقول .

ثُمَّ أَذْنَانِي إِلَى مَلِكٍ
يَأْمَنُ الْجَانِي إِلَى حُجْرِهِ
تَأْخُذُ الْأَيْدِي مَظَالِمَهَا
ثُمَّ تَسْتَذِرِي إِلَى عَصْرِهِ
كَيْفَ لَا يُدْنِيكَ مِنْ أَمَلٍ
مَنْ رَسُولُ اللَّهِ مِنْ نَفَرِهِ !
فَأَسْأَلُ عَنْ نَوْءِ تَوَمُّلِهِ
حَسْبُكَ الْعَبَّاسُ مِنْ مَطَرِهِ
ثم يقول :

وَإِذَا مَجَّ الْقَنَاءُ عَلَقًا
وَتَرَأَى الْمَوْتَ فِي صُورِهِ
رَاحَ فِي ثَنِيٍّ مُفَاضَتِهِ
أَسَدٌ يَدْعِي شَبَابَ ظُفْرِهِ
تَتَأَيَّا الطَّيْرُ غَدَوَتَهُ
ثِقَةً بِالشَّبَعِ مِنْ جَزَرِهِ

أفهمت من هذه الآيات شيئاً كثيراً؟ ألا تكاد تشعر أن أبا نواس قد أسرف في إشار الغريب ، حتى كأنه أراد أن يبهز أبا عبيدة والأصمعي وأمثالهما ، وأن يحير أصحاب النحو والعروض ، بما تكلف من غموض ، وبما ركب

من ضرورة شعرية ؟ وفي الحق أن اللغويين تبعوا في تأويل بعض هذه
الآيات ، وما أظن أنهم اتفقوا على تأويل قوله .

كَمَنْ الشَّانُ فِيهِ لَنَا كَكُمُونَ النَّارِ فِي حَجَرَةٍ

فان مرجع هذا الضمير المذكور ليس بالواضح ولا الجلي ، وإن كان المعنى
في نفسه واضحاً جلياً

أليس معقولاً أن يقول بعض أئمة اللغة في أبي نواس : لولا مجونه
وفسوقه لاحتججنا بشعره ، ففي هذا الشعر وأمثاله ما يرضى أنصار الغريب
والمشغوفين به ، ومع ذلك فهذه القصيدة على غرابتها وخشونة مركب
الشاعر فيها ، من خير ما قال أبو نواس ، فيها من دقيق المعنى وشريفه
مالا تكاد تجده في مدائحه الأخرى ، ثم في لفظها وقوافيها بنوع خاص جمال
تشعر به ، وتميل إليه ، دون أن تستطيع تفسيره في سهولة ويسر .

على أن أبا نواس قد تجاوز الحد في إشار الغريب أحيانا ، حتى كدت
لا تفرق بينه وبين رؤبة والعجاج ، فانظر إلى شيء من هذه الأرجوزة ،
التي مدح فيها الفضل بن الربيع :

وَبَلَدَةٍ فِيهَا زَوْزٌ	صَعْرَاءُ تُخْطِي فِي صَعَرٍ
مَرَّتْ إِذَا الدِّبُّ اقْتَفَرَ	بِهَا مِنَ الْقَوْمِ الْأَثَرُ
كَانَ لَهُ مِنَ الْجَزْرِ	كُلُّ جَنِينٍ مَا اشْتَكَرَ
وَلَا تَعْلَاهُ شَعَرٌ	مَيَّتُ النِّسَاءُ ، حَتَّى الشَّفَرُ
عَسَفَتْهَا عَلَى خَطَرٍ	وَعَرَّرَ مِنَ الْغَرَرِ
يَبَازِلُ حِينَ فَطَرَ	يَهْزُهُ جَنُّ الْأَشَرِ

لَا مُتَشَكٍّ مِنْ سَدَرَ وَلَا قَرِيبٍ مِنْ خَوَزَ
كَأَنَّهُ بَعْدَ الضَّمَرِ وَبَعْدَ مَا جَالَ الضَّفَرِ
وَأَنَّمَجَّ فِي فَخَصَرِ جَابِئُ بَاعِي الْمُثَغَرِ
يَجْدُو بِحَقَبٍ كَالْأَكْرَ تُرَى بِأَثْبَاجِ الْقَصَرِ
مِنْهُمْ تَوْشِيمُ الْجَدَرِ رَعَيْنُ أَبْكَارِ الْخَضَرِ

ثم يصل إلى المدح فيقول :

إِلَيْكَ كُفِّنَا السَّقَرِ
خُوصًا يُجَادِبُنَ النُّحَرَ قَدْ انْطَوَتْ مِنْهَا الشَّرَرُ
طَى الْقَرَارَى الْحَبَرِ لَمْ تَتَقَعَّدهَا الطُّيَرُ
وَلَا السَّنِيحُ الْمُزْدَجَرِ يَا فَضْلُ لِلْقَوْمِ الْبَطَرُ
إِذْ لَيْسَ فِي النَّاسِ عَصَرُ وَلَا مِنْ الْخَوْفِ وَزَرُ

ثم يعرض في ذلك حتى يكاد يبلغ الإسراف ، شأن الذين ينحدرون من
الرجز على سفتح لا قرار له .

وقد كنت أريد أن أفسر لك شيئاً من هذه الطلسمات ، ولكنني أرى
أن الصحف السيارة لا تتسع لتفسير الغريب ، الذي إنما تتسع له المدارس
والجامعات . على أنني لا أريد أن تياس من أبي نواس ، فتعتقد أنه لا يؤثر إلا
الغريب ، فالحق أنه قد أثر الغريب أحياناً ، وأثر السهل اللين أحياناً أخرى .
ولقد نجد من مدائح أبي نواس ما فيه مجون ودعابة لا حيطة فيهما ، ولقد نجد
من مدحه ما فيه مجون مع احتياط ، وأحسب أن فهم ذلك وتعليقه ميسوران

إذا عرفنا الأشخاص الذين مدحهم أبو نواس ، فقد مدح أشخاصاً لم يكن من السهل عليه أن يتبدىء مدحهم بالمجون ، أو أن ينزل في مدحهم عما ألف الشعراء من نغم اللفظ ورصينه ، ومدح أشخاصاً آخرين كان من الحق له أن يتفكك معهم ، ويتجاوز الفكاهة إلى الدُّعابة ، فهو جادّ حريص إذا مدح الرشيد ، وهو يتردد بين الجدّ والهزل إذا مدح الأمين . ولعله إنما اجتراً على الهزل في مدح الأمين بعد أن اتصل به ، وكثر اختلافه إلى مجالس لهوه وشربه ، وهو يتردد كذلك بين الهزل والجدّ حين يمدح هذا الأمير السَّمَح ، الذي كان يطعم فيه الشعراء ، ويدلون عليه ، وهو العباس بن عبيد الله بن أبي جعفر . وكثيراً ما يداعب هذا الوزير الخطير ، الذي كان يهابه أيام الرشيد ، ثم طمع فيه أيام الأمين ، حين لأن الخليفة له ، ويسر عليه في أمور كان يعسر فيها الرشيد ، وهو الفضل بن الربيع .

ولم يكن أبو نواس يُشفق من التصريح بالمجون والفسوق ، حين كان يعرض لمدح شابّين عظيمين ، هما العباس ومحمد ابنا الفضل بن الربيع هذا ، لم يكن يرى مكاناً للكلفة بينه وبين ابني صديقه ونديعه ، الذي كثيراً ماخلصه من غضب الأمين ، وشفع له في مواقف حرجة ، اضطره إليها المجنون .

وأبو نواس صادق اللهجة حين يمدح هؤلاء الناس جميعاً ، لأنه كان يحبهم ، ويدلّ عليهم ، ويطعم في الخير منهم ؛ ولكنه متكلف متصنع حين يمدح البرامكة ، لأن ميله إليهم لم يكن إلا بمقدار طمعه فيهم . وكأن البرامكة كانوا يشعرون منه بذلك ، فيحتملونه احتمالاً ، ولا يُضْمرون له حبا

صحيحاً . أما الصلة بينه وبين الخصيب فسنعرض لها بشيء من التفصيل .
في غير هذا الفصل .

ولكننا لانريد أن نتركك على ماروينالك من هذا الشعر الغريب ، فنتم
مقال اليوم بهذه الأبيات التي مدح بها أبو نواس العباس بن عبيد الله ابن
أبي جعفر .

غَرَّدَ الدِّيْكَ الصَّدُوْحُ	فاسْقِنِي طَابَ الصَّوْحُ
وَاسْقِنِي حَتَّى تَرَانِي	حَسَنًا عِنْدِي الْقَبِيْحُ
قَهْوَةً تَذْكُرُ نُوحًا	حِينَ شَادَ الْفُلَاكَ نُوحُ
نَحْنُ نُخْفِيهَا وَيَأْبَى	طِيبُ رِيحٍ فَتَفُوْحُ
فَكَانَ الْقَوْمَ نُهْبَى	يَنْهَمُ مِنْكَ ذَبِيْحُ
أَنَا فِي دُنْيَا مِنَ الْعَبَّاسِ	أَغْدُو وَأَرْوْحُ
هَاشِمِي عَبْدِي	عِنْدَهُ يَغْلُو الْمَدِيْحُ
عَلَّمَ الْجَوْدَ كِتَابَ	يَنْ عَيْنِيهِ يَلُوْحُ
كُلُّ جُودٍ يَا مِيرِي	مَا خَلَا جُودَكَ رِيْحُ
إِنَّمَا أَنْتَ عَطَايَا	أَبَدًا لَا تَسْتَرِيْحُ
بُحَّ صَوْتُ الْمَالِ مِمَّا	مِنْكَ يَشْكُو وَيَصِيْحُ
مَا لِهَذَا آخِذُ فَوْ	قَ يَدِيهِ أَوْ نَصِيْحُ
جُدْتَ بِالْأَمْوَالِ حَتَّى	قِيلَ مَا هَذَا صَحِيْحُ
صَوَّرَ الْجُودَ مِثْلًا	وَلَهُ الْعَبَّاسُ رُوْحُ
فَهَوَ بِالْمَالِ جَوَادُ	وَهُوَ بِالْعَرِضِ شَحِيْحُ

خاتمة القول في أبي نواس^(١)

المدح — الرثاء — الهجاء — الزهد

فصلنا القول في هزل أبي نواس ومجونه تفصيلا ، ونحن مضطرون إلى أن نجمل القول في جدّه إجمالا ، لا لأننا نؤثر هزل أبي نواس على جدّه ، ولا لأننا نريد أن نتملق هذا الميل العام ، الذي يحمل جمهور القراء أن يؤثر الهزل على الجد ، ويفضل مايسر ويلهى ، على ما ليس له حظ من السرور واللهو ، بل لأننا نعتقد أن شخصية أبي نواس ، في حقيقة الأمر ، إنما هى شخصية شاعر هازل ماجن ، تظهر الظهور كله ، إذا هزل أو مجن أو حاول الاستمتاع باللذات ، والتغنى بآثار هذه اللذات ، فترى فيها خفة ونشاطا ، وشيئا يشبه النّزق ، أو هو النّزق ، وترى فيها جرأة غريبة ، وحرصاً قليلا جدا على الاحتياط ، وصراحة لاتعد لها صراحة . فلعلك تذكر ماروينا لك من شعره فى الحمر والمجون والنساء ، ولعلك تذكر أن حظ هذا الشاعر من الصراحة وازدراء الدين والخلق والأدب الموروث عظيم ، ومع ذلك فقد تخيرنا هذا الشعر الذى رويناك لك تحيرا دقيقا ، وراعينا فيه أخلاق الناس فى هذا العصر وميولهم ، وحاجة الشباب إلى القول الطاهر البرىء ، وراعينا فيه مع ذلك شعور المتشددىن فى الدين ، والمستمسكين بالأدب القديم ، أولئك الذين يسميهم ابن قتيبة المتزمتين ؛ راعينا هذا كله فيما روينا لك من شعر أبي نواس

(١) نشرت بالسياسة فى ٢٠ شعبان سنة ١٣٤٢ هـ — ٢٦ مارس سنة ١٩٢٤ م

في اللهو والمجون ، ولم نسلم مع ذلك من نقد الناقدين ، وإنكار المنكرين ،
وغلو قوم اتهمونا بألوان من التهم ، وأضافوا إلينا ضروبا من الخروج على
الدين والأخلاق ، والكيد لتاريخ الأمة العربية المجيد .

ولو أننا روينا لك من شعر أبي نواس في العبث والدُّعابة ، وفي اللهو
والمجون ، دون تحفظ ولا احتياط ، لمثلنا لك شخصيته على وجهها ، ولكننا
مؤرخين حقا ، ولكننا كنا نتعرض لما لا نحب ، من إفساد الذوق ، والإساءة
إلى الأخلاق ، فأبو نواس شاعر خطير ، لا ننصح بقراءته إلا لطائفة خاصة
من الناس ، يستطيعون أن يقرءوا ويحكموا ، دون أن يتأثروا أو يقلدوا .

شخصية شاعر ماجن قبل كل شيء وبعد كل شيء ، ونحسب أن هذا
الرجل لو خُلّي وطبعه ، ولم تضطره الظروف السياسية والفنية والمعاشية - إن صح
هذا التعبير - إلى أن يصطنع الجد من حين إلى حين ، لكان شعره كله هزلا
ومجونا . وما رأيك في رجل لم ينظر في يوم من الأيام إلى الحياة إلا من حيث
هي سبيل من سبل اللذة ، ووسيلة من وسائل اللهو ، ولم يجد إلا ليستعين
بجده على الهزل ؟ أفتظنه مدح ، لأنه كان يجب ممدوحيه أو يُكبرهم ؟ أو
لأنه كان يجب المدح ويميل إليه ؟ كلا ! إنما مدح الخلفاء والوزراء والأمراء
ليتخذ مدحهم وسيلة إلى مدح الخمر ، أو قل ليتخذ مدحهم وسيلة إلى شرب
الخمر ، والاستمتاع بها وبما تستتبع من اللذات ، مدحهم لأنه كان في حاجة
إلى ما يرزقونه من المال ، ومدحهم لأنه كان في حاجة إلى أن يتملقهم ،
ويتقى شرهم ، مدحهم مستجديا ، ومدحهم متقيا . ولعله لم يخلص في مدح
واحد من هؤلاء ، إلا نفرا نستطيع أن نتعرفهم ، إذا نظرنا في تاريخهم من

جهة، وفي سيرة أبي نواس معهم من جهة أخرى . لم يُخلص أبو نواس في مدح الرشيد، وإنما مدحه مستجدياً أو متقياً . ولم يُخلص أبو نواس في مدح البرامكة، وأخلص أبو نواس في مدح الأمين، لا لأنه كان يكبر الأمين ويحله، بل لأنه كان ينادم الأمين، ويرى فيه خليلاً على الشَّراب، وصديقاً على اللذة . وكثيراً ما كان يسخر من الأمين إذا سُنحت له الفرصة، وقد هجا الأمين غير مرة . وقل مثل ذلك في مدحه للفضل بن الربيع وزير الأمين، وقل مثل ذلك في مدحه لأبناء الفضل بن الربيع، فقد كان هؤلاء جميعاً أصدقاءه وندماءه، كما أنهم كانوا حماة ورازقيه . وقل مثل ذلك في مدحه للخصيب، فقد بلغ الخصيب من الإِنعام على أبي نواس والانبساط له حدّاً عظيماً . ويروون أن أبا نواس كان يشرب مع الخصيب حتى يعمى في السكر، ويفقد الرشد، ويأتى من المنكرات ما يأتىه السكران إذا انتهوا من سكرهم إلى الحد الأقصى، ويذكرون أنه قال قصيدته المشهورة في الخمر التي مطلعها:

يَا شَقِيقَ النَّفْسِ مِنْ حَكْمٍ نَمَتَ عَنْ لَيْلِي وَلَمْ أَنْهَمْ

وهو في شر حال .

ومن هنا لا تكاد تحس الإخلاص في مدح أبي نواس، وإنما هو شيء متكلف، تظهر فيه الصنعة، ويستخفى فيه الطبع . وقد تحسَّن هذه الصنعة حيناً، وقد تسوء حيناً آخر، وهى على كل حال ميالة إلى الاسراف والمبالغة، وقليل فيها التجديد، وكثير فيها الاعتماد على القدماء، ومشاركة الشعراء في هذه الصفات الشائعة، التي كانوا يقدمونها إلى الخلفاء والوزراء، يستجدون

بها المال . فانظر إلى هذه الأبيات التي يقولها أبو نواس في مدح الرشيد :

وَإِلَى أَبِي الْأُمْنَاءِ هَارُونَ الَّذِي يَحْيَا بِصَوْتِ سَمَائِهِ الْحَيَوَانُ
مَلِكٌ تَصَوَّرَ فِي الْقُلُوبِ مِثَالُهُ فَكَأَنَّما لَهُ يَحُلُ مِنْهُ مَكَانُ

فاما أول هذين البيتين فشائع مشترك المعنى ، ولكن جماله لفظي . وأما الثاني فلا يخلو من دقة ولا من جمال ، ولكن انظر إلى مايقول بعد ذلك .

هَارُونُ أَلْفًا ائْتِلَافَ مَوَدَّةٍ مَاتَتْ لَهَا الْأَحْقَادُ وَالْأَضْغَانُ
فِي كُلِّ عَامٍ غَزْوَةٌ وَوِفَادَةٌ تَنْبَتْ بَيْنَ نَوَاهِهَا الْأَقْرَانُ
حَجٌّ وَغَزْوٌ مَاتَ بَيْنَهُمَا الْكَرَى بِالْيَعْمَلَاتِ شِعَارُهَا الْوَحْدَانُ
يَرْمِي بِهِنَّ نِيَّاطُ كُلِّ تَنُوفَةٍ فِي اللَّهِ رَحَالٌ بِهَا ظِعَامُ
حَتَّى إِذَا وَاجِهْنَ أَقْبَالَ الصِّفَا حَنَّ الْحَطِيمُ وَأَطَّتِ الْأَرْكَانُ
لَا غَرْبَ يَنْفَرِجُ الدُّجَى عَنْ وَجْهِهِ عَدْلُ السِّيَاسَةِ حُبُّهُ إِيْمَانُ
يَصْلَى الْحَجِيرَ بَغْرَةً مَهْدِيَّةٍ لَوْ شَاءَ صَانَ أُدْيِمَهَا الْأَكْنَانُ
لَكِنَّهُ فِي اللَّهِ مُبْتَدِلٌ لَهَا إِنْ التَّقَى مُسَدَّدٌ وَمُعَانُ

أفترى في هذا الكلام كله شيئاً قيماً ، أو معنى طريفاً ؟ أفترى من له بأكثر من الجمال اللفظي ، يلقاك من حين إلى حين ؟ ثم أأست تضع يدك على الصنعة ؟ أأست تتبين التكلف واضحاً جلياً ؟ ثم انظر إلى هذين البيتين فهما لا يخلوان من جمال ، ولكن التكلف فيهما ملموس :

أَلْفَتْ مُنَادِمَةَ الدَّمَاءِ سَيُوفُهُ فَلَقَلَّمَا تَحْتَازُهَا الْأَجْفَانُ
حَتَّى الَّذِي فِي الرَّحْمِ لَمْ يَكْ صُورَةٌ لِفُؤَادِهِ مِنْ خَوْفِهِ خَفَقَانُ

ويظهر أن أبانواس قد أحب هذا المعنى ، وأعجب به ، فأعاده في قصيدة أخرى مدح فيها الرشيد ، ولكنه كان فيها أقرب إلى الإجادة ، وأبعد عن التكلف ، وذلك حيث يقول :

مَلِكٌ تَطِيبُ طِبَاعُهُ وَمِزَاجُهُ عَذْبُ الْمَذَاقِ عَلَى فَمِ الْمُتَذَوِّقِ
يَلْقَى جَمِيعَ الْأَمْرِ وَهُوَ مُقَسَّمٌ بَيْنَ الْمَنَاسِكِ وَالْعَدُوِّ الْمُوثِقِ
يَحْمِيكَ تَمَّا تَسْتَضِرُّ بِفِعْلِهِ ضَحَكَاتُ وَجْهِ لَآيَرِيكَ مُشْرِقِ
حَتَّى إِذَا أَمْضَى عَزِيمَةً رَأَيْهِ أَخَذَتْ بِسَمْعِ عَدُوِّهِ وَالْمَنْطِقِ

فهذا كله كلام عذب سهل ، ولكنه عاديٌّ مألوف . أما المعنى الذي أشرنا إليه في القصيدة الماضية ، فانظر إليه كيف صاغه أبو نواس أحسن صيغة :

إِنِّي حَلَفْتُ عَلَيْكَ جُهْدَ أَلِيَّةٍ قَسَمًا بِكُلِّ مُقَصَّرٍ وَمُحْلَقِ
لَقَدْ اتَّقَيْتَ اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَجَهَدْتَ نَفْسَكَ فَوْقَ جُهْدِ الْمُتَّقِ
وَأَخَفْتَ أَهْلَ الشُّرَكِ حَتَّى إِنَّهُ لَتَخَافُكَ النُّطْفُ الْآتِي لَمْ تُخْلَقِ

فانظر إلى هذا البيت ، وقارن بينه وبين قوله :

حَتَّى الَّذِي فِي الرَّحْمِ لَمْ يَكُ صُورَةً لِفُؤَادِهِ مِنْ خَوْفِهِ خَفَقَانُ
ألست ترى أنه أقل تكلفاً في اللفظ ، وأكثر صفاء في الأسلوب ، ومع ذلك فالمعنى في نفسه سخيْف ، لأنه محال . وقد لاحظ القدماء ذلك ، واختلفوا فيه ، فمنهم من أنكر على أبي نواس هذه الإحالة ، ومنهم من أعجب بها . وأنا أشارك المنكرين في إنكارهم ، وأوثر على هذا المعنى عند أبي نواس قول أشجع السلمي في مدح الرشيد :

وَعَلَىٰ عَدُوِّكَ يَا بْنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ رَصْدَانِ ضَوْءِ الصُّبْحِ وَالْإِظْلَامِ
فَإِذَا تَنَبَّهَ رُغَّتَهُ وَإِذَا عَفَا سَلَّتْ عَلَيْهِ سَيُوفُكَ الْأَحْلَامِ

فهذا الشعر متين رصين ، وهو في الوقت نفسه صحيح مستقيم ، لا ينكره العقل ، ولا يذهب فيه الخيال إلى غير حد ، وهو يُمثَلُ جلال الخليفة وسطوته أحسن تمثيل . ولعلَّ أحسن مدح صدق فيه أبو نواس هو مدحه للخصيب ، فلا تكاد تقرأ هذا المدح حتى تحسَّ أن الشاعر مخلص لا يتكلف ولا يتعمَّل ، وإنما هو مغمور بنعمة الخصيب ، راض عن حياته في مصر ، سعيد بهذه الحياة ، فشعره يصف هذا كله ، ويمثله تمثيلاً صادقاً ، ولست أروى لك القصيدة المشهورة :

أَجَارَةَ يَتَيْنَا أَبُوكَ غَيُورُ وَمَيْسُورُ مَا يُرْجَى لَدَيْكَ عَسِيرُ
ولكن أقرأ شيئاً من قصيدة أخرى ، لم يكثر الناس تناقلها ، وانظر ألا ترى الشاعر فيها سعيداً مغتبطاً بحاضره ، عظيم الأمل في مستقبله .
ذَكَرَ الْكَرْخَ نَازِحَ الْأَوْطَانِ فَصَبَا صَبُوءَ وَلَاتِ أَوَانِ
لَيْسَ لِي مُسْعِدٌ بِمِصْرَ عَلَى الشَّوْ قِ إِلَى أَوْجِهِ هُنَاكَ حِسَانِ
إِذْ لِبَابِ الْأَمِيرِ صَدْرُ نَهَارِي وَرَوَاحِي إِلَى يُبُوتِ الْقِيَانِ
وَاغْتَفَالِي الْمَوْلَى لِاخْتِلَاسِ الْغَمِّ زَمَنَ أُنْجِبُهُ بِالْبَنَانِ
وَاعْتِمَالِي الْكُؤُوسِ فِي الشَّرْبِ تَسْعَى مُتَرَمَاتٍ كَخَالِصِ الزَّعْفَرَانِ
يَا بَنِي أَبْشِرِي بِمِيزَةِ مِصْرٍ وَتَمَتَّنِي وَأَسْرِفِي فِي الْأَمَانِي
أَنَا فِي ذِمَّةِ الْخَصِيبِ مُقِيمٌ حَيْثُ لَا تَعْتَدِي صُرُوفُ الزَّمَانِ

كَيْفَ أَخْشَى عَلَى غَوْلِ اللَّيَالِي وَمَكَانِي مِنَ الْخَصِيبِ مَكَانِي
ثم يقول :

قَادَنِي نَحْوُكَ الرَّجَاءُ فَصَدَقْتُ رَجَائِي وَاخْتَرْتُ حَمْدَ لِسَانِي
إِنَّمَا يَشْتَرِي الْمَحَامِدَ حُرٌّ طَابَ نَفْسًا لَهُنَّ بِالْأَثْمَانِ
ولم لا يكون سعيدا ؟ ولم لا ينطق بهذا الشعر الجميل الصادق ، وهو
يقضى نهاره وليله بين باب الأمير ودور اللهو

وكما أن مدح أبي نواس في أكثر الأحيان ليس بالصادق ولا الممتاز ،
فرثاؤه قليل الخطر ، وربما كان أقل خطرا من مدحه ، وربما كان الرثاء
أضعف شعر أبي نواس . وهذا واضح ، فلم يكن أبو نواس رجلا محزونا ،
ولا ميالا إلى الحزن ، وإنما كان رجلا مبتهجا بطبعه ، أو كان هو الابتهاج .
فليس غريبا أن لا يجيد الرثاء ، وليس غريبا أن يتكلفه إذا اضطر إليه ، ثم
لأننس أن أبا نواس لم يستطع أن يطمئن إلى حياة الزوجية ، وعجز الذين
أرادوا أن يحملوه على الزواج ، فلم تكن له أسرة ، ولم يعيش بين أبنائه ، وبناته
فلم تنشأ في نفسه هذه العواطف الرقيقة ، التي تنشأ الحياة المنزلية الصالحة .
وإنما كان مقسم الحياة بين اللذات وضروب المزاح .

أما صلات المودة التي كانت تصل بينه وبين الناس ، فلم يكن أكثرها
يقوم على الجدة ، وإنما كان يقوم على اللذات ، فكان أبو نواس مدينا
لأصدقائه بالابتسام لا بالعبوس ، ومن هنا لا تكاد تشعر بشيء من الألم حين
تقرأ مرثيه القليلة ، وأنا أزعم أن أبا نواس لم يصدق في رثائه إلا مرة واحدة ،
وذلك حين رثى الأمين في هذه الأبيات :

طَوَى الْمَوْتَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ وَلَيْسَ لِمَا تَطْوِي الْمَنِيَّةُ نَاسِرُ
فَلَا وَصَلَ إِلَّا عِبْرَةٌ تَسْتَدِيمُهَا أَحَادِيثُ نَفْسٍ مَالَهَا الدَّهْرُ ذَاكِرُ
وَكُنْتُ عَلَيْهِ أَحْذَرُ الْمَوْتِ وَحْدَهُ فَلَمْ يَبْقَ لِي شَيْءٌ عَلَيْهِ أَحْذَرُ
لَنْ عَمِرَتْ دُورَ بَيْنَ لَا أَوْدُهُ فَقَدْ عَمِرَتْ مِمَّنْ أَحَبُّ الْمَقَابِرُ

فَأَمَّا غَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الرِّثَاءِ فَسَخِيفٌ أَوْ مُتَكَلِّفٌ . وَلَسْتُ أَشْكُ فِي أَنْ
أَبَا نَوَاسٍ كَانَ يَشْعُرُ بِضَعْفِهِ فِي هَذَا الْفَنِّ ، وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ يَحَاوِلُ أَنْ يُخْفِيَ هَذَا
الضَّعْفَ ، فَكَانَ يَسْلُكُ إِلَى إِخْفَائِهِ سُبُلًا مُخْتَلِفَةً ، أَظْهَرُهَا إِلَّا كَثَارَ مِنَ
الْوَصْفِ ، عَلَى نَحْوِ مَا كَانَ يَغْرُقُ فِيهِ الْجَاهِلِيُّونَ مِنْ وَصْفِ الْوَحْشِ وَالْجِبَالِ
وَمَا إِلَى ذَلِكَ .

لَيْسَ لِرِثَاءِ أَبِي نَوَاسٍ قِيَمَةٌ ، فَخِيرٌ أَلَّا نَطِيلَ فِيهِ ، وَأَنْ نَنْتَقِلَ إِلَى فَنٍّ آخَرَ ،
أَجَادَ فِيهِ أَبُو نَوَاسٍ إِجَادَةً مُطْلَقَةً ، لَيْسَتْ أَقْلَ مِنْ إِجَادَتِهِ فِي الْحَجَرِ ، وَلَا فِي
الْمَجُونِ ، لِأَنَّهُ بَابٌ مِنَ الْمَجُونِ ، وَهُوَ الْهَجَاءُ . عَلَى أَنَّنا نُسْرِفُ إِذَا قُلْنَا إِنَّ هَجَاءَ
أَبِي نَوَاسٍ مَجُونٌ كُلُّهُ ، فَفِي هَجَاءِ أَبِي نَوَاسٍ جِدٌّ كَثِيرٌ ، وَفِيهِ هَزْلٌ كَثِيرٌ ،
وَلَقَدْ كُنَّا نَزِيدُ أَنْ نَخْصِصَ لِلْهَجَاءِ عِنْدَ أَبِي نَوَاسٍ فَصْلًا مَطْوًلًا ، وَلَكِنَّا
مُضْطَرُونَ إِلَى أَنْ نَعْدَلَ عَنْ ذَلِكَ ، لِأَنَّ أَكْثَرَ هَذَا الْهَجَاءِ مَمْلُوءٌ بِفَاحِشِ
الْقَوْلِ وَمَقْذَعِهِ ، فَلَيْسَ إِلَى رِوَايَتِهِ مِنْ سَبِيلٍ . فَلَنُكْتَفِ بِأَنْ نَعْطِيكَ مِنْهُ
صُورَةً مُوجِزَةً جَدًّا ، وَلِنُلَاحِظَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ أَنَّ هَجَاءَ أَبِي نَوَاسٍ يَنْقَسِمُ
أَقْسَامًا ، فَهَنَّاكَ الْهَجَاءُ السِّيَاسِيُّ ، وَهَذَا الْهَجَاءُ نَفْسُهُ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : أَحَدُهُمَا
هَجَاءُ أَبِي نَوَاسٍ لِلْعَرَبِ عَامَةً ، وَلِلنَّزَارِيِّينَ خَاصَّةً ، فَقَدْ كَانَ أَبُو نَوَاسٍ شَدِيدَ

الميل إلى الفرس ، وكان لا يجب من العرب إلا اليمانية ، فأما النزارية فقد كان يزدریهم ، ويمقتهم كل المقت ، وكان ينالهم بأشد الشعر إقذاعا ، حتى يُروى أن الرشيد حبسه في ذلك ، وكان لا يكاد يستثنى قريشا ، فإذا فعل فخافة السيف ، لأن النبوة والخلافة كانتا في قريش . القسم الثاني من هجائه السياسي هجاؤه للذين عاصروه من الأمراء والوزراء ، فقد كان أبو نواس يكره البرامكة ، وكان يكره الأمويين ، وكان ينال أولئك وهو لاء بفاحش القول ولم يكن أبو نواس طيب النفس ولا رحيمًا إذا هجا أعداءه السياسيين ، وإنما يظهر أنه كان شديد الضغن ، منكر الحق . فانظر إلى هذه الأبيات التي هجا بها إسماعيل بن صبيح مولى الأمويين ، وكاتب الأمين :

أَلَا قُلْ لِإِسْمَاعِيلَ إِنَّكَ شَارِبٌ	بِكَأْسِ بَنِي مَاهَانَ ضَرْبَةً لَا زِمَ
أَتُسَمِّنُ أَوْ لَادَ الطَّرِيدِ وَرَهْطُهُ	يَاهُ زَالِ آلِ اللَّهِ مِنْ نَسْلِ هَاشِمِ
وَإِنْ ذُكِرَ الْجَعْدَى أَذْرَيْتَ عَبْرَةً	وَقُلْتَ أَذَالَ اللَّهُ مِنْ كُلِّ ظَالِمِ
وَتُخْبِرُ مَنْ لَا قِيَتَ أَنَّكَ صَائِمٌ	وَتَعْدُو بِجَحْرِ مُفْطَرٍّ غَيْرِ صَائِمِ
فَإِنْ يَسِرَّ إِسْمَاعِيلُ فِي فَجْرَاتِهِ	فَلَيْسَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِنَائِمِ

فانظر إلى هذه الواقعة المنكرة ، ثم اقرأ هذه الأبيات الأخرى ، فليست

أقل نكرا مما روينالك :

أَلَسْتُ أَمِينَ اللَّهِ سَيْفِكَ نِقْمَةٌ	إِذَا مَا قَ يَوْمًا فِي خِلَافِكَ مَا نِقُ
فَكَيْفَ بِإِسْمَاعِيلَ يَسْلُمُ مِثْلُهُ	عَلَيْكَ وَلَمْ يَسْلَمْ عَلَيْكَ مُنَافِقُ
أَعِيدُكَ بِالرَّحْمَنِ مِنْ شَرِّ كَاتِبٍ	لَهُ قَلَمٌ زَانٍ وَآخَرُ سَارِقُ

أَحْيَمِرَ عَادَ إِنَّ لِلسَّيْفِ وَقْعَةً بِرَأْسِكَ فَانْظُرْ بَعْدَهَا مَا تَوَافَقُ
تَجَهَّزْ جَهَّازَ الْبَرْمَكِيِّينَ وَانْتَظِرْ بَقِيَّةَ لَيْلٍ صُبْحُهُ بِكَ لَاحِقُ
وقسم آخر من هجاء أبي نواس تناول به العلماء من اللغويين وأصحاب
النحو والكلام ، فقد هجا الهيثم بن عدي ، وهجا أبا عبيدة بهذين البيتين
المنكرين ، ويروى أنه كتبهما على الحائط ، حيث كان يدرس أبو عبيدة :
صَلَّى الْإِلَهِ عَلَى لُوطٍ وَشِيعَتِهِ أَبَا عُبَيْدَةَ قُلْ بِاللَّهِ آمِينَ
فَأَنْتَ عِنْدِي بِلَا شَكٍّ بَقِيَّتُهُ مِنْذُ احْتَمَمْتَ وَقَدْ جَاوَزْتَ سَبْعِينَ
وهجا النَّظَّامَ من المتكلمين بهذه الأبيات :

قَوْلًا لِإِبْرَاهِيمَ قَوْلًا هُتْرًا غَلَبَتْنِي زَنْدَقَةٌ وَكُفْرًا
إِنْ قُلْتَ مَا تَشْرَبُ قَالَ خَمْرًا
أَوْ قُلْتَ مَا تَتْرُكُ قَالَ بَرًّا أَوْ قُلْتَ مَا تَرْهَبُ قَالَ بَحْرًا
أَوْ قُلْتَ مَا تَقُولُ قَالَ شَرًّا أَصْلَاهُ رَبِّي لَهَبًا وَجَمْرًا
ولعلك تذكر أنه كان يقصد إلى النَّظَّامَ بقصيدته التي أولها : « دَعْ عَنْكَ
لُومِي فَإِنَّ اللُّومَ أَغْرَاءُ » والعجب أن هؤلاء العلماء الذين هجاهم أبو نواس
كانوا يحبونه ، ويعجبون بشعره ، ولعل شيئًا من هذا الإعجاب مصدره
الخوف ، فقد كان أبو نواس يُنذِرُ العلماء إذا احتاج إلى ذلك ، ولما لم يجد له
الكلبي نسبا في أنساب العرب قال فيه :

أَبَا مُنْذِرٍ مَا بَالُ أَبْوَابِ مُذْحِجٍ مُغْلَقَةٌ دُونِي وَأَنْتَ صَدِيقِي
فَإِنْ تَعَزَّنِي يَا تَكْ ثَنَائِي وَمِذْحَتِي وَإِنْ تَابَ لَا يُسَدِّدُ عَلَيْكَ طَرِيقِي

وقسم ثالث من هجاء أبي نواس ، هو هجاؤه لأصحابه من الشعراء
والندامى ، فله فى الرقاشى وفى بنى نوبخت كلام كثير مُقَدِّع . وظاهر أن
رجلا كأبي نواس قضى حياته بين الكاس والطاس ، فى لعب ومزاح ، كان
من خفة الروح ، وتوقد الذكاء ، ودقة الفطنة ، بحيث كان يبلغ ما أراد إذا
هجأ ، فهو من أشد الشعراء فى عصره إقذاعا ، ومن أكثرهم نكاية بالخصم ،
وفى هجائه ازدراء لا يعدله ازدراء ، ولقد أحب أن أذكر لك من ذلك
شيئا قليلا ، فانظر إلى قوله :

أَمَاتَ اللَّهُ مِنْ جُوعٍ رَقَاشًا فَلَوْلَا الْجُوعُ مَا مَاتَ رَقَاشُ
وَلَوْ أَشْمَمَتْ مَوْتَاهُمْ رَغِيْفًا وَقَدْ سَكَنُوا الْقُبُورَ إِذَا لَعَاشُوا

وانظر إلى قوله فى هجاء داود بن رزین راوية بشار :

إِذَا أَنْشَدَ دَاوُدُ فَقُلْ أَحْسَنَ بَشَارُ
لَهُ مِنْ شِعْرِهِ الْغَثَّ إِذَا مَا شَاءَ أَشْهَارُ
وَمَا مِنْهَا لَهُ شَيْءٌ إِلَّا هَذَا هُوَ الْعَارُ

وانظر إلى هذين البيتين :

بِمَا أَهْجُوكَ لَا أَدْرِ لِسَانِي فِيكَ لَا يَجْرِي
إِذَا فَكَّرْتُ فِي عَرَضِكَ أَشْفَقْتُ عَلَى شِعْرِي

وانظر إلى قوله :

سِيرُوا إِلَى أَبْعَدِ مُنْتَابٍ قَدْ ظَهَرَ الدَّجَالُ بِالزَّابِ
هَذَا ابْنُ نُوْبَخْتٍ لَهُ إِمْرَةٌ صَاحِبُ كُتَّابٍ وَحُجَّابِ

وانظر إلى قوله في البرامكة :

إِنِّي لَوَلَا شَقَاءَ جَدِّي مَا مَاتَ مُوسَى كَذَا سَرِيعًا
وَلَا طَوَّهَ الْمَنُونُ حَتَّى أَرَى بَنِي بَرْمَكٍ جَمِيعًا
هَذَا زَمَانُ الْقُرُودِ فَاخْضَعْ وَكُنْ لَهُمْ سَامِعًا مُطِيعًا

وهذا أخف ما قال أبو نواس في الهجاء . ونحن مضطرون أن نطوى عنك أجود هجائه ، لأنه قد بلغ من القبح كما قلنا حدًّا يحول بيننا وبين روايته .



وفن آخر من فنون الشعر أجاد فيه أبو نواس إجادة مطلقة ، ولعله أول من اتخذها فنا مستقلا من فنون الشعر ، فنظم فيه القصائد طوالها وقصارها ، وهو فن الصيد ، ولكني لا أحدثك عنه في هذا الفصل ، لأن أبا نواس قد أثر فيه الغريب إيثاراً شديداً ، حتى أصبح من المستحيل أن تتسع له الصحف السيارة ، لشدة احتياجه إلى الشرح والتفسير . ولعلّي أوفق إلى جمع هذه الفصول كلها في كتاب ، فأضيف إليها فصلاً عن الصيد في شعر أبي نواس .

أما الفن الذي أريد أن أختم به القول في أبي نواس ، فهو فن الزهد ، وقد أجاد فيه أبو نواس إجادة لا بأس بها ، وذلك مفهوم أيضاً : فلو أنك أردت أن تتبين فلسفة أبي نواس لما استطعت إلا أن تقول : إن أبا نواس كان يزدري الحياة ، ويسخر منها ، ولعلك تدهش إذا قلت لك إنني أشبه أبا نواس بأبي العلاء ، تدهش لأن أبا نواس مُشْرِقٌ مبتسم ، بينما أبو العلاء عابس مكتئب ، وتدهش لأن أبا نواس رجل لذة وفور ، بينما أبو العلاء رجل زهد وحرمان . ومع ذلك فأبو نواس شبيه بأبي العلاء : كلاهما كان

يزدري الحياة ، وكلاهما كان يعقتهما مقتاً شديداً . وكل ما بينهما من الفرق أن أبا نواس كان يكره الحياة فيزدريها ، ويستعين عليها باللذة واللغو ، وأن أبا العلاء كان يكره الحياة ، فيستعين عليها بالزهد والحرمان . وفي الحق أن المتشائمين ينقسمون إلى هذين القسمين : فمنهم متشائم يضحك ويلهو ، ومنهم متشائم يعبس ويبكى وهم جميعاً متشائمون ، تقوم فلسفتهم على هذه القاعدة ، وهي أن الحياة شيء ليس بذى خطر ، لم ينشأ من خير ، ولن ينتهى إلى خير ، فلتقضى في لعب ولهو ، أو فلتقضى في حكمة وزهد هذا شيء يختلف باختلاف الأمزجة لا أكثر ولا أقل . فليس غريباً إذاً أن يحيد أبو نواس في المجون وفي الزهد معا ، على أنى لا أستطيع أن أحكم على أبي نواس أ كان هو مسلماً حقاً أم لم يكن ، ولعل أصدق حكم ممكن في أبي نواس هو أنه تجاوز حدود الإسلام ، وزدري أصوله وقواعد غير مرة في حياته الطويلة ، ولنقل إن شعره في الزهد آية على أنه تاب غير مرة أيضاً ، ولنختم قولنا فيه بهذه الايات القيمة ، التى قالها فى الزهد :

أَيَّ جِدٍّ بَلَغَ الْمَازِحُ	أَيَّةَ نَارٍ قَدَحَ الْقَادِحُ
وَنَاصِحٍ لَوْ حَظِيَ النَّاصِحُ	لِلَّهِ دَرُّ الشَّيْبِ مِنْ وَاعِظٍ
وَمَنْهَجِ الْحَقِّ لَهُ وَاضِحُ	يَا بَنِي الْفَتَى إِلَّا أَتْبَاعُ الْهَوَى
مُؤَوَّرُهُنَّ الْعَمَلُ الصَّالِحُ	فَأَنْتُمْ بَعَيْنِيكَ إِلَى نِسْوَةٍ
إِلَّا أَمْرُوهُ مِيزَانُهُ رَاجِحُ	لَا يَحْتَلِي الْخَوَرَاءُ مِنْ خَدْرِهَا
سَيِّقَ إِلَيْهِ الْمُتَجَرُّ الرَّابِحُ	مَنْ أَتَقَى اللَّهَ فَذَاكَ الَّذِي
وَرُوحَ لِمَا أَنْتَ لَهُ رَاضِحُ	شَمَّرَ فَمَا فِي الدِّينِ أَغْلُوطَةٌ

الوليد بن يزيد^(١)

كان خليعاً ماجناً ، ويقول الرواة إنه كان زعيم أصحاب الخلاعة والمجون . تبعه أبو نواس في خلاعته ومجونه ، وتبعه غير أبي نواس من شعراء هذا العصر ، فسطوا على شعره ، وسرقوا معانيه وألفاظه ، أو قل إنهم استباحوها واغتصبوها اغتصاباً ، لم يروا في ذلك حرجاً ، ولم يخشوا في ذلك دفاعاً . كان الوليد أموياً ، فكان بغيضاً إلى الناس أيام بني العباس ، ثم كان الوليد بغيضاً إلى بني أمية أنفسهم ، قبل أن يمكن الله لبني العباس في الأرض ، فكان بغض الناس له مضاعفاً ، كرهوه حين كان الأمر لبني أمية ، لأنه كان بغيضاً إلى قومه ، ولأن التوفيق السياسي أخطأه ، ولأنه كان على شيء غير قليل من سوء السيرة ، ولأن قومه الذين ثاروا به وقتلوه بالغوا في تسوؤ سيرته ، وأضافوا إليه من القول ما لم يقل ، وحمّلوه من الآثام ما لم يحمل ، وأنت تعلم آثار البغض السياسي ، وما تحدثه الفتن لمن لم يوفق فيها إلى النصر ، ثم كانت ثورة العباسيين ، واستقرار الأمر لهم ، فشمل البغض بني أمية جميعاً ، وكان حظ الوليد منه مضاعفاً ، وتقرب الناس إلى بني العباس بلعن بني أمية جميعاً ، خيّرهم وشريهم ، كما تقرب الناس إلى بني أمية من قبل بالقدح في بني هاشم جميعاً ، وبلعن على رضى الله عنه . ومن هنا كان من الحق أن تحتاط الاحتياط كله حين تقرأ ما تجدد في الكتب من

(١) نشرت بالسياسة في ٢٧ شعبان سنة ١٣٤٢ هـ - ٢ أبريل سنة ١٩٢٤

ذم الوليد ، والنعي عليه ، ورميه بالكفر حيناً ، وبالزندقه حيناً آخر ، وإضافة الشعر المملوء كفوراً وفجوراً إليه ، يجب أن تحتاط في هذا كله ، فأكثره أو كثير منه على أقل تقدير متكلف منحول ، ولسنا نحن الذين يقولون ذلك ، بل قاله الأولون ، فقد اختلفوا فيه اختلافا عظيماً ، فأما أكثرهم فكانوا يتقربون إلى بني العباس ، وإلى عامة الناس ، بانطعن فيه ، والنعي عليه ، وليس أحرص من أصحاب السلطان والعامة ، على أن تكون هناك ضحايا بريئة أو غير بريئة ، ينالونها بضروب الغضب ، وينزلون بها ألوان السخط . وأما القليل من هؤلاء الأولين ، فكانوا يقصدون في ذلك . فيسكتون ، وربما اصطنع بعضهم الشجاعة ، فدافع عنه في رفق وحذر . قالوا : دخل مروان ابن أبي حفصة على الرشيد فسأله عن الوليد ، فاعفاه الرشيد من آثار قوله ، فقال : « كان من أصبح الناس ، وأظرف الناس ، وأشعر الناس » فاستنشد الرشيد من شعره ، فأنشد هذه الأبيات :

لَيْتَ هِشَامًا عَاشَ حَتَّى يَرَى مِكْيَالَهُ الْأَوْفَرَ قَدْ أَثَرَا
كَلِمًا لَهُ الصَّاعِ الَّذِي كَالَهَا فَمَا ظَلَمَنَاهُ بِهَا أَصْوَمَا
لَمْ نَأْتِ مَا نَأْتِيهِ عَنْ بَدْعَةٍ أَحَلَّهَا الْقُرْآنُ لِي أَجْمَعَا

قالوا : فأمر الرشيد بهذه الأبيات فكتبت له . وتحدثوا أن رجلاً من ولد النعمان بن يزيد بن عبد الملك دخل على الرشيد ، فسأله عن نسبه ، فانتسب إلى قريش ، فسأله أن يخصص ، وأتمته على نفسه إن ظهر أنه مرواني ، فلما ذكر الرجل نسبه ، بش له الرشيد ، وقال لعن الله قاتلي أبيك ، فقد قتلوا

خليفة مُجْمَعاً عليه ، وقضى حوائجه . وعلى نحو من ذلك كان رأى المهديّ ، قال الرواة إن فقيهاً من الذين كانوا يختلفون إلى مجلس المهدي استطاع أن يدفع عن الوليد حين اتهم بالزندقة ، فذكر صلاته وطهارته وخشوعه ، ولكنه ذكر شرّبه وحبّه للهو ، وعُكوفه عليه . وبقيننا نحن أن الوليد لم يكن كما يزعم خصومه مسرفاً في اللهو والفجور إلى غير حد ، كما أنه لم يكن كما يريد أنصاره تقياً صالحاً ، وإنما كان رجلاً من الناس ، أحب اللذة وكلف بها ، وأعانتها عليها ظروف نريد أن نجعلها ، فأخذ منها بحظ موفور دون ، أن يخرج ذلك عن دينه ، أو يتجاوز به حدود ما ينبغي للخلفاء في عصره ، ولكنه كان شقيّاً سيّئ الحظ ، جنت عليه الظروف السياسيّة التي عاش فيها أكثر مما جنى عليه لهوه ومجونه .

أول هذه الظروف السياسيّة التي جنت على الوليد أنه كان ولياً لعهد أبيه يزيد بن عبد الملك ، ولكنه كان غلاماً ، فتوسط بينه وبين أبيه في الخلافة عمه هشام بن عبد الملك ، ولم يكد يتم الأمر لهشام ، حتى طمع في الخلافة لابنه ، وأراد أن يخلع الوليد من ولاية العهد ، وكان قد أعطى العهد على نفسه ليفينّ للوليد ، ولكن الأثرة وحب الأبناء كانا أقوى وأشد تأثيراً في نفس هشام من العهد والوفاء به ، أزمع هشام خلع الوليد ، وأخذ يحتال في ذلك ، ويمد له ، وأحس الوليد ذلك ، فكانت بينه وبين عمه ضغائن وأحقاد ، واشتدت شيئاً فشيئاً ، حتى أصبحت عداً صريحاً ، وحتى اضطرت الوليد إلى أن يترك العاصمة ، ويرتحل إلى البادية ، مغاضباً لعمه ، محتجباً شره ، فلم يزد ذلك هشاماً إلا بغضاً لابن أخيه ، وحقداً عليه ، وإلا اضطهاداً له ولاولياته

وأخبار ذلك كثيرة منتشرة في الكتب ، وبأى شيء يشنع هشام على الوليد حتى ينفر الناس منه ، ويصرفهم عن بيعته ، إلا بالدين وذكر الفجور والفسوق ؟ وقد انتفع هشام بهذا ، وأسرف في الانتفاع به ، فأذاع عن الوليد ما أراد أن يذيع من اللهو والمجون والإدمان ، والكفر والزندقة ، وسمع له الناس وهم بين مصدق مغرور ، ومكذّب ، ولكنه يتملق فيظهر التصديق ، ودافع الوليد عن نفسه ما استطاع ، فلأمر ما كان مغنوه يغنوه هذين البيتين .

يَا أَيُّهَا السَّائِلُ عَنْ دِينِنَا نَحْنُ عَلَى دِينِ أَبِي شَاكِرٍ
نَشْرَبُهَا صِرْفًا وَمَمْزُوجَةً بِالسُّخْنِ أَحْيَانًا وَبِالْفَاتِرِ
وأبو شاكر هذا هو مسامة بن هشام ، الذي كان يرشح للخلافة مكان الوليد ، وتحدثوا أن هشامًا سأل الوليد ذات يوم أسئلة تنم عن رأيه فيه ، فلم يكن جواب الوليد أقل حدة وفطنة من أسئلة هشام ، سألته : ما شرباك ؟ فأجاب : شرباك يا أمير المؤمنين : ولسنا نزعم أن الوليد لم يكن يشرب ، إنما نزعم أنه كان يشرب كغيره من أبناء الخلفاء ، ومن الخلفاء أنفسهم ، كان يشرب كهشام وبني هشام ، ولكن الغرض السياسي أباح لهشام أن يذمه ، ويشنع عليه بما كان يأتي هو ، وبما كان يأتي أبنائه .

كان الوليد مضطهدًا أيام هشام ، فكان هذا الأضطهاد نفسه يضطره إلى اللهو واللاعب لأمرين ، ليسلى عن نفسه ما يناله به السلطان من المحن من جهة ، وليظهر نفسه مظهر الرجل الذي لا يريد أن يضعف ، ولا أن يستكين من جهة ، كان يشرب عنادًا . وكان يشرب طالبًا للعزاء ، ومضى في الشرب عنادًا وتعزيا ، حتى شغف به شغفًا غير مألوف ، فأمكن من نفسه ،

وصدّق بعد آراء الناس فيه ، ومات هشام دون أن يستطيع خلعه ، ولكنه كان قد استطاع إيذاءه وإيذاء أصحابه ، ونالهم بحسن كثيرة شديدة ، فلما تم له الأمر ، وتبوّأ دار الخلافة ، جرى مع طبيعته ، فانتقم وأسرف في الانتقام ، كما أسرف هشام في الإساءة إليه ، ولكنه انتقم من الأبرياء ، أو انتقم من قوم لم يكونوا أساءوا إليه إلا تأثراً لهشام ، وكذلك شأن الانتقام السياسى ، يصيب البرى قبل أن يصيب المسىء . ثم لم يكتف الوليد بالإسراف في الانتقام ، بل أسرف في شيء آخر . كان محروماً أيام عمه ، جرى مع طبيعته ، وأراد أن يستوفي حقه بعد الحرمان ، فتجاوز الحق . كان مُقْتَرّاً عليه ، فقد قطع عنه هشام عطاءه وأرزاق أصحابه ومواليه ، وقد انفتحت له الآن خزائن الدولة ، فأسرف فيها ، كان مُضَيِّقاً عليه ، يختلس اللهواختلاسا ، ويفر باللذة فرارا ، وقد أصبح الآن صاحب السلطان ، فأطلق لنفسه عنانها ، وأخذ من اللذة ما استطاع ، وفوق ما استطاع .

ثم لم يكد يصل إلى الخلافة وينتقم لنفسه ، حتى كان هذا الانتقام نفسه مصدر شر له ، فقد كون حزبا قويا يكره الوليد ، ويأتمر به ، ويرثى لأبناء هشام ، ويبث الدعوة للتشنيع على الوليد ، وإساءة رأى الناس فيه ، فلم يكن بد للوليد من أن يدفع عن نفسه ، ويحارب هؤلاء الخصوم ، ولم يكن الوليد ملكا ولا قديسا ، وإنما كان رجلا من الناس ، وكان أمويا من بنى أمية ، فيه أخلاقهم وخصالهم ، وفيه عنفهم وعنادهم ، وفيه غرورهم وطغيانهم ، فلقى الشر بالشر ، وتحدى خصومه ، فأمكنهم من نفسه ، وصدّق رأيهم فيه ، ثم انتصر عليه خصومه ، فخلعوه وقتلوه ، وأرادوا بطبيعة الحال

أن يحمد الناس ما فعلوا ، فأضافوا إلى آثام الوليد وسيئاته ما استطاعوا ، ثم كانت الفتنة العباسية ، فأصبح بنو أمية جميعا في رأى الخلفاء العباسيين ، وعامة الناس ، ومن يتملق الخلفاء والعامة من العلماء والفقهاء ، كفره فُجَّاراً ، وأصبح الوليد مثالا لكفرهم وفجورهم ، وكذلك يكتب التاريخ ، فيظلم فيه ناس من الحق ألا يُظالموا .

لا نريد أن ندافع عن الوليد ، فليس يغنى الدفاع عن الوليد شيئا ، وليس يعيننا في حقيقة الأمر أن يكون الوليد خيرا أو شريرا ، ولكن أماننا حقيقة تاريخية نريد أن نتصورها تصورا صحيحا ما استطعنا إلى ذلك سبيلا ، فإذا أردنا أن نحكم على الوليد حكما قريبا من الصدق ، كان من الحق أن نقول : إنه كان رجلا مستمتعا بلذاته ، مسرفا في هذا الاستمتاع ، ولكنه لم يبلغ من ذلك ما يقول خصومه ، ولعله لم يصل إلى هذا الإسراف في الإثم ، إلا لأن خصومه اضطروه إلى ذلك اضطرابا ، إما باضطهادهم إياه ، وإما بتشنيعهم عليه وتحديثهم له .

ولقد نريد أن ننظر إلى الوليد نظرة غير النظرة التاريخية . نريد أن ننظر إليه من الوجهة الأدبية ، فقد كان الوليد أديبا ، وكان شاعرا ، وهذا وحده هو الذى يعيننا الآن من هذا الرجل . نريد أن ننظر إليه من هذه الوجهة ، ونريد أن نتبين شخصيته الأدبية والشعرية بنوع خاص ، ولكن ذلك ليس ميسورا ، فقد ذهب أشعار الوليد كلها أو أكثرها ، ولم يبق منها إلا الشيء القليل ، ذهب لتعصب الناس عليه ، وتحرجهم من رواية

شعره ، وما نحسب أن هذا التخرج كان دينيا فقد روى الناس شعر أبي نواس وغيره من أصحاب اللهو والمجون ، وإنما كان هذا التخرج سياسياً . ومن يدري لعل هذا التخرج السياسى قد أضاع علينا من آثار بنى أمية شيئاً كثيراً ، ومع ذلك فيظهر أن كثيراً من شعر الوليد كان محفوظاً يتناقله الناس فى القرن الرابع ، فإننا نجد فى الأغانى أن قصائد الوليد (تدل على نفسها) ، ولهذا لم يحرص أبو الفرج على روايتها وإثباتها ، وليته فعل ، فإن هذه القصائد التى كانت تدل على نفسها فى القرن الرابع ، لم يبق منها الآن شىء إلا هذه المقطوعات التى أراد الله أن يروىها لنا أبو الفرج ، فكانت كل ما نعرف من شعر الوليد . ليس من اليسير إذن أن نعطى من الوليد صورة صادقة ، وإنما نحن مضطرون إلى أن نعطى منه صورة شاحبة ممتعة ضعيفة ، لا تكاد تمثله أو تدل عليه ، ومع ذلك فهى خير من لا شىء .

أخص ما يمتاز به الوليد أنه كان شاعراً صادقاً لا يكذب ، ولا يعيل إلى الكذب فى شعره ، ولم يكذب ، وهو من فتيان بنى أمية ، عزيز النفس ، رفيع المنزلة ، ليس فى حاجة إلى أن يمدح ليكسب الحياة ، وليس فى حاجة إلى أن يهجو ، ليدفع عن نفسه خصماً يكافؤه . وأى الشعراء كان يجرؤ على أن يهجو ولى عهد المسامين ؟ ولو فعل فما كان ولى عهد المسلمين ليهجوه ، وإنما كانت السبيل فى ذلك أن يناله ما هو أهل له من العقاب . ثم لم يكن الوليد متكافئاً فى حياته . وكأنه كان يزدرى الناس ، ولا يحفل بهم ، ولم لا يزدريهم وقد رآهم يتملقون عمه ، ويعينونه على الظلم ، وتقض العهد ، لا لشىء إلا لأنه

صاحب السلطان ؟ أفيحفل بمثل هؤلاء ! وإذا لم يحفل بهم فما كان له أن يتكلف ما ليس فيه ، أو ينتحل من الخصال خصلة لا تعجبه .

قالوا : كان الوليد متزوجاً من إحدى بنات سعيد بن خالد بن عمرو ابن عثمان ، فعرف أن لزوجته اختاً تفوقها جمالاً وحسناً ، فطلق زوجته ، وأراد أن يقتن بها ، فخطبها إلى أبيها ، وعرف ذلك هشام ، فأرسل إلى سعيد : أتريد أن تستفحل الوليد لبناتك ، يطلق هذه ، ويتزوج تلك ؟ فرد سعيد خطبة الوليد . فقال الوليد : هذا سعيد يرد خطبتي ، ولو كنت خليفة لزوجني بناته جميعاً ... وفي الحق أن سعيداً لم يردّ هذه الخطبة إلا مجازاة لهشام . وآية ذلك أنه زوج ابنته من الوليد بعد أن أصبح أمير المؤمنين ، فلم يكن من المعقول ، ورأى الوليد في الناس رأيه ، أن يحفل بهم ، أو يعنى بترضيهم . كان يكرههم ويكرهونه وهو ولي العهد ، فلم يكن يحاول إرضاءهم ، وكان سيدهم وهو خليفة ، فلم يكن يحاول إرضاءهم أيضاً . ثم لم يكن الوليد يتعاطى الشعر حبا في الشعر ، لم يكن يحرص على أن يكون شاعراً مجيداً ، وإنما كان يلهو ، أو كان يحد ، وكان يتخذ الشعر وسيلة عادية للتعبير عما يجحد في لهوه وجده ، وكان لا يعنيه أن يقول الناس أحسن أو أصاب ، وإنما كان يعنيه أن يشعر هو بأنه وصف ما في نفسه ، وترجم عن عواطفه ، ومن هنا كان شعر الوليد كما قلنا صادقا ، يمثل نفسه تمثيلاً صحيحاً . وسنرى أن هذه النفس لم تكن بغیضة ولا ثقيلة الظل . ومن هنا أيضاً كان شعر الوليد أقرب إلى الرداءة اللفظية ، منه إلى الجودة ، فقد قلت لك إنه لم يكن يتكلف هذه الجودة ، ولا يطمع فيها ، وإنما كان يقول جرياً مع الطبع ، ولم يكن يقول الشعر إلا وهو

متأثر بما يسرّ أو يحزن ، وإذن فقد كان مشغولا بسروره وحزنه عن الألفاظ ، كان يقول الشعر وهو سكران ، يشرب ويطرب بما حوله ، وكان همه أن يكون قد قال شعراً سجل فيه عاطفة ثارت في نفسه ، أو خاطراً خطر له ، وكان يحب شعره ، لأنه كان معجباً بنفسه ، وكان يرى في هذا الشعر مرآة لهذه النفس ، وكان يحب أن ينظر كثيراً في هذه المرأة ، ولذلك كان لا يكاد يقول شعراً إلا طلب إلى أحد المغنين أن يغني له فيه صوتاً ، وربما قال الأبيات ، فكلف أحد المغنين أن يغنيه فيها ، فما زال كذلك يسمع ويشرب يومه أو ليله .

وهذا النحو من الشعر الذي لا يتكلف صاحبه فيه لفظاً ولا معنى ، وإنما يغترفه اغترافاً سهلاً لا مشقة فيه ، يكفي أن يخطر الخاطر ، أو تعرض الحادثة ، فإذا الشاعر ينظم فيها أبياتاً ، أي يقول فيها كلاماً كان يستطيع أن يقوله ثراً ، ولكنه تعود النظم ، فهو ينظم في غير عُسر ، ولهذا كان الشعر أيسر شيء على الوليد ، كان يتكلم شعراً حين ينثر الناس ، كان إذا أعجبه شيء عادي وصفه شعراً ، وكان إذا اشتهى شيئاً اشتهاه شعراً ، وكان إذا غمه شيء مهما يكن جليلاً أو ضئيلاً عبر عن ذلك بالشعر ، كان الشعر عنده كالنثر عند غيره ، ولهذا اصطنع من بحور الشعر أخفها وألطفها ، وأقربها إلى النثر ، وأشدّها ملاءمة لحياة اللهو والدعة التي كان يحياها ، فقليلاً ما تجدد عند الوليد هذه البحور الطوال المعقّدة ، وإنما شعره كله هزجٌ ورملٌ ، وهو إذا عمد إلى البحور الطوال اجتزأها اجتزاء ، وخففها تخفيفاً ، فاختر أيسرها وأقصرها . قلت لك إنه لم يكن ينظم الشعر ، وإنما كان يتكلمه ، وهو في

هذا قدوة للذين اتبعوه من شعراء العباسيين ، فقد حدثتك عن أبي نواس أنه كان إذا لها أو تغزل آثر من بحور الشعر أيسرها وأقصرها ، وأخفها موقعا ، وأدناها من النثر مكانا ، وكذلك كان غير أبي نواس من شعراء العباسيين ، إمامهم في هذا كله الوليد .

ولو أن الوليد أكثر من تعاطى الجذ في شعره ، لاختار لهذا الحد من الأوزان الشعرية ما فيه جلال ومهابة ، ولكنه لم يكن يجد في شعره كثيراً ، فقد قلت لك إنه لم يكدهم يدح ولم يكدهم هجو ، وإنما تعاطى من فنون الشعر ضروباً خاصة ، وصف الحمر لأنه كان يشربها ، ووصف اللذة لأنه كان يستمتع بها ، ووصف الصيد لأنه كان يصيد ، وكل هذه الفنون تحتاج إلى الشعر السهل ، وإلى الوزن القصير . وتغزل الوليد كثيراً ، فقد ذكرت لك أنه أحب أخت زوجه ، وكانت هذه المرأة التي فُتِنَ بها تسمى سلمي بنت سعيد ، فلا تكاد تجد شعراً للوليد يخلو من سلمي ، وهو يفتن في ذكر سلمي افتناناً عظيماً ، فيذكر اسمها مكبراً ومُصَغَّراً ، ويذكره كاملاً ومُرَحَّماً ، ويتخذ مرة كنية لها ، كأنه يداعبها ، ومن الغريب أنه كان في هذا الحب سيئ الحظ ، كما كان في حياته كلها ، فقد طلق امرأته ليتزوج أختها ، فخال هشام بينه وبين ذلك ، فندم على تطليق امرأته ، وكأنه أحبها ، فأراد أن يراجعها ، ولكنها كانت قد تزوجت رجلاً آخر ، فقال في ذلك شعراً لذيذاً ، ولكنه يئس من امرأته ، فانصرف إلى عشيقته سلمي ، وكأنها كانت تحبه ، بل كانت تحبه ولكنها كانت تطيع أباه وتكبره ، فكان الوليد ينسب بها حياته ، وكان شعره يصل إليها ؛ وكان يحب أن يسمع رأيها في

هذا الشعر ، لا لأنه ينتظر أن تمدح شعره أو تدمه ، بل لأنه يريد أن يجد في كلامها صدًى لعواطفه ، وقد بلغ به الغيظ ذات يوم أن خاصم سعيدا وهجاه ، فبلغ ذلك سلمى ، فغضبت لهجاء أيها ، وبلغ الوليد أنها مُغضبة ، فترصّاه بشعر كثير ، وترضى أباه ، واعتذر إليه ؛ وظل أيام هشام في وجد وحزن ، بحب ولا يصل إلى من يحب ، وله في ذلك فنون ، فقد احتال ذات يوم في أن يدخل قصر سعيد ، فيقال إنه لقي زياتا يسوق حمارا ، فأخذ من الزيات ثيابه وحماره وزيته ، ونزل له عن فرسه وثيابه ، ومضى يبيع الزيت ، حتى دخل قصر سعيد يعرض زيتته ، ورأته سلمى ورآها ، ثم نهره الخدم ، فانصرف وقال في ذلك شعرا . فلما مات هشام وأصبح الوليد خليفة ، خطب سلمى إلى أيها ، فقبل خطبته هذه المرة ، وزوجه ابنته ، وللوليد في ذلك شعر عذب لذيذ ، من أخف الشعر ظلا ، وأحسنه في النفوس وقعا ، ولكنني قلت لك إن الوليد كان سيئ الحظ في حبه ، كما كان سيئ الحظ في حياته كلها ، فلم تلبث سلمى عنده إلا أربعين يوما ، ثم ماتت ، فجزع الوليد لموتها جزعا شديدا ، ورثاها رثاء لا نقول إنه يفطر القلوب حزنا وأسى ، ولكننا نقول إنه يثقل نفس الوليد ، التي كانت تعرف كيف تحزن ، كما كانت تعرف كيف تبتهج . ويكفي أن تقرأ شعر الوليد في سلمى هذه حية وميتة ، لتعرف أن الوليد لم يكن يتكلف الشعر ، ولا يحرص على الإجابة فيه ؛ وإنما كان يرسله كما يرسل أنفاسه ، في سهولة ويسر ، فإذا هو حارٌّ حيناً ، وفاتر حيناً ، وقد يصل إلى البرد حيناً آخر .

ثم للوليد جد ، ولكننا لم نحفظ منه إلا قليلا ، فقد خاصم هشاما ،

فاضطره هذا الخصاص إلى شيء من الفخر والعُتب ، ونالته حن اضطرته إلى أن يقول فيها شعرا ؛ وفقد ابنا له فرثاه ؛ وهو في هذا الجد كله قوى متين ، لا يخلو من جلال ورصانة .

ولم يكن الوليد شاعرا فحسب ، وكأنه كان يتصرف في النثر تصرفا حسنا ، فقد روى لنا أبو الفرج مكاتبة بينه وبين هشام لا بأس بها ، ولكني أتردد (وأظن أنني محق) في نسبة هذه الرسائل إلى الوليد وإلى هشام ، وأحسب أن مواليهما هم الذين كانوا يكتبون عنهما ، ولست أشك في ذلك بالقياس إلى هشام ، وأنا أرجحه بالقياس إلى الوليد ، ومهما يكن من شيء فإن معاني هذه الكتب تمثل نفس الوليد وهشام تمثيلا لا بأس به . ثم كان الوليد مع هذا عالما بأيام العرب وأحداثها ، وبأشياء أخرى كثيرة ، وأحسب أن اتصاله بالموالي من الفرس قد علمه شيئا كثيرا ، والرواة يروون أنه أخذ عنهم الزندقة ، ومال معهم إلى مذهب ماني ، وليس من شك في أنه كان يُلمُّ باصطلاحات حديثة : علمية أو فلسفية ، ظهرت في شعره عند ما وصف الحجر ، كما ظهرت في شعر أبي نواس ، ومع ذلك فالفرق بينه وبين أبي نواس ليس بالقليل ، كان الوليد أقرب إلى البدواة منه إلى الحضارة ، وذلك ظاهر جلي في شعره ، فعلى هذا الشعر مسحة بدوية لا تقبل الشك ، بينما أبو نواس في لهوه ومجونه حَضَرِيّ ، رق حتى كاد ينمحي رقة وخفة .

ولنختصر ، فللوليد شخصيتان : شخصيته السياسية التاريخية ، التي حدثتك عنها في أول هذا الفصل ، وهذه الشخصية إن لم تكن جذابة خلافة ، فليست منفرة ولا بغيضة ، وهي لا تقطع الصلة بين الوليد وبين

غيره من خلفاء الأمويين والعباسيين ، الذين يُدكرون بالخير ، ولعلمهم
ليسوا أقل إثماً من الوليد . وشخصيته الأدبية : شخصيته من حيث هو
شاعر . وأحسب أنى قد رسمتها لك رسماً إلاّ يكن صادقا كل الصدق ،
فليس بعيداً عن الحق ، وأحسب أن هذا الرسم يظهر لك الوليد شاعراً
ظريفاً جذاباً خفيف الروح . ولكنى أريد أن أثبت كل هذه الصفات التى
قدمتها ، ولا بد لذلك من أن ننتقل إلى طائفة من شعره ، فليكن ذلك فى
الفصل الآتى .

مطيع بن إياس^(١)

وكنـت تـنتظـر أن أـحدـثـك عـن الـولـيـد بـن يـزيـد ، لأنـي وعـدـتـك فـي
الأسبوع الماضـي أن أسـتأنـف الحـديـث فـيـه ، ولـكـن بـدأ لـي ، فـسأـحدـثـك عـن
شاعـر آخـر ، ولـسـت أـكره إـخـلاف هـذا الوـعـد ، فـمـن الـيـسـير عـلـيـك ، وـمـن
الـخـيـر لـك ولى ، إذـا أردت أن تـتـعـرف شـعـر الـولـيـد ، وتـثـبـت صـحـة تـلك الصـورـة
الـتـي رـسـمـتـها لـك مـن شـخـصـيـتـه ، أن تـرجـع إلـى كـتـاب الأـغـانـي ، وـما رـوـى فـيـه
أبو الفـرج مـن شـعـر الـولـيـد ، فـفـي ذـلك مـقـنـع لـك ، وـفـي ذـلك فائـدة أعـظـم وأجـدى
مـن الفائـدة الـتـي تـجـنـيـها لو أنـي رويـت لـك طـرفـاً مـن شـعـر الـولـيـد فـي هـذا الحـديـث ،
وـمـن يـدرى ؟ لـعلـك إن رـجـعـت إلـى أـخـبـار الـولـيـد وأشـعـارـه فـي الأـغـانـي صـحـت بـعض
ما قد أـكون تـورـطـت فـيـه مـن خـطـأ ، ومـهـمـا يـكـن مـن شـئ ، فـإن رجـوعـك
إلـى الأـغـانـي بـعـد أن قرأت حـديـثـي عـن الـولـيـد ، أنـفـع لـك ، وأجـدى عـلـيـك مـن
قـراءـة حـديـث آخـر ، لـيـس لـي فـيـه إلـا رـوايـة وتـحـلـيل . وذـلك فـي الـوقـت نـفـسـه
يـنـفـعـنـي ، فـأنـا أريد أن أتـحدـث إلـيـك مـسـرعـاً عـن طائـفة مـن الشـعـراء ، تـصـل بـيـنـهـم
و بـيـن الـولـيـد وأبـي نـواس صـلة مـتـينـة قـويـة ، هـي صـلة الخـلاعة والمـجـون والشـك ،
والإعـراض عـمـا أـلف النـاس ، أريد أن أتـحدـث إلـيـك فـي هـؤـلـاء الشـعـراء ، لا
لأنـي أوتـر هـزلهـم وخـلاعتهم عـلى جـد غـيـرهم ، ولـا لأنـي أشـعـر بـأنـك تـؤثـر

(١) نـشـرت بـالـسـياسـة فـي ٥ رمـضـان سـنة ١٣٤٢ هـ — ٩ أبريـل سـنة ١٩٢٤ م

الخلاعة والهزل على الجذ ، فأحاول أن أرضيك وأسليك ، بل لأنى أرى فى
 الحديث عن هؤلاء الشعراء وأصحابهم من أهل الظرف والمجون فى ذلك
 العصر ، نوعاً من الجذ عظيم الخطر ، يُمكننا من أن نفهم عصرًا من العصور
 الإسلامية كما ينبغى أن نفهمه ، ويُمكننا من أن نحكم على هذا العصر حكماً
 ملائماً للحق ، مقارباً للصواب ، وليس هذا بالشىء اليسير ، وليس هذا
 بالشىء الذى يزدريه الباحثون . ولعلك لم تنس بعد أنى لم أكّد أعرض لأبى
 نواس فى السنة الماضية ، حتى سخط ناس كثيرون فى مصر ، وفى غير
 مصر ؛ سخط قوم ، لأن فى شعر أبى نواس وأمثاله مخالفة للأخلاق ، ونُبُوًّا
 عن الدين ، وسخط قوم آخرون ، لأنهم زعموا أنى أسىء إلى العرب ،
 وأتهمهم بما ليس فيهم ، وأتخذ فجور واحد من الشعراء مقياساً لحياة العصر
 الذى عاش فيه ، فأعمم حين يجب التخصيص ، وأسرف فى التعميم حين
 يجب الاحتياط والدقة ، لعلك لم تنس هذا بعد ، ولعلك تعلم أن الذين يُعنون
 بالبحث الأدبى والتاريخى عناية صادقة ، إذا خطر لهم رأى ، وظهر لهم أنه
 الحق ، فآمنوا به ، واطمأنوا إليه ، لم يسهل عليهم أن يتركوه أو ينصرفوا عنه ،
 حتى يثبتوا لأنفسهم وللناس أنه الحق ، وهم يشتدون فى ذلك ، ويحرصون
 عليه حرصاً ليس فوقه حرص ، وأنا من هؤلاء الناس ، حاولت أن أبحث
 عن أبى نواس ، فخطر لى أنه كان شاعراً شاكاً ما جناً ، وأن هذا الشك
 والمجون لم يكونا مقصودين عليه ، بل كانا قد تجاوزاه إلى غيره من الشعراء
 وأعلام هذا العصر ، فتبعت هذا الرأى ، وجعلت أدرسه وأمتحنه ، وجعلت
 كلما أمعنت فى هذا الدرس والامتحان ، ازددت إيماناً بهذا الرأى ، واطمئناناً

إليه . ثم انتقلت منه إلى رأى آخر أوسع منه وأشمل ، فاعتقدت وما زلت
اعتقد أن القرن الثانى للجهرة على كثرة من عاش فيه من الفقهاء والزهاد
وأصحاب الشك ، والمشغوفين بالجد ، إنما كان عصر شك ومجون ، وعصر
افتتان وإلحاد عن الأخلاق المألوفة ، والعادات الموروثة ، والدين أيضاً .

رأيت هذا الرأى ، وذهبت أثبته بالأدلة المختلفة ، والحجج المتبينة ، فى
أثناء بحثى عن أبى نواس ، ولكنى لا أكتفى الآن بإثبات هذا الرأى ، ولا
بأن أقيم عليه الأدلة النظرية أستمددها مرة من انتقال العرب من حال إلى حال ،
ومرة من اختلاطهم بالأمة الفارسية ، ومرة من طبيعة الحضارة والترف ،
ومرة من ظهور العلم ، ونقل الفلسفة ، لا أكتفى بهذا كله ، وإنما أريد
أن أشخص حياة هؤلاء الشاكين المسرفين فى المجون ، تشخيصاً لا يجعل
إلى الشك فيها سبيلاً ، ثم أريد أن أبين أن هؤلاء الشاكين المسرفين فى
المجون ، إن سخط عليهم نفر قليل من الفقهاء وأصحاب الزهد ، فقد كان
الناس جميعاً على اختلاف طبقاتهم وأهوائهم ومنازعاتهم يحبونهم ، ويعيلون
إليهم ، ويتفكهون بما يوصفون به من ظرف ، وما يروى عنهم من هزل
ومجون ، وإذا كان هؤلاء الشعراء وأصحابهم من حرية الرأى ، ومن
الإسراف فى حب اللذة ، والتهالك عليها ، سرا وجهراً ، بهذا الحد الذى
يبتته وسأيبته فى هذه الفصول ، وإذا كان الناس بهم معجبين ، وغنهم
راضين ، أقول إذا كان الأمر على هذا النحو ، فليس عندى شك فى أن
هذا العصر الذى عاش فيه هؤلاء الشعراء ، وهؤلاء الناس الذين كانوا
يعجبون بهم ، لم يكن عصر إيمان ويقين فى جملته . وإنما كان عصر شك

واستخفاف ، وعصر مجنون واستهتار بالذات ، ولم لا يكون كذلك وقد
اجتمع للمسلمين فيه شيئان، كلاهما خطرٌ على حياة السذاجة والقناعة، أحدهما
العقل ، أريد العقل الفلسفى ، الذى يتدخل فى كل شىء بالنقد والتحليل ،
وبالنفى والإثبات ، ولا يريد أن يقف من ذلك عند حد ، وإنما يريد إذا
بدأ البحث أن يستقصيه ، وهو فى أثناء هذا البحث وهذا الاستقصاء يهدم
ما يعترض فى طريقه من آثار الوراثة . والثانى الحضارة وما تستتبعه من
نعمة ولذة وترف ، كالتأثيرات الظاهرتين شديدة الخطر على كل قديم ،
فأما العقل الفلسفى فمحول يهدم القديم فى الحياة المادية على اختلاف
فروعها . ومن زعم أن العرب لم يتأثروا فى القرن الثانى للهجرة
بهذين المؤثرين الخطيرين : فهو مسرف كل الإسراف ، بعيد عن الحق
كل البعد .

ليس غريباً إذن أن يظهر فى هذا العصر الوليد بن يزيد ، ومطيع
ابن إياس ، ويحيى بن زياد ، وحامد مجرد ، وابن المقفع ، ووالبة بن الحُبَاب ،
وغيرهم من الذين عاصروهم وشاركوهم فى شكهم ومجونهم ، وفى لهوهم
وعبثهم ، ليس غريباً أن يظهر هؤلاء الناس فى ذلك العصر ، وإنما التريب
أن يخلو منهم ذلك العصر ، ولا يظهر فيه إلا الفقهاء والنساک وأصحاب
الزهد والتقى .

نحن إذاً مضطرون إلى أن نأخذ هذا العصر كما هو ، وإلى أن نصطنع
من الشجاعة ما يمكننا من أن ننظر إليه فى جملة وفى تفصيله ، لا مشفقين
ولا مترددين ، ولا كالنعامة التى يأتىها الخطر ، فتحنى رأسها كي لا تراه ، ويخيل

إليها أن ذلك يؤمنها من هذا الخطر . . . فهما ننكر ظهور الشك والمجون
وأصحابهما في هذا العصر ، وتغلب هذا الشك والمجون على نفوس المستنيرين
من أهله ، فلن يمنع ذلك أن يكون هذا العصر كما قلت عصرًا ظهر فيه الشك
والمجون ، واستأثرا بقول الكثرة المستنيرة من أهله ، حتى بعض الفقهاء
وأصحاب الكلام . سيقولون : وما ينفعنا أن نعلم بأن هذا العصر قد كان
عصر شك أو عصريقين ؟ وما يضرنا أن نجعل ذلك ؟ ولست أرى على ذلك
جوابا معقولا ، وأى جواب معقول تستطيع أن توجهه إلى من يسألك مانع
العلم ؟ وما ضرر الجهل ؟ وما فائدة الصواب ؟ وما مضرة الخطأ ؟ سيقولون :
ولكنك سيئ الاختيار ، ردىء الذوق ! فما أنت وأصحاب الشك والمجون
تحدثنا عنهم في شهر الصوم ، وتروى لنا شكهم ومجونهم وتصرّفهم في
ألوان الهزل ؟ وهلا أجمّلت ذلك حتى يفرغ الناس من صومهم ! وهلا
اكتفيت في هذه الأيام التي ينصرف فيها الناس إلى الطاعة والتقوى
بالتحدث إليهم في أخبار الزهاد والناسكين ، وفي مناقب الوعاظ والصالحين !
نعم ، سيقولون هذا . ومن يدري ؟ لعلّ إنما تخيرت هؤلاء الظرفاء وأحاديثهم
لأرفه على هؤلاء الصائمين ، وأخفف عنهم من ألم الصوم قليلا ، وأى إثم
في ذلك ؟ وأى جناح فيه ؟

زعموا أن ناسا سألوا ابن عباس عن إنشاد الشعر ، أينقض الوضوء ؟
فأنشد ابن عباس شعرا لا أستطيع أن أرويه ، ثم نهض فصلى . وزعموا أن
ناسا سألوا عن شيء كهذا أحدا الفقهاء المحدثين ، وأحسبه سعيد بن
المسيّب ، فأنشد :

أُنْبِئْتُ أَنَّ فَتَاةً كُنْتُ أَخْطُبُهَا عُرُقُوبَهَا مِثْلَ شَهْرِ الصَّوْمِ فِي الطُّوْلِ
 لم يتحرَّج ابن عمار ، ولم يتحرَّج ابن المسيَّب ، ولم يتحرَّج غيرهما من
 الفقهاء وأعلام الدين من رواية الشعر وفنونه المختلفة ، جدها وهزلها . فما
 لنا نتحرَّج الآن ؟ أليس هذا التحرَّج نفسه مظهرًا من مظاهر الضعف ،
 ولين العقيدة ، واضطراب اليقين ؟ إن المؤمن حقًا ، المتدين حقًا ، الخالص في نسكه
 وعبادته ، لا يخشى على إيمانه ، ولا على دينه ، ولا على زهده وعبادته شعرًا
 مطيع وأصحاب مطيع ، وإنما يخشى هذا الشعر من يُحس من نفسه
 الضعف ، ويريد أن يتقيه ، ويتجنب أسبابه والمُغْرِيَات به . وإذا أحس
 الرجل من نفسه ضعفًا في مثل هذه الأشياء ، فاروله ما شئت من شعر ،
 أو اكفف عن رواية هذا الشعر له ، فما أنت بنافعه ولا ضارّه .

على أنى قلت إنا نبحث بحثًا علميًا ، لا نريد به أن نرضى الناس ، ولا
 أن نُسَلِّيَ عنهم ، وإنما نريد أن نفيد ، وأن نستفيد . وأرى أنى قد أسرفت في
 هذه المقدمة إن كان يمكن أن تسمى هذه مقدمة ، ولم أتحذث إليك بعد
 في مطيع ، ومع ذلك فهو خليك بأن أتحذث إليك فيه ، وأن أطيل الحديث .
 كنت أذكرك في الحديث الماضي صدق الوليد بن يزيد ، وخفة روحه
 في الشعر ، وأين يقع الوليد بن يزيد من مطيع بن إلياس ، إذا أردنا أن نذكر
 صدق اللهجة ، وخفة الروح ، وحلاوة الدُّعَابَة ، وجمال اللفظ ؟ الفرق بين
 الشاعرين عظيم . وربما كان من العسير جدًا أن تجد شاعرًا مجيدًا أو غير
 مجيد ، يبلغ ما بلغه مطيع من صدق اللهجة ، وخفة الروح ، حتى أبو نواس ،
 وأنت تعلم رأيي في أبي نواس . نعم ، مطيع ابن إلياس أصدق لهجة من أبي نواس

ومن الوليد ، وأخف روحاً منهما ، وتفسير ذلك يسير ، فقد كان الوليد كما عرفت مضطهداً أيام ولايته للعهد ، كثير الخصوم أيام خلافته ، فكان في لهوه ومجونه في هذين العشرين يشعر بالاضطهاد والخصومة ، ويريد أن يتحدّى المضطهدين والخصوم ، فكان ذلك ربما دفعه إلى شيء من الإسراف في القول ، والإمعان في التحدّي ، وتجاوز طبيعته أحياناً ، لينغيظ خصومه ومضطهديه . وكان أبو نواس شاعراً مجيداً ، ومستأثراً في عصره بالإجادة المطردة ، وكان قد اتخذ المجون مذهباً ، وكان قد أعلن ذلك ، وأسرف فيه ، وكان له حساد وخصوم ومضطهدون ، فكان كالوليد ، يتحدّى هؤلاء الحساد والخصوم ، ويسرف في القول إسرافاً متعمداً ، يريد أن يغيظ الفقهاء والمتكلمين ، ويهزل ويُسِفّ في اللفظ ، يريد أن يغيظ النحاة واللغويين ، لم يكن يخشى إلا الخلفاء ، أو قل لم يكن يخشى من الخلفاء إلا الرشيد ، فكان يحتاط أمام الرشيد .

بينما الوليد يسرف في القول ، ليتحدّى خصومه السياسيين ، وبينما كان أبو نواس يسرف في القول ليتحدّى خصومه العلماء والأدباء ، كان مطيع لا يسرف في القول ، لأنه لم يكن مضطهداً ولا معرضاً لخطر .
ستقول : وكيف أمن مطيع هذا الاضطهاد ؟ وكيف برئ من التعرض للخطر مع أنه كان ظريفاً ماجناً ، ملحقاً بالفسق ، متهماً في دينه ، يوصف بالزندقة ؟
فأقول : بل كان مطيع شراً من هذا أيضاً في النصف الثاني من حياته ؛ فقد كان بينه وبين الأمويين صلة : مدح النعمان بن يزيد ابن عبد الملك ، ونادم الوليد بن يزيد ، ومدح أبوه واليا من ولادة بني أمية ،

ومدح هو رجلا من ولد خالد القسريّ ، وكثيراً ما كان يذكر بالخير أيام بني أمية ، ويكره أيام بني العباس ، فكان من المعقول جداً أن يُراعَ من الوجهة السياسية ، كما كان من المعقول جداً أن يُراعَ من الوجهة الدينية ، ولكنه مع ذلك لم يُرعَ إلا مرة أو مرتين ، خرج منهما آمناً مسروراً ، موفوراً الحظ من العطاء أيضاً . تريد أن تفهم هذا ، وأنا أيضاً أريد أن أفهمه ، وأعتقد أن تعليل هذا سيصور لك مطيعاً وشخصيته ورأيه في الحياة والناس أحسن تصوير وأصدق ، كان مطيع يزدرى الناس ، وكان يزدرى الحياة . وكان يسخر من هذه ، كما كان يسخر من هؤلاء ، وكان يتخذ هذه وهؤلاء وسيلة إلى اللذة ، وإلى اللذة التي لاحد لها ، فكان يتلون مع هؤلاء الناس بألوانهم ، وكان يتقلب مع الحياة في صورها المختلفة ، كان أمويّاً أيام بني أمية ، لم يكره حين مثل بين يدي الوليد ، فسأله عن شعر أعجب به لمن هو ؟ لم يكره أن يجيب : « عبدك أنا قائله يا أمير المؤمنين » . قالوا : فاستدناه الوليد ، وقبل فاه وبين عينيه ، وهوى هو ، فقبل الأرض بين يديه . وكان عباسياً حين ثبت الله الملك لبني العباس ، ولم يكن عباسياً معتدلاً ولا هادئاً ، بل قل لم يكن عباسياً متطرفاً ، لأنه لم يكن مقتنعاً بشيء ، وإنما كان يريد أن يعيش ويلذ ، وكان يجد الحياة واللذة عند بني العباس ، ولم يكن بني العباس يزنون عنده شيئاً إلا هذه الحياة وهذه اللذة ، فما الذي كان يمنعه أن يتملّق بني العباس وهو لم يكن يتملقهم كما يفعل الذليل الخانع ، وإنما كان يتملقهم ، ساخراً منهم ، مزدرياً لهم ، بل كان يسخر ممن هو أجل منهم خطراً .

قالوا: أراد المنصور أن يبايع بالخلافة بعده لابنه المهدي ، وكان ابنه جعفر يعترض عليه في ذلك ، فدعا الناس ذات يوم فاجتمعوا ، وتكلم الخطباء والشعراء ، كلهم يمدح المهدي ، ويبين فضله ، حتى إذا فرغوا أقبل مطيع على المنصور ، فقال : يا أمير المؤمنين ، حدثني فلان عن فلان عن النبي (صلعم) أنه قال : المهدي منا محمد بن عبد الله ، وأمه من حمير ، يملؤها عدلا كما ملئت جورا ؛ وهذا العباس بن محمد أخوك يشهد على ذلك ، ثم أقبل على العباس ، فقال له : أنشدك الله ، هل سمعت هذا ؟ فقال : نعم ، مخافة من المنصور ، فأمر المنصور الناس بالبيعة للمهدي . أفترى إليه أحس شهوة المنصور في أن يبايع لابنه المهدي ، وعزمه على ذلك ، فأراد أن يرضى المنصور وولي عهده ، فوضع هذا الحديث وضعا ، ولم يكتف بالكذب على النبي ، حتى استشهد أخا المنصور على أنه صادق ، فشهد خوفا من أخيه . ولا تقل إنه فعل هذا ذلة أو إسرافا في التملق ، ولكن قل إنه فعل هذا ترضيا للخليفة وولي العهد ، وازدراء لهما ، وسخرية من الدين ، وقد عرف المهدي له هذه الصنعة ، فأنت تعلم أن المهدي كان شديدا على الزنادقة ، أسرف في قتلهم والفتك بهم ، وتجاوز في ذلك حدود العدل والرحمة ، وهو مع ذلك لم يرع مطيعا . بلى ، راعه مرة ، ولكنه أخرجه من عنده موفورا له الحظ من العطاء . قالوا: كان مطيع ينادم جعفر بن المنصور ، واشتهر ذلك ، واشتهر مجون جعفر وتهتكه ، ورفع أصحاب الخبر ذلك إلى المنصور ، وكان المهدي عنده ، فقال لأبيه : أنا به عارف ، ليس زنديقا ، ولكنه خبيث الدين فاسق ، فقال له المنصور : أحضره

فأنه ، فأحضره المهديّ ، ولامه وعنفه ، وأمر أن يُضرب مِثْتي سوط ، قال مطيع : إن أذنت لي احتججت ، فأذن له ، فقال : أنا شاعر ، وإنما ينْفَق شعري عند الملوك ، وقد كَسَدْتُ عندكم ، واكتفيت بأن آكل على مائدة أخيك ، وأصفيته على ذلك شعري وشكري ، فإن رأيت أن في ذلك سوءا تبت عنه ، ومضى الحديث على نحو ذلك ، حتى رَق المهديّ ، فأمر أن يُطْلَق ولا يُضرب ولا يجبس ؛ قال : فأنصرف بغير جائزه ؟ قال المهديّ : لا يجوز هذا ، وأمر له بمِثْتي دينار ، خفية عن أمير المؤمنين . قال الرّواة وكان المهديّ يحفظ له أنه وضع الحديث يوم أراد المنصور البيعة له . . .

أعتقد أنا أن هاتين القصتين تصوران شخصية هذا الرجل تصويرا صحيحا ، فيخيل إلى أن عقله كان قد فرغ من كل شيء ، وانتهى إلى السخرية والازدراء للناس وللحياة ، واتخاذ الناس والحياة وسيلة إلى الشيء الوحيد ، الذي يستحق أن يعيش الناس من أجله ، وهو اللذة ، ومن هنا تملّق المنصور ، في سخرية من المنصور وابنه وأخيه والدين أيضا ، ومن هنا تَلَطَّف للمهديّ ، حتى ابتز منه جائزة . وخرج من عنده موفورا . أضف إلى هذا أن مطيعا اتصل أيام العباسيين بجعفر بن المنصور فنادمه ، وكان مُحْتَمِيا به ، فلم يمسه أذى .

كل هذا يبين لك مازعته آنفا من أن مطيعا لم يكن مضطهدا ، لا من الوجهة السياسية ، ولا من الوجهة الدينية ، وإنما كان يستطيع أن يحتاط لنفسه في ذلك احتياطا يسيرا ، فيأمن كل شر . ولقد كثر تحدث الناس في عصر مطيع وبعده عن زندقة مطيع وأصحابه ، وعن إفسادهم أخلاق الناس وأديانهم ، ولست أنكر هذا على نحو ما أنكرت ما كان ينسب إلى الوليد

ابن يزيد ، فقد بينت أن حياة الوليد كلها كانت تدعو إلى الاحتياط ، في تصديق ما كان ينسب إليه ، أما مطيع وأصحابه فلم يكونوا خلفاء ، ولم يكونوا ولاة عهد ، ولم يكونوا محسودين إلى حد عظيم ، وإذن فلم يتكلف الناس الكذب عليهم ، أو لم يسرفوا في هذا التكلف ، وما أشك في أن حياة هؤلاء النفر ، الذين كانوا يؤلفون جماعة قوية الاتصال ، ما أشك في أن حياتهم كانت تدعو إلى الريب والاتهام ، فكثيرا ما كانوا يعلنون الفسق ولا يُخفونَه ، وكثيرا ما كانت تجري على ألسنتهم ألفاظ ينكرها الدين ، ويُنكرها الخلق ، ولكني مع ذلك أعتقد أن شيئا من الاحتياط واجب في تصديق كل ما ينسب إلى مطيع وأصحابه ، فالناس مشغوفون بالإسراف أبدا ، لا يكاد يُتهم لهم رجل بالزندقة أو الإلحاد ، حتى يتطوعوا هم بإثبات زندقته وإلحاده ، يَحْتَرِعُونَ على ذلك الأدلة ، وينتحلون الحُجَج ، وَيَرَوُونَ الوقائع ، يزعمون أنهم رأوها وما رأوها ، وإنما يخدعون الناس ، أو يخدعون أنفسهم . وهذا الإسراف كثير في شأن مطيع وأصحابه ، ولكني لا أنكر المثل القائل : لا دخانَ بلا نار ، فلولا أن حياة هؤلاء الناس كانت تدعو إلى القال والقييل ، لما قال فيهم الناس شيئا .

قلت : كان مطيع صادق اللهجة في شعره ، لا يكذب ولا يتكلف ، وعللت صدق لهجته بأنه كان حر الرأي ، وأنه كان حر الرأي ، لأنه كان يزدري الناس والحياة ، ولست أريد أن أغفل شيئا رواه أبو الفرج ، وهو يمثل رأى مطيع في الناس ، وهو يبين لنا مقدار ازدرائه للناس ، وسوء ظنه بهم . زعموا أنه مر بصديقيه يحيى بن زياد ، وحامد عَجْرَدٍ وهما يتحدثان ، فقال :

فيم أنما؟ قالوا: في قذف المحصنات. قال: وهل في الأرض مُحَصَّنة تقذفانها؟ فانظر إليه كيف فاق صاحبيه بغيًا وسوء ظن بالناس؟ كان صاحباه يقذفان المحصنات، ويعترفان بأنهما يقذفان المحصنات، أما هو فلا يرى أن في الأرض مُحَصَّنة، وإذن فليس هناك قذف، وإنما كل قذف هو الحق، أو دون الحق. وإذا وصل الرجل من ازدراء الناس وسوء الظن بهم إلى هذا الحد، فما الذي يمنعه أن يكون حرا فيما يعمل وما يقول، لا يتقي إلا شيئا واحدا، هو ما يعرضه للموت، أو للحرمان؟ وإذا كان قد احتاط فأرضى السلطان، وأمن شره، فليس عليه بأس في شيء آخر. على أن ازدراء مطيع للناس لم يكن شاملا، فقد كان يستثنى من هؤلاء الناس أصدقاءه وأصحابه وأخذائه، ومن أشد الأشياء تأثيرا في النفس هذه الصلة المتينة، التي كانت بينه وبين صديقه يحيى بن زياد، والتي حرص عليها حرصا شديدا، يستشير في النفس عاطفة مؤثرة حقا. قالوا: شرب مطيع مع صديقه يحيى، فعربد عليه، وكانت بينهما ملاحاة، فأذى مطيع صاحبه، خلف لا يكلمه أبدا، ولم يستطع مطيع أن يصير على هذا الهجر، فكتب إلى صديقه هذه الأبيات العذبة، التي تفيض حنانا ورقة، والتي لا تخلو من شرف اللفظ، وجمال الأسلوب:

إِنْ تَصِلْنِي فَمِثْلُكَ الْيَوْمَ يُرْجَى عَفْوُهُ الذَّنْبَ عَنْ أَخِيهِ وَوَصْلُهُ
وَلَنْ كُنْتُ قَدْ هَمَمْتُ بِهِجْرِي لِلَّذِي قَدْ فَعَلْتُ إِنِّي لَأَهْلُهُ
وَأَحَقُّ الرِّجَالِ أَنْ يَعْفِرَ الذَّنْبَ لِإِخْوَانِهِ الْمُؤَفَّرِ عَقْلُهُ
الكَرِيمُ الَّذِي لَهُ الْحَسَبُ الثَّابِتُ فِي قَوْمِهِ وَمَنْ طَابَ أَصْلُهُ

وَلَيْنَ كُنْتَ لَا تُصَاحِبُ إِلَّا صَاحِبًا لَا تَزِلُّ مَا عَاشَ نَعْلُهُ
لَمْ تَجِدْهُ وَإِنْ جَهَدْتَ وَإِنِّي لِلَّذِي لَا يَكَادُ يُوجَدُ مِثْلُهُ
إِنَّمَا صَاحِبِي الَّذِي يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَكْفِيهِ مِنْ أَخِيهِ أَقْلُهُ
الَّذِي يَحْفَظُ الْقَدِيمَ مِنَ الْعَهْدِ وَإِنْ زَلَّ صَاحِبٌ قَلَّ عَدْلُهُ
وَرَعَى مَاضِيَ مِنَ الْعَهْدِ مِنْهُ حِينَ يُؤْذِي مِنَ الْجَهَالَةِ جَهْلُهُ
لَيْسَ مَنْ يُظْهِرُ الْمَوَدَّةَ إِنْكَارًا وَإِذَا قَالَ خَالَفَ الْقَوْلَ فِعْلُهُ
وَصَلُّهُ لِلصَّدِيقِ يَوْمَ فَإِنْ طَالَ فَيَوْمَانِ ثُمَّ يَنْبْتُ حَبْلُهُ
وَكُتِبَ إِلَيْهِ :

كُنْتُ وَيَحْيَى كَيْدِي وَاحِدٍ نَزَمِي جَمِيعًا وَتَرَيْنَا مَعَا
إِنْ عَضَنِي الدَّهْرُ فَقَدْ عَضَّهُ يُوجِعُنَا مَا بَعْضُنَا أَوْجَعَا
أَوْ نَامَ نَامَتْ أَعْيُنُ أَرْبَعٍ مِنَّا وَإِنْ أَسْهَرَ فَلَئِنْ يَهْجَعَا
يَسْرُنِي الدَّهْرُ إِذَا سَرَّهُ وَإِنْ رَمَاهُ فَلَنَا فَجَعَا
حَتَّى إِذَا مَا الشَّيْبُ فِي مَفْرِقِي لَاحَ وَفِي عَارِضِهِ أَسْرَعَا
سَعَى وَشَاةٌ فَشَوْا يَتَنَنَا وَكَادَ حَبْلُ الْوُدِّ أَنْ يَقْطَعَا
فَلَمْ أَلَمْ يَحْيَى عَلَى فِعْلِهِ وَلَمْ أَقُلْ مَلٍّ وَلَا ضِعْمَا
لَكِنَّ أَعْدَاءَ لَنَا لَمْ يَكُنْ شَيْطَانُهُمْ يُرَوِي بِنَا مَطْمَعَا
بَيْنَا كَذَا عَاسَ عَلَى غِرَّةٍ فَأَوْقَدَ النَّيْرَانَ مُسْتَجْمَعَا
فَلَمْ يَزَلْ يُوقِدُهَا دَائِبًا حَتَّى إِذَا مَا اضْطَرَمَّتْ أَفْلَعَا

وانظر إلى هذا الشعر يرثي به يحيى هذا :

قَدْ مَضَى يَحْيَى وَغَوِثْتُ فَرْدًا نَصَبَ مَاسَرَ عُيُونِ الْأَعَادِي
 وَأَرَى عَيْنِي مُذْغَابَ يَحْيَى بُدِّلَتْ مِنْ نَوْمِهَا بِالشَّهَادِ
 وَسَدَّتْهُ الْكَفُّ مِنِّي تَرَابًا وَلَقَدْ أُرِثِي لَهُ مِنْ وَسَادِ
 بَيْنَ جِيرَانٍ أَقَامُوا صُمُوتًا لَا يُجِيرُونَ جَوَابَ الْمُنَادِي
 أَيُّهَا الْمَرْنُ الَّذِي جَادَ حَتَّى أَغْشَبَتْ مِنْهُ مُتُونُ الْبَوَادِي
 اسْقِ قَبْرًا فِيهِ يَحْيَى فَإِنِّي لَكَ بِالشُّكْرِ مُوَافٍ مُغَادِ

كان يحيى صديقاً لمطيع في الخير والشر ، صديقاً حقاً ، وكان لمطيع صديق آخر ، ولكن صداقتهما كانت على غير هذا النحو ، كانت صداقة ضاحكة ، صداقة مزاح وهو وسخرية ، ذلك هو حماد عَجْرَدٍ ، فسرى يوم نعرض لهذا الشاعر أنه كان غضوباً ضيق الذرع ، وكان أصحابه يعرفون منه ذلك ، فلا يرقون له ، ولا يَرْقُقُونَ به ، وكان حماد أصلع ، وكانت صلغته شديدة الحمرة ، فاتهر ذلك صديقه لمطيع ، وأفسد بينه وبين صاحبه له تسمى خشة ، وتعرف بظبية الوادي ، فساءت الحال لذلك بينه وبين صاحبه ، واتصل بينهما هجاء لذاع ، ولكنه لذيذ ، لم يمنع اتصال المودة بينهما ، ولست أروى لك منه شيئاً ، وقد تستطيع أن تجده في الأغاني .

وأنا مضطر إلى أن أعدل عن شعر لمطيع كله ، لضيق المكان ، وطول هذا الفصل ، ولكني لا أستطيع أن أغفل هذه الأبيات المشهورة ، التي تمثل شعر لمطيع ونفسه وعواطفه تمثيلاً صادقا ، أحسه القدماء ، فرقوا له ، وكلفوا به . وقد قال هذه الأبيات في جارة له أحبها بالرى ، ثم اضطرَّ ففارقها ، فلما

كان في طريقه مرّ بعقبة حُلوان ، جلس يستريح إلى نخلتين هناك ، وذَكَرَ صاحِبته ، فقال :

أَسْعِدَانِي يَا نَخْلَتَي حُلُوانِ وَابْكِيَا لِي مِنْ رَيْبِ هَذَا الزَّمَانِ
وَاعْلَمَا أَنَّ رَيْبَهُ لَمْ يَزَلْ يَفْـرُقُ بَيْنَ الْأَلَفِ وَالْجِيرَانِ
وَلَعَمْرِي لَوْ دُفِئَا أَلَمَ الْفُرْقَةِ أَبْكَا كَمَا الَّذِي أَبْكَانِي
أَسْعِدَانِي وَأَيُّقِنَا أَنَّ نَحْسًا سَوْفَ يَلْقَا كَمَا فَتَفْتَرِقَانِ
كَمْ رَمَتْنِي صُرُوفُ هَذِي اللَّيَالِي بِفِرَاقِ الْأَحْبَابِ وَالْخُلَانِ
غَيْرَ أَنِّي لَمْ تَلَقْ نَفْسِي كَمَا لَا قِيْتُ مِنْ فُرْقَةِ ابْنَةِ الدَّهْقَانِ
جَارَةٌ لِي بِالرَّيِّ تُذْهَبُ هُمَّى وَتُسَلِّي ذُؤُوبَهَا أَحْزَانِي
فَجَعَلَتْنِي الْأَيَّامُ أَغْبَطَ مَا كُنْتُ بِصَدْعِ اللَّبَيْنِ غَيْرِ مُدَانِ
وَبَرغمِي أَنْ أَصْبَحْتُ لَا تَرَاهَا أَلَمَعْتُ مِنِّْي وَأَصْبَحْتُ لَا تَرَانِي
إِنْ تَكُنْ وَدَّعْتُ فَقَدْ تَرَكْتُ بِي لَهَبًا فِي الصَّمِيرِ لَيْسَ بِوَانِ
كَحَرِيقِ الضَّرَامِ فِي قَصَبِ الْعَا بِ رَمَثِهِ رِيحَانِ تَحْتَلِفَانِ

وقد جعلت هذه الأبيات لنخلتي حُلوان تاريخًا وذَكَرَ بَيْنَ الْأَدْبَاءِ والشُعراء . قالوا : أراد المنصور أن يقطعهما ، فلما أُنشِدَ هذا الشعر كره أن يكون النحس الذي يفرق بينهما . وأراد المهدّي أن يقطعهما ، فنهاه المنصور عن ذلك . قالوا : ومر الرشيد بحُلوان وهو ذاهب إلى طوس ، فهاج به الدم ، ووصف له الطبيب مُجَّارًا ، فلما سُئِلَ الدَّهْقَانُ أَشَارَ إِلَى النَخْلَتَيْنِ ، ولم يكن في حُلوان غيرهما ، فَقُطِعَتِ إِحْدَاهُمَا ، ثم مر الرشيد بالأخرى ، فرأى عليها هذه

الآيات ، فندم ، وقال : لو علمت أن هذه الآيات قيلت في هاتين النخلتين
ماعرضت لهما ، ولو قتلني الدم .

وإذا صح ما تحدث به الرواة ، فقد كان موت مطيع شعرا لا يعد له
شعر . قالوا : سأله الطيب في علته التي مات فيها : ماذا تشتهي اليوم ؟ فأجاب
أشتهي ألا أموت ! أترى جواباً أكثر شعرا ، وأغزر معنى ، وأشد تمثيلا
لضعف الإنسان ، وقوة رغبته في الحياة ، من هذا الجواب ؟ ولئن أردنا أن
نحكم على مطيع حكما جامعا مختصرا بعد هذا التفصيل ، لما تجاوزنا حكم
أبي الفرج عليه حيث يقول :

« هو شاعر من مُخَضَّرِي الدولتين الأموية والعباسية ، وليس من فحول
الشعراء ، ولكنه كان ظريفا ، خليعا ، حلوا العشرة ، مليح النادرة ، ماجنا ،
متهما في دينه بالزندقة » . ولو شئنا أن نضيف إلى هذا الحكم شيئا ، لقلنا إنه
كان صادقا في شعره ، آخذا بحظه الموفور من هذه الأوصاف كلها .

حماد عجرد^(١)

« كان بالكوفة ثلاثة نفر يقال لهم الحمّادون : حمّاد عَجْرَد ، وحماد الراوية ، وحماد بن الزُّبرقان ، يتنادمون على الشراب ، ويتناشدون الأشعار ، ويتعاشرون معاشرة جميلة ، وكانوا كأنهم نفس واحدة ، يُرْمَوْنَ بالزندقة جميعاً ، وأشهرهم بها حماد عَجْرَد . » (الأغاني جزء ٥ صفحة ١٦٦ طبع بُلّاق) .

وتجد مثل هذا الكلام كثيراً في كتاب الأغاني ، تجده إذا عَرَض أبو الفَرَج لمطيع بن إياس ، وتجده إذا عَرَض لغير مطيع بن إياس ، وتجد مثل هذا الكلام كثيراً في كتب أخرى غير الأغاني ، لكتاب ورّواة آخرين غير أبي الفرج ، إذا عَرَضُوا لواحد من هؤلاء الشعراء العابثين ، الذين عاشوا في النصف الأول للقرن الثاني من الهجرة ، وتجد في الأغاني وغير الأغاني كلاماً كثيراً عن شعراء عابثين في المدن الثلاث ، التي كانت أمصاراً متقدمة للعالم الإسلامي أيام بني العباس ، وهي الكوفة ، والبصرة ، وبغداد ، ولا تكاد تجد شيئاً من ذلك عن غير هذه المدن من الأمصار الإسلامية ، لا تكاد تجد شيئاً من ذلك عن دمشق ، ولا عن مصر ، فإن وجدت ذكراً للزندقة والزنادقة ، وللعبت والعبث والمجون ، إنما حُمِلَتْ كلها من العراق إلى الشام ، بأمر الوليد بن يزيد ، أو غير الوليد بن يزيد من مُجَّان بن أمية .

(١) نشرت بالسياسة في ١٢ رمضان سنة ١٣٤٣ هـ - ١٦ ابريل سنة ١٩٢٤ م

الزندقة إذن عراقية لأنها فارسية ، نعم ، إنك تجد في الأغاني
 وغير الأغاني أن الوليد بن يزيد عبث وحن ، وأراد أن يتخذ لنفسه
 حاشية وندامى ، من العابثين وأهل المجون ، فالتسهم في الشام ، فلم يجدهم ،
 وسأل عنهم ، فدلّه الناس على قوم في العراق ، دلوه على هذين « الحمّادين »
 حمادٍ عَجْرَد ، وحمّادٍ الراوية ، ودلوه على مطيع بن إياس ، وكانوا في الكوفة ،
 فأرسل يطلب إشخاصهم إليه ، فأشخصوا ، فاتخذهم ندامى له ، حتى قُتل
 فعادوا إلى أوطانهم . وتجد في كتب الأدب كلها أو أكثرها ذكراً لطائفة
 من العابثين ، وأهل المجون المسرفين فيه ، ظهوراً أيام بني أمية ، وأيام كان
 بنو أمية حازمين منصرفين إلى الجد ، ظهوراً في الحجاز ، في مكة وفي المدينة
 بنوع خاص ، ولكنك إذا بحثت عن مجنون هؤلاء ، وعن أصل ما كانوا
 يظهر من عبث ، ويُتهمون به في دينهم وسيرتهم ، انتهيت إلى نتيجتين :
 نجملها الآن ، ونفصلهما يوم نعرض للعبثين من أهل الحجاز . الأولى : أن
 مصدر هذا العبث عراقى ، دعا إليه الموالى الرقيق ، من الفرس وأهل العراق ،
 الثانى : أن لهذا العبث صبغة عربية ، تميزه من عبث الكوفة والبصرة وبغداد ،
 لأن زعماء العابثين في المدينتين المقدستين كانوا من أشرف العرب ، الذين
 اضطرتهم الحياة السياسية أيام بني أمية إلى أن ينصرفوا عن السياسة وأمور الدولة ،
 ففرغوا لأنفسهم ، وكان الله قد أفاء على آبائهم كثيراً من الغنى والثروة الضخمة
 أيام الفتح ، وكان الخلفاء من بني أمية يعرفون لهم أقدارهم ، ويمسكونهم في
 هاتين المدينتين ، بعيدين عن السياسة ، لا يقطعون عنهم الأرزاق والجوائز ،
 وإنما يُدِرُّونها عليهم إداراً ، فكانوا يلهون ويعبثون ، ويستمتعون

بهذه الحياة الفارغة ، مستعينين مع ذلك كله بالرقيق والموالى ، من الفرس وأهل العراق .

مهما تبحث إذن عن أصل العبث والمجون والزندقة في الإسلام ، فلن تستطيع أن تعدّو الفرس ، وأهل العراق الذين تأثروا بالفرس ، وكانوا بهم أشد اتصالاً ، وقد تجد شيئاً غير قليل من تأثير اليونان وفلسفتهم في زندقة هؤلاء الزنادقة ، وإباحة هؤلاء الشعراء ، ولكن هذا التأثير عرّض لاجوهريّ ، إن صح هذا التعبير ؛ فهؤلاء الشعراء والزنادقة كانوا يتخذون من الفلسفة اليونانية حلية ، يزينون بها شعرهم وزندقتهم ، ولكنهم لم يتعمقوا قط في الفلسفة اليونانية ، ولم تتأثر بها حياتهم وعواظهم تأثراً قوياً . على أن زعماء هؤلاء العابثين والزنادقة لم يبلغوا العصر الذي أزهرت فيه الفلسفة اليونانية ، في بغداد وغيرها من أمصار المسلمين ، فلم يشهد هذا العصر مطيع ولا الحمادون ولا بشار ولا يحيى بن زياد ، ولا أيام هؤلاء قبل عصر المأمون ، وقبل أن يصبح البدع في بغداد ترجمة الكتب اليونانية ، ودرس الفلسفة اليونانية . ولو أنى أردت أن أشخص زندقة القرن الثاني للهجرة تشخيصاً ، إن لم يكن علمياً دقيقاً فهو يقربها من الأذهان تقريباً لا بأس به ، أقول لو أنى أردت أن أشخص هذه الزندقة تشخيصاً أدبياً ، لقلت إنها ضرب من السخط على العرب وعاداتهم وأخلاقهم ومحافظتهم ودينهم بنوع خاص ، هي ضرب من هذا السخط ، ومن الكلف بحياة الفرس وعاداتهم ولذاتهم وحضارتهم ، وما ذاع فيهم من عقيدة دينية ، وأكثر هؤلاء الزنادقة والعابثين لم يكونوا يكرهون الإسلام ليستبدلوا منه ديناً آخر يؤمنون به ،

ويطمئنون إليه حقاً ، وإنما كانوا يكرهون الإسلام ، وكان كرههم للإسلام يضطرمهم إلى أن يحبوا غيره من العقائد الدينية . فهم كانوا يتخذون هذه العقائد وسيلة إلى النعى على الإسلام ، والتخلص من قيوده ، وما أخذ الناس به من واجبات ، لم يكونوا يؤثرون على الإسلام النصرانية ، ولا اليهودية ، لأن الفرس لم يكونوا نصارى ، ولم يكونوا من اليهود ، ثم لم يكونوا يؤثرون على الإسلام الديانة الفارسية القديمة ، الخالصة من بدع المبتدعين ، وإنما كانوا يؤثرون من هذه العقائد الفارسية ضروبا من البدع ، تدعو إلى الإباحة واللذة ، وترغب فيهما ، وتعين عليهما ، كانوا إذن يطمحون قبل كل شيء إلى أن يستمتعوا باللذات في غير حساب ولا تقدير . ولولا هذا الميل إلى اللذة ونعيم الحياة ، لما أنكروا من الإسلام شيئا ، ولا سيما هؤلاء الذين كانوا لا يحفلون بالسياسة ، ولا يكرهون سلطان الدولة العربية ، ولا يريدون أن يشاروا للفرس من العرب ، ولكن الإسلام كغيره من الديانات السماوية شديد في باب اللذة ، حريص على تطهير الأخلاق ، وأخذ الناس بالطهر والنقاء ، في سيرتهم الخاصة والعامة ، وهذا يناقض الإباحة والاسراف في اللذة ، يأخذ عليهما الطريق . فإذا استطاع حب اللذة والمسرف فيها أن يخرج عن أصول الإسلام ، فيستمتع بلذته في غير حرج ولا جناح ، فهو مضطر بحكم الطبيعة الإنسانية إلى أن يدفع عن مسلكه ، ويلتمس الحُجْبَج والأدلة ، أو التعلات والمعاذير ، يحسن بها سيرته ، وقد فعل ذلك هؤلاء العاشون ، فوجدوا ما كانوا يحتاجون إليه في حياة الفرس ، وما شاع فيهم من البدع ، واستحالوا إلى شيء آخر أكثر من نصر اللذة ، هو التعصب على الإسلام ، وعلى كل دين من شأنه أن يأخذ الناس بشيء من

القِسْط في الاستمتاع بالذات ، ومن هنا هاجموا أصول الديانات ، وسخروا منها . ومن هنا آثروا النار التي يعبدُها الفرس ، ويردون إليها كل شيء ، على الطين ، الذي ترد إليه الديانات السامية أصل الإنسان والحيوان . ومن هنا آثروا التثنية الفارسية على التوحيد السامي ، وهم في حقيقة الأمر لا يحفلون بتوحيد ولا بتثنية ولا بتثليث ، وإنما يحفلون بالذات ، فهم يؤثرون التثنية لهذا أيضاً . ولهم من الحياة السياسية في ذلك العصر معين على هذا الإسراف في الإلحاد والعبث ، فهو عصر انتصار الفرس على العرب ، وهو عصر كان الخلفاء فيه من العرب الهاشميين ، يعتزون بالفرس ، ويتملقونهم ، ويؤثرونهم بالحُظوة ، ويكِلون إليهم أمور الدولة كلها ، فما الذي يمنع الفارسية وأنصارها ، الذين يتخذونها وسيلة إلى اللذة والإسراف في المجون ، أن تنتصر وتسود ، وتظهر جهرة غير مستخفية ولا محتاطة . من هذا كله نفهم مميزات هذه الزندقة الأدبية ، التي ظهرت في القرن الثاني للهجرة ، واستأثرت أو كادت تستأثر بالشعراء والأدباء جميعاً . كانت أيام بني أمية ضعيفة مترددة متسترة ، لا يكاد الناس يظهرون الميل إليها ، فلما اجترأ خليفة من خلفاء بني أمية على أن يجهر بالفجور ، قويت واستطاعت أن تظهر ، ثم انتصر الفرس ، فانتصرت معهم ، وظهرت واضحة قوية ، حتى عرّضت الحياة الدينية والسياسية للخطر ، فاضطر الخلفاء من بني العباس إلى أن يقاوموها مقاومة عنيفة ، لم تخل في بعض الأحيان من ظلم وإسراف .

كان حماد عجرد من زعماء هؤلاء الزنادقة ، أو هؤلاء الذين كانوا يهتمون في دينهم ، وكانت لهؤلاء الناس أندية ومجالسهم ، في الكوفة والبصرة ، ثم

في بغداد ، ولم تكن هذه الأندية مستقرة ولا معروفة ، وإنما كانت متنقلة مع الزعماء . فهم كانوا يجتمعون في دورهم ، وهم كانوا يجتمعون في الأديار ، وهم كانوا يجتمعون في البساتين والحدائق . وعلام كانوا يجتمعون ؟ على الشراب والغناء ، والعبث بالنساء والغلمان ، يسرفون في ذلك إسرافاً لا يعدله إسراف ، ويسخرون في أثناء هذا الإسراف من أصول الديانات والأخلاق والنظم الاجتماعية ، التي تحظر عليهم ذلك ، وتعرضهم من أجله لألوان العذاب ، هل كانوا يجتمعون على ضرب من ضروب العبادة المنكرة ، أو فن من فنون الديانات الغريبة ، أو لون من ألوان الدرس الفلسفي غير المألوف ؟ ذلك شيء أشك فيه بالقياس إلى الكثرة المطلقة من هؤلاء الشعراء والأدباء ، بل أنا أجزم بأن هذه الكثرة لم تكن تحفل بشيء من هذا ، لأنني قد قلت لك إنها لم تكن مخصصة في الإيمان بمذهب من المذاهب ، ولا في إظهار دين على دين ، وإنما كانت تتخذ المانوية شعاراً . ولو أنها أنصفت نفسها ، وآثرت الصدق ، لاتخذت شعارها الشك والسخرية ، وليس من شك في أنهم كانوا يذكرون المانوية ، ويؤثرونها على الإسلام ، ولكن تفكهاً وانتقاماً من هذا الدين ، الذي يسلط عليهم الشرط وغضب الأمراء .

وكان هؤلاء الزنادقة يعلمون سخط الكثرة المطلقة من الناس على زندقتههم ، وإن كانت هذه الكثرة تجهل حقيقة هذه الزندقة ، وكانوا يعلمون سخط الحكومة على الزندقة أيضاً ، فكانوا يستغلون هذا السخط استغلالاً قوياً ، إذا ساءت الصلة بينهم وبين أصحابهم . وليس أدل من هذا على أن هؤلاء الزنادقة لم يكونوا صادقين في زندقتههم ، فلو أن هناك صلة دينية متينة ،

تجمع بينهم حقاً ، وتكون منهم أقلية ممتازة متضامنة ، لما أساء بعضهم إلى بعض ، ولما سعى بعضهم في بعض ، ولما استعدي بعضهم على بعض السلطان ، ولكنهم كانوا يسرفون في الإساءة إلى أنفسهم ، وإلى أصحابهم ، ويكفي أن تقرأ ما بين بشار وحماد من الخصومة ، واتصال الهجاء ، لتعلم مقدار هذا الاستعداد ، ومقدار ما كان يضمّر الزنادقة بعضهم لبعض من الموجدة والحفيظة ، ومن الحقد والضعينة ، التي كانت تحمل أحدهم على أن يغري بصاحبه إغراء منكرراً . وانظر إلى قول حماد يغري الأمير بخصمه بشار ، فهو يمثل في وقت واحد إجابة حماد في الشعر ، وميله إلى الشر ، وإيثار الانتقام على كل شيء :

قُلْ لِعِيسَى الْأَمِيرِ عِيسَى بْنِ عَمْرٍو ذِي الْمَسَاعِي الْعِظَامِ فِي قَحْطَانِ
وَالْبِنَاءِ الْعَالِي الَّذِي طَالَ حَتَّى قَصُرَتْ دُونَهُ يَدَا كُلِّ بَانِي
يَابْنَ عَمْرٍو عَمْرٍو الْمَكَارِمِ وَالْتَقَوَى وَعَمْرٍو النَّدَى وَعَمْرٍو الطَّعَانِ
لَكَ جَارٌ بِالْمِصْرِ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ مِنْكَ حُرْمَةً الْجِيرَانِ
لَا يُصَلِّي وَلَا يَصُومُ وَلَا يَقْرَأُ حَرْفًا مِنْ مُحْكَمِ الْقُرْآنِ
إِنَّمَا مَعْدِنُ الزُّنَاةِ مِنَ السَّفَالَةِ فِي بَيْتِهِ وَمَأْوَى الزَّوَانِي
وَهُوَ خِذْنُ الصَّبِيَّانِ وَهُوَ ابْنُ سَبْعَيْنِ فَمَاذَا يَهْوَى مِنَ الصَّبِيَّانِ ؟
طَهَّرَ الْمِصْرَ مِنْهُ يَا أَيُّهَا الْمَوْلى الْمُسَمَّى بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ
وَتَقَرَّبَ بِذَلِكَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ تَقَرُّزٌ مِنْهُ فَوْزَ أَهْلِ الْجَنَانِ
يَابْنَ بُرْدٍ إِخْسَاءُ إِلَيْكَ ، فَثَلُّ الْكَلْبِ فِي النَّاسِ أَنْتَ لَا الْإِنْسَانَ

وَلَعَمْرِي لَأَنْتَ شَرُّ مَنْ الْكَلْبِ وَأَوْلَى مِنْهُ بِكُلِّ هَوَانٍ
ولم يكن بشار أقل منه ميلا إلى الشر، ولا رغبة في الإساءة إلى خصمه،
وفي اتخاذ الزندقة وسيلة إلى هذه الإساءة، ولعل أحدهما قد سرق من صاحبه
طريقة الاستعداد هذه، ولعلهما لم يسرقاها، وإنما وجداها طريقة مألوفا
بين الناس في ذلك العصر، فقد أشاع بشار عن خصمه حماد هذه الإشاعة
المنكرة، التي أساءت إليه غير قليل، وهي أنه كان ذات يوم ينشد شعراً،
وإلى جانبه قارئ يتلو القرآن، والناس مجتمعون من حوله، فلما رأى
حماد اجتماع الناس حول القارئ قال: علام يجتمعون؟ إن الذي
أنشده لخير مما يتلو! وهجا بشار حماداً بأبيات ثبت فيها عليه
الزندقة، فقال:

ابْنُ نَهْجٍ رَأْسٌ عَلَى ثَقِيلٍ وَاحْتِمَالُ الرَّؤُوسِ خَطْبٌ جَلِيلُ
أَدْعُ غَيْرِي إِلَى عِبَادَةِ الْإِثْنَيْنِ فَإِنِّي بِوَاحِدٍ مَشْغُولُ
يَا بْنَ نَهْجٍ بَرْتُ مِنْكَ إِلَى اللَّهِ جِهَاراً وَذَاكَ مِنِّي قَلِيلُ

قال أبو الفرج: فأشاع حماد هذه الأبيات لبشار، وجعل فيها مكان
(فإني بواحد مشغول): (فإني عن واحد مشغول) ليصحح عليه الزندقة
والكفر بالله تعالى، فما زالت الأبيات تدور في أيدي الناس، حتى انتهت إلى
بشار، فاضطرب منها وجزع، وهذا الخبر يمثل مكر حماد، واحتراس بشار،
فقد كان حماد ما كرا شديداً للمكر، ماهراً في الخصومة، يعرف كيف ينال من
خصمه، وكيف ينتصر عليه، وكان بشار محترساً شديداً للاحتراس، يكره أن

يوصف بالزندقة ، ويشفق من ذلك إشفاقاً شديداً ، وكان يرسل فضل زندقته إلى غيره ، فيتهم الناس بما فيه ، ولهذا أكثر الإكثار كله حين هجأ حمادا في وصفه بالزندقة والكفر ، وما كان حماد أكثر منه زندقة ولا كفرا ، وإنما كان الفرق بين الرجلين أن حمادا كان مستهتراً ، يجهر بمجونه ، ولا يخفي عبثه ، وأن بشارا كان محتاطاً متحفظاً ، يتكاف الدين والورع ، كلما احتاج إلى ذلك ، ولم يخف أمر بشار على أحد ، بل لقي من احتياطه وتحفظه ما لم يلق حماد من جهره واستهتاره ، فقد قتل بشار زندقته بأمر المهدي ، والرواة يختلفون كما ستري في موت حماد ، ولكنهم متفقون على أنه قضى حياته موقراً ، لم يجز عليه عبثه ومجونه أذى ولا شراً . وفي كتاب الأغاني خبر يثبت ذلك إثباتاً لا شك فيه ، وهو أن العلماء أجمعوا بالبصرة على أنه ليس في هجاء حماد عجز لبشار شيء جيد إلا أربعين بيتاً معدودة ، ولبشار فيه من الهجاء أكثر من ألف بيت جيد . وكل واحد منهما هتك صاحبه بالزندقة ، وأظهرها عليه ، وكانا يجتمعان عليها ، فسقط عجز وتهتك ، بفضل بلاغة بشار ، وجودة معانيه ، وبقي بشار على حاله لم يسقط ، وعرف مذهبه في الزندقة ، فقتل فيه . ولعل في هذا الخبر شيئاً من المبالغة ، فهناك خبر آخر يدل على أن بشارا لم ينتصر على حماد في الهجاء ، وإنما الذي انتصر هو حماد ، وإن لم يكن له من جيد الهجاء في بشار إلا أربعون بيتاً ، فلسنا نرى في سيرة حماد أنه قد سقط ، أو ازدراه الناس ، وإنما نعلم أنه احتفظ بمكانته وسلطانه حتى مات . ونحن نذكر السلطان عمداً ، فقد كان لحامد شيء من السلطان

الأدبي غير قليل ، كان يُخيف الشعراء ، وكان يُخيف الأمراء ، وكان يخيف كبار الناس ، كان يخيفهم ، لأنه كان ماهرا في الهجاء ، سريعا إليه ، حديد اللسان فيه ، وكان كما قلت لك في حديث الأربعاء الماضي سيئ الخلق ، سريع الغضب ، مندفعاً إلى الانتقام ، وكان مع ذلك ما كرا لطيف المكر ، فكان الأمراء ووجوه الناس محتاطون في معاملته ، ويتلطفون له ، ويتبعون ما يرضيه ، ويتجنبون ما يسوءه ، وربما اضطر أحدهم إلى شيء فأشفق أن يكره حماد ، فاعتذر إليه ، وبالع في الاعتذار ، وكان حماد يقبل العذر حيناً ، ويرده حيناً آخر ، وكان هو الفائز في كلتا الحالتين ، فإن قبل العذر كوفي لقبوله ، وإن بولغ في ترضيه ، ولقد خاف بعض الناس حماداً ، حتى اضطره ذلك إلى أن يقطع الصلاة ، ذلك أنه كان ذات يوم عند رجل من أشراف البصرة ، في نفر من وجوه الناس ، وجاء الغداء ، فقبل إن سهم بن عبد الحميد (أحد الحاضرين) يصلي الضحى ، فانتظروا ، وأطال صاحبنا الصلاة ، فقال حماد :

أَلَا أَيُّهَا الْقَانِتُ الْمُتَجَهِّدُ	صَلَّاتُكَ لِلرَّحْمَنِ أَمْ لِي تَسْجُدُ
أَمَّا وَالَّذِي نَادَى مِنَ الطُّورِ عَبْدُهُ	لِمَنْ غَيْرَ مَا بَرَّ تَقُومُ وَتَقْعُدُ
فَهَلَّا اتَّقَيْتَ اللَّهَ إِذْ كُنْتَ وَالِيًّا	بِصَنْعَاءَ تَبْرِي مَنْ وَلِيَتْ وَتَجَرَّدُ
وَيَشْهَدُ لِي أَنِّي بِذَلِكَ صَادِقٌ	حَرِيثٌ وَيُحْيِي لِي بِذَلِكَ يَشْهَدُ
وَعِنْدَ أَبِي صَفْوَانَ فَيْكَ شَهَادَةٌ	وَبَكْرٍ وَبَكْرٌ مُسْلِمٌ مُتَجَهِّدٌ
فَإِنْ قُلْتَ زِدْنِي فِي الشُّهُودِ فَإِنَّهُ	سَيَشْهَدُ لِي أَيْضًا بِذَلِكَ مُحَمَّدٌ

فلما سمعها سَنَم قطع الصلاة ، وجاء مبادراً ، فقال له : قَبَحَكَ اللهُ
يا زنديق ، فعلت بي هذا كله ، اشرك في تقديم أكل وتأخيرهِ . هاتوا
طعامكم فأطعموه ، لا أطمعه . قالوا : ونزل حماد على محمد بن طلحة ، فأبطأ
عليه بالطعام ، فاشتد جوعه ، فقال فيه حماد :

زُرْتُ أُمْرًا فِي بَيْتِهِ مَرَّةً لَهُ حَيَاءٌ وَلَهُ خَيْرٌ
يَكْرَهُ أَنْ يُتَخَمَ أَضْيَافُهُ إِنَّ أَذَى الثُّخْمَةِ مُحْذُورٌ
وَيَشْتَهِي أَنْ يُؤْجَرُوا عِنْدَهُ بِالصَّوْمِ ، وَالصَّالِحِ مَأْجُورٌ

فلما سمعها محمد قال له : عليك لعنة الله ! أى شيء حملك على هجائي ، وإنما
انتظرت أن يَفْرُغَ لك من الطعام . قال : الجوع وحياتك حملني عليه ، وإن
زدت في الإبطاء زدت في القول ، فضى مبادرا حتى جاء بالمائدة .

كان حماد إذن مخوفاً حياته كلها ، لم يسقطه هجاء بشار ، ولا تشهيره به ،
بل انتصر هو على بشار كما قدمنا ، فإذا أردنا أن نعلل هذا الانتصار الذي ظفر به
حماد ، مع أن خصمه أجود منه شعرا ، وأنفذ منه لسانا ، فعلة ذلك شيئان ، الأول :
أن حمادا كان صادقا ، يلائم بين قوله وعمله ، فلم يكن يتكلف ديناً ولا ورعا ،
ولم يكن يتستر من عبث أو مجون ، فكان بشار إذا هجاه وصفه بما لا ينكر ،
أما بشار فقد كان متكلفا محتاطا ، فكان حماد إذا هجاه أحيانا في الناس حب
الاستطلاع ، ودلهم من أمره على ما يجهلون . الثاني : أن حمادا لم يكن يُعْنَى
في هجاء بشار بالزندقة ولا بالكفر كثيرا ، وإنما كان يسلك في هجائه طريق
الشعراء الأولين ، فيهجو أمه وأباه وامراته ، ويصف شخص بشار بما لم

يكن بشار يستطيع أن يصف به شخص حماد ، قال الرواة إن بشارا بكى
حين سمع قول حماد فيه :

وَأَعْمَى يُشَبِّه الْقِرْدَ إِذَا مَا عَمِيَ الْقِرْدُ

فلما سُئِلَ عن بكائه قال : يرانى فيصغى ، ولا أراه فأصفه ! وكان هذان
الشاعران لما عظمت بينهما الخصومة قد اتفقا على رجل سار بينهما ، يروى
لكل منهما ما قال صاحبه فيه ، ويحمل إليه الجواب ، ولم تكن الصحف
يومئذ معروفة ، فكان اختيار هذا الرجل وسيلة من وسائل النشر ، لا بأس
بها . وإذا سألت عن أصل هذا الهجاء ، الذى اتصل بين الرجلين أعواما طويلا ،
فمصدره يسير ، وهو أن بشارا كانت له حاجة عند حماد ، فأبطأ فيها ، فغضب
بشار ، وعاتب صاحبه عتابا لا ذما ، فغضب حماد ، وهجا بشارا ، واتصل
الشر بين الرجلين ، فكان حديث أهل البصرة ، بل كان حديث أهل العراق
أيام حياتهما ، وبعد أن ماتا ، وذلك يدل على ما قلته من أن حمادا كان سريع
الغضب ، مندفعاً إلى حب الانتقام . على أن الصداقة وحسن المودة ربما وقفاه
أحيانا عن الاندفاع فى الشر ، فقد داعب مطيعا ذات يوم ، فرد عليه مطيع
بشعر منكر ، كان من شأنه أن يغرى به حمادا ، ولكن حمادا ملك نفسه ،
وغفرها لمطيع ، ولم يرد عليه هجاءه ، وإنما مدحه بشعر لا بأس به ، على أن
حلم حماد كان محدودا ، فهو كان يحلم إذا لم ينله أذى فى الحب أو الهوى ، فإذا
نال هذا الأذى ، فلم يكن للحلم إليه سبيل ، وقد اتصل الهجاء بينه وبين
مطيع ، كما اتصل بينه وبين بشار ، لأمرين ، كلاهما حب ، الأول : أن مطيعاً
زار معه صاحبه خشة ، فازدراه عندها ، وعيره صلته ، وكانت شديدة الحمرة ،

فساءت الصلة بينه وبين صاحبتة ، فاتصل الهجاء بين الرجلين ، وانهز أصحابهما هذه الفرصة ، فأذكوا النار ، ليضحكوا من حماد . الثاني : أن حمادا كان يهوى غلاما ، فهو به مطيع ، وتقرب إليه ، فاعتاظ لذلك حماد ، وتهاجيا ، ولم يقف هجاء حماد عند بشار ومطيع وغيرهما من أفراد الناس ، الذين كان يهجوهم كلما اقتضت الظروف ، وإنما تجاوز هؤلاء جميعا إلى رجل من أهل الكرخ يعرف بأبي عون ، كان صديقا لحماد ولطيع ، وكانت له جارية تسمى جوهر ، كان حماد يحبها ، ويحنُّ إليها ، وكان يلقاها من حين إلى حين ، فتسامع الناس بذلك ، وتحدثوا فيه ، وكره سيدها هذا الحديث ، فحببها عن حماد ، فأنكر حماد ذلك ، وهجا الرجل ، فأسرف في هجائه وأقذع .

ولست أروى لك من هذا الهجاء شيئا ، فليس إلى روايته سبيل . . . وكان حماد ضيق الذرع لا بأصحابه ومداعبيه وحدهم ، بل بالنسك وأهل الزهد ، إذا عرضوا له وانتقصوه ؛ ويختلف الرواة في قصة له : أوقعت مع أبي حنيفة أم مع يحيى بن زياد ، ومهما يكن صاحب هذه القصة فقد كان صديقا لحماد ، ثم نسك وأخذ ينتقص حمادا ، وأخذ حماد يلاطفه ويرفق به ، لعله يقلع عن انتقصه ، فلم يقبل ، فكتب إليه :

هَلْ تَذَكَّرُنْ دَلَجِي إِلَيْكَ عَلَى الْمُضْمَرَةِ الْقِلَاصِ
 أَيَّامَ تُعْطِيَنِي وَتَأْخُذُ مِنْ أَبَارِقِ الرِّصَاصِ
 إِنْ كَانَ نُسْكُكَ لَا يَتِمُّ بِغَيْرِ شَتْمِي وَانْتِقَاصِي
 أَوْ كُنْتَ لَسْتَ بِغَيْرِ ذَاكَ تَنَالُ مَنْزِلَةَ الْخِلَاصِ
 فَعَلَيْكَ فَاشْتِمُ آمِنًا كُلَّ الْأَمَانِ مِنَ الْقِصَاصِ

واقعد وقمّ بي ما بدا لك في الأداني والأقاصي
فلطالما زكّيتني وأنا المقيم على المماصي
أيام أنت إذا ذكر ت مناضل عني مناص
وأنا وأنت على ارتكا ب الموبقات من الحِراس

ويقول الذين يضيفون هذه القصة إلى يحيى بن زياد : إن هذا الشعر اتصل به ، فلم يزد إلا طعنا في حماد ، ونعيا عليه ، فقال حماد فيه :

لا مؤمنٌ يعرف إيمانه وليس يحيى بالفتى الكافر
مُنافقٌ ظاهره ناسك مخالفٌ الباطن للظاهر

أما الذين يُضيفون القصة إلى أبي حنيفة ، فيقولون إنه لما قرأ تلك الأبيات خاف من حماد ، فأقلع عن شتمه .

ولو أني أحببت أن أشخص حمادا كما شخصت مطيعا والوليد بن يزيد ، لوصفته قبل كل شيء بجدّة الطبع ، وسوء الخلق ، وحب الانتقام ، والإسراع إليه ، ثم بالصراحة في القول ، والملاءمة بينه وبين العمل ، وبكره النفاق ، والانصراف عنه ، لا يعنيه أَرْضَى الناس عنه ، أم سخطوا عليه ، ثم بجدّة اللسان ومضيه وإقذاعه ، وكلفه بفاحش القول ، وبجثه عن أسوئه وأقبحه ، ثم بالسخرية من الناس وازدراءهم ، لا على أنه يتخذ ذلك فلسفة وأصلا من أصول الحياة ، كالوليد ومطيع وأبي نواس ، بل على أنه يتخذ ذلك وسيلة من وسائل الشعراء ، يخلص بها كلما ضاقت عليه المذاهب ، وأخذت عليه الطرق ، أو دعتّه إلى ذلك حاجة . لم يكن حماد يحفل بما يحفل به الناس من الوفاء ،

والانصراف عن التناقض ، وإنما كان صديقاً مخلصاً حتى تبدو له حاجة ،
أو تسنح له فرصة ، أو تضطره ضرورة ، فإذا صداقته قد استحالت إلى عدا ،
وإذا هو ليس أقل صدقاً وإخلاصاً في العدا منه في المودة والحب ، فقد
مدح يحيى بن زياد ، واتخذ صديقاً ، ونال جوائز ، ثم كان الخلفاء فبهجاء ،
وصادق بشاراً وصافاه ، ثم اختصما ، فلم يعرفا في الخصومة رحمة ولا رِفقا ،
وصافي مطيعاً وأحبه ومدحه ، وأكثر في الثناء عليه ، ثم اختصما في امرأة
مرة ، وفي غلام مرة أخرى ، فبهجاء وأقذع في هجائه ، وكان على هذا كله يؤثر
شعره وضروراته على البر بالناس ، والعدل في معاملتهم ، هجاء ذات يوم رجلاً
يقال له : حشيش ، وجعل اسمه قافية لهذا الشعر ، وأراد أن يبالغ في ذمه فشبّهه
ببحيش ، وكان ببحيش هذا رجلاً من أهل البصرة ، وادعا لا يعرف حماداً ، ولا
يعرفه حماد ، فلما قرأ الرجل هذا الشعر جزع له ، وسافر من البصرة حتى بلغ
الكوفة ، فعاتب حماداً ، فقال له ضاحكاً معتذراً : لا بأس عليك ، فإن هذا
من آثام القافية ، ولن أعود إليه .

لعلك تسأل بعد هذا كيف استطاع حماد ، على مجونه وفسقه واشتهاره
بالزندقة ، ونيله من أعراض الناس ، ووجوه الأمصار ، أن يأمن على حياته
غائلة الخلفاء والحكام ؟ والجواب عن ذلك يسير ، وهو أن حماداً كان متصلاً
أيام العباسيين بأمر من أمراءهم ، هو محمد بن أبي العباس السفاح ، قالوا إنه
أدّبه ونادمه ، فأمن لاتصاله به كل غائلة ، على أن اتصاله بمحمد هذا جر عليه
خطوباً جساماً ، فقد كان محمد هذا خليعاً ، كما كان جعفر بن المنصور حامياً

مطيع خليعاً أيضاً ، وكان المنصور يكره محمداً ، ويؤثر عليه المهدي بالخلافة ، كما كان المنصور يزدرى ابنه جعفر ، ويريد إقصاءه عن الخلافة ، وكان محمد هذا يعشق زينب بنت سليمان بن علي ، من أشرف العلويين ، فلما ولده عمه المنصور البصرة خطب زينب هذه ، فلم تقبل خطبته ، فزاده الرفض حباً لها ، وهياماً بها ، ولم يكن شاعراً ، أو لم يكن يجيد الشعر ، فلجأ إلى مؤدبه ونديمه حماد ، وجعل حماد يتغزل له في صاحبته ، وجعل حَكَمُ الوادي يغنيّه بغزل حماد ، وانتشر هذا الشعر ، ونسبه الناس إلى محمد حيناً ، وإلى حماد حيناً آخر ، ولكن أخا زينب محمد بن سليمان كان يعلم جليّة الأمر ، فغضب على حماد وتوعده ، وحلف ليقْتلنّه ، وظل حماد آمناً معاش محمد بن أبي العباس ، ولكن محمداً مات ، فاضطرب حماد ، وأشفق من وعيد خصمه ، ويقولون إنه لجأ إلى قبر سليمان أبي خصمه هذا ، واستجار به ، وقال شعراً كثيراً جيداً يستعطف به محمد بن سليمان ، فلم يعطف عليه ، ولم يرث له ، وإنما أقسم ليسقيين بدمه قبر أبيه ، قال الرواة : فهرب حماد ، حتى وصل بغداد ، فاستجار بجعفر بن المنصور ، فأجاره على أن يهجو محمد بن سليمان ، فهجاه وبالغ في هجائه وأجاده ، فلم يزد محمد إلا سخطاً عليه ، قالوا : وكان حماد في الأهواز ، فأرسل إليه محمد أحد مواليه ، فقتله غيلة ، ويقال لم يقتل ، وإنما أصابته علة طالت عليه ، ووصل نعيه إلى بشار ، ولم يكن حماد قد مات ، فقال بشار :

لَوْ عَاشَ حَمَادٌ لَهَوْنَا بِهِ لَكِنَّهُ صَارَ إِلَى النَّارِ

قالوا : فبلغ هذا البيت حمادا وهو عليل ، فقال :

نُبِّئْتُ بِبَشَارَا نَعَانِي وَلِلشَّرِّ بَرَانِي الْخَالِقُ الْبَارِي

يَالَيْتَنِي مِتَّ وَلَمْ أَهْجُبْهُ نَعَمْ وَلَوْ صِرْتُ إِلَى النَّارِ
وَأَيُّ خِزْيٍ هُوَ أَخْزَى مِنْ أَنْ يُقَالَ لِي : يَا سَابَّ بَشَارِ
ثُمَّ مَاتَ حَمَادٌ ، وَكَانَ مِنْ أَمْرٍ بِشَارٍ مَا كَانَ ، حَتَّى قَتَلَهُ الْمَهْدِيُّ ، فَدُفِنَ
بِشَارٍ مَعَ حَمَادٍ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ . قَالُوا : فَرَبَّهِمَا شَاعِرٌ مِنْ شُعَرَاءِ الْبَصْرَةِ ، كَانَ
يُهَاجِي بَشَارًا ، يُقَالُ لَهُ أَبُو هِشَامِ الْبَاهِلِيُّ ، فَوَقَفَ عَلَى قَبْرَيْهِمَا ، وَقَالَ هَذِهِ
الْأَيَّاتُ ، الَّتِي تَخْتَصِرُ فِيهِمَا رَأْيَ طَائِفَةٍ مِنَ الْمَعَاصِرِينَ :

قَدْ تَبِعَ الْأَعْمَى قَفَا عَجْرَدٍ	فَأَصْبَحَا جَارَيْنِ فِي دَارٍ
قَالَتْ بَقَاعُ الْأَرْضِ لَا مَرْحَبًا	بِقُرْبِ حَمَادٍ وَبَشَارِ
تَجَاوَرَا بَعْدَ تَجَافِيهِمَا	مَا أَبْغَضَ الْجَارَ إِلَى الْجَارِ !
صَارَا جَمِيعًا فِي يَدَيِ مَالِكٍ	فِي النَّارِ ، وَالْكَافِرُ فِي النَّارِ

حسين بن الضحاك الخليع^(١)

أريد اليوم أن أحدثك عن شاعر ظريف شديد الظرف ، ربما انقطع نظيره في شعراء العصر العباسي كله ، وهو مع ظرفه وإسرافه في المجون ، قليل الفُحش في اللفظ ، غير متهاك على القول الآثم والألفاظ المنكرة ، لا يتخيرها ولا يقصد إليها ، وإنما يعرض إليها إذا اضطر إليها اضطراراً ، وهو على ظرفه ورقة حاشيته ، وحرصه على نقاء اللفظ وطهره ، شاعر بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، مجوّد إذا فكر ، مظفرّ إذا بحث ، موفق إلى اللفظ المتين ، والأسلوب الرصين ، في غير جفوة ولا غلظة ، لا يعرف التكلف في لفظ ولا معنى ، وإنما ينطلق لسانه مع سجيته ، وسجيته سهلة مرسلة ، غنية عزيزة المادة ، لا تكاد تنضب ، ولا ينالها إعياء أو كلال . وحياته كلها عبر وعظات ، ولكنها عبر وعظات مبتسمة ، ليست بالمظلمة ولا العابسة ، ولا بالتي تردك وتنفرّك ، وتجعل للحزن والأسى إلى قلبك سبيلاً . ولعلك لا تكاد تجد من شعراء هذا العصر رجلاً مثله ، تقرأ أخباره فتظل مبتسماً منذُ تبدىء إلى أن تنتهى ، دون أن تعبس أو تقطب ، وربما تجاوزت الابتسام إلى الإغراق في الضحك من حين إلى حين ، ولكنك لن تترك الابتسام إلى الحزن الشديد ، وربما اعترضتك في طريقك سحابة

(١) نشرت بالسياسة في ١٩ رمضان سنة ١٣٤٢ هـ - ٢٣ أبريل سنة ١٩٢٤ م

محزنة ، ولكن هذه السجابة رقيقة هادئة هينة ، فهي أضعف من أن تزيل ابتسامتك . وكان هذا الشاعر من المعمرين ، بلغ المئة أو كاد ، وعاصر طبقات من الشعراء ، وألوانا من حاشية الخلفاء ، ولكنه ظل محتفظا بشخصيته الوادعة المبتسمة ، تغير الناس ، واختلفت الظروف ، وظل هو واحدا لم يتغير . كان خليعا ، بل كان يُعرف بالخليع ، وكان كثير المجون ، مسرفا فيه ، وما أحسب أن أبانواس سبقه إلى لذة ، أو تفوق عليه في مأثم ، ولكنه على خلاعته وإسرافه في المجون ، وتهالكه على اللذات ، احتفظ طول حياته بشيء من كرم الخلق ، وطهارة العنصر ، وجودة الأصل ، كأنما كانت هذه اللذات والآثام تنزلق على نفسه وأخلاقه تزلقا ، دون أن تترك فيها أثرا باقيا ، وإنما كانت الآثار التي تتركها لياليه الساهرة ، وأيامه المملوءة بالعَبَث ، هذه الأشعار الجميلة الحلوة ، التي سأظهرك على طَرَف منها .

قلت : إن حياته كانت عبْرَة كلّها ، فلم يكن هذا الرجل كغيره من الشعراء ، الذين إنما كانوا يصلون إلى الخلفاء بعد الجهد والكد ، وبعد التلطف وحسن الحيلة ، وإنما كان متصلا بالخلفاء اتصالا شديدا ، يعاشرهم ويرافقهم ، ويتدخل في حياتهم الخاصة ، وربما تدخل إلى أكثر مما ينبغي ، وكان الخلفاء يبحثون عنه ، ويحرسون على عشرته ، ويبذلون في ذلك غير قليل من الإلحاح والعطاء ، وكان شعره كله أو أكثره مرآة لحياة القصر في أيام طائفة غير قليلة من الخلفاء .

نشأ مع أبي نواس في البصرة ، واختلفا معا إلى مجالسهما وملاهيها ، ثم اقترقا ، فذهب أبو نواس إلى بغداد ، وأقام هو في البصرة ، ولم تكدمضى مدة

قصيرة على أبي نواس في بغداد، حتى بعد صوته، وتسامع به أهل العراق، لأنه اتصل بالأمرء وأشرف الناس، فارتفع قدره، وعلت مكانته، وحمل الهواء ذلك إلى الحسين في البصرة، فغبط صاحبه، وقفأ أثره، وانتقل إلى بغداد، فمدح الناس، وتقرب من أشرفهم، واختلف إلى مجالس بغداد وملاهيها، وقال الشعر في الحمر، وفي ضروب اللذات، وما هي إلا أن عظم أمره، وتسامع به أهل بغداد وزعماءها، ولكنه مع ذلك لم يصل إلى الرشيد، وإنما اتصل بأبناء الرشيد، وهل اتصل أبو نواس بالرشيد إلا قليلا؟ وهل اتصل أبو نواس بالرشيد إلا كما كان يتصل به الشعراء، الذين كانوا يقصدون إلى ذلك، ويحتالون فيه، حتى إذا نالتهم هذه الخطوة أنشدوا الخليفة شعرهم، وانصرفوا وقد نالوا من جوائزه ما أتيح لهم، ذلك أن أبا نواس والحسين بن الضحاك لم يكونا من هؤلاء الذين يصلحون لمصاحبة الرشيد، فقد كان في الرشيد شيء من العبت وحب اللهو، ولكن عبت الرشيد ولهوه لم يكونا قوام حياته، وإنما كانا ضربا من الترفيه على النفس، ولم يكن أبو نواس والحسين من الذين يصلحون لغير اللهو فلم تنفق بضاعتها عند الرشيد، وإنما نفقت عند الأمرء من أبنائه، وعند الوزراء وأشباه الوزراء، من رؤساء الدولة وأشرفها. فأما أبو نواس فاتصل بالفضل بن الربيع وبنيه، واتصل شيئا بالأمين، حين كان وليا للعهد، واتصل بطائفة من أمرء البيت المالك. وأما الحسين فانقطع أو كاد ينقطع لخدمة أميرين من أبناء الرشيد، لم يكن لهما حظ من الملك، ولا طمع فيه، وإنما كانت حياتهما ضربا من البطالة الاضطرارية، وكان الله قد وفر عليهما من الثروة وأسباب اللذة ما جعل

حياتهما عيداً متصلاً ، وهما صالح بن الرشيد ، وأبو عيسى بن الرشيد . وكان الحسين متصلاً اتصالاً خاصاً بصالح ، ينادمه ويساقيه ، ويكاد يمضي معه الليل والنهار ، ثم اتصل الحسين بالأمين ، واشتدت صلته به ، حتى تجاوزت علاقته ما بين الشعراء والخلفاء ، إلى شيء يشبه الصداقة والمودة القوية ، ولسنا ندرى إلى أى حد بلغ إخلاص الأمين لنديه ، ولكننا نعلم أن إخلاص الحسين للأمين لم يكن له حد ، ونعلم أن أيام الأمين أظهرت من هذا الشاعر الخليع المتهاك على اللذة رجلاً وفيها ، متين الخلق صريحاً ، يعرف كيف يكون من الأنصار السياسيين ، وكيف يتعصب لحزبه ، ويؤيد أصحابه ، ويتعرض في سبيل ذلك للخطر ؛ كان الحسين من أشد الناس تعصباً للأمين ، وزرارة على المأمون ، حين ظهر الخلاف بين الأخوين ، واندفع في ذلك إلى غير حد ، ثم اشتدت المحنة ، ووصلت جيوش المأمون إلى بغداد ، وأخذت الحرب أشنع أشكالها ، فلم يخف الحسين ولم يفرع ، ولم يكن أقل انتصاراً لصاحبه منه في أيام اللين والنعمة . ولقد كان يتلقت أخبار هذه الحرب ، حتى إذا وصل إليه من أخبارها خبر ابتهج به ، وأسرع فحمله إلى الأمين مهتماً مشجعاً . روى لنا أبو الفرج من شعره في ذلك هذه الأبيات :

أَمِينُ اللَّهِ ثِقَ بِاللَّهِ تَعْطُ الْعِزَّ وَالنُّصْرَةَ
كِلَ الْأَمْرِ إِلَى اللَّهِ كَلَّاكَ اللَّهُ ذُو الْقُدْرَةِ
لَنَا النُّصْرُ بِإِذْنِ اللَّهِ وَالْكَرَّةُ لَا الْفَرَّةُ
وَالْمُرَاقُ أَعْدَائِكَ يَوْمَ السَّوْءِ وَالِدَّيْرَةِ
وَكَأْسُ تَوَرُّدِ الْمَوْتِ كَرِيهُ طَعْمُهَا مُرَّةُ

سَقُونَا وَسَقَيْنَاهُمْ فَكَانَتْ بِهِمُ الْحَرَّةُ
كَذَاكَ الْحَرْبُ أحياناً عَـلَيْنَا وَلَنَا مَرَّةٌ

ثم قتل الأمين ، وكانت الكارثة فلم يهن الحسين ولم يضعف ، لم ينقلب على عقبيه ، ولم يتملق المنتصر ، وإنما ملكه حزن ليس بعده حزن ، وانطلق لسانه من الرثاء بالجد المؤلم ، الذي تنقطع له القلوب ، وتتفطر له الأكباد ، وانطلق لسانه أيضاً بالهجاء اللاذع للمأمون وأصحابه ، واستعداء الله عليهم ، بعد أن عجز عن استعداء الناس ، ولج في ذلك ، وألح فيه ، حتى نهض المأمون من خراسان يريد العراق ، فلم يردد الحسين إلا هجاء للمأمون ، ورثاء للأمين ، حتى رق له أصحابه ، وأشفقوا عليه ، وألحوا في نصحه . روى أبو الفرج أن الحسين تحدث عن نفسه بهذا القول « كنت عازماً على أن أرثي الأمين بلساني كله ، وأشفى لوعتي ، فلقيني أبو العتاهية ، فقال لي : يا حسين ، أنا إليك مائل ، ولك محب ، وقد علمت مكانك من الأمين ، وإنه لحقيق بأن ترثيه ، إلا أنك قد أطلقت لسانك من التلief عليه ، والتوجع له ، بما صار هجاء لغيره ، وثلباً له ، وتحريضاً عليه ، وهذا المأمون مُنْصَبٌ إلى العراق قد أقبل عليك ، فأبق على نفسك ، ياولحك ! أتجسر على أن تقول :

تَرْكُوا حَرِيمَ أَبِيهِمْ نَفْلاً وَالْمُحَصَّنَاتُ صَوَارِخُ هُتُفُ

هِيَّاتَ بَعْدَكَ أَنْ يَدُومَ لَهُمْ عِزٌّ وَأَنْ يَبْقَى لَهُمْ شَرَفُ

أ كفف غرَبَ لسانك ، واطو ما انتشر عنك ، وتلاف ما فرط منك ، فعلمت أنه قد نصحتني ، فجزيته الخير ، وقطعت القول ، فنجوت برأيه وما كدت أنجو »

وما أشك في أن أبا نواسٍ لو عاش كما عاش الحسين لأدركه من المأمون
شرك كثير ، فلم يكن أبو نواس أقل حبا للأمين من الحسين ، ولم يكن أبو
نواس أشد بغضا للمأمون من الحسين ، وأنت تذكر هذه الأبيات القليلة
التي قالها أبو نواس يرثي بها الأمين ، فمثلت أحسن تمثيل حبه لهذه الدولة
الراحلة ، وبغضه لهذه الدولة القائمة :

طَوَى الموتُ ما بيني وبين محمد وليس لما تطوى المنيةُ ناسرُ
وكنْتُ عليه أحذرُ الموت بعدَه فلم يبق لي شيء عليه أحذرُ
فلا وصلَ إلا عبْرَة تستديعها أحاديثُ نفس مالها الدهرَ آخرُ
لئن عمِرتُ دورَ بمن لا أحبُّهم لقد عمِرتُ ممن أحبُّ المقابرُ
فانظر بعد هذا إلى رثاء الحسين للأمين ، ورأيه في الدولتين ، وحدَّثني :
أتجد أبلغ من هذا الشعر في وصف الهزيمة السياسية ، وحدَّثني : إيسطيع
منهزم في السياسة ، معترف بهزيمته أن يصف موقفه بخير من هذا الكلام :
سألونا أن كيفَ نحنُ ؟ فقلنا : من هوَى نجمُه فكيف يكونُ ؟
نحنُ قومٌ أصابنا حَدُّ الدهرِ — فظَلَمنا لِرِيبه نَسْتَكِينُ
نَتَمَنَّى مِنَ الْأُمَمِينَ إِيابا لَهْفَ نَفْسِي وَأَيْنَ مِنَّا الْأَمِينُ
وانظر إلى هذه الأبيات التي تذكر بما رويت لك من شعر أبي نواس ،
ولم لا يقصد الشاعر أن إلى معنى واحد ، وكلاهما كان محبا للأمين ، مؤثرا له ،
وكلاهما كان عدوا للمأمون ، مسرفا في بغضه ؟

أَعَزِّي يَا مُحَمَّدَ عَنْكَ نَفْسِي مَعَاذَ اللَّهِ وَالْأَيْدِي الْجَسَامِ
فَهَلَّامَاتٌ قَوْمٌ لَمْ يَمُوتُوا وَدَافِعَ عَنْكَ لِي يَوْمَ الْحِمَامِ

كَأَنَّ الْمَوْتَ صَادَفَ مِنْكَ غُنْمًا أَوْ اسْتَشْفَى بِقَرَبِكَ مِنْ سَقَامٍ
وَاقْرَأْ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ :

هَلَّا بَقِيتَ لِسَدِّ فَاقَتِنَا أَبَدًا وَكَانَ لَغَيْرِكَ التَّلَفُ
فَلَقَدْ خَلَفْتَ خَلَائِفًا سَلَفُوا وَلَسَوْفَ يُعَوِّزُ بِعَدَاكَ الْخَلَفُ

ويظهر أن هذين البيتين تركا في نفس المأمون موجدة شديدة على الشاعر ، فقد تحدث ثمامة بن الأشرس أن المأمون لما وصل إلى بغداد طلب أن يُسمَّى له نَفَرٌ من أهل الشعر والأدب ، يتخذهم له جُلَسَاءَ . فسُمِّيَ له قوم ، منهم الحسين ، فذكر هذين البيتين ، وأقسم لا يراه إلا في الطريق . قال ثمامة وانحدر الحسين إلى البصرة ، فأقام فيها طوال أيام المأمون .

والناس يتحدثون أن الحسين ضاق بسخط المأمون عليه ، وأشفق من ذلك ، فتوسل إلى المأمون بوسائل مختلفة ، ووسَّطَ إليه نفراً من أشرف القوم ، منهم عمرو بن مسعدة ، ومدحه . أو استعطفه بشعر لا أجد فيه أنا روح الحسين ، فلم يبلغ من المأمون إلا أن وصل له أرزاقه ، ولكنه أبي الإباء كله أن يأذن له في الاختلاف إلى القصر . وسواء أصحت هذه الأخبار كلها أم لم تصح ، فإن في حياة الحسين أيام المأمون ، برغم ما قال فيه وفي أخيه ، آية على ما اتصف به المأمون من الحلم وسعة العفو والإغضاء عن خصومه السياسيين . ولكن حياة الحسين أيام المأمون لم تكن من السَّعة واللين على ما تعود أيام كان ينادم الأمين ، ويصاحب صالح بن الرشيد ، فقد ضاقت به بغداد ، وأغلقت دونه أبواب الأمراء وزعماء الناس ، واضطر إلى أن يعيش في البصرة من صُلْبِ ماله ، وأشفق عليه بعض أصحابه ، وحدثوه في ذلك ،

وسألوه كيف (تمشى حاله) مع انقطاع الأرزاق ، وكثرة النفقة ، فقص عليهم قصصا لذيذاً ، يُظهِرُنا على لون من ألوان الحياة الخاصة للأمين . زعم الحسين لسائله أنه يجد مشقة في الحياة ، ولكنه مع ذلك يعيش وينفق دون أن يحتاج إلى المسألة ، وهو إنما ينفق ويعيش من صلات الأمين وجارية له لم يسمها ، وذلك أن الأمين دعاه ذات يوم ، فزعم له أنه صديقه وعشيرته ، وأن عشير الرجل موضع ثقته وسره وأمنه ، وأنه محدثه بشيء يجب أن يخفيه ، وكانت للأمين جارية فتنته لجمالها وحسن غنائها ، ولكنها كانت متجنبة ، كثيرة الدَّلِّ ، مسرفة فيه ، فكانت تنغص على الأمين صفوه ، فضاق الأمين بذلك منها ، وأراد أن يُلْقِيَ عليها درساً ، وكلف الحسين أن يلقي هذا الدرس . زعم للحسين أنه سيدعو هذه الجارية وجارية أخرى ، لا تبلغها جمالا ولا إجادة في الغناء ، وسيأمرهما أن تغنيا ، وطلب إلى الحسين أن يَفْتُرَ ويتناقل إذ غنت الجميلة المحسنة ، وأن يطرب ويشرب ويظهر الجنون والهيام ويشق ثيابه ، إذا غنَّت الأخرى ، وأعفاه من كل حرج ، ووعدته مئة ثوب لكل ثوب يشقه ، فوعد الحسين بالطاعة ، وخلا إلى الأمين ، وجاءت الجاريتان ، فغنَّت المحسنة ، وكان الحسين فتياً ، وكان رجلاً صادقا ، ولا سيما إذا شرب ، فلم يستطع أن يفي بالوعد ، وإنما أخذ يظهر الرضا والإعجاب ، وكلما أومأ إليه الأمين لم يردد إلا رضا وإعجاباً ، ثم غنَّت الأخرى ، فأخذ يتكلف السرور والطرب ، واستأنفت المحسنة غناها ، واستأنف الحسين شرابه ، فإذا لبه قد طار ، وإذا هو يصيح ، وإذا

الأمين يشير ويقطّب ، ويظهر العُبوس ، ولكن الحسين عنه في شغل
بطربه ولذته ، حتى ضاق الأمين ، وأمر بالحسين فجُرّ برجله ، ثم أمر فحُجِبَ
عنه . وأخذ الناس يعطفون على الحسين ، ويرثون له ، ويسألونه عن
سبب هذه النكبة ، فيقول : تحامل على النبذ ، فأسأت الأدب ، فقومني
أمير المؤمنين ؛ ومضى دون ذلك شهر ، ثم دُعي الحسين إلى القصر ، وإذا
الأمين يتلقاه لقاء حسنا ، ويخلو إليه في تلك الحجرة ، ويدعو المغنية ،
وينبئ الحسين أن أمر هذه الجارية قد صلح ، وأنها قد انتهت إلى ما يحب ،
وأنها قد شفعت للحسين عنده ، فقبل شفاعتها ، ومنح الحسين عشرة آلاف
دينار ، ومنحته هي دون هذا المقدار ، ثم اتصلت صلات هذه الجارية
للحسين ، فسا كان يمضي أسبوع ، حتى تنتهي إليه هداياها وألطافها ، وهو
يعيش من ذلك أيام سخط المأمون عليه .

على أن أيام المأمون لم تكد تنقضي حتى ابتسم الدهر للحسين ، فعاد
إلى بغداد ، واتصل بالمعتصم والوائق والمتوكل ، وكانت له عندهم جميعا
حُظوة لا تعد لها حظوة ، وكان مقدما عندهم جميعا على غيره من الشعراء ،
ولا سيما الواثق ، فقد كان يحبه حبا شديدا ، ويطمئن إلى منادمته ، ويتخذ
موضعا لسره في حياته الخاصة ، وما كان يقع بينه وبين جواريه من ضروب
المجون والمزاح ، وألوان الهجر والصدود ، وله مع هؤلاء الخلفاء جميعا أخبار
حُلوة ، تَبَسَّط في روايتها أبو الفرج .

فأنت ترى أن هذا الشاعر قد اتصل بالأمرء من أبناء الرشيد ، ثم
اتصل بالأمين والمعتصم والوائق والمتوكل من الخلفاء ، وأنت تعلم أن حياة

القصر تطورت أيام هؤلاء الخلفاء ، تطوّراً غير قليل ، بل إن مستقر الحكم
 نفسه قد تغير ، وأحاط بالمعصم وخلفائه قوم غير الذين كانوا يحيطون بالأمين
 والمأمون ، وأنت تعلم أن الشعر نفسه تطور ، فكان في القرن الثالث غيره في
 القرن الثاني ، من وجوه مختلفة ، ولكن شاعرنا قد استطاع أن يعاشر هؤلاء
 الخلفاء ، ويمدحهم وينشدهم من شعره الهزل والجد ، دون أن يغير من
 شخصيته شيئاً ، وهل كان من اليسير عليه أن يغير شخصية قوية كشخصيته ؟
 وقد يكون من الخير وقد عرضنا لشخصية الحسين بن الضحاك أن
 نجتهد في وصفها ، وأن نعطيك منها صورة ما ، لتعرف مكانه من الشعراء
 الذين عاصروه ، وقد سبقنا القدماء إلى هذا ، فتصوروا هذا الشاعر تصوراً
 مقارِباً ، ولكن ينقصه شيء من الدقة ، شبهوه بأبي نواس ، أو قل خلطوا
 بينه وبين أبي نواس ، وأسرفوا في هذا الخلط أحياناً ، حتى رَووا لكل
 منهما شعر صاحبه ، وفي الحق أنك تجد في ديوان أبي نواس شعراً هو أشبه
 بالحسين ، وتجد في أخبار الحسين شعراً هو أشبه بأبي نواس ، ولم يكن
 القدماء من الدقة وقوة البحث بحيث يصلون إلى التفرقة بين هذين الرجلين
 اللذين اشتد بينهما التشابه ، حتى أصبحت التفرقة بينهما عسيرة على أشد
 الناس مهارة في النقد ، وتعمقا في البحث الأدبي . وكان الحسين نفسه يعلم أنه
 يشبه أبا نواس ، وكان أبو نواس يعلم أن الحسين يشبهه ، وكانت بينهما
 مودة ، ولكن كان بينهما تنافس شديد أدبي ، لم ينته بهما إلى
 شر فيما نعلم ، وإنما انتهى بهما إلى الخصام ، وإلى التناوب أحياناً ، دون أن
 يتصل بينهما الهجاء ، ودون أن يوقع أحدهما بصاحبه ، وكان الحسين لا يخلو

من حمق وسرعة إلى الغضب ، وضيق الصدر ، لم يكن فيلسوفاً ، وإنما كان يلهو ويعبت في غير فلسفة ومذهب ؛ أما أبو نواس فقد رأينا أنه لم يكن يخلو من فلسفة ، وأن فلسفته كانت تقوم على ازدراء الناس ، والسخر منهم ، والعبث بهم ، وبما يتصل بحياتهم ، من أصول وعقائد ، ومن نُظُم وقواعد ، فكان يعبت بالحسين صديقه ، ويسخر منه ، ويغيظه ، لا يُخفي ذلك ولا يتكلفه ، وإنما يعلنه إعلاناً ، ويعلنه إلى الحسين نفسه ، وكان الحسين يفتأ ، ولكنه لا يجد شفاء لنفسه إلا أن يشتم أبا نواس في وجهه أقبح الشتم ، ويتحدث إلى الناس بذلك . ولم يكن أبو نواس يستبيح العبث في الدين والأخلاق والحياة المادية وحدها ، بل كان يستبيح العبث في الأدب والشعر أيضاً ، كان يؤثر نفسه بالخير في كل شيء ، وكان يرى أنه شاعر مجيد ، وإذا كان شاعراً مجيداً فهو خليق أن يسبق الشعراء جميعاً إلى آيات الشعر في المجون ووصف الخمر ، وكان يسبقهم جميعاً إلا الحسين ، فقد كانت للحسين في الخمر معان وألفاظ جياذ ، يمتنى أبو نواس لو ظفر بها ، وسبق إليها ، ولكن الحسين كان هو الظافر السابق ، وكان ينشدها أبا نواس وغير أبي نواس ، فكان أبو نواس إذا سمع شيئاً من هذا فاستحسنه ، حسد الحسين عليه ، وزعم أنه أحق بهذا الشعر من الحسين ، وأن هذا الشعر لم يخلق إلا ليقوله هو ، ثم ينصرف عن الحسين ، ويعود إليه وقد أخذ معناه وصاغه في لفظ له ، فإذا أظهر الحسين غضباً ضحك أبو نواس ، وقال : « دع عنك هذا ، فوالله لا يُروى لك شيء في الخمر وأنا حي » . وربما أراح أبو نواس نفسه من عناء النقل والسرقة ، فزعم القصيدة برمتها لنفسه ، وصدقه الناس ، وتناقلوا القصيدة على أنها له .

تحدث الرواة من هذا بالشئ الكثير ، وهو يمثل لنا ما كان
للحسين وأبي نواس من لين الخلق ، وما كان يجمع بينهما من حسن العشرة ،
ومن الإخاء في الأدب واللهم ، ولكنه يمثل لنا شيئاً آخر ، هو الذي يعيننا
من وجهة البحث الأدبي ، يمثل لنا هذا التشابه الذي كان بين طبيعة الرجلين
وشعريهما ، فقد كان الرجلان مسرفين في المجون ، متهاككين على الخمر ،
مشغوفين بوصفها وذكرا آلاتها ، وكان مذهبهما في ذلك واحداً أو مقارباً .
ولم لا ؟ ألم يتأثروا جميعاً بأستاذ واحد ، هو الوليد بن يزيد ؟ ألم يعدوا جميعاً
على شعر هذا الملك ، الذي ظلم في السياسة وظلم في الأدب أيضاً ؟ ثم ألم
يتأثرا جميعاً بهذه الحياة البغدادية ، وهذا اللهو البغدادى ؟ ثم ألم يتصلا جميعاً
بالأمين وقصور الأمراء والوزراء ؟ ومع ذلك فالفرق بين الرجلين ظاهر لمن
أراد أن يحقق ، ظاهر في اللفظ ، وظاهر في المعنى ، وظاهر في الطبع أيضاً .
كان أبو نواس كالحسين : ماجناً ، شارباً ، وصافاً للخمر ، محباً للغلمان ،
ولكنه كان من جهة مستهتراً متهتكاً ، يتمدح بالاستهتار والتهتك ،
ويتخذها مذهباً وديناً ، وكان من جهة أخرى ، بحكم هذا الاستهتار والتهتك ،
متسفلًا في شعره ، لا يتكلف الإجادة إذا تحدث إلى الخلفاء والأمراء
وأشراف الناس ، وكان يرسل نفسه على سجيته إذا تحدث إلى الشعراء والأدباء
وأوساط الناس ، ولكنه كان يتحدث إلى الدُّهماء وإلى طبقات من الرقيق
وغلمان الحانات والأديار ، فكان يتبسط إذا تحدث إلى هؤلاء ، وكان
كثيراً ما يقول الشعر وهو سكران ، فلم يكن يستطيع الحرص على
الإجادة اللفظية ، ثم كان أبو نواس ساخراً شديداً السخر ، فكان يعتمد

الإساءة إلى أهل اللغة وأصحاب النحو ، فيحرف عليهم قواعدهم ، ويسخر لهم من أصولهم ، وهو مع ذلك لا يتجاوز اللغة ولا وجه الصواب فيها . أما الحسين فكان طول حياته متصلاً بالأمراء والخلفاء والوزراء والكتاب ، مقصوداً عليهم ، لا يكاد ينظم الشعر إلا لهم ، أو بمحضر منهم ، فكان بمعزل عما كان يضطر إليه أبو نواس ، من التحدث إلى العامة ودهماء الناس ، وسفلة الرقيق ، وكان الحسين بحكم منزلته من القصور مضطراً إلى أن يصطنع هذه اللغة المختارة النقية ، التي تصلح للاستقرائية ، فقل الفحش جداً في شعره وغلبت المتانة والرصانة على ألفاظه وأساليبه ، وغلبت الجودة على معانيه ، ثم لم يكن الحسين يتخذ السخرية مذهباً ، ولم يكن يعنيه أن يفيظ أهل الدين ورجال الصلاح ، ولم يكن يعنيه أن يفيظ أئمة اللغة وأصحاب النحو ، فكان في شعره هدوء واطمئنان ، خلا منهما شعر أبي نواس ، ولم يكن أقل من أبي نواس صدقاً ولا استرسالاً مع الطبيعة والسجية ، لذلك لا نجد في شعره هذا الاحتشام المتكاف ، الذي يصطنعه المنافقون من الفساق ، وإنما كان الرجل فاسقاً لا مجرد فسقه ، ولا يظهره للناس عارياً كأبي نواس ، كما أنه لم يكن يحليه ولا يزينه ، فيخلع عليه أثواب الورع والدين . كذلك كان الحسين ، وله إلى هذا كله ميزة ربما لم يعظم منها حظ أبي نواس ، وهي مفهومة جداً ، كان يعاشر الأمراء والخلفاء ، وكان ينشئ لهم الشعر ، ليتغنى لهم فيه المغنون وقد أكثر من ذلك ، حتى أثر في شعره ، وأصبح شعره كله موسيقياً ، وقلَّ أن تجد للحسين شمرأ لم يتغنى فيه المغنون ، وقل أن تجد له شعراً لا يصلح للغناء ، لا لجودة لفظه ومعناه فحسب ، بل لهما ولهذا التنسيق الموسيقي الذي

لا تكاد تجده عند غيره . ومن هنا أثر أو كاد يؤثر دائماً القصار من بحور الشعر ، ومن هنا اجتهد في أن يضيف إلى هذه الأوزان الشعرية العروضية أوزانا أخرى موسيقية . فانظر إلى هذا البيت ، فهو يمثل ما أريد تمثيلاً صحيحاً

قد غابَ لا آبَ من يُراقبنا ونام لا قامَ سامرُ الخدمِ

فانظر إلى قوله « قد غاب لا آب » وإلى قوله : « ونام لا قام » تجد إلى جودة المعنى وظهور حرص الشاعر على لفظه ، هذا النغم الموسيقي ، الذي زاوج بين غاب وآب ، وبين نام وقام ، وهذا النحو من الموسيقى كثير في شعر الحسين .

وجملة القول في شخصية هذا الشاعر ، أنه كان كأبي نواس ، ولكنه أنقى من أبي نواس لفظاً ، وأعمق منه لساناً ، وأحرص منه على اختيار المتين من الكلام ، ولم يكن يعدل أباً نواس في خفة الروح ، وحلاوة المجون ، ولم يكن يبلغ أباً نواس في الاستهتار والتهتك ، ولم يكن أقل من أبي نواس حرارة في العاطفة ، وصدقا في اللهجة ، ولكنه كان يمتاز بشيء من الرجولة والوفاء ، لم يكن لأبي نواس منه حظ عظيم ، وكان يمتاز على أبي نواس بشيء آخر ، وهو أنه لم يكن سريع التقل في أهوائه ولذاته ، وإنما كان وفياً في حبه ، كما كان وفياً في صداقته ، وكانت قصة الحسين التي استأثرت بحياته الغرامية في شبابه ، إن صح هذا التعبير ، هي هذا الغرام المتصل بينه وبين غلام من غلمان الأمراء ، هو « يُسر » غلام أبي عيسى بن الرشيد . وكان « يسر » هذا جميلاً خلابة ، فتن به صالح بن الرشيد نفسه ، ولطف له ، واجتهد في الخطوة عنده ، فوجد في ذلك عناء شديداً ، ولم يظفر به إلا بعد مشقة وبذل لمقادير ضخمة من المال ، وكان هذا الغلام رسول اللهو بين الأخوين

فأحبه الحسين نديم صالح ، كما أحبه صالح نفسه ، وتشاقل يسر على الحسين
وازدراه ، ولكن الحسين تلطف واحتال ، وبالع في التلطف والحيلة ، حتى وجد
من قلب الغلام مكانا ، ولعل الذي انتهى به إلى هذا المكان من قلب يسر إنما
هو شعره الجيد الكثير ، الذي قاله فيه ، ولست أريد أن أقص عليك أخباره مع
يسر ، ولست أريد أن أروى لك شعره في يسر ، فهذا كثير ، لا تسعه
هذه الصحيفة ، وإنما أروى لك من هذا الشعر نموذجاً حسناً ، يثله غثيلاً
صحيحاً ، وهي هذه القصيدة التي قالها بعد ليلة لهُو ، كانت بينه وبين يسر .

تَيْسَرِي لِلَّامِ مِنْ أُمِّ	وَلَا تُرَاعِي حَمَامَةَ الْحَرَمِ
قَدْ غَابَ لَا آبَ مِنْ يَرِاقِبِنَا	وَنَامَ لَا قَامَ سَامِرُ الْخَدَمِ
فَاسْتَصْحَبِي مُسْعِداً يُفَاوِضُنَا	إِذَا خَلَوْنَا فِي كُلِّ مُكْتَسَمِ
تَبَذَلِي بِذَلَّةٍ تَقْرَأُ بِهَا أَلَمَيْنِ	وَلَا تَحْصِرِي وَتَحْتَشِمِي
لَيْتَ نَجُومَ السَّمَاءِ رَاكِدَةٌ	عَلَى دُجَى لَيْلِنَا فَلَمْ تَرَمِ
مَالِ السُّرُورِ بِالشَّكِّ مَمْتَنَجٌ	حَتَّى كَأَنِّي أَرَاهُ فِي حُلْمِ
فَرَحْتُ حَتَّى اسْتَحَفَّنِي فَرَحِي	وَشُبْتُ عَيْنَ الْيَقِينِ بِالشَّهْمِ
أَمْسَحُ عَيْنِي مُسْتَشْبِتًا نَظْرِي	إِخَالِي نَائِماً وَلَمْ أُنْمِ
سَقِيًّا لَيْلٍ أَفْنَيْتُ مُدَّتَهُ	بِبَارِدِ الرِّيقِ طَيْبِ الدَّسَمِ
أَيُّضَ مَرْتَجَةً رَوَادِفُهُ	مَاعِيبَ مَنْ فَرَقَهُ إِلَى الْقَدَمِ
إِذْ قَصَبَاتُ الْعَرِيشِ تَجْمَعُنَا	حَتَّى تَجْلَتْ أَوَاخِرُ الظُّلَمِ
وَلَيْلَةٍ بِثُهَا مُحْسَرَةٌ	مُخْفَوَةٌ بِالظُّنُونِ وَالشَّهْمِ

سَقِيًّا لَقِيطُونِهَا وَخُذْهَا كَمْ مِنْ لِمَامٍ بِهِ وَمَنْ لَمْ
وَلِيلَةَ الْقَفْصِ إِنْ سَأَلْتَ بِهَا كَانَتْ شِفَاءً لِعَلَّةِ السَّقَمِ
بَاتَ أُنَيْسَى صَرِيحُ خَمْرَتِهِ وَتِلْكَ إِحْدَى مَصَارِعِ الْكُرَمِ
وَبِتُّ عَنْ مَوْعِدٍ سَبَقْتُ بِهِ أَلْثَمُ دُرًّا مُفْلَجًا بِفَمِ
أَبَاخِي نَفْسُهُ وَوَسَدَنِي يَمْنَى يَدَيْهِ وَبَاتَ مُلْتَزِمِي
حَتَّى إِذَا هَتَّاجَتِ النَّوْقِسُ فِي سُخْرَةِ أَخْوَى أَحَمِّ كَالْحُمَمِ
وَقُلْتُ هُبًّا يَا صَاحِبِي وَنَبَّهْتُ أَبَانًا فَهَبْ كَالزَّلَمِ
فَاسْتَنْتَهَا كَالشَّهَابِ ضَاحِكَةً عَنْ بَارِقٍ فِي الْإِنَاءِ مُبْتَسِمِ
صَفَرَاءُ زَيْتِيَّةٍ مُوشَّحَةٌ بِأَرْجُوانٍ مُلَمَّعٍ ضَرِمِ
أَخَذْتُ رِيحَانَةً أَرَاخُ لَهَا دَبَّ سُرُورِي بِهَا دَيْبُ دِي
فَرَا جِعَ الْعُذْرُ إِنْ بَدَأَكَ فِي الْعُذْرِ وَإِنْ عُذْتُ لَا عَمَّا فَلَمْ

فانظر إلى هذه القصيدة على طولها ، كيف جادت ألفاظها ومعانيها ،
وانظر إلى حذر الشاعر وإشفاقه ، وانتظاره وفاء صاحبه بالوعد ، ثم شكه في
هذا الوفاء ، وهو يستمتع بذاته لشدة حرصه عليه ، وإكباره له ؛ ثم انظر
إليه كيف يأخذ في تفصيل لذته متبسّطا ، وإذا هو يدنو من الفحش قليلا
قليلا ، حتى إذا لم يبق بينه وبين بلوغه إلا قيدُ أصْبُعٍ ، انصرف عنه ، وقد ألم
به الإماما ، وخيله إليك تخيلا ، فإذا لم يكن بُدٌّ من التصريح ، ففي لفظ لا يروع
التي ، ولا ينبو عنه سماع الرجل الناسك ...

أترى إلى أبي نواس في مثل هذا الموضع ؟ أكان يُعْفِيكَ من تصريح

بَشِعَ ؟ أم كان يدخل عليك بلفظ مكروه ؟ بلى ، لو وقف أبو نواس هذا الموقف لتعمد الإخاش والإساءة ، لأن أبا نواس لا يفكر وهو يقول مثل هذا الشعر في الشعر وحده ، وإنما يفكر في خصومه الذين ينكرون عليه لذته ، فيريد أن يغيظهم ويكبتهم ، فيمضى في الفُحش إلى غير حد .
وانظر إلى هذه الأبيات الأخرى التي تمثل لك رقة الحسين ولطفه في الغزل :

لَا وَحُبِّيكَ لَا أَصَا فِخْ بِالذَّمْعِ مَدْمَعَا
مَنْ بَكَى شَجْوَهُ اسْتَرَا حَ وَإِنْ كَانَ مُوجَعَا
كَبِدِي مِنْ هَوَاكَ أَسْقَمُ مِنْ أَنْ تَقْطَعَا
لَمْ تَدْعُ سَوْرَةَ الضَّنَى فِيَّ لِلشَّقَمِ مَوْضِعَا

وما أظن التفسير والتعليق إلا مفسدين لجمال هذا الشعر . وكم نحب أن نسمع متغنياً يتغنى فيه ، كما تغنى فيه القدماء ببغداد ! ولقد فتن ثعلب بهذا الشعر ، حتى قال لأصحابه : ما بقي من يحسن أن يقول مثل هذا . . .
ولقد أريد أن أمثل لك شيئاً من عَبَثِ الحُسَيْنِ ، فهو كثير ، ولكنني متحيز ، لا أدري ماذا أختار منه . فلا أكتف من هذا بهذه القصّة ، التي لا تمثل الحسين وحده ، وإنما تمثل معه علمين من أعلام الحياة السياسية أيام الواصل . شك الناس في رمضان ، وأمر الواصل بالإنفاق ، فكتب الحسن ابن رجا إلى الحسين .

هزرتك للصُّبُوح وقد نهاني أميرُ المؤمنين عن الصَّيَامِ

وعندي من قيان المضر عشرٌ تطيبُ بهنَّ عاتقةُ المدام
ومِنْ أمثالهن إذا انتشيننا ترانا نجتني ثمرَ الغرام
فكنْ أنتَ الجوابَ فليسَ شيءُ أحبَّ إليَّ من حذفِ الكلام

قال الحسين : فوردتُ على رُقعته ، وقد سبقه إلى محمد بن الحارث
ابن بُسْخَرٍ ، ووجهه إلى بعلام نظيف الوجه ، ومعه ثلاثة غِلمة أقرانُ حسانُ
الوجوه ، ومعهم رُقعة قد كتبها إلى كما تكتب المناشير ، وختمها في أسفلها ،
وكتب فيها يقول :

سِرْ على اسمِ الله يا أشـكلَ من غُصْنِ لُجَيْنِ
في ثلاثٍ من بنى الرُّومِ إلى دارِ حُسَيْنِ
أشخص الكهلَ إلى مو لاكَ يا قُرَّةَ عَيْنِي
أره العُنفَ إذا استعصى وطالبةُ بدينِ
ودع اللفظَ وخاطبهُ بغمزِ الحاجبينِ
واحذرِ الرِّجْعةَ مِنْ وجهك في خُفِّ حُنينِ

قال فمضيت معهم ، وكتبت إلى الحسن بن رجاء جواب رُقعته :

دعوتَ إلى مما حَكَا الصَّيَّامِ وأعمالِ المَلَاهِي والمُدامِ
ولو سَبَقَ الرَّسُولُ لَكَانَ سَعِي إِلَيْكَ يَنُوبُ عَنْ طُولِ الكَلَامِ
وما شوقي إليك بدون شوقي إِلَى زَمَنِ التَّصَابِي والغَرَامِ
ولكن حلَّ في نفر عسوفٍ بمنشورِ محلِّ المُسْتَهَامِ
حُسَيْنٍ فاستباح له حريمًا بِطَرْفِ باعِثِ سَبَبِ الحَمَامِ

وأظهرَ نَحْوَةً وسطاً وأبدى فظاظته بتركٍ للسلامِ
 وأزججني بالفاظٍ غِلاظٍ وقد أعطيته طَرَفي زِمَامِي
 ولو خالفته لم يخش قَتْلِي وقتعني سريعاً بالحُسامِ
 ولست أروى لك خبره مع الحسن بن سهل ، ولا قصته في أمر مُقَحِّم ،
 ولا دهاءه في أمر الشامي وعشيقتة « بَصْبَص » ، فأنت تستطيع أن تقرأ
 هذا كله وأكثر منه في الأغاني . وأحسب أني قد أسرفت في الإطالة ،
 فأختم هذه الصحيفة بهذه الأبيات ، التي قالها الحسين وقد بلغ التسعين ،
 أو كاد ، وكان قد نادى المتوكل ، ثم شقت عليه الخدمة فاعتذر ، ووشى به
 الناس إلى الخليفة ، فكتب إليه هذه الأبيات التي تمثل شعره وهو شيخ قد
 أدركه الفناء ، فلا تظهر السن في هذا الشعر ضعفاً ولا وهناً ، كما أنها
 لا تظهر فيه شباباً ولا قوة :

أَمَا فِي ثَمَانِينَ وَفَيْئُهَا عَذِيرٌ وَإِن أَنَا لَمْ أَعْتَذِرْ
 فكيف وقد جُرْتُهَا صَاعِدًا مع الصاعدين بتسعٍ أُخَرُ
 وقد رفع الله أَقْلَامَهُ عن ابن ثمانين دونَ البَشَرِ
 سِوَى مَنْ أَصَرَّ عَلَى فِتْنَةٍ وَأَلْحَدَ فِي دِينِهِ أَوْ كَفَرَ
 وَإِنِّي لَمَنْ أَسْرَأَ إِلَاهِي فِي الْأَرْضِ نُصِبَ صُرُوفُ الْقَدَرِ
 فَإِن يَقْضِ لِي عَمَلًا صَالِحًا أَثَابُ وَإِن يَقْضِ شَرًّا غَفَرَ
 فَلَا تَلَحْ فِي كِبَرِ هَدَنِي فَلَا ذَنْبَ لِي أَنْ بَلَغْتُ الْكِبَرَ

هو الشيبُ حلَّ بعقب الشباب	فأعقبني خوراً من شرأ
وقد بسطَ الله لي عُذْرَهُ	فمن ذا يلوم إذا ما عذّر؟
وإني لفي كنفٍ مُعَدِّقٍ	وعزّ بنضر أبي المنتصر
يبارى الرياح بفضل السّما	ح حتّى تبدّد أو تحسّر
له أكّد الوحي ميراثه	ومن ذا يخالف وحي الشور
وما للحسود وأشياءه	ومن كذب الحق إلا الحجر

بشار ابن برد^(١)

ليس بذلك الوجه المشرق الجذاب ، الذى يستميلك ويستهويك ، وإنما هو فيما أعتقد رجل ثقیل الظل ، له من الفن حظه الموفور ، ولكن روحه فى حاجة شديدة إلى الخفة ، ولست أدرى أشاركنى فى هذا الرأى أم تخالفنى فيه ؟ فأنا أعتقد أن من الشعراء والكتاب من تحبهم وتُعجب بهم ، ومنهم من تحبهم ولا تُعجب بهم ، ومنهم من يظفرون بالإعجاب وحده دون الحب ، أى أنا أعتقد أن الشاعر ليس محببا إلى النفس لأنه محبب ليس غير ، وإنما يجب أن يجمع إلى هذه الإجادة خلا لا أخرى ، تدنى منك شخصيته ، وتقارب ما بينها وبين نفسك ، حتى تحبّه وتميل إليه . ولم يرزُق الله بشارا من هذه الخلال شيئا ، أو لم يكد يرزقه منها شيئا ، وإنما منحه من القوة الفنية والإجادة فى الشعر حظا موفورا ، ولكنه إلى التفسير أقرب منه إلى الترغيب وإيجاد العطف . وقد كان من المعقول أن تكون هذه الآفة التى ابتلى الله بها بشارا مصدرا لحب الناس إياه وعطفهم عليه ، ورقتهم به ، لو أن بشارا عرف كيف يتلقى هذه الآفة ، وكيف يحتملها ، وكيف يعرف مكانته منها ، ولكن من البائسين من يجعل الله البؤس مصدرا لنقمة منهم ، والسخط عليهم ، لأنهم يسيئون احتمال هذا البؤس ، أو يضعونه فى غير

(١) نشرت بالسياسة فى ٢٦ رمضان سنة ١٣٤٢ هـ - ٣٠ أبريل سنة ١٩٢٤ م

موضعه . فكـم سنـخطت علـى مـعـدم ، و كان من حـقـك أن تـرحـمه ، لأنـه لم يـعـرف
كـيـف يـكـون مـعـدما أو فقـيـرا ، كـذلـك أصـاب الله بـشـارا بـهـذه الآفـة ، فـسـلبـه
البـصـر ، و كان إلـى ذلـك نـابـغـة فـي الشـعر ، يـكـاد يـنـعـدم نـظـيـره فـي قـوة الذكـاء ،
و حـدة الذـهن ، و لـكـنـه أسـاء اـحـتـمال آفـته ، كـما أسـاء الـانـتـفـاع بـذـكـائـه و حـدة
ذـهـنـه ، فأصـبـح بـغـيـضا إلـى النـاس ، مُذَمِّمًا عـنـدهـم ، ثـقـيـلا عـلـيـهـم ، حـتـى روى
الرؤـاة أن عـامة أهـل البـصـرة ابـتـهـجـوا لمـوتـه ، و اسـتـبـشـروا بـه ، كـأن الله قد
أزاح عـنـهـم ضـرًا .

ربـما لم تـعـرف آداب العـرب فـي إـسـلامـهـم شـاعـرين كبـشـار و أبـى العـلاء ،
و كلاهما كان قد أصـيـب بـهـذه الآفـة ، فأسـدلتِ الظُّلـمة بـيـنـه و بـيـن العـالـم و ما فـيـه
من جـمـيـل أو قـبـيـح . و لـكـن الفـرق بـيـن هـذـين الرـجـلـيـن عـظـيـم جـدا ، لا أقول
من الـوجـهـة الأدبـيـة أو الشـعـريـة ، فـلـيـس لـلـمـقـارنـة بـيـنـهـما من سبـيـل ، و إنـما
أقول من هـذه الـوجـهـة الـتى تـجـب إلـيـك الرـجـل ، أو تـبـغـضـه إلـيـك ، كلاهما كان
مـكـفـوف البـصـر ، و كلاهما كان سيئ الظن بالناس ، مسرفا في سوء الظن ،
لأنـه كان مـكـفـوف البـصـر ، و لـكـن أحـدهـما اسـتـطاع أن يـحـمل مـصـابـه راضـيا
مطمئنا ، و أن يـكـون لـهـذا المـصـاب نـفـسـه خـيـرًا خـفـيـف الظل ، جـذا بـا مـحـبـبا
إلـى النـفـس ، يـكـاد يـكـون كلـه حُبًّا ، و هو أبو العـلاء . أما الآخـر فـقد اـحـتـمـل
مـصـابـه شـر اـحـتـمال ، ما ذا أقول ؟ بـل هو لم يـحـتـمـل هـذا المـصـاب ، و أكاد
أحـسـب أنـه لم يـفـتـرضـه ، و لم يـشـعـر بـوـجـودـه ، بـل أكاد أعتقد أنه اتخذ من
هـذا المـصـاب و سـيـلة إلـى الفـخـر و التـمـدح ، و أسـرف فـي ذلـك إـسـرافا شـديـدا ،
فكان يـحـمـد الله علـى العـمى ، لأنـه يـحـول بـيـنـه و بـيـن رؤـيـة النـاس ، الـذيـن كان

يكرههم ويتبرم بهم تبرّما شديدا ، وليس هذا شيئا ، فقد يستطيع الإنسان فهمه وتأويله ، والاعتذار عنه ، ولكن بشارا تجاوز الحد في ذلك ، فلم يكتف بحمد الله على العمى ، بل اتخذ العمى فخرا ، وزعم أن ذكاءه النادر ، ونبوغه الفذّ ، إنما هما أثر من آثار هذه المحنة ، وقال في ذلك كلاما كثيرا . وكان من اليسير أيضا أن يفهم الناس ذلك ويحتملوه ، ويجدوا وسيلة إلى الاعتذار عنه ، فليس من الهين على رجل كبشار قد منحه الله قوة العقل ، وشدة الذكاء ، وحدة الذهن ، ونفاذ البصيرة ، ومنحه إلى ذلك قوة الجسم ، ودقة الحس ولطفه ، ومنحه إلى هذا وذاك نفسا ثائرة مضطربة شرهة إلى اللذة ، لا تتقنع منها بالقليل ، ولا تظفر منها بحظ الا استزادته ، وطمعت فيما هو أعظم منه ، أقول ليس من الهين على رجل كبشار قد منحه الله هذا كله أن يحتمل آفة العمى ، راضيا بها ، مطمئنا إليها ، وإنما المعقول أن يحدث ذلك في نفسه سخطا شديدا على الحياة والأحياء ، لما يجر عليه ذلك من حرمان . . . أضف إلى هذا أن حياة بشار تدلنا على أن أهل عصره لم يكونوا أرقاء ، ولا حريصين على الرفق وحسن الأدب ، وإنما كانوا يسخرون من بشار ويعبثون به ، ويسرفون في ذلك ، حتى يبلغوا إعناته ، ويخرجوا به عن طوره . فكان هذا كله مصدرا لما تجده في هذا الرجل من سوء الخلق ، وشدة البغض للناس ، والموجدة عليهم ، وإضرار الشر لهم ، والإسراف في السخرية منهم . وماذا تقول في رجل لم يخلص لإنسان ؟ وما نحسب أن إنسانا أخلص له ، وإنما كان سيئ الظن بالناس جميعا ، منطلق اللسان في الناس جميعا ، يمدح ثم لا يلبث أن يهجو ، وربما مدح وهو يضر

الهجاء ، بل لعله لم يمدح إلا وهو يزدرى ممدوحه ، وكان مخلصا إذا هجا ، لأنه كان يزدرى الناس ، ويسرف في بغضهم ، وقد عظمت في نفسه هذه الخلّة ، حتى استأثرت به ، وسيطرت عليه ، وأصبحت مقياس حياته ، وقانون ما بينه وبين الناس من معاملة ، وانتهى أمره إلى أن الناس إنما كانوا يصلونه ويعنونه الجوائز ، لا إعجابا به ، ولا رحمة له ، ولا عطفًا عليه ، بل إشفاقا منه ، وإتقاء لأذاه . وعرف هو منهم ذلك ، فنالهم من حيث يُنال الضعيف ، مدحهم ولم يكره أن يُنذر وهو يمدح ، وربما أعرض عن المدح ، واكتفى بالإنذار ، وربما أعرض عن المدح والإنذار جميعا ، وسلك أقصر الطرق ، وهجا بالبيت أو البيتتين ، فيشفق المهجور من المزيد ، فينزل عند ما أراد . ثم انتهى به الأمر إلى أن أصبح يقينا عنده ، فأصبح بشار من أشد الناس إثارة لنفسه ، يرى أن الخير يجب أن يكون موقوفا عليه ، وأن الشر يجب أن يعدّوه إلى غيره . ولم لا ؟ أليس يرى أنه أذكى الناس ، وأشعر الناس ، وأعلم الناس ؟ وإذن فيجب على الناس أن يؤمنوا له ، ويدعّوا لهواه ، فإن فعلوا فذاك ، وإلا ففي لسانه تثقيف لاعوجاجهم ، وإصلاح لما فيهم من فساد . . . ولهذا لم يعرف هذا العصر رجلا أطول منه لسانا ، ولا أسرع منه إلى شر ، ولا أشد منه إمعانا في الفحش إذا هجا ، ولا أقل منه احتقالا بالعدل أو الظلم .

وأخرى من خلال هذا الرجل ، هي أنه أسرف في بغض الناس وازدراءهم ، فأسرف لذلك في إثارة نفسه عليهم ؛ ومن اتصف بالإيثار فقد

اتصف بالجن ، لأن الإيثار في حقيقة الأمر شكل من أشكال الجبن ، ولون من ألوانه ، فليس شجاعا ذلك الرجل الذي يعجز عن أن يأخذ نفسه بما لا تحب ، وإنما الشجاع حقا هو من بدأ بنفسه ، فأخذها بالخير ، وحال بينها وبين الشر ، حتى إذا فرغ من نفسه غني بالناس ؛ وكان بشار أشد الناس في عصره جبنا وفرقا ، كان طويل اللسان ، سفيها مسرفا في الهجاء ، إلا أن يبدو له ما يخيفه ، فإذا بدا له ذلك فهو ذليل منكسر . وكان يخاف كل شيء ، كان يخاف السيف ، وكان يخاف السوط ، وكان يخاف اللسان ، وكان يخاف غير هذا كله ، وله في ذلك أحاديث . زعموا أنه طلب إلى رجل مصور أن يتخذ له جاما ، ويرسم فيه طيرا ، ففعل الرجل ، وأقبل إليه بالجام ، فوصفه له ، فلم يرض ، وقال : كان يجب أن ترسم فيه طيرا جارحا يصيد هذه الطيور ، ولكنك عرفت أنني أعمى ، فاستخففت بي ، فلا هجوناك . قال صاحبه : لا تفعل ، فأنت نادم إن فعلت ، قال : أتنذرنى ؟ قال : نعم ، قال : وبم ؟ قال : أصورك على صورتك ، وأجعل من ورائك قرندا وأضع ذلك على بابي ، فقهقه بشار ، وصفق بيديه ، وقال : قاتله الله ! أما زح فيأبى إلا الجد ! فانظر إليه أشفق من هذه الصورة ، ولولم ينذره بها المصور لهجاء . وزعموا أنه طلب إلى صديق له تاجر ثيابا بنسيئة ، فلم يوفق الرجل إلى ما أراد ، فغضب بشار ، وكتب إليه بيتين من أقبح الشعر ، ولم يكن هذا الرجل شاعرا ، ولكنه اغتاظ لهذين البيتين ، فرد عليهما بشر منهما ، فانكسر بشار ، وأقسم لا يهجو مثله من سِفلة الناس . قالوا : وهجا بشار رَوْح بن حاتم ، فجاءه منه النذير ، فلم يحفل ، وألح في الهجاء ، فأقسم رَوْح : لئن رأيته لأضربنه

بالسيف ، ولو كان بين يدي الخليفة ؛ قالوا : فلما انتهى ذلك إلى بشار نهض من فوره ، فدخل على المهدي ، وعاذ به فأعاده ، وأرسل في طلب روح ، فكلّمه في ذلك ، فأبى ، وقال : إنه أقسم ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يحتمل يعني ، فأحضر المهديّ الفقهاء ، ليتأولوا له مخرجا ، فأفتوا بأن يضربه على جسمه بعرض السيف ، وكان بشار وراء ستار ، فأخرج ، واستل رَوْح سيفه ، وضربه بعرضه ، قالوا : فلما أحس بشار السيف جزع ، وصاح أَوْهٍ باسم الله ! فتضاحك المهديّ . وأحاديث بشار في الجبن والجزع من الهجاء كثيرة لا تحصى .

وخصلة أخرى تتميز بها شخصيته ، وهي أنه إذ كان أثراً شديد الإشفاق ؛ فقد كان مسرفاً في النفاق أيضاً ، وليس يمثل إسرافه في النفاق أكثر من مكانه من الزنادقة ، ورأيه فيهم ، وسيرته معهم . كان من أشد الناس إلحاداً في الدين ، وتهالكا على اللذة ، وربما لم يكن كغيره من الشعراء الذين قدمنا الحديث عنهم ، يحب المجون واللذة على غير عقيدة ولا مذهب فلسفي ، وإنما كان رجلاً له رأى وبصيرة : يفكر وينظر ويُحاجُّ عن رأيه ، وكان صديقاً لواصل بن عطاء ، ونفر من أصحاب الكلام في البصرة ، فكانوا يتناظرون في الدين ، ثم افترقوا : فأما واصل فمضى في الاعتزال ، وأما غيره فذهبوا مذاهب مختلفة في الكلام ، ومنهم من ألحد ولم يخف إلحاده ، وإنما ترك البصرة فرراً من أميرها ، وخافة أن يدل أصحابه ومناظروه ، أما بشار فإنه لم يعلن شيئاً خاصاً ، وإنما مضى في سيرته ، يُخَيِّلُ للناس أنه يرى رأى الجماعة ، ويضمّر الزندقة والإلحاد ، ويزدري رأى الجماعة ، وكان الناس يعلمون منه ،

ذلك ، وكان واصل يعلمه ، وكان واصل ينكر عليه ذلك ، ويهتف به ، فهجاه
بشار ، وأسرف في هجائه ، حتى سكت عنه واصل ، وكذلك كان يفعل مع
كل من يخشى منه شرا ، ثم لم يكن يكتفى بهذا ، وإنما كان يدفع عن
نفسه تهمة الزندقة بهذه الطريق يسلكها الجبناء وأنزال الناس ، فيتهم بها
غيره من خصومه ، ومن أصدقائه أيضا ، وقد مر بك في أحاديثنا الماضية
شيء من سيرته مع حمادِ عَجْرَدٍ ، فقد أسرف في اتهامه بالزندقة ، وما نشك
في أن حظ حماد من الإجابة كان بعيدا عن أن يبلغ حظ بشار .

كانت زندقة بشار علمية إن صح هذا التعبير ، أو قل كان زندقته
وجهان : أحدهما علمي نظري ، فيه ذكر لمذهبه ، ودفع عنه ، وحوار دونه ،
والآخر عملي أدبي ، يشارك فيه حمادا ومطيعا وغيرهما من المُجَّان . فكان
بشار يدين بالرجعة ، ويكفر الأمة كلها بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم ،
لأنها حدثت عن طريق الدين ، فلما سئل عن على رضى الله عنه تمثل بقول
عمر بن كلثوم :

وما شرّ الثلاثة أمّ عمّرو بصاحبك الذي لا تصبَحِينَا

وكان يؤثر النار على الطين ، ويفضل النور على الظلمة ، فكان من هذه
الناحية فارسىّ الزندقة ، ثم كان في حقيقة الأمر فارسيا في كل شيء ، كان
فارسيا في زندقته ، يقدم النار التي يعبدها الفرس ، وكان فارسيا في أهوائه
وميوله السياسية ، فلم يكن يحب العرب ، ولا يرتاح إليهم ، وإنما كان
يحتملهم احتمالا ، وكان ينكر الولاء ، ويحث الموالي على أن ينكروه ، وكان
يرى أن الفرس ليسوا أقل كرامة ولا شرفا ولا حُرِّيَّة من العرب ، ولم يكن

يكره أن ينتسب إلى آبائه من الفرس ، وربما فاخر بنسبه الفارسي ، ويقولون إنه اجتراً على ذلك بين يدي المهدي ، ويقولون إن رجلاً من أشراف العرب في البصرة أقبل عليه يعاتبه ، لأنه يفسد الموالي على العرب ، فهجاه ، واضطر الرجل إلى أن يسكت عنه .

كان بشار إذن زنديقا ، ممعنا في الزندقة ، وكان شعوبيا ، متشددا في الشعوية ، وكان يحتّمى بالنفاق أيضا ، كما قدمنا ، فقد كان يمدح الخلفاء والأمراء وأشراف الناس أيام بني أمية ، وأيام العباسيين ، يطلب منهم المال ، ويطلب منهم الجاه أيضا ، ولكنه لم يكن مخلصا في شيء من ذلك ، وكان الممدوحون يعرفون منه هذا النفاق ، ويصبرون عليه ، أو يتغاضون عنه ، حلما مرة ، وعفوا مرة أخرى ، وإشفاقا في أكثر الأحيان .

فإذا أردت أن تتمم شخصيته من حيث هو رجل ، فينبغي أن نضيف إلى كل ما قدمنا خصلة أخرى ، وهي أنه كان شديد الولع بالنساء ، مسرفا في التشبيب ، مفتنّا فيه فنونا لم يسبق إليها ، وكأنه لم يلحق فيها أيضا . كان شعره كله إغراء بالفجور ، وحثا على الفسوق ، وإفسادا حتى لأشد النساء حرصا على الشرف ، وأفرهن حظا من الإحصان ، وقد جزع لذلك الناس في البصرة ، فسعى إليه وعظّاهم وأهل الصلاح منهم ينهونه ، وهتف به خطباؤهم ، والمتكلمون فيهم ، ولكن شيئا من ذلك لم يؤثر فيه ، ولم يردعه ، بل مضى في نسيبه وتشبيبه ، وفي استهتاره وتهتكه ، وأكثر نساء البصرة وفتياتها من رواية شعره ، والاستهتار به ، كما أكثرن من الاختلاف إليه ، ومجاذبة الحديث ، وكانت له معهن سيرة مرذولة ، فشكا الناس إلى المهدي ،

فنهاه المهدي ، وأنذره بالموت إن لم يكف عن التشبيب ، وفي ذلك يقول :

يَأمَنظُرًا حَسَنًا رَأَيْتُهُ مِنْ وَجْهِ جَارِيَةٍ فَدَيْتُهُ
بَعَثْتُ إِلَى تَسْوُمُنِي بُرْدَ الشَّبَابِ وَقَدْ طَوَيْتُهُ
وَاللَّهِ رَبِّ مُحَمَّدٍ مَا إِنْ غَدَرْتُ وَلَا نَوَيْتُهُ
أَمْسَكْتُ عَنْكَ وَرَبِّمَا عَرَضَ الْبَلَاءِ وَمَا ابْتِغَيْتُهُ
إِنَّ الْخَلِيفَةَ قَدْ أَبَى وَإِذَا أَبَى شَيْئًا أَيْتُهُ
وَمُخَضَّبٍ رَخِصَ الْبَنَاءُ نِ بَكِي عَلَى وَمَا بَكَيْتُهُ
وَيَشُوقُنِي بَيْتَ الْحَبِيبِ إِذَا ذَكَرْتُ وَأَيْنَ بَيْتُهُ
قَامَ الْخَلِيفَةَ دُونَهُ فَصَبَرْتُ عَنْهُ وَمَا قَلَيْتُهُ
وَنَهَانِي الْمَلِكُ الْهُمَا مُ عَنْ النِّسَاءِ وَمَا عَصَيْتُهُ
لَا ، بَلْ وَفَيْتُ فَلَمْ أَضِغْ عَهْدًا وَلَا رَأْيًا رَأَيْتُهُ

قالوا : ووفد بشار على المهدي ، فاشتراط الحاجب عليه ألا ينشد الخليفة غزلا ، فلما دخل عليه أنشده هذه الأبيات ، ثم أنشده مدحا لا غزل فيه ، فخرمه المهدي ولم يجزه ، وقال الناس لبشار : إنما حرمك لأنه لم يستحسن شعرك . فقال (وهذا يمثل إعجابه بنفسه) : لقد مدحته بشعر لوقيل في الدهر لأمن الناس صروفه ، ولكنه كذب أملی ، لأنني كذبت في القول ، ثم قال هذه الأبيات :

خَالِيٍّ إِنْ الْعُسْرُ سَوَّفَ يُفِيقُ وَإِنْ يَسَارًا فِي غَدٍ خَلِيقُ
وَمَا كُنْتُ إِلَّا كَالزَّمَانِ إِذَا صَحَا صَحَوْتُ وَإِنْ مَاتَ الزَّمَانُ أَمُوقُ

أَدْمَاءُ لَا اسْطِيعُ فِي قِلَّةِ الثَّرَى خُزُوزًا وَوَشِيًّا وَالْقَلِيلُ مُحِيقُ
خُذِي مِنْ يَدِي مَا قَلَّ إِنَّ زَمَانَنَا شَمْسٌ وَمَعْرُوفُ الرِّجَالِ رَقِيقُ
لَقَدْ كُنْتُ لَا أَرْضَى بِأَذْنِي مَعِيشَةً وَلَا يَشْتَكِي بُخْلًا عَلَى رَفِيقُ
خَلِيلٍ إِنَّ الْمَالَ لَيْسَ بِنَافِعٍ إِذَا لَمْ يَنْلَ مِنْهُ أَخٌ وَصَدِيقُ
وَكُنْتُ إِذَا ضَاقَتْ عَلَى مَحَلَّةٍ تَيَمَّمْتُ أُخْرَى مَا عَلَى تَضِيقُ
وَمَا خَابَ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ عَامِلٌ لَهُ فِي الثَّقَى أَوْفَى الْمُحَامِدِ سَوْقُ
وَلَا ضَاقَ فَضْلُ اللَّهِ عَنْ مُتَعَفِّفٍ وَلَكِنَّ أَخْلَاقَ الرِّجَالِ تَضِيقُ

فاذا أضفت إلى هذا كله أنه كان أقبح الناس وجهًا ، وأنه كان عظيم الجسم ، ضخيم الخلق ، وكان مع هذا كله يزعم أنه جميل ، وأنه خلَّاب للنساء ، وكان مع هذا يجرؤ على أن يقول :

إِنَّ فِي بُرْدَيَّ جِسْمًا نَاحِلًا لَوْ تَوَكَّاتٍ عَلَيْهِ لَأَنْهَدَمَ

أقول : إذا أضفت هذا إلى ما قدمنا ، تبينت صورة ليست بعيدة ولا كاذبة من هذا الرجل ، الذي لم يكن جذابا ولا خلَّابا ، لا من الوجهة المعنوية ، ولا من الوجهة المادية . ومع هذا فقد كان شاعراً مجيداً ، أجمع العلماء والرواة في عصره على أنه أشعر أهل هذا العصر ، وزعم هو لنا ذلك ، فتحدث ذات يوم أن له اثني عشر ألف بيت من جيد الشعر ، فلما سئل عن ذلك قال : إن له اثني عشر ألف قصيدة ، فويل له إذا لم يكن في كل قصيدة بيت جيد . قالوا : ولم يجتمع لأحد من الشعراء مثل هذا المقدار من جيد الشعر ، وقد يكون هذا حقاً ، ولكننا في حاجة شديدة إلى أن نظفر من هذا المقدار

الضخم بجزء قليل تتخذه مقياساً لإجادة بشار ، وقد أراد سوء الحظ ألا
نظفر من شعر بشار بشيء يذكر . ومهما يكن من شيء فأنا أشك في قيمة
هذا الإجماع ، الذي انعقد على تقديم بشار ، وإيثاره بالإجادة والتفوق ،
وأزعم أن شيئاً من هذا الإجماع يعود إلى سفه بشار ، فقد كان بشار يخيف
العلماء ويهجوهم ، هجا سيبويه ، لأنه أنكر عليه كلمات ، فاضطر سيبويه إلى أن
يستشهد بشعره ، وتلقاه الأخصش لشيء كهذا ، وتلقاه يونس بن حبيب ،
وكان مع ذلك يكرهه كرهاً شديداً ، ويقال إنه هو الذي وشى به عند
المهدي ، واتهمه بالزندقة ، وتلقاه الأصمعي من غير شك ، فقد كان بشار
يهجو باهلة ، والأصمعي باهلي . وبعض هذا الإجماع يعود إلى أن بشاراً كان
إذا جد متين اللفظ ، رصين الأسلوب ، مؤثراً لنحو أهل البادية في ألفاظهم
وأساليبهم ، وكان لا يكره استعمال الغريب ، ولا يعيبه ، وكيف لا يجب
علماء اللغة رجلاً يذهب هذا المذهب . ثم يعود بعض هذا الإجماع إلى أن
الناس أطبقوا على خوف بشار ، والإشفاق منه ، فكانت له مهابة لم تكن
لغيره من الشعراء ، ثم تعاملت عليه طائفة من الشعراء تقدمت في عصرها ،
ثم أكثر من الغزل ، ورق فيه ، فأحبه الظرفاء ، وأصحاب الخلاعة ، وتغنى
فيه المغنئون ، وتحدث الرواة أن نساء البصرة كن يلجأن إليه إذا احتجن
إلى شعر يُنَحْن فيه ، فهذا كله مصدر هذا الإجماع ، الذي يقدم بشاراً على
غيره من الناس .

ونحن الآن آمنون من بشار ومن هجائه ، غير متأثرين بما كان يتأثر
به المعاصرون له . فنحن أقدر على أن نحكم عليه حكماً صادقاً ، لو أتيح لنا

الشَّرْطُ الأساسي لهذا الحكم ، وهو مقدار ضَخَم من شعره .
على أنى أشارك الرجل الواحد الذى استطاع فى ذلك العصر ألاَّ يُعْجَب
بشعر بشار ، وأن يشدد النكير عليه ، وهو إسحاق الموصلىّ . أشاركه ، لافى
إسرافه ، فقد تعصب على بشار ، كما تعصب غيره لبشار ، وأرى بشارا لم
يكن كما ظن القدماء ، ذلك الشاعر الذى لا يُشَقُّ له غُبار ، وإنما كان شاعراً
كغيره من الشعراء ، له الجيد ، وله الردىء ، وربما قدمت على بشار
رجلا كأبى نواس ، أو كالحسين بن الضحاك .

غير أنى لو أخذت أفصل هذا الحكم ، وأستدل عليه ، لم أفرغ منه
فى هذا الفصل ، فالخير أن أرجى ذلك إلى فصل خاص ، فى الأسبوع الآتى .

شعر بشار^(١)

قلت في الحديث عن بشار إن القدماء من الأدباء والنقاد وأهل العلم باللغة مجمعون على تقديره ، وإيثاره على غيره من الشعراء الذين عاصروه ، وخالفهم في هذا الرأي ، وزعمت أنهم لم يكونوا فيه مخلصين ، وإنما تأثروا بمؤثرات كثيرة أشرت إليها ثم قلت : إني أرى في بشار رأى الرجل الوحيد من القدماء ، الذي استطاع أن ينكر ما كان من تقديم بشار ، والإسراف في إيثاره ، وهو إسحاق بن إبراهيم الموصلي ، فقد كان إسحاق فيما يظهر شديد الجحود لبشار ، غالباً في السخط عليه ، والازدراء له ، وكان من النقاد وأهل الأدب من يحاجّه في ذلك ، فيظهر عليه . غير أنني لا أوافق إسحاق بن إبراهيم الموصلي في ما اندفع إليه من غلو وإسراف ، فأنا لا أزعّم أن بشاراً لم يكن شيئاً ، ولا أزعّم أن الجيد في شعره قليل ، وإنما أزعّم أن بشاراً كان شاعراً موفوراً الحظ من الإجادة ، ولكنه لم يكن أشعر أهل عصره ، وكان من أهل عصره من يجب أن يتقدم عليه كأبي نواس ، وهنا أخالف إسحاق بن إبراهيم الموصلي أيضاً ، فقد كان ازدراؤه لأبي نواس أشد من ازدرائه لبشار ، كان لا يعتد بأبي نواس ، تتحدث في يوم من الأيام عن إسحاق ابن إبراهيم ، فنحاول أن نتفهم مصدر هذه الآراء الغريبة ، التي كان

(١) نشرت بالسياسة في ١٧ رمضان سنة ١٣٤٢ هـ - ١٢ أبريل سنة ١٩٢٤ م

يراها ، في بشار وأبي نواس وغيرهما من الشعراء ، ولكننا اليوم نتحدث
عن بشار ، فلنحرص على ألا تتجاوزهُ إلى غيره .

كان إسحاق بن إبراهيم يرى أن بشاراً مختلف الشعر مضطربه ، وأن
الغث في شعره لا يعده غث ولا رديء ، وكان يقول إن الذي يقول هذا
الشعر لا يمكن أن يكون شاعراً مجيداً ، وينشد :

إِنَّمَا عَظُمُ سُلَيْمَى قَصَبٌ قَصَبُ الشُّكْرِ لَاعَظُمُ الْجَمَلِ
فَإِذَا أَدْنَيْتَ مِنْهَا بَصَلًا غَلَبَ الْمِسْكُ عَلَى رِيحِ الْبَصَلِ

وفي الحق أن في هذا الشعر من السخف والفجاجة شيئاً كثيراً ،
ولكن أين الشاعر الذي يستطيع أن يبرأ من قول فيج ، ولفظ سخيّف ؟
ثم أليس من التحكم بل من السخف أن تزعم أن قائل هذين البيتين
لا يمكن أن يجيد الشعر ، لأنه قال هذين البيتين ؟ وأنت تعلم أنه قال شعراً
آخر كثيراً ، منه الذي بلغ من الجودة منزله رفيعة ، فدونك الشاعر وشعره ،
فاقرأ هذا الشعر وانقده ، واحكم على جيده بالجودة ، وعلى رديئه بالرداءة ،
واجتهد في أن تتبين الأسباب التي أتاحَت للشاعر أن يجيد ، والأسباب التي
اضطرتّه إلى أن يُسِفَّ . ولا تقل إن من قال هذا الشعر الرديء لا يستطيع
أن يقول جيداً من الشعر . فلنخصمك أن يجيب بأن من قال هذا الشعر
الجيد لا يستطيع أن يقول رديئاً من الشعر ، وإذا انتهى بك الحوار إلى هذا
الحد ، فلستما متهمين إلى خير ، ولا بالغين حُجّة ، وإنما أتما متعصبان ،
قد أسرف كل منكما في تعصبه ، حتى أصبح انتظار الخير منكما عبثاً ، وأصبح
من الحق أن تُتركا وما أتما فيه . . .

نعم ، إسراف أن تحكم على الشاعر بيت أو بيتين ، وإسراف أن تحكم له بيت أو بيتين ، بل إسراف أن تحكم للشاعر المكثّر أو عليه ، بقصيدة أو قصيدتين أو قصائد ، بل لا ينبغي أن تسلك هذه السبيل في النقد ، فهي عتيقة معوجة ، لا تنتهي إلى نتيجة صحيحة ولا مقنعة ، ولا سيما في هذا العصر ، وإنما السبيل أن تتبين روح الشاعر وشخصيته ، وتحكم عليه أولاً بما تتبين منهما . ولست أدري أين قرأت أن رجلاً من نوابغ الموسيقى الغربية أراد أن يحكم على شاب موسيقى ، فاستمع إليه وهو يوقع ، فلما سمعه يوقع أحياناً مختلفة ، قال : الآن عرفت صوت نفسك ، كذلك يجب أن نتبين أصوات نفوس الشعراء ، لنحكم لهم أو عليهم . وأحسب أن صوت نفس بشار ليس بالرخيم ولا بالرقيق ، كما أنه ليس بهذا الصوت الضخم الذي لا يخلو على ضخامته من حلاوة ولين ، إنما هو صوت لا حظ له من الحلاوة ، ولعله يخيفك أكثر مما يستهويك ، ولعله ينفرك أكثر مما يرغبك ، ومهما تكن لبشار الأشعار الجياد البارة ، فأنا لا أحبه ولا أميل إليه . والغريب أن كل ما حفظ لنا عن بشار لا يحبه إلينا ولا يعطفنا عليه . فهو ثقيل ، حتى حين يضحك ، وهو ثقيل حتى حين يريد أن يضحك ويرضيك ، وهو مر في جميع مواقفه ، يأتي بالنادرة المضحكة فتضحك ، ولكنك لا تضحك ضحكا صريحا ، خاليا من كل شائبة ، وإنما تضحك وأنت مستشعر شيئا من الألم ، محس شيئا من المرارة . ومصدر ذلك أن هذا الشاعر كان له مزاج حادّ ، أبغض الناس بغضا شديداً فأصبح إليهم بغضا ، وانقطعت بينه وبينهم صلة المودة والعطف ، ولم يبق بينه وبينهم

إلا صلة الخوف والتهيب ، يستغلها هو ، ويتيحون له هم أن يسرف
في استغلالها ، ولقد تقرأ أن بشارا عند ما ضربه المهدي الضرب الذي أماته ،
لم يبق شريف من أشراف البصرة إلا تطف له ، وأرسل إليه الهدايا . ثم
تقرأ أنه مات وأخرجت جنازته ، فلم يتبعها من أهل البصرة أحد ، إلا جارية
له سوداء ، سنديّة عجماء ، تصيح : واسيداه ! واسيداه ! فأين هؤلاء الأشراف
الذين تطفوا له ، واستبقوا إلى إرسال الهدايا إليه قبل أن يموت ؟ وما بالهم
لم يشيعوه بعد أن مات ؟ لم يتلطفوا له حبا ولا عطفًا ، وإنما تطفوا له تملقا
وإشفاقا ، فلما أمنوا شره انصرفوا عنه ظاهراً ، كما كانت نفوسهم منصرفة
عنه باطنا . غير أنني أخشى أن أتهم بالأسراف في بغض بشار ، وتشويه
شخصيته ، والله يعلم أنني ما أحب بشاراً ولا أكرهه ، ولا يعني أن تكون
شخصيته جذابة أو منفرة .

أنا أخشى أن أتهم بالأسراف ، فلا أجتهد في أن أحملك على أن تشاركني
في هذا الرأي الذي أراه ، وعلى أن تحس معي أن بشاراً كان بغيضاً ، حتى
حين كان يتندّر ، ويريد أن يضحك . قالوا : كان بشار بين يدي المهديّ
ينشده شعرا . فدخل يزيد بن منصور الحميريّ خال المهديّ ، وكانت فيه
غفلة ، فلما فرغ بشار من إنشاده أقبل عليه يزيد ، وسأله : ما صناعته ؟ فأجابه
بشار : أثقب اللؤلؤ ! ولست أشك في أن جواب بشار بديع مضحك ،
مفحّم أيضاً ، ولهذا لم يستطع المهديّ أن يمتنع عن الضحك ، ولكني
لا أشك في أن هذا الجواب قاس ، يدل على حدة المزاج ، ومرارة الطبع ،
وغضب المهديّ ، فشتم بشارا ، أو قل لام بشارا على أن تندّر على خاله . فلم

يكن جواب بشار على لوم المهديّ أقلّ شدة من جوابه على سؤال يزيد ،
إذا أجاب : وماذا أصنع به : يرى رجلاً أعمى بين يدي الخليفة ينشده شعراً ،
فيسأله ما صناعته ؟ ... قالوا : ومر بشار بقاضي البصرة ، فسمعه يقول
في قصّصه : من صام رجبا وشعبان ورمضان بنى الله له قصرًا في الجنة ، صحنه
ألف فرسخ في مثلها ، وعلوه ألف فرسخ ، وكل باب من أبواب بيوته
ومقاصيره عشرة فراسخ في مثلها ، فالتفت بشار إلى قائدة : بئست والله
الدار هذه في كانون الثاني ! ... وتحدث رجل من أهل البصرة أنه خلا
إلى امرأة في علو بيت ، وبشار تحته ، أو في أسفل البيت ، وبشار فوقه ،
فنهق حمار في الطريق ، فأجابه حمار في الجيران ، وحمار في الدار ، فارتجت
الناحية بنهيقها ، وضرب الحمار الذي في الدار الأرض برجله ، وجعل يدقها بها
دقا شديدا ، فسمعت بشارا يقول للمرأة نُفِخْ يَعْلَمُ اللهُ في الصور ، وقامت
القيامة ، أما تسمعين كيف يدق على أهل القبور ، حتى يخرجوا منها ،
ولم يلبث أن فرغت شاة كانت في السطح ، فقطعت حبلها ، وعدت فألقت
طبقا وغضارة إلى الدر ، فانكسرا ، وتطاير حمام ودجاج كن في الدار لصوت
الغضارة ، وبكى صبي في الدار ، فقال بشار : صح والله الخبر ، ونُشِرَ أهل
القبور من قبورهم ، أذنت يشهد الله الآزفة ، وزُلزِلت الأرض زلزالها ، فقال
البصري : فمجيبت من كلامه ، وغازني ذلك ، فسألت : من المتكلم ؟ فقيل لي
بشار ، فقلت : قد علمت أنه لا يتكلم بمثل هذا غير بشار ... ومر بشار برجل
رحمته بغلة وهو يقول : الحمد لله شكرا . فقال بشار : استزده يزدك ... ومثل
هذا ما تحدثوا به من أنه حين ضرب الضرب الذي مات له ، كان كلما أوجعه

السوط قال : حَسَّ ، وهى كَلَمَة تَأَلَّم . فقال بعض الحاضرين : انظروا إليه لا يقول باسم الله ، فقال بشار : ويلك ! أتريد هو فَأَسْمَى عليه . . . ثم زعموا أن قوما مروا به يحملون جنازة وهم يسرعون المشى بها ، فقال بشار : ما لهم مسرعين ، أتراهم سرقوه فهم يخافون أن يلحقوا ، فيؤخذ منهم ! . . . قالوا : وتوفى له ابن ، فجزع عليه ، فقيل له : أجز قدمته ، وفرط اقترطته ، وذخر أحرزته . فقال : ولد دفنته ، وشكل تعجلته ، وغيب وعُدَّتُهُ فانتظرتة ، والله لئن لم أجزع للنقص ، لا أفرح للزيادة ! . . . وتحدث ابن رزين (وأنا أعتذر من رواية هذا الحديث ، ولكنه يمثل بشاراً أصدق تمثيل) قال : أتينا بشاراً ، فإذن لنا والمائدة موضوعة بين يديه ، فلم يدعنا إلى طعامه ، فلما أكل دعا بطست ، فكشف عن سوائته ، فبال ، ثم حضرت الظهر والعصر ، فلم يصل ، فدنونا منه ، فقلنا : أنت أستاذنا ، وقد رأينا منك أشياء أنكرناها ، قال : وما هى ؟ قلنا : دخلنا والطعام بين يديك ، فلم تدعنا إليه ، فقال : إنما أذنت لكم أن تأكلوا ، ولو لم أرد أن تأكلوا لما أذنت لكم . قال : ثم ماذا ؟ قلنا : ودعوت بطست ونحن حضور ، فبليت ونحن نراك . فقال : أنا مكفوف ، وأنتم بصراء ، وأنتم المأمورون بغض الأبصار ، ثم قال : ومه ؟ قلنا : حضرت الظهر والعصر والمغرب فلم تصل ، فقال : إن الذى يقبلها تفارق يقبلها جملة ! .

أعتقد أن هذه الأحاديث التى تمثل ابتسام بشار وتندّره ، وما كان الله قد وهب له من ظرف وخِفة رُوح ، لا تعطى من بشار صورة الرجل الظريف ، ولا ذى الروح الخفيف ، وإنما تعطى منه صورة قاسية ، صورة

رجل قد كره الناس وازدراهم ، ولعله قد كره كل شيء وازدراه ، فهو لا يحب إلا نفسه ، ولا يعجب إلا بنفسه ، ولا يترك فرصة تتيح له السخر من الحياة والأحياء إلا انتهزها ، ولم يكن في سخريته هينا ولا رقيقا ، وإنما كان غليظا فظا قاسيا . ثم إن هذه الأحاديث وما قدمت لك في الفصل الماضي ، من أخبار بشارتمثله منافقا في سيرته ، يدارى الناس ويتقيهم ليعيش ، ثم ينذرهم ويخيفهم لينعم بعيشته ، ثم يستخر منهم متى أتى له ذلك .

وإذن فهو أقل الناس حظا من صدق اللجة والعاطفة ، وإذا قرأت شعر بشار فلا ينبغي أن تبحث فيه عن شعوره وعواطفه ، ولا عما يحس أو يؤمل فيما بينه وبين نفسه ، وإنما ينبغي أن تبحث فيه عما يريد أن يظهر ، أو عما يريد أن يتكلف للناس من العواطف والشعور والميل ، ليس شعره شفاً فاكشعر أبي نواس ، والحسين بن الضحاك ، ومطيع ، وحماد عجرد ، وإنما هو شعر كشيء صفيق ، لا يدل من نفس صاحبه على شيء ، وهو كاذب أبداً ، لا يحفل بالكذب ، ويفضّض حين يلفته الناس إليه إنه كان ضخما فاحش الضخامة ، قويا شديد القوة ، ثم لم يستح أن يقول :

إِنَّ فِي بُرْدَى جِسْمًا نَاحِلًا لَوْ تَوَكَّأْتُ عَلَيْهِ لَأَنهَدُمُ

هو إذن ليس بالشاعر المخلص ولا الصادق ، حين يمدح ، ولا حين يتغزل ، ولا حين يرثى ، ولعله إن صدق إنما يصدق في موضوعين اثنين من شعره : يصدق حين يهجو ، لا أريد أنه يصف الناس بما فيهم ، ويضع يده على مواضع العيب من أخلاقهم وسيرتهم ، وإنما أريد أنه يصدق حين يهجو ، لأنه يصف نفسه ، ويمثّل سخطه على الناس ، وما يضطره إليه هذا السخط

الشديد من ألوان الإسراف والظلم ، وضروب الاعتداء . ويصدق حين يذكر نفسه وسوء مكانه من الناس ، وبنوع خاص حين يذكر حرمان الذين مدحهم إياه ، وبخلهم عليه بما كان ينتظر . هو في هذا الموضع من شعره صادق ، وقد يبلغ التأثير أحيانا ، وما أحسب أنك تخالفني في استحسان هذه الأبيات ، وصدق الشاعر فيها ، وهي التي قالها حين مدح المهدي ، وألح في مدحه ، فخرمه المهدي ، وألح في حرمانه :

وإنَّ يَسَاراً في غَدٍ خَلِيقُ	خَلِيلِيَّ إِنِّ الْعُسْرُ سَوْفَ يُفِيقُ
صَحْوَتُ وَإِن مَّاقَ الزَّمَانُ أَمَوْقُ	وَمَا كُنْتُ إِلَّا كَالزَّمَانِ : إِذَا صَحَا
خَزُوزاً وَوَشِيّاً وَالْقَلِيلُ مَحِيقُ	أَدْمَاءُ لَا أُسْطِيعُ فِي قِلَّةِ الثَّرَى
شَمْسٌ وَمَعْرُوفُ الرِّجَالِ رَقِيقُ	خُنْدِي مِنْ يَدِي مَاقِلٌ إِن زَمَانُنَا
وَلَا يَشْتَكِي مُبْخَلَا عَلَى رَفِيقُ	لَقَدْ كُنْتُ لَا أَرْضَى بِأَدْنَى مَعِيشَةٍ
إِذَا لَمْ يَنْلِ مِنْهُ أَحٌ وَضَدِيقُ	خَلِيلِيَّ إِنِّ الْمَالُ لَيْسَ بِنَافِعِ
تِيَمَمْتُ أُخْرَى مَا عَلَى تَضِيقُ	وَكُنْتُ إِذَا ضَاقَتْ عَلَى مَحَلَّةٍ
لَهُ فِي الشُّتَى أَوْ فِي الْحَامِدِ سُوقُ	وَمَا خَابَ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ عَامِلُ
وَلَكِنْ أَخْلَاقُ الرِّجَالِ تَضِيقُ	وَلَا ضَاقَ فَضْلُ اللَّهِ عَنْ مُتَعَفِّفِ

أَلَسْتُ تُحْسِنُ مَعِيَ أَنَّ الشَّاعِرَ صَادِقٌ مُتَأَثِّرٌ ، وَأَنَّ تَأَثُّرَهُ هَذَا مُؤَثِّرٌ أَيْضاً ؟
ولا تقل إنه يتكلف الكرم في هذه الأبيات ، فلم يكن بشار بن خيلا ، ولا محباً للبخلاء ، وإنما كان كريماً ، لا لأنه يحب الناس ، ويعطف عليهم بكرمه وجوده ، بل لأنه يزدرى المال ، كما يزدرى الناس ، وله أخبار في

الكرم لا بأس بها ، فقد كان له إخوة ليسوا بالميسورين ، فكان يبيعهم
ماله ، وكانوا يُسرفون في الانتفاع بذلك ، حتى لقد كانوا يَعْدُونَ على ثيابه
فيلبسونها ، وكانوا يتعاطون مِهْنًا لا ينظف صاحبها ، فكانوا يتركون في هذه
الثياب روائح لا تطيب ، وكان بشار يكره ذلك ، ويتبرم به ، ولكنه لم
يزجر إخوته ، وإنما احتمل منهم ذلك . وزعموا أنه لبس في يوم من
الأيام ثوبًا من هذه الثياب ، وكان أخ له قد ترك فيه رائحة لا تحب ، فأنكر
بعض الناس ذلك على بشار ، فقال : إنما ذلك صِلة الرحم ! وقد
نستطيع أن نذكر من كرم بشار ما كان بينه وبين أبي الشَّمَقْمَق من صِلة ،
فقد كان بشار عوده أن يمنحه مقدرا من المال في كل عام ، وطمع أبو
الشَّمَقْمَق في ذلك ، حتى عده دينا ، ولعل كرم بشار على أبي الشَّمَقْمَق لم
يكن بريئا ولا خالصا لوجه الله ، فقد كان بشار جبانًا كما قلنا ، وكان أبو
الشَّمَقْمَق سيئ الهجاء ، فكان بشار يخافه ، ويتقيه بالمال ، وله في ذلك نواذر
كثيرة . وتحدث بعض الناس أنه دخل على بشار ، فوجد بين يديه دنانير ،
فقال له بشار : خذ منها ماشئت ، وقص عليه قصتها ، وهي أن أبياتا من
شعره أعانت شابا على حُب ، فحمل إليه مئة دينار . لم يكن بشار بخيلا إذن ،
وهو لا يتكلف الكرم في هذه الأبيات التي قدمناها ، وهو صادق حين
يشكو ، وحين يظهر أنه لا يحتمل ضيق الحياة ، فقد كان واسع العيش مترفا ،
منعما في البصرة ، وإنما كان هذا كله يأتيه من الشعر ، ومدحه به أشرف الناس ،
وهجائه به أشرف الناس أيضا ، فليس غريبا أن يسوءه حرمان المهدي إياه ،
وليس غريبا أن يحزنه هذا الحرمان ، فقد كان بشار لنفسه مُكَبِّرا ، ولم

يكن يهون عليه أن يصغره غيره مهما يكن . ويروون أن الناس قالوا لبشار حين حرمه المهدي : إنه لم يستحسن ما قلت فيه ، فأجاب : لا ، والله لقد قلت فيه كلاما لو قيل في الدهر لأمن الناس صرفه ، ولكنه كذب أُملي ، لأني كذبت القول فيه ! فانظر إليه كيف أبي أن يفترض إلا أن يكون شعره قد أعجب المهدي ، وكيف أكبر نفسه على هذا ، فازدري المهدي ، ولام نفسه ، لأنه مدحه بما ليس فيه .

على أن صدق بشار قليل نادر كما قلنا ، وهو إن أخطأه الصدق والإخلاص ، فلن يخطئه الفن وحسن الصناعة ، فهو شاعر يعمل شعره ، ولا يصدر الشعر عنه عفواً ، نريد الشعر الجيد ، الذي يستحق أن يُروى ويبقى ، فأما غير ذلك ، فقد كان يصدر عن بشار في غير تكلف ولا عناء ، وكأن فطنته كانت كهذه الأرض الرخوة ، التي امتلأت بالماء ، كأنها إسفنجة ، يكفي أن تمسها لينبجس منها الماء ، ولكن هذا الماء لم يكن عذبا في كل وقت ، فقد كان لا يخلو من مرارة وفجاجة ، وربما لم يخل من ثَن أيضاً ، ومن هنا كثر شعر بشار كثرة فاحشة ، حتى استطاع بشار نفسه أن يزعم أن شعره الجيد لا يقل عن اثني عشر ألف بيت ، وأنه غير مسرف في ذلك ، لأن له اثني عشر ألف قصيدة ، فيجب أن يكون في كل قصيدة بيت جيد . وقد حدثني قوم أن ديوان بشار موجود الآن في تونس ، أو في بلد غير تونس ، وأن من الأدباء من يعمل في نشره ، فإن كان هذا الخبر صحيحاً ، فسنستطيع أن ندرس بشارا ونحكم عليه من كُتِب ، وأنا لهذا أحفظ بحكمي عليه ، وأستبيح لنفسى تغيير رأيي فيه ، إذا ظهر هذا الديوان ،

وإن كنت أستبعد كل الاستبعاد أن يضطرني ديوان بشار إلى أن أغير رأيي في بشار وشعره . فليس بين يدي من شعره مقدار عظيم ، ولكن هذا المقدار القليل الذي أدرسه وأتقده ، يكفيني لأتمثله ، وأحكم عليه ، وسنرى يوم يظهر الديوان : أخطيء أنا مصيب ؟

بين يديّ غزل لبشار ليس بالكثير ، ولكنه ليس بالقليل أيضاً ، وهو سواء أكان قليلاً أم كثيراً ، لا يمثل عاطفة ولا شعوراً صادقاً ، وإنما يمثل أمرين اثنين : يمثل تهالكاً على اللذة ، وإخفاشاً في هذا التهلك ، وإفتنائاً فيه أيضاً ، دون أن يراقب الشاعر في ذلك خُلُقاً أو أدباً أو ديناً ، ويكفي أن تعلم أن علماء البصرة من أهل الدين والوعظ والكلام ، ومن بينهم واصل ابن عطاء والحسن البصري ومالك بن دينار جميعاً ، قد هتَفَوْا به ، وشكّوه بعد أن وعظوه ونصحوا له ؛ ويمثّل رغبة في الفساد وإذاعة السوء ، فلم يكن بشار يكتفي بأن يكون من أصحاب اللذة المتهالكين عليها ، ولهذا كان يتخير إذا تغزل أيسر الألفاظ والأساليب ، وأدناها وأشدّها شيوعاً في النساء وفتيات الهوى ، كأنه كان يريد أن يفهمه النساء والفتيات ، وأن يتأثرن به ، والغريب أنك لا تجد بشاراً يُسِفّ في اللفظ إذا مدح أو تعرض لفن من فنون الشعر ، إلا الغزل والهجاء ، وهذا واضح ، فهو إذا تزلّز أراد أن يفهمه النساء ، وأن يكون شعره ذائعاً ، يتناقله الشبان وأهل الخلعة ، وهو إذا هجا فقد كان يريد أن يؤذي من يهجو ، وإنما يؤذيه إذا كان فاحشاً مُقذِّعاً ، وكان مع ذلك سهلاً يمكن فهمه وروايته . ولست أشك في أن المهديّ لم يكن جائراً ولا مسرفاً حين نهى بشاراً عن الغزل ، وحين أنذره

بالموت إن عاد إليه ، ويكفى أن أروى لك هذه القصيدة التي غضب لها
المهدي ، لتعلم أن غزل بشار لم يكن من الجودة والطهر بحيث يؤسف عليه :

قد لَامَنِي فِي خَلِيلَتِي مُعْمَرُ واللوم في غير كُنْهه ضَجَرُ
قَالَ : أَفَق . قُلْتُ : لَا ، فَقَالَ : بَلَى قد شاع في الناس منكما الخبرُ

قُلْتُ : وَإِذَا شَاعَ مَا عَتَذَرُكَ مِمَّا ليس لي فيه عندهم عُذْرُ ؟

ماذا عليهم ؟ وما لهم خَرَسُوا لو أنهم في عيوبهم نظروا

أَعَشَقْتُ وَحْدِي وَيُؤْخَذُونَ بِهِ كَالْتَرَكِ تَغْزُو فَتَوْخِذُ الْخَزَرُ

يَا عَجَبًا للخلاف يَا عَجَبًا

حَسْبِي وَحَسْبُ الَّذِي كَلِفْتُ بِهِ مني ومنه الحديثُ والنَّظَرُ

أَوْ قَبْلَهُ فِي خِلَالِ ذَاكَ وَمَا بأس إذا

أَوْ عَصَّةٌ فِي ذِرَاعِهَا وَلَهَا فوق ذِرَاعِي مِنْ عَصَاهَا أَثَرُ

أَوْ لَمَسَةٌ دُونَ مِرْطِهَا يَدِي والبَابُ قد حالَ دُونَهُ السُّتْرُ

وَالسَّاقُ بَرَاةٌ مَخْلُطُهَا أَوْ مَصُّ رِيْقٍ وَقَدْ عَلَا الْهَرُّ

وَاسْتَرَخْتَ الْكَفَّ لِلْعِرَاكِ وَقَا لَت : إِيْهِ عَنِّي ، وَالْدَمْعُ مُنْحَدِرُ

انْهَضُ . فَمَا أَنْتَ كَالَّذِي زَعَمُوا أَنْتَ وَرَبِّي مُغَازِلُ أَشْرُ

قَدْ غَابَتْ الْيَوْمَ عَنْكَ حَاضِنَتِي وَاللَّهُ لِي مِنْكَ فَيْكٌ يَنْتَصِرُ

يَا رَبِّ خُذْ لِي فَقَدْ تَرَى ضَرَعِي مِنْ فَاسِقٍ جَاءَ مَا بِهِ سَكْرُ

أَهْوَى إِلَى مِعْضِدِي فَرَضَضَهُ ذُو قُوَّةٍ مَا يُطَاقُ مُقْتَدِرُ

أَلْصَقَ بِي حَيَّةٌ لَهُ خَشْنَتُ ذَاتَ سَوَادٍ كَأَنَّهَا الْإِبْرُ

أَقْسِمُ بِاللَّهِ لَانْجُوتَ بِهَا فَاذْهَبِ فَأَنْتَ الْمُسَاوِرُ الظَّفَرُ
 كَيْفَ بَأْسِي إِذَا رَأَتْ شَفَتِي أَمْ كَيْفَ إِنْ شَاعَ مِنْكَ ذَا الْخَبَرُ
 قَدْ كُنْتُ أَخْشَى الَّذِي ابْتَلَيْتُ بِهِ مِنْكَ ، فَمَاذَا أَقُولُ يَا عَبْرُ
 قُلْتُ لَهَا ، عِنْدَ ذَاكَ : يَأْسَكُنِي لَا بَأْسَ ، إِنْ جَرَّبْتُ خَبْرُ
 قَوْلِي لَهَا : بَقَّةٌ لَهَا ظُفْرُ إِنْ كَانَ فِي الْبَقِّ مَالَهُ ظُفْرُ

روى شيء من هذه القصيدة لطيع ، ولكن هذا من خطأ الرواة ،
 وأنت تقرأ هذه القصيدة ، فإذا أولها جيد متين مستقيم ، لا نكير فيه ،
 ولكن الشاعر لا يكاد يبدأ هذه القصة الخليعة ، حتى يفحش ، لا في اللفظ ،
 فليس في اللفظ فحش كثير ، بل في المعنى ، فالمعنى كله فحش . ولست أريد
 أن أفتك إلا إلى يبتين اثنتين من هذه القصيدة ، أحدهما يبين مهارة بشار في
 محاكاة النساء ، أو نوع من النساء حين يتفجعن في تهالك ولذة ، وهي قوله :

قَدْ كُنْتُ أَخْشَى الَّذِي ابْتَلَيْتُ بِهِ مِنْكَ فَمَاذَا أَقُولُ يَا عَبْرُ

وانظر إلى قوله (يا عبر) . الثاني يمثل النفس الفاتكة الشيطانية التي
 تعبت بالناس ، وتسخر منهم في عنف وقسوة ، وأنا أعتقد أن نفس بشار
 وخلقته وقلبه ، كل هذا مختصر في هذا البيت :

قَوْلِي لَهَا بَقَّةٌ لَهَا ظُفْرُ إِنْ كَانَ فِي الْبَقِّ مَالَهُ ظُفْرُ

ولست أروى لك غير هذه القصيدة من خلاعة بشار ، فهي تكفي ، وأظن
 أنها تقوم عذراً للمهدي في نهيه بشاراً عن ذكر النساء ، وللوعاظ وللعلماء
 في سعيهم بشار إلى السلطان ، ولا سيما ولم يكن أمر بشار قد وقف عند

قول هذا الكلام الفاحش وإذاعته ، وإنما كان النساء يترددن إليه
ويشاركنه في اللهو، وكان هو يطلب إليهن المواعيد، فمنهن من كانت تسايره
صادقة وفيه، ومنهن من كانت تعبت به عبثاً منكرًا، وأخبار ذلك في الأغاني
كثيرة، وهي لا تشرف بشارًا، ولا تدل على أنه كان يكرم نفسه، ويتأدب
بالآداب التي كانت تفرضها عليه آفته، وأقلها الحياء والوقار، ولكنه كان
فاجرًا مفطورًا على الفجور .

هل أحب بشار حبًا صادقًا ؟ هذا سؤال أحاول أن التمس الجواب عنه
في شعر بشار، فلا أجد إلى ذلك سبيلًا ، فقد قلت لك إن شعره كفيف
صفيق ، لا يدل على عاطفة ، وإن الكذب فيه كثير ، والتكلف فيه لا حد
له ، أريد تكلف المعاني ، وأنا أعلم أن بشارًا مشغوف بعبدة ، وقال فيها شعرًا
كثيرًا جدًّا، تغنى فيه المغنون ، وأعلم أن عبدة، مالت إليه ، وكان بينها وبينه
مودة ، ولكنني أقرأ ما بقي لنا من شعر بشار في عبدة فلا أجد فيه شيئًا
يمثل الحب الصادق القوي حقًا ، وقد أقرأ هذه الأبيات فأعجب، بها وتأثر
لها وأحسب الشاعر صادقًا ، ولكنني لا ألبث أن أضحك، لأنني أعلم أن الشاعر
كاذب وإن صاحبه تعلم منه هذا الكذب، وما أشك في أنها كانت تضحك
منه أيضًا ، وتقبله لجودته الفنية ليس غير ، وهذه الأبيات مشهورة يحفظها
الناس جميعًا لبشار وهي

لَمْ يَطْلُنْ لِيَنبِيْ وَلَكِنْ لَمْ اَنْمِ وَنَفَى عَنِّي الْكَرَى طَيْفُ الْمَ
رَفِّهِ يَا عَبْدَ عَنِّي وَاعْلَمِي اَنْنِيْ يَا عَبْدَ مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ

إِنَّ فِي بُرْدِي جِسْمًا نَاجِلًا لَوْ تَوَكَّاتٍ عَلَيْهِ لَا نَهْدَمَ
 وَإِذَا قُلْتَ لَهَا جُودِي لَنَا خَرَجْتَ بِالصَّمْتِ عَنْ لَا وَنَعَمَ
 ولولا هذا البيت الثالث وما نعلم من ضخامة بشار، لخدعنا الرجل عن
 نفسه، فصدقناه، وخيل إلينا أنه كان حب عبدة لا ينام، ولكن من
 يدرينا أنه لم يكن ينام أهدأ النوم وألذّه، ثم يزعم السهر والأرق، كما كان
 يزعم النحافة والنحول .

وله أبيات زعموا أن الوليد بن يزيد بكى لها وهي لا تخلو من جودة،
 وأنا أرويهما لأن قصتها لا تخلو من عجب :

أَيُّهَا السَّاقِيَانِ صُبًّا شَرَابِي وَاسْقِيَانِي مِنْ رِيْقٍ بَيْضَاءِ رُودِ
 إِنَّ دَائِي الظَّمَّ وَإِنَّ دَوَائِي شَرَبَةً مِنْ رُضَابٍ تُغْرِ بَرُودِ
 وَلَهَا مَضْحَكٌ كَغُرِّ الْأَقَاخِي وَحَدِيثٌ كَالْوَشَى وَشَى الْبَرُودِ
 نَزَلَتْ فِي السَّوَادِ مِنْ حَبَّةِ الْقَلْبِ ، وَنَالَتْ زِيَادَةَ الْمُسْتَزِيدِ
 ثُمَّ قَالَتْ : نَلْقَاكَ بَعْدَ لِيَالٍ وَاللَّيَالَى يُبْلِغِينَ كُلَّ جَدِيدِ
 عِنْدَهَا الصَّبْرُ عَنْ لِقَائِي، وَعِنْدِي زَفَرَاتٌ يَا كُلَّنْ قَلْبَ الْحَدِيدِ

قالوا : فطرب الوليد وقال : من لي بمزاج كأمسى هذه من ريق سلمي ،
 فيروى ظمئى ، وتطفأ غلتي . ثم بكى حتى مزج كأسه بدمعه ، وقال : إن
 فاتنا ذاك فهذا .

في هذا الشعر متانة وجودة ورقة ، ولكنى لأحب أوله ، وربما
 استسخفته ، ولست أدري كيف يستطيع الساقيان أن يسقيا بشاراً من ريق

صاحبته ؟ .. وأحسب أن هذه ليست صناعة الشقاة . وإذا كانت هذه
القصة صحيحة ، فهي إنما تمثل رقة هذا الشاعر ، الذي أحبه وأعطف عليه ،
وهو الوليد بن يزيد ، الذي فاته ريق سلمي ، فزج كأسه بالدمع ، يسفحه
البكاء عليها .

ولنترك غزل بشار ، وننتقل إلى شيء آخر من فنون شعره ، ولكن
في إيجاز فقد أطلنا .

لبشار قصيدتان اشتهرتا بين الرواة اشتهاراً عظيماً ، إحداها ميمية ،
قدمها أبو عبيدة على ميميّات جرير والفرزدق ، وقُتِنَ بها الأصمعي ، وتاقلها
أهل بغداد ، وأعجبوا بها إعجاباً عظيماً ، ولهذه القصيدة قصّة ، تمثل لنا نفس
بشار أيضاً ، قالها لإبراهيم بن عبد الله بن الحسن يمدحه بها ، ويخرضه فيها
على المنصور ، ويهجو فيها المنصور . فلما نُقِعت ثورة إبراهيم وقُتل ، خاف
بشار ، فحوّل القصيدة ، كأنه لم يمدح بها إبراهيم ، ولم يهجو بها المنصور ،
وكانه هجا بها أبا مسلم الخراساني ، فوضع أبا مسلم موضع أبي جعفر ،
وحذف من أبيات القصيدة ما لم يكن سبيل إلى تحويله ، وهي :

أبا جعفرٍ ماطولُ عيشٍ بدائمٍ	ولا سالمٌ عما قليلٍ بسالمٍ
على الملك الجبارِ يفتَحُ الردي	ويصرُّهُ في المأزِقِ المتلاحِمِ
كأنَّكَ لم تسمعَ بقتلِ مُتَوَجِّ	عظيمٍ ، ولم تسمعَ بفتكِ الأعاجِمِ
تَقَسَّمُ كِسْرَى رَهْطُهُ بِسُيُوفِهِمْ	وَأَمْسَى أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْلَامَ نَائِمٍ
وقد كَانَ لَا يَخْشَى انْقِلَابَ مَكِيدَةٍ	عليه ، ولا جَرَى النجوسِ الْأَشَامِ
مُقِيًّا عَلَى اللَّذَاتِ حَتَّى بَدَتْ لَهُ	وجوهُ المنايا حاسراتِ الْعِمَامِ

وَقَدْ تَرَدُّ الْأَيَّامُ غُرًّا وَرُبَّمَا
 وَمِرْوَانُ قَدَّارَتِ عَلَى رَأْسِهِ الرَّحَى
 فَأَصْبَحْتَ تَجْرِي سَادِرًا فِي طَرِيقِهِمْ
 تَجَرَّدْتَ لِلْإِسْلَامِ تَعْفُو سَبِيلَهُ
 فَمَازِلْتَ حَتَّى اسْتَنْصَرَ الدِّينُ أَهْلَهُ
 فَرُمُ وَزَرَ يُنَجِّيكَ يَابْنَ سَلَامَةٍ
 لَحَى اللَّهُ قَوْمًا رَأْسُوكَ عَلَيْهِمْ
 أَقَوْمُ لِبَسَامٍ عَلَيْهِ جَلَالَةٌ
 مِنَ الْفَاطِمِيِّينَ الدُّعَاةِ إِلَى الْهُدَى
 سِرَاجُ أَمِينِ الْمُسْتَضَى وَتَارَةٌ
 إِذَا بَلَغَ الرَّأْيُ الْمَشُورَةَ فَاسْتَعِنَ
 وَلَا تَجْعَلِ الشُّورَى عَلَيْكَ غَضَاضَةً
 وَمَا خَيْرُ كَفٍّ أَمْسَكَ الْغُلَّ أَخْتَهَا
 وَخَلَّ الْهُوَيْنَى لِلضَّعِيفِ وَلَا تَكُنْ
 وَحَارِبٌ إِذَا لَمْ تُعْطَ إِلَّا ظُلَامَةً

وَرَدَتْ كُلُّوْحًا بِأَدْيَاتِ الشُّكَاكِمِ
 وَكَانَ لِمَا أَجْرَمْتَ تَرَرُ الْجَرَائِمِ
 وَلَا تَتَّقِ أَشْبَاهَ تِلْكَ النِّقَاطِمِ
 وَتُعْرِى مَطَاهِ لُثُوثِ الضَّرَاجِمِ
 عَلَيْكَ فَعَاذُوا بِالسَّيُوفِ الصَّوَارِمِ
 فَلَسْتَ بِنَاجٍ مِنْ مَضِيمٍ وَضَائِمِ
 وَمَا زِلْتَ مَرَعُوسًا خَبِيثِ الْمَطَايِمِ
 غَدَا أَرْحِيًّا عَاشِقًا لِلْمَكَارِمِ
 جَهَارًا وَمَنْ يَهْدِيكَ مِثْلُ ابْنِ فَاطِمِ؟
 يَكُونُ ظَلَامًا لِلْعَدُوِّ الْمَزَاحِمِ
 بَرَأَى نَصِيحٍ أَوْ نَصِيحَةٍ حَازِمِ
 فَرِيشُ الْخَوَافِي قُوَّةٌ لِلْقَوَادِمِ
 وَمَا خَيْرُ سَيْفٍ لَمْ يُؤَيِّدْ بَقَائِمِ
 نَوُؤُومًا فَإِنَّ الْحَزْمَ لَيْسَ بِنَائِمِ
 شَبَابُ الْحَرْبِ خَيْرٌ مِنْ قَبُولِ الْمَظَالِمِ

القصيدة جيدة ، ولعلها من أجود ما قال بشار ، وهو صادق العاطفة
 فيها ، والناس صادقون حين استحسَنوها ؛ هو صادق لأنه كان يكره بني
 العباس كرهاً شديداً ، ويؤثر بني عليّ إثاراً شديداً ، ولم يكن يكره بني
 أمية ، ولعله أسفَّ على دولتهم ، فليس عجيباً أن يفرح لثورة العلويين ،

وينعريهم بالعباسيين ، في هذه الأبيات المضطربة المتأججة ، وكان هؤلاء العلماء الذين أحبوا هذه القصيدة متشيعين أيضاً ، كعامة أهل العراق ، يظهرون لبني العباس غير ما يضمرون ، ثم كان الناس جميعاً ينقمون من بني العباس ظلماً واستبداداً بالأمر ، وازدراء للزعماء من العرب ، ومن الموالي أيضاً ، فليس عجيبي أن يحبوا شعر بشار وأبياته في الشورى ، فهذا الحب وهذا الإعجاب يمثلان قبل كل شيء ما تضرر الشعوب للملوك المبعضين إليها . على أن صدق بشار ليس وحده الذي يحلى هذه القصيدة ، فلاحظها متين كما ترى ، ومعانيها جياد ، وإن كانت ليست من العمق والتدبرة بحيث تكفل البقاء لقصيدة من القصائد ، ولكن فيها قوة غير مألوفة .

أما القصيدة الأخرى فهي البائية التي مدح بها ابن هُبَيْرَة ، وقال فيها :
إذا الملكُ الجبارُ صَعَرَ خَدَّهُ مشينا إليه بالسيوف نعاتبه
وفيهما هذا البيت المشهور ، الذي أُعْجِبَ به الناس إعجاباً شديداً ، واستكثروه على شاعر ضريح ، وهو :

كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وَأَسْيَافُنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ
وليس البيت كثيراً على بشار ، فبشار نفسه يثبتنا بأنه قلد فيه قول امرئ القيس :

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا لَدَى وَكْرِهَا الْعُنَابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي
فأما تشبيه السيوف بالكواكب ، وتشبيه مَثَارِ النَّقْعِ بالليل ، فشيء مألوف ، تحدث عنه الشعراء كثيراً ، وليس لبشار فيه إلا هذه الصورة الشعرية ، التي لم يخترعها كلها ، وإنما تأثر فيها شاعراً قديماً كما ترى .

وجملة القول في بشار أنه كان شاعراً غزير المادة جيداً ، ولكن الجيد في هذه المادة لم يكن صادقاً في شعره ولا مخلصاً ، وإنما كان يتكلف المعاني في أكثر الأوقات ، وكان يتكلف الألفاظ والأوصاف أيضاً ، ولم يكن مُحِبِّباً ولا جذاباً ، ولا لينا رقيق الطبع والحاشية ، وإنما كان قويا جبَّاراً ، مبغضاً إلى الناس ، مُبَغِضاً لهم . وإذا أردت أن تعرف الفن الذي برع فيه بشار حقا ، فهو فن الهجاء ، وقد عللنا هذا . وفي الحق أنه قتل الهجاء ، وأن الهجاء قتله أيضاً ، فقد كان فاسقاً ، بل كان زنديقا ، ولم ينفعه تستره ولا تكتمه ، ولكن الزندقة لم تقتله ، وإنما اتخذت وسيلة إلى قتله . والذي قتله إنما هو هجاءه للمهدي بشعر لا أستطيع أن أرويه لك ، وهجاءه ليعقوب بن داود وزير المهدي ، ولأخيه صالح بن داود ، قال الرُّواة إن بشاراً وجدَّ على المهدي وجدَّاً شديداً حين حرمه ، وأعطى غيره من الشعراء ، فذهب ذات يوم إلى حلقة يونس بن حبيب النحوي ، فسأل هل هنا من يُحْتَشَم ؟ فقيل : لا ، فأشدد بيتين شديدين في المهدي ، لم يلبث يونس وأصحابه أن حملوها إلى يعقوب ، ولم يلبث هذا أن حملهما إلى المهدي في تحفظ وتملق وإغراء . قالوا : فنضب المهدي غضباً شديداً ، وقال له يعقوب إنه زنديق ، قد قامت عندي البيِّنة عليه ، فأمر المهدي أن يُضْرَبَ ضَرْبَ التَّلْف ، فضرب سبعين سوطاً مات لها . قالوا : وقد وُجد في بيته طومار أثبت للمهدي أنه لم يكن زنديقا ولا كافرا ، فندم المهدي لقتله . وسواء أضح هذا الخبر أم لم يضح ، فالهجاء وحده هو الذي قتل هذا الشاعر ، ولم يكن من الميسور أن تترك الحرية والحياة لشاعر كبشار ، يعلن في المجامع العامة مثل ما كان يعلن عن الخلفاء ووزراء الخلفاء .

والبة بن الحباب^(١)

أبان بن عبد الحميد

كنت أريد أن أحدثك عن شاعر لأشك في أنه كان أبعد الشعراء
أثراً في عصره ، ولأشك في أنه كان من أنبههم ذكراً ، ولا أشك في أنه
كان من أشدهم إمعاناً في المجون ، وإسرافاً في الفسق والفجور ، وهو والبة
أبن الحباب . ولكنني مع الأسف لا أستطيع أن أحدثك عنه بشيء ذي
غناء ، لأن الله لم يقدر لشعره البقاء ، ولا لأخباره وسيرته أن يتناقلها الرواة ،
فذهبت حياته كما ذهب أدبه ، دون أن تكون لنا إلى درسهما سبيل ، إلا أن
تكشف الأيام في خزانة من خزائن الكتب عن سفر من الأسفار ، فيه
طرف من أخبار هذا الرجل وأشعاره . ونحن مضطرون إلى أن نعرض عن
درسه الآن ، ونكتفي بتسجيل اسمه بين أسماء هذا النفر من الشعراء العابثين ،
الذين ندرسهم في هذه الفصول . نسجل اسمه بين أسماء هذا النفر ، لأننا
وإثرون بأنه قد كان منهم ، ومن زعمائهم ، بل كان أستاذاً من أساتذتهم في
القول والعمل أيضاً ، فقد كان والبة بن الحباب أستاذاً لأبي نواس ، تولى
تأديبه وتعليمه ألوان الشعر والمجون ، ولما يتجاوز أبو نواس سن الغلمان ،
ويظهر أنه قد كانت بين الأستاذ وتلميذه عشرة سيئة ، لم يخرج من روايتها
أبو الفرج ، ولم يخرج من روايتها أبو نواس نفسه ، ولعل والبة هو الذي

(١) نشرت بالسياسة في ٢٥ شوال سنة ١٣٤٢ هـ - ٢٩ مايو سنة ١٩٢٤ م

مهّد لأبي نواس هذه السبيل المنكرة ، التي سلكها طول حياته ، فجعلته
مبغضاً ، وجعلته مُحِبّاً إلى الناس . جعلته مبغضاً لسوء سيرته ، وجعلته مُحِبّاً
لحسن شعره ، وشدة ظرفه ، وتقدمه في الأدب إلى حد لم يبلغه كثير
من معاصريه .

كان والبة بن الحُبَاب هذا عربياً صمياً ، من بني أسد . وكنا نود لهذا
السبب نفسه أن تكثر لدينا أخباره وأشعاره ، لنعرف كيف كان بلاء العرب
الصّريحين في الزندقة والمُجُون ، وهذا اللون من ألوان العبث . فلم أحدثك
إلى الآن بعد الوليد بن يزيد إلا عن الموالي ، أو من يشك في عريبتهم ، أما
والبة فلم يكن مولى ، ولم يكن نسبه موضع شك ، ومع ذلك فنحن
مضطرون إلى أن نكتفي بهذه الأخبار القصيرة المبتورة ، التي نقلها إلينا
أبو الفرج عن والبة . وهذه الأخبار لا تمثّل لنا والبة أقل فجوراً وعبثاً من
أبي نواس ، ولا من مطيع ، ولا من حمّاد ، وربما كان أشد منهم صراحة في
القول ، وإسرافاً في الفحش ، فالناس يتحدثون أن المهديّ أو الرشيد كره لقاءه
ومنادمته ، لبيتين قالهما ، فجعل منادمته شراً على كل نديم . أما شعره فلا
نستطيع أن نحكم عليه ، لأننا لا نحفظ منه إلا أبياتاً ، ولكن أبا الفرج يحدثنا
أنه كان بارعاً في وصف الحمر وما يتصل به من العبث والغزل والمُجُون . وإذا
ذكرنا الغزل ، فإنما نذكر الغزل بالعلماء ، ويحدثنا أنه لم يبرع في غير هذا
الفن من فنون الشعر ، وأنه حاول أن يهاجى أبا العتاهية ، فلم يستطع أن
ينال منه شيئاً ، بل لم يستطع أن يثبت في بغداد ، وإنما اضطر إلى أن
ينصرف عنها هارباً أو كاهارب .

فلندع والبة إذن ، ولننصرف إلى غيره من شعراء هذا العصر ، وإلى من ننصرف ؟ ننصرف إلى أبا ن بن عبد الحميد اللاحق ، فهو خليق أن نقف عنده حيناً ، لا لأنه يمكن أن يُقرن إلى بشار ، أو إلى مطيع ، أو إلى أبي نواس ، فهو أقصر باعاً ، وأضيق ذرعاً من أن يثبت لرجل من هؤلاء في الشعر وقوته ، واختلاف فنونه ، وحسن لفظه ، ورقة معانيه ، وصدق لهجته ، لا يستطيع أبان أن يثبت لواحد من هؤلاء في هذه الخلال ، ولكنه مع ذلك يستطيع أن يثبت لهم في خلال أخرى ، ويفوقهم في بعضها ، وله نواح تستحق العناية ، وتدعو إلى التفكير .

لم يكن خفيف الظلّ ، ولا مُحبباً إلى الناس ، وإنما كان فيه شئ من الثقل ينفر منه ، ويصرف عنه ، وكان الذين يحبونه قليلين ، وإن يكون حظه من حبنا نحن بأوفر من حظه من حب معاصريه ، قلنا إنه يثبت هؤلاء الشعراء في خلال غير التي ذكرناها ، يثبت لهم في الزندقة ، فلم يكن أقلّ منهم عبثاً ولا مجنوناً ، أو قلّ : لعله كان أقلّ منهم عبثاً ومجوناً في اللفظ ، ولكن سيرته لم تكن أقلّ من سيرتهم ، ولعل ضميره كان أقبح من ضمائرهم ، ولعله من أولئك الزنادقة الذين كانوا زنادقة حقاً ، والذين كانوا يكفرون عن يقين وعقيدة ، لا عن شك أو رغبة في اللذة ، والذين كانوا يتخذون حياتهم العامة قاعدة ، تؤلّف شخصيتهم من رجلين مختلفين ، أحدهما يكره العرب ودينهم ، ويزدرهم ويزدري دينهم ، ويضمر لهم ولدنيهم حقداً شديداً ، والآخر يظهر ، الإسلام ويتكلفه ، ويتمدح به ، ويحرص على أن يُحس رأى الناس فيه . من هذه الناحية هو قريب من بشار ، ولكن بشاراً غلبت عليه صناعة الشعر

وعبثه ، فكان إلى العبث اللفظي ، وكان إلى اللذة والهوى وأقرب منه إلى هذا الكفر والجحود ، يقومان على عقيدة ثابتة ، وعلى رأى سياسى بعينه .

كان أبان يكره العرب ويزدرئهم ، ولكنه كان فى الوقت نفسه يملقهم ويتقرب إليهم ، ويستفيد من هذا الخلاف الذى شجر بينهم ، لينعم على حسابهم بالحياة ولذتها ، كان فارسياً قبل كل شيء ، يريد أن يثار للفرس . ويعيد سلطانهم إلى الأرض ، ولكنه لم يكن مُحَقِّقاً ولا قصير النظر ، بل كان يعلم حق العلم أن ذلك غير ميسور فى العصر الذى كان يعيش فيه من طريق مباشرة ، كما يقول أهل هذا العصر ، كان يعلم حق العلم أن لا سبيل إلى أن يزول سلطان العرب ، ويقوم مكانه سلطان فارسى ، فلم يكن يطمع فى ذلك ، ولا يسمو إليه ، وكان يعلم أن هناك وسيلة أبلغ فى الانتقام للفرس ، ورد السلطان الفعلى إليهم ، إذا أخطأهم السلطان الشرعى واللفظى ، وهى التقرب إلى الخلفاء ، وأخذهم من مواضع الضعف ، والسيطرة عليهم ، حتى يترك الخلفاء لهم تدبير الأمور ، ويعتمدوا عليهم فى ذلك ، فيتركوا السلطان الفعلى للفرس ، ويحتفظوا لأنفسهم بظاهر القوة ، واسمها ومقامها العالى . وكان هذا المذهب هو المذهب الوحيد المعقول فى ذلك العصر ، بعد أن أخفقت تجربة أبى مسلم ، ولم تنتج لصاحبها إلا الموت ، ولا لحزبه إلا الشر كله ، وكان زعماء هذا المذهب من الفرس هم البرامكة ، الذين فطنوا للأمر فطنة حسنة ، فأحسنوا العمل والتدبير ، وتصرفوا تصرف الماهر ذى الحيلة الواسعة ، والأمل البعيد ، يسعى إليه فى رفق وثبات ، حتى بلغوا من ذلك ما أرادوا ، ثم أصابهم من الغرور والعجلة ما أفقدهم الرفق وحسن الحيلة ، فتعرضوا لنفس ما تعرض

له أبو مسلم ، وأصابتهم تلك النكبة ، التي كانت أعظم وقعاً ، وأبعد أثراً من نكبة أبي مسلم . وكان أبان صديقاً للبرامكة ، متصلاً بهم أشد اتصال ، يستشيرونه ويعتمدون عليه في تدبير أمورهم ، جدّها وهزلها ، صعبها وهينها ، وكانوا قد اتخذوه أديبهم الرسمي ، وبالغوا في ذلك ، حتى جعلوا إليه امتحان الشعراء ، وتقدير ما يستحقون من الجوائز والصلوات ، فغضب الشعراء لذلك ، وكان أشدهم غضباً أبو نواس ، الذي كان يكره البرامكة كرهاً شديداً ، كما قلت لك ، حينما كنت أدرسُ أبا نواس ، غضب الشعراء وغضب أبو نواس خاصة ، وكانت بينه وبين أبان مهاجرة ، تستحق أن تقف عندها حيناً ، لأنها تظهر لنا دين أبان ومذمبه ، ولا سيما وقد عجز أبان عن أن يرُدّ على أبي نواس بنحو ما هجاه أبو نواس ، فقد هجاه أبو نواس ، فاتهمه بالكفر والزندقة ، اتهاماً صريحاً مُنكراً ، لا يخلو من فُحش ، ولم يستطع أبان أن يرد على خصمه من هذه الناحية ، فردّ رد الضعفاء ، فشتّم أبا نواس ، وناله في أمّه وأبيه . . . ولكن هذا الشتم لا يدفع تهمة ، ولا يُعفي من إثم ، وإليك القصيدة التي قالها أبو نواس يهجو بها أبان بن عبد الحميد ، وهي تمثل رأى أبان حقاً :

شهدت يوماً أباناً لا درّ درّ أبان
ونحنُ حُضُرُ رواقِ أَميرِ النَّهْرَوَانِ
حتّى إذا ما صلاةُ آلِ أُولَى دَنَتْ لِأَوَانِ
فَقَامَ مُنْذِرُ رَبِّي بِالْبَرِّ وَالْإِحْسَانِ

وَكَلَّمَا قَالَ قُلْنَا إِلَى انْقِضَاءِ الْإِذَانِ
فَقَالَ : كَيْفَ شَهِدْتُمْ بِدَا بَغْيِ عِيَانِ ؟
لَا أَشْهَدُ الدَّهْرَ حَتَّى تُعَايِنَ الْعَيْنَانِ
فَقُلْتُ : سُبْحَانَ رَبِّي ! فَقَالَ : سُبْحَانَ مَا نِي !
فَقُلْتُ : عَيْسَى رَسُولُ فَقَالَ : مِنْ شَيْطَانِ
فَقُلْتُ : مُوسَى نَجِي الْمُهَيْمِنِ الْمَنَانِ
فَقَالَ : رَبُّكَ ذُو مُقَلَّةٍ إِذْنٌ وَلِسَانٌ
أَنفَسُهُ خَلَقَتْهُ أَمْ مَنْ ؟ فَقُمْتُ مَكَانِي
وَقُلْتُ رَبِّي ذُو رَحْمَةٍ وَذُو غُفْرَانِ
وَقُمْتُ أَسْحَبُ ذَيْلِي عَنْ هَازِلٍ بِالْقُرْآنِ
عَنْ كَافِرٍ يَتَمَرَّى بِالْكَفْرِ بِالرَّحْمَنِ
يُرِيدُ أَنْ يَتَسَاوَى بِالْعُصْبَةِ الْمُجَانِ
بِعَجْرَدٍ وَعُوبَادٍ وَالْوَالِيِّ الْهَجَانِ
وَابْنِ الْإِيَّاسِ الَّذِي نَا حَ نَخَلْتِي حُلْوَانِ
وَابْنِ الْخَلِيعِ عَلَى رِيحَانَةِ النَّدْمَانِ
إِنِّي وَأَنْتَ

فهذه القصيدة تمثل لا رأى أبان وحده ، بل رأى هذه الطائفة من
الفرس ، الذين أظهروا الإسلام ديناً ، ورفضوه فيما بينهم وبين أنفسهم ،
ورفضوا معه المسيحية واليهودية أيضاً ، وأبوا أن يؤمنوا إلا بما هو فارسي ،

لأنهم اتخذوا ذلك سياسة ومذهباً في السياسة . ثم هي تمثل في الوقت نفسه رأى أبي نواس في أبان من الوجهة الأدبية ، فهو يكره أن يقرّنه إلى مطيع ، وحامد ، والحسين ابن الضحاك الخليع ، ووالبة بن الحباب ، وفي الحق أنه لا يُقرنُ إلى هؤلاء من الوجهة الأدبية كما قلنا ، ولكنه يفوقهم في الزندقة والإحاد ، لأنه كاد يتخذ الكفر رأياً ، لا وسيلة إلى اللذة . ولست أروى لك رد أبان على أبي نواس ، فهو فحش كله ، ونستطيع أن ترجع إليه في الأغاني إن شئت ، على أنه لا يدفع حجة ، ولا يبريء من تهمة . وانظر إلى هذه الأبيات التي قالها أبو نواس في هجاء أبان ، دون أن يعرض لدينه أو رأيه ، وإنما أراد أن يحزى شتماً بشتم ، وسباً بسب . ولست أروىها كلها ، وإنما أترك منها ما فيه فحش .

صَحَّفَتْ أُمُّكَ إِذْ سَمَّيْتُكَ فِي الْمَهْدِ أَبَانَا
صَيَّرَتْ بَاءَ مَكَانِ التَّاءِ تَصْـحِيفًا عِيَانًا
قَدْ عَلِمْنَا مَا أَرَادَتْ لَمْ تُرِدْ إِلَّا أَتَانَا

.....

على أن من الخير أن أعطيك من أبان صورته التي أعطاها من نفسه حين أراد أن يتصل بالبرامكة ، فكتب إليهم هذه القصيدة ، وستقرؤها فترى أن الرجل مُعْجَبٌ بنفسه ، يُدِلُّ بعلمه وأدبه ، تِيَّاه لاحت لتيهه وغروره ، وهي :

أَنَا مِنْ بُغْيَةِ الْإِمِيرِ وَكَثْرُ
مِنْ كُنُوزِ الْإِمِيرِ ذُو أَرْبَاحِ

كاتبٌ، حاسبٌ، خطيبٌ، أديبٌ ناصحٌ ، راجحٌ على النصّاح
شاعرٌ مُفلقٌ أخفُّ من الريشة مما يكونُ تحتَ الجناح
لي في النحوِ فطنةٌ واتِّقادٌ

ثم أروى من ابن سيرين للعالم بقولٍ مُنورٍ الإفصاح
ثم أروى من ابن سيرين للشمرِ وقولِ النسيبِ والأمداح
وظريفُ الحديثِ من كلِّ فنٍّ وبصيرٌ بثرهاتِ الملاح
كمَ وكمَ قد خبأتُ عندي حديثاً هوَ عندَ الملوكِ كالتفّاح
فبمثلي تملّو الملوكِ وتهوِ وتناجى في المشكلِ الفدّاح
أَيمنُ الناسِ طائراً يومَ صَيْدٍ لغدوٍ دُعيتُ أو لِرواح
أَبصرُ الناسِ بالجوارحِ والخيلِ وبالخُرْدِ الحِسانِ الصُّباح
كلَّ ذا قد جَمَعْتُ والحمدُ لِلَّهِ عَلَى أَنِّي ظَرِيفُ المَزاح
لَسْتُ بالناسِكِ المُشَمِّرِ ثَوَيِّبِهِ ولا الملاجِنِ الخَلِيعِ الوَقّاح
لَوْ رَمَى بِي الأَمِيرُ (أَصْلَحَهُ اللَّهُ) رَمَاحاً ثَلَمْتُ حَدَّ الرِّمّاح
ما أَنَا وَاهِنٌ ولا مُسْتَكِينٌ إِسْوَى أَمْرِ سَيِّدِي ذِي السَّمّاح
لَسْتُ بِالضَّخَمِ يا أَمِيرُ ولا القَزَّ مَ وَلَا بِالْمُجَحَّدِ الدَّحْداح
حَيَّةٌ جَعْدَةٌ وَوَجْهٌ صَبِيحٌ وَاتِّقَادٌ كَشَعْلَةِ المِصْباح
إِنْ دَعَانِي الأَمِيرُ عَيْنَ مَنِي شَمْرِيَا كَالْبُلْبُلِ الصِّيَّاح

أَرَأَيْتَ شاعراً أَشدَّ غُروراً وافتنانا بنفسه من هذا الشاعر ، على أَنه

لم يلبث فيما ذكر الرواة أن أخذ يسعى بأبي نواس عند البرامكة ، فاعتاظ
أبونواس ، ونقض عليه قصيدته هذه ، فقال :

أَنْتَ أَوْلَى بِقَلَّةِ الْحَظِّ مِنِّي يَا مُسَمِّي بِالْبَلْبَلِ الصِّيَاحِ
قَدْ رَأَوْا مِنْهُ حِينَ غَنَّى لَدَيْهِمْ أَحْرَسَ الصَّوْتِ غَيْرَ ذِي إِفْصَاحِ
ثُمَّ بِالرَّيْشِ شَبَّهَ النَّفْسَ بِالْخَفَةِ مِمَّا يَكُونُ تَحْتَ الْجَنَاحِ
فَإِذَا الشَّمُّ مِنْ شَمَارِيخِ رَضْوَى عِنْدَهُ خَفَّةٌ نَوَى الْمَسْبَاحِ
لَمْ يَكُنْ فِيكَ مِنْ صِفَاتِكَ شَيْءٌ غَيْرَ خَلْقٍ مُجَحِّدٍ دَحْدَاحِ
لِحْيَةُ ثَطَّةٍ وَوَجْهُهُ قَبِيحٌ وَانْدَنَاءٌ عَنِ النَّهْيِ وَالصَّلَاحِ
فِيكَ مَا يَحْمِلُ الْمُلُوكَ عَلَى الْخُرْقِ قِ وَيُزْرِي بِالسَّيِّدِ الْجَحْجَاحِ
فِيكَ تَبَهُهُ وَفِيكَ عُجْبٌ شَدِيدٌ وَطِمَاحٌ يَفُوقُ كُلَّ طِمَاحِ
بَارِدُ الظَّرْفِ مُظْلِمُ الْكَذْبِ ذُو خُرْقِ قِ مُعِيدُ الْحَدِيثِ نَزْرُ الْمَزَاحِ
فَالَّذِي قُلْتُ فِيكَ بَاقٍ صَحِيحٌ وَالَّذِي قُلْتُ ذَاهِبٌ فِي الرِّيَاحِ

كان أبان إذن مُسْرِفًا في حب نفسه ، والإعجاب بها ، وكان لذلك
هَجَاءٌ قبيح اللسان ، اتصل الهجاء بينه وبين أبي نواس ، كما اتصل بينه وبين
رجل آخر ، كان صديقًا له ، وهو المُعَذَّلُ ، ولكنَّ هجاءه قبيح ، ليس منه
ما يصلح للرواية ، على أن المتانة تنقصه ، وهو من هذا الهجاء الذي تسمعه ،
فتنفر من قائله ، لا ممن قيل فيه . ولم يكن أبان مغرورًا ولا مفتونًا بنفسه ،
ولا قبيح اللسان فحسب ، بل كان شريرًا قاسيًا ، يؤثر الشر ، ويحْدُ فيه لذة .
وقد روى له أبو الفَرَجِ قصتين ، كاتهما تمثل نصيبه من القسوة وحب

الشعر ، كما أن كليهما تعطينا صورة من شعره ، ومن الحياة في عصره .
 قالوا : كان يقيم بالقرب من أبان رجل ثَقَفِيّ يقال له محمد بن خالد ، وكان
 عدوّاً لأبان ، فتزوج محمد هذا ثَقَفِيَّةً معروفةً ، هيَ عَمَّارَةُ بنت عبد الوهاب ،
 مَولاة جَنان ، التي كلف بها أبو نواس ، وأكثر فيها الشعر ، وكانت عَمَّارَةُ
 غنيّة موفورة الثروة ، فاعتاظ أبان لهذا الزواج ، وقال هذه القصيدة ، التي
 بلغت عَمَّارَةَ ، فأفسدت زَواجَها :

لَمَّا رَأَيْتُ الْبَزَّ وَالشَّارَهَ	وَالْفَرَشَ قَدْ ضَاقَتْ بِهِ الْحَارَهَ
وَاللَّوْزَ وَالشُّكَّرَ يُرْمَى بِهِ	مِنْ فَوْقِ ذِي الدَّارِ وَذِي الدَّارَهَ
وَأَخْضَرُوا الْمُلْهَيْنَ لَمْ يَتْرُكُوا	طَبْلًا وَلَا صَاحِبَ زِمَارَهَ
قُلْتُ لِمَذَا ؟ قِيلَ : أُعْجُوبَةُ	مُحَمَّدٍ زُوجَ عَمَّارَهَ
لَا عَمَرَ اللَّهُ بِهَا يَبْتَهَ	وَلَا رَأَتْهُ مُدْرِكًا ثَارَهَ
مَاذَا رَأَتْ فِيهِ وَمَاذَا رَجَتْ	وَهِيَ مِنَ النِّسْوَانِ مُخْتَارَهَ !
أَسْوَدُ كَالسَّفُودِ يُنْسَى لَدَى التَّنُّورِ بَلْ مُحْرَاكُ	قِيَارَهَ
يُجْرَى عَلَى أَوْلَادِهِ خَمْسَةً	أَرْغَفَةً كَالرِّيشِ طَيَّارَهَ
وَأَهْلُهُ فِي الْأَرْضِ مِنْ خَوْفِهِ	إِنْ أَفْرَطُوا فِي الْأَكْلِ سَيَّارَهَ
وَيَحْكُ فِرْيَ وَأَعْصَبِي ذَا بِهِ	فَهَذِهِ أَخْتُكَ فَرَّارَهَ
إِذَا غَفَا بِاللَّيْلِ فَاسْتَيْقِظْ	ثُمَّ اطْفِئِ إِنَّكَ طَفَّارَهَ

فلما وصل الشعر إلى عَمَّارَةَ فرت ، وأضاف أبان إلى قصيدته هذه

الآيات :

فَصَعِدَتْ نَائِلَةً سُلَمًا تَخَافُ أَنْ تَصْعَدَهُ الْفَارَةُ
«سُرُورُ» غَرَّتْهَا فَلَا أَفَاحَتْ فَإِنَّهَا خَلْنَاءُ غَرَارَةٍ
لَوْنِلَتْ مَا أَبْعَدَتْ مِنْ رِيْقِهَا إِنَّ لَهَا نَفْثَةَ سَحَّارَةٍ

أما القصة الأخرى فأشد من هذه قسوة ونُكْرًا ، وأقبح منها عاقبة
وأثَرًا ؛ قالوا : كان لأبان جار ، وكان يعاديه ، فاعتل علة طويلة ، وأرجف
أبان بموته ، ثم صحَّح من علته ، وخرج ، فجلس على بابه ، فكانت علته من
السُّلَّ ، وكان يكنى أبا الأطول ، فقال له أبان :

أَبَا الْأَطُولِ طَوَّلْتَ وَمَا يُنْجِيكَ تَطْوِيلُ
بِكَ السُّلَّ وَلَا وَاللَّهِ مَا يَبْرَأُ مَسْئُولُ
فَلَا يَغْرُزُكَ مِنْ ظَنِّكَ أَقْوَالُ أَبَاطِيلُ
أَرَى فِيكَ عِلَامَاتٍ وَلِلْأَشْيَاءِ تَأْوِيلُ
هَذَا لَا قَدْ بَرَى جِسْمَكَ وَالْمَسْلُولُ مَهْزُولُ
وَذِبَانًا حَوَالِيكَ فَمَوْقُودٌ وَمَقْتُولُ
وَحُمَى مِنْكَ فِي الْعِظَمِ فَأَنْتَ الدَّهْرَ مَمْلُولُ
وَأَعْلَامًا سِوَى ذَلِكَ تَوَارِيهَا السَّرَاوِيلُ
وَلَوْ بِالْفِيلِ مِمَّا بَكَ عَشْرَ مَا نَجَا الْفِيلُ
فَمَا هَذَا عَلَى فِيكَ قُلَاعٌ أَوْ دِمَامِيلُ
وَمَا بَالُ مُنَاجِيكَ يُؤَلَّى وَهُوَ مَعْلُولُ
فَإِنْ كَانَ مِنَ الْخَوْفِ فَقَدْ سَالَ بِكَ النَّيْلُ

وَذَا دَائِي يُزَجِّيكَ فَلَا قَالَ وَلَا قِيلُ

فلما أنشده هذا الشعر أزعج واضطرب ، ودخل منزله ، فما خرج منه بعد ذلك حتى مات .

قلت : إن أبان بن عبد الحميد لا يثبت للشعراء المعروفين في فنون الشعر ، التي اعتادها الشعراء ، ولكنه يفوقهم في شيء نحسب أنه هو الذي سبق إليه ، فهو إمام طائفة عظيمة الخطر من الناظمين ، نعى أنه ابتكر في الأدب العربي فناً لم يتعاطه أحد من قبله ، وهو فن الشعر التعليمي ، وهو فن ليس له في نفسه قيمة أدبية ، ولا سيما في العصور المتحضرة ، كمصر العباسيين ، وإنما قيمته في تلك العصور التي لاحظ لها من علم ولا من حضارة ، والتي لا تنتشر فيها الكتابة ، ولا يسهل فيها تسجيل العلم وتدوينه ، ففي مثل هذه العصور ينفع الشعر التعليمي ويُفيد ، لأنه أيسر حفظاً من النثر ، ولعل أول من سبق إلى هذا الفن هو الشاعر اليوناني « هسيود » ، الذي عاش في القرن الثامن قبل المسيح ، ونظم طائفة من القصائد ، فيها جمال شعري لا بأس به ، ولكنه قصد بها إلى تقييد طائفة ، مما كان اليونان يروونه علماً في ذلك الوقت ، فقد نظم تاريخ الآلهة وأحاديثهم ، كما نظم هذه القصيدة المشهورة ، التي تعرف بالأعمال والأيام ، والتي بين فيها فصول السنة ، وما يلائمها من ضروب الزراعة ، وما يحتاج إليه الزارع من أداة وجهد وفن ، إلى غير ذلك ، مما تجده في هذه القصيدة الجميلة .

إلى هذا الفن سبق أبان بن عبد الحميد في الأدب العربي ، فأنشأ كثيراً من الشعر التعليمي ، طرق فيه فنوناً مختلفة ، من العلم والحكمة والدين ،

وقد تحدث أبو الفرج أنه نظم للبرامكة كتاب « كلیلة ودمنة » ليسهل عليهم حفظه ، فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار ، وأعطاه الفضل بن يحيى خمسة آلاف ، واكتفى جعفر بأن يكون راويته ؛ وروى أبو الفرج أبياتا أربعة من هذا النظم، ولكنَّ صديقاً لى دَلَّنى على كتاب، أوقطعة من كتاب مخطوط ، توجد فى دار الكتب المصرية ، وهو كتاب الأوراق للصُولى ، وفى هذا الكتاب قطعة صالحة من نظم أبان لكلیلة ودمنة ، ولست أريد أن أرَوى لك منه إلا شيئاً قليلاً جداً، فهو لا يستحق الرواية، ولا العناية فى مثل هذا الحديث ، الذى نُعْنى فيه بالأدب والفن ، أكثر مما نعى بالكلام المنظوم ، وهذا أول النظم :

هَذَا كِتَابُ أَدَبٍ وَمَحْنَةٍ	وَهُوَ الَّذِى يُدْعَى كَلِيلَةً دَمْنَةٍ
فِيهِ ضَلَالَاتٌ وَفِيهِ رُشْدٌ	وَهُوَ كِتَابٌ وَضَعَتْهُ الْهِنْدُ
فَوَصَّفُوا آدَابَ كُلِّ عَالِمٍ	حِكَايَةً عَنِ الْأُسْنِ الْبَهَائِمِ
فَالْحِكْمَاءُ يَعْرِفُونَ فَضْلَهُ	وَالسُّخَفَاءُ يَشْتَهُونَ هَزْلَهُ
وَهُوَ عَلَى ذَاكَ يَسِيرُ الْحِفْظِ	لَدَى عَلَى اللِّسَانِ عِنْدَ اللَّفْظِ

وانظر كيف افتتح باب الأسد والثور :

وَإِنَّ مَنْ كَانَ دَنَى النَّفْسِ	يَرْضَى مِنَ الْأَرْفَعِ بِالْأَخْسِ
كَمَثَلَ الْكَلْبِ الشَّقِيقِ الْبَائِسِ	يَفْرَحُ بِالْعَظْمِ الْعَتِيقِ الْيَابِسِ
وَإِنَّ أَهْلَ الْفَضْلِ لَا يُرْضِيهِمْ	شَيْءٌ إِذَا مَا كَانَ لَا يُغْنِيهِمْ
كَالْأَسَدِ الَّذِى يَصِيدُ الْأَرْنبَا	ثُمَّ يَرَى الْعَيْرَ الْمَجْدَّ هَرَبَا

فَيُرْسِلُ الْأَرْزَبَ مِنْ أَظْفَارِهِ وَيَتَّبِعُ الْعَيْرَ عَلَى أَذْبَارِهِ
وَالْكَلْبُ مِنْ دِقَّتِهِ تُرْضِيهِ بِلُقْمَةٍ تَقْذِفُهَا فِي فِيهِ

وعلى هذا النحو العادي الذي لاجمال فيه ، إلا أنه برىء من
الرُّكَّة ، يمضي أبان في نظم كتابه . على أنه في هذا ناظم لكتاب
معروف ، ولكنه قد تجاوز نظم الكتب المعروفة ، إلى تأليف
كتب منظومة ، فنظم قصيدة طويلة في الصوم والزكاة ، روى منها
الصولي طرفا ، وهذا أولها :

هَذَا كِتَابُ الصَّوْمِ وَهُوَ جَامِعٌ	لِكُلِّ مَا قَامَتْ بِهِ الشَّرَائِعُ
مِنْ ذَلِكَ الْمَنْزِلُ فِي الْقُرْآنِ	فَضْلًا عَلَى مَنْ كَانَ ذَا بَيَانِ
وَمِنْهُ مَا جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ	مِنْ عَهْدِهِ الْمُتَّبِعِ الْمَرْضِيِّ
صَلَّى إِلَهُهُ وَعَلَيْهِ سَلَامًا	كَمَا هَدَى اللَّهُ بِهِ وَعَلَمًا
وَبَعْضُهُ عَلَى اخْتِلَافِ النَّاسِ	مِنْ أَثَرِ مَاضٍ وَمِنْ قِيَاسِ
وَالْجَامِعُ الَّذِي إِلَيْهِ صَارُوا	رَأَى أَبِي يُوسُفَ مِمَّا اخْتَارُوا
قَالَ أَبُو يُوسُفَ : أَمَّا الْمَفْتَرَضُ	فَرَمَضَانُ صَوْمُهُ إِذَا عَرَضَ
وَالصَّوْمُ فِي كِفَارَةِ الْإِيمَانِ	مِنْ حِنْثٍ مَا جَرَى عَلَى اللِّسَانِ
وَمَعَهُ الْحَبِيبُ فِي الظُّهَارِ	الصَّوْمُ لَا يُدْفَعُ بِالْإِنْكَارِ
وَخَطَأُ الْقَتْلِ وَحَلَقُ الْمَحْرَمِ	لِرَأْسِهِ فِيهِ الصِّيَامُ فَافْهَمِ
فَرَمَضَانُ شَهْرُهُ مَعْرُوفُ	وَصَوْمُهُ مُفْتَرَضُ مَوْصُوفُ
وَالصَّوْمُ فِي الظُّهَارِ إِنْ لَمْ يَقْدِرْ	مَظَاهِرُ يَوْمًا عَلَى مُحَرَّرِ

والقتلُ إن لم يَكُ عمداً قتله فإن ذاك في الصيام مثله
شهران في العِدَّة كاملان مُتَّصِلان لا مُفَرَّقان
والْحَنْتُ في رواية مقبولة ثلاثة أيامها موصولة
ومثلها في العِدَّة الأيام للمحرم الحالق في الإحرام
ثلاثة يصومها إن حلقها لا بأس إن تابَعها أو فرَّقها
ولكننا قد بعدنا عن الأدب وجماله ، وأمعنا في الفقه إمعانا ، وكأنا
نُروى هذه المنظومات التي حفظناها في الأزهر أيام الصِّبا .

ولم يقف نظم أبان عندهذين الموضوعين ، بل يحدثنا أبو الفرج أنه نظم
قصيدة طويلة سماها ذات الحلل ، تناول فيها تاريخ الخليقة ، وغير ذلك من
موضوعات العلم ، وانتهى فيها إلى المنطق ، فألم به ، ولم يُرَو لنا من هذه
القصيدة شيء .

وأحسب أن مكانه من البرامكة هو الذي حمله على اختراع هذا الفن .
فقد كان مكانه منهم مكان المؤدب لصبيانهم وشبابهم ، وكان من الحق عليه
أن يسهل لهم العلم تسهيلا . وليس من شك في أن هذه الأموال التي أصابها
من البرامكة ، حينما نظم كليلة ودمنة ، قد أطمعته ، فنظم القصائد الأخرى ،
ليصيب مثل ما أصاب .

وكان أبان شديد الحرص على المال ، يضحى في سبيله بأشياء كثيرة ،
منها العقيدة والرأي وكان يحسد مروان بن أبي حفصة ، لمكانه من الرشيد ،
ولظفره بالصِّلات الضخمة ، والجوائز السنية ، فقد انتهى الأمر بيني العباس
مع مروان بن أبي حفصة ، إلى أن كانوا يمنحونه بالبيت ألف درهم ، فغاظ

ذلك أبان بن عبد الحميد ، وأراد أن يصيب من أموال الرشيد ما كان يصيب مروان . قال الرواة ؟ فعاتب البرامكة ، وأنكر عليهم تقصيرهم في الانتهاء به إلى الرشيد ، حتى يصيب من عطائه مثل ما يصيب مروان ، فقالوا له : يجب أن تذهب مذهب مروان ، فتقدم آل علي ؛ فقال : والله ما أستحل ذلك ، ثم أصبح فاستحله ، وقال قصيدة طويلة ، أثر بها بنو العباس على بني أبي طالب ، وأثبت فيها حق بنو العباس في وراثة الخلافة دون بني علي ، ودفعها إلى الفضل بن يحيى ، فركب بها إلى الرشيد ، فنالته صلاته وجوائزته . وهذا أول هذه القصيدة التي ذهب فيها مذهب الفقهاء وأصحاب المناظرة : فلم تكن كلها شيئاً إلى جانب هذا البيت من شعر مروان :

أَنْتَى يَكُونُ وَلَيْسَ ذَاكَ بِكَائِنٍ لِبَنِي الْبَنَاتِ وَرَاثَةُ الْأَعْمَامِ
وأول القصيدة :

نَشَدْتُ بِحَقِّ اللَّهِ مَنْ كَانَ مُسَامَاً أَعْمَمَ بِمَا قَدْ قَلَّتْهُ الْعُجْمَ وَالْعَرَبُ
أَعْمَ رَسُولِ اللَّهِ أَقْرَبُ زُلْفَةً لَدَيْهِ أَمْ ابْنِ الْعَمِّ فِي رُتْبَةِ النَّسَبِ
وَأَيُّهُمَا أَوْلَى بِهِ وَبِعَهْدِهِ ؟ وَمَنْ ذَاكَ حَقَّ التَّرَاثِ بِمَا وَجِبَ ؟
فَإِنْ كَانَ عَبَّاسٌ أَحَقُّ بِتِلْكَكُمْ وَكَانَ عَلِيٌّ بَعْدَ ذَاكَ عَلَى سَبَبِ
فَأَبْنَاءُ عَبَّاسٍ هُمْ يَرِثُونَهُ كَمَا الْعَمُّ لابْنِ الْعَمِّ فِي الْإِزْثِ قَدْ حَجَبِ
وهي طويلة ولكنها تخلو من كل جمال أدبي ، وقد أجازها الرشيد مع ذلك ، فأحسن جائزتها ، لم يجز الأدب ، وإنما أجاز السياسة

وقد انتهى بنا القول في أبان إلى السياسة ولا بد لنا من أن نعرض لشاعرين خليقين بالعناية كلها من هذه الناحية ، أحدهما مروان بن أبي حفصة

الشاعر السياسي لبني العباس خاصة ، والثاني السيّد الحميريّ ، وهو الشاعر السياسي لبني عليّ خاصة ، وإن كان قد مدّح بني العباس ، وظفر بجوائزهم . وإذا درسنا هؤلاء الشعراء الثلاثة من هذه الناحية السياسية ، فسنتهي إلى هذه النتيجة : وهي أن أبان بن عبد الحميد أشدهم نفاقاً ، وأكثرهم اتجاراً براهه ودينه . كان كالبرامكة يتشيع للعلويين ، ثم طمع في أموال الرشيد ، فأنكر العلويين ، وآثر عليهم بني العباس ، وهو يُقسّم ما يستحل ذلك ! . . . وفي الحق أنه لم يكن يحب آل عليّ ولا بني العباس ، وإنما كان كغيره من هؤلاء الفرس ، الذين يذهبون مذهب البرامكة ، يتخذ التشيع للعلويين لونا سياسيا ، يخفي أطماعه ومآربه الفارسية . أما مروان بن أبي حفصة فأسرته كلها من أتباع بني أمية وأنصارهم ، والعُلاة في مدحهم وتأيدهم ، ولكن الله أدال من بني أمية لبني العباس ، فدار مع الأيام ، ووجد في ذلك مغنما ، فاندفع فيه ما اندفع بنو العباس في العطاء . وأما السيّد الحميريّ فعُلويّ المذهب ، صادق في علويّته ، مسرف فيها إسرافا لا يعدّله إسراف ، ولكن الله أدال من بني أمية لبني هاشم ، وكان السيد كغيره من الناس ، يحسبون أن الأمر سيؤول إلى العلويين ، فلما آل الأمر إلى العباسيين دون العلويين ، انقسمت شيعة العلويين ، فمنهم من أعلن حقه وسخطه على بني العباس ، فاشترك في فتن العلويين وثوراتهم ، ومنهم من اتقى ، فحفظ الود لآل عليّ ، وجامل العباسيين ، وأخذ أموالهم ؛ ومن هؤلاء السيد الحميريّ ، ولكن هذا بحث يحتاج إلى عناية وتحقيق وروية ، ونحسب أن الخبير في إرجائه إلى الأسبوع الآتي .

مروان بن أبي حفصة^(١)

السيد الحميري

جمعت هذين الشاعرين إلى أبان بن عبد الحميد، في آخر حديث الأربعاء الماضي ، ولم أجمعهما إليه عبثاً ، وإنما جمعتهما إليه لأن بين هؤلاء الشعراء الثلاثة صلة، تجهل التفكير في أحدهم وسيلة إلى التفكير في الآخرين. وليست هذه الصلة شعرية ، فهم يتفاوتون في الشعر تفاوتاً شديداً ، ليس كل منهم فيه مذهبه وسبيله كما سنرى . وليست هذه الصلة مجونا ولا عبثاً ولا زندقة ، فقد كان أبان بن عبد الحميد من أهل المجون والعبث والزندقة ، يستر ذلك ويخفيه ، حتى خدع الناس عن نفسه ، وحتى غضب يونس بن حبيب وقد ذكر أصحابه كفر أبان ، ولم يكن مروان بن أبي حفصة ماجناً ولا عابثاً ولا زنديقاً ، وإنما كان أشد الناس انصرافاً عن اللهو والعبث ، وأشد الناس حرصاً على الجِدِّ وحسن السيرة ، لأسباب سنبينها بعد حين . أما السيد الحميري فلم يكن من المفسرفين في الاستهارة والتهتك ، ولا من الذين يتخذون العبث واللهو سيرة وديناً ، وإنما كان رجلاً كغيره من الشعراء الذين عاشوا في العصر الجاهلي والأموي ، يأخذ بحظه من لذات الحياة ، لا متجاوزاً في ذلك حداً ، ولا مستهتراً فيه ، ولا متحدّياً غيره من أهل التقى والدين ،

(١) نشرت بالسياسة في ١ من ذي القعدة سنة ١٣٤٢ هـ - ٤ يونيو سنة ١٩٢٤ م

كان يشرب الخمر كما كان يشربها جرير والفرزدق والأعشى ، ولكنه لم يكن يعكف عليها عكوف أبي نواس ، ولم يكن يتغناها أو يشيد بذكرها ، كانت سيرته في ذلك سيرة الشعراء من العرب ، لا من الموالى ، فسرى في غير هذا الحديث أن هناك فروقا جلية بين شعراء العرب وشعراء الموالى ، تفسر لنا هذا المجون الكثير ، الذى نجده في صدر الدولة العباسية .

ليست الصلة إذن بين هؤلاء الشعراء الثلاثة مجونا ولا عبثا ولا زندقة ، ولا تشابها في المذهب الشعري والأدبي ، وإنما الصلة بينهم سياسية ، الصلة بينهم هذا المذهب السياسى الذى ذهبوه جميعا ، دون أن يكونوا فيه جميعا ، مخلصين ، فكلمهم مدح بنى العباس ، وتقرب إليهم ، وأفاد من أموالهم ، وكلهم كان هواه مع غير بنى العباس ، ولا بد من توضيح ذلك بشيء من التفصيل . رأينا في الحديث الماضى أن أبان بن عبد الحميد لم يكن مخلصا لبنى العباس ، ولكنه كان مخلصا لمال بنى العباس ، يشتميه ويحرص عليه ، فعاتب البرامكة ، لأنهم لم يقدموه إلى الرشيد ، فلما قال البرامكة إن الحق عليه في ذلك أن يهجو العلويين ، ويؤثر عليهم بنى العباس ، أظهر ترددا ، وقال إنه لا يستحل ذلك ، ثم أصبح فاستحله كما قلنا ، وأنشأ قصيدته المعروفة ، ثبت فيها أن بنى العباس أحق بوراثنة الخلافة من بنى على ، ولم يكن أبان علويا مخلصا ، وإنما كان قبل كل شيء فارسيا مخلصا ، وكان كغيره من هؤلاء الفرس ، يتخذ التشيع لعلى وآل يته لونا سياسيا ، إذ كانوا قد وثقوا بأن من المستحيل أن يسترد الفرس في ذلك الوقت استقلالهم السياسى ، وحريتهم الدينية ، على نحو ما كانت عليه قبل الإسلام ، فلم يكن لهم بد من أن يصلوا إلى السلطان من

الإسلام ، ومن طريق السياسة الحزبية الإسلامية ، فنصروا الضعيف المضطهد من هذه الأحزاب ، وهو حزب العلويين ، وكان هذا الحزب ضعيفاً أيام عثمان ، مضطهداً أقبح الاضطهاد طوال أيام بني أمية ، فأيده الفرس وناصروه ، حتى وصلوا به إلى السلطان . ولكنهم لم يصلوا بالعلويين إلى السلطان ، لأن ظروفًا سياسية خاصة ، تدرس في التاريخ لافى هذه الصحيفة الأدبية ، دعت إلى أن يستأثر بنو العباس بالحكم دون بني عليّ ، فلان الفرس ومرونا ، وآزروا بني العباس ، ليصلوا معهم إلى السلطان ، وتشدد منهم في مذهبهم العلويّ قوم ، لقوا في سبيل هذا المذهب منايام ، ومن هؤلاء أبو مسلم ، ومنهم البرامكة أيضاً ؛ وقد حدث في ذلك الوقت شيء يشبه كل الشبه ما حدث في فرنسا أيام الثورة التي ظهرت سنة ١٨٣٠ ، فقد قام الجمهوريون بالثورة ، وهيموا أسبابها ، وانتهوا بها إلى الفوز ، حتى أزالوا سلطان « بوربون » ، ولكن ظروفًا سياسية خاصة حادت بالحكم عن الجمهوريين إلى آل « أورليان » ، فقام ملك « لويس فيليب » وانقسم الثائرون المنتصرون إلى قسمين متنازعين : قسم الجمهوريين الذي عملوا وضخوا ، وفازوا ، ثم قسم أنصار « أورليان » الذين اجتنوا ثمار الفوز ، وكان الجمهوريون يقولون إن خسومهم قد اختلسوا الجمهورية *Esaemoter la Républiuqe* وانقسم هؤلاء الجمهوريون فيما بينهم وبين أنفسهم ، فمنهم من مال إلى الدولة الفائزة ، فانصرف من الحكم الجمهوري إلى الحكم الملكي الحر ، ومنهم من تشدد في مذهبه الجمهوري ، ومضى يأتذر ويدبر الثورات ، حدث هذا أو شيء قريب منه جداً حين قامت الدعوة الهاشمية لنقض السلطان

الأموى . فقد كان سواد الناس يدعو للعلويين وينصرهم ، حتى إذا تم الفوز لهذه الدعوة الجديدة ، لم ينتصر العلويون ، وإنما انتصر بنو هاشم جملة على بنى أمية ، واستأثر بالحكم من بنى هاشم آل العباس ، دون آل على ، فانقسم الهاشميون على أنفسهم : منهم من أيد العباسيين تأييداً ظاهراً خالصاً ، ومنهم من أيد العلويين ، فضى يأتمر ويشور ، ثم انقسم العلويون فيما بينهم وبين أنفسهم أيضاً ، فاطمأن بعضهم إلى السلطان القائم ، وأرجأ الثورة إلى سُنوح الفرصة . وأبى بعضهم إلا أن يشور . وعلى هذا كان مقام العلويين من العباسيين في ذلك الوقت مقام الجمهوريين من أنصار « أورليان » سنة ١٨٣٠ أما الفرس فقد ذهبوا بنفس هذا المذهب ، وانقسموا بنفس هذا الانقسام ، وكان أبان بن عبد الحميد من الذين اعتدلوا في الحكم ، فأبوا أن يظهروا النصر لبنى العباس ، كما أبوا أن يظهروا السخط عليهم ، ثم رأى هذه الأموال الضخمة التي يُفيدها مروان بن أبي حفصة من خلفاء العباسيين ، فطمع ، وعدل عن مذهبه السياسى . فلم يبق علويّاً معتدلاً ، بل أصبح عباسياً متطرفاً ؛ هذا هو أبان بن عبد الحميد .

أما السيد الحميرى فقد استطاع أن يكون علويّاً متطرفاً ، وعباسياً معتدلاً ، واستطاع ذلك في وقت واحد ، فكان من أشد الناس إخلاصاً لآل على ، يجهر بذلك ويعلنه ، ولا يتخرج منه . وكان في الوقت نفسه مسروراً بفوز بنى العباس ، لا لأنهم فازوا على العلويين ، بل لأنهم يمثلون بنى هاشم ، الذين فازوا على الأمويين ، كان يجمعه إلى أنصار بنى العباس الفرح بسقوط

الأمويين ، وكان يعلن هذا الفرح ، وينتظر أن يأتي يوم آل علي ، وهو لا ينتظر هادئاً ولا صامتاً ، وإنما كان يبت الدعوة لآل علي ، ويبدل في ذلك من الجهد والقوة ما استطاع ، ثم لم يكن فرحه بسقوط الأمويين وحده هو الذي يدينه من بني العباس ، وإنما كان هناك شيء آخر يدينه منهم ، وهو الرغبة والرغبة ، كان يطمع في أموال بني العباس ، ويفيد منها غير قليل ، وكان يخشى بطشهم ، فيتقيه بالقصيدة يمدح بها آل العباس ، بين القصائد الطوال الكثيرة يُشيد فيها بآل علي .

أما مروان بن أبي حفصة فكان شيئاً غير هذا كله ، وكان رجلاً يخالف هذين أشد الخلاف ، ولا يتفق معهما إلا في شيء واحد ، هو مدح بني العباس وتأنيدهم . كانت أسرة مروان بن أبي حفصة منذ عرفها الأدب والتاريخ متصلة ببني أمية ، محسوبة عليهم ، إن قبلت هذا التعبير ، فقد كان أبو حفصة جده الأعلى عبداً فارسياً لمروان بن الحكم ، شهد معه حصار عثمان في داره ، وأبلى في الدفاع عن الخليفة بلاء حسناً ، وأظهر شجاعة ومكرًا في حماية مولاه مروان ، وإنقاذه من الموت ، ثم شهد مع مروان جميع مواقفه السياسية والحربية المشهورة ، وكان يعينه فيما تولى من الأعمال قبل خلافته ، ونشأت عن ذلك صلة من صلات الموالاة القوية المتينة ، بين آل أبي حفصة وآل مروان ، حتى لقد كان الخلفاء من بني مروان يؤثرون آل أبي حفصة على العرب ، وعلى أشرف العرب أيضاً ، وحتى لقد أبى خليفة مرواني أن يسمع لنفر من أشرف العرب ، أقبلوا يشكون إليه أن رجلاً من آل أبي حفصة قد أصهر إلى العرب ، وخالف الحكم الشرعي ، الذي لا يبيح للموالى

تزوج العربيات ، أبي الخليفة أن يسمع لهذه الشكوى ، بل زجر الشاكين زجراً شديداً ، واضطر الحَفْصَى إلى أن يسعى لدى الخليفة في الرفق بهم ، والعطف عليهم ، وكان من آل أبي حفصة شعراء ناصروا الأمويين مناصرة شديدة ، حتى إن أحدهم ندم على عصر الحجاج ، وزعم في شعر له أن الدين قد تعرض للخطر من حادث الحجاج ، فاضطربت أمور العراق ، وظهر فيه الشائرون ، كل هذا يبين لك شدة هذه الصلة التي كانت بين الأمويين وبين آل أبي حفصة ، وهو في الوقت نفسه يبين لك شيئاً آخر ، هو الذي تقصد إليه في هذا الحديث ، وهو ، خَلَقَ مروان بن أبي حفصة .

فما كاد الحظ يُدِيل من بني أمية لبني العباس ، حتى انتفض مروان ابن أبي حفصة ، فاذا هو شاعر بني العباس ، ولسانهم السياسي ، وإذا هو أشد الناس انتصاراً لهم ، وأبلغ الناس دفاعاً عنهم ، وإذا هو الشاعر الذي نستطيع أن نقول فيه إنه نظمّ الدفاع عن نظرية العباسيين في وراثة الملك ، وصاغها في هذه الصيغة الفقهية الشعرية ممّا ، فقال :

أَتَى يَكُونُ وَلَيْسَ ذَاكَ بِكَائِنٍ لِبَنِي الْبَنَاتِ وَرِاثَةُ الْأَعْمَامِ
يريد أن العباسيين أحق بوراثته النبي ، لأن أباهم العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو أحق بوراثته ابن أخيه من الأسباط ، وذلك بحكم الفقه والميراث . وقد وقع هذا البيت على العلويين وأنصارهم موقع الصاعقة ، فاضطربوا له اضطراباً شديداً ، واشتد سخطهم على مروان ، وأضمرّوا له الشر ، وأظهروا له اللعنة ، وما زالوا به حتى قتلوه ، كما سنرى . أما موقع البيت من العباسيين فقد كان أجهل وقع وأحسنه ، حتى كان مروان شاعر الحزب العباسي حقاً ،

وكان أثيراً عند المهديّ والهادي والرشيد ، وكان مروان أول شاعر
 أخذ من العباسيين مئة ألف درهم مرة واحدة ، ثم كانت له عليهم دالة ، وكانت
 له عندهم عادات ، فتقرر في ديوان الخلافة أن جائزة مروان يجب أن تكون
 ألفاً ، تعدل أبيات قصيدته عدداً ، فكان إذا بلغ بقصيدته المئة ، بلغت
 جائزته مئة ألف . وهذا هو الذي غاظ أبان بن عبد الحميد ، فكان منه ، ما
 كان ، على أن أبان بن عبد الحميد حين أراد أن يقلّد مروان بن أبي حفصة
 لم يستطع أن يكون شاعراً ، وإنما كان فقيهاً ، يناضل عن رأى في الفقه ،
 ففصل النظرية العباسية تفصيلاً ، ودافع ، عن كلياتها وجزئياتها ، كما يقول
 أصحاب المنطق ، دافع الفقيه . فكيف استطاع مروان بن أبي حفصة أن
 ينكر ماضيه وماضى أسرته ، وأن يجحد ولاء الأمويين ، وينتفض فاذا هو
 عباسي أكثر من العباسيين ؟ ليس الجواب عليه عسيراً ، ولا في حاجة إلى
 بحث وتدقيق . فقد كان مروان بن أبي حفصة محباً للمال ، شرهاً إليه ، لا يشبع
 منه ، ولا يقنعه منه الكثير . كان محباً للمال ، هذا التعبير ضعيف ، لا يصف
 مروان ولا خلقه ، وإنما كان مروان يعبد المال عبادة ، ويقدسه تقديساً ،
 وكان فيما بينه وبين نفسه يزدرى الأمويين والعباسيين والعلويين ، وكان فيما
 بينه وبين نفسه مقتنعاً بأنه يفوز بأموال العباسيين ، فلو أدال الله منهم
 للأمويين أو للعلويين ، لسار مع الدولة الجديدة سيرته مع الدولة القديمة ،
 ليظفر منها بهذا المال ، الذي يعبده ويقدسه . لم يكن إذن عباسياً مخلصاً ، بل
 لم يكن شاعراً من شعراء الأحزاب بالمعنى الصحيح ، لم يكن من هذه
 الألسنة السياسية الحزبية ، التي هي مرآة لقلوب أصحابها ، والتي تمثل الإيمان

الصادق ، والعقيدة الراسخة ، التي لا تؤثر المال على الرأى ولا تضن بالنفس
 على الموت ، فى سبيل الرأى السياسى . لم يكن مروان من هؤلاء ، وإنما كان
 شاعراً مجيداً ، يستطيع أن يكسب المال بشعره ، وقد رأى فرصة سانحة ،
 فأحسن انتهازها ، وقدر له التوفيق ، فجمع من المال ما لم يجمعه شاعر من قبله
 وأمثال مروان بن أبى حفصة كثيرون فى عصور الثورات والاضطراب
 السياسى ، والجهاد العنيف بين الأحزاب ، تجدهم فى كل مكان وفى كل
 زمان ، ولكن الذين يبلغون من الإجادة الفنية بين هؤلاء ما بلغه مروان
 قليلون جداً . . . كان مروان شرهاً إلى المال ، ولكن الغريب من أمره
 أنه لم ينتفع بهذا المال ، ولم يستمتع بشيء منه ، وإنما عاش عيشة بؤس
 وحرمان ، فكان من أبخل الناس ، وتستطيع أن تقول إنه كان أبخل شاعر
 عرفته العرب إلى ذلك الوقت ، وكان الناس يضربون الأمثال ببخل مروان ،
 ويتندرون به فى مجالسهم وأحاديثهم ، فهم يقولون مثلاً إنه كان إذا قدم
 بغداد ، ليمدح خليفة من الخلفاء ، ويظفر بجائزته ، لم يأكل إلا الرأس ،
 يبعث غلامه ، فيشتري له رأساً ، فيعيش عليه حيناً ، وقد كُلم فى ذلك ،
 فأجاب جواباً بديعاً ، أجب بأن الرأس لا يكلفه طبخاً ولا تهيتة ، فهو إذن
 يكفيه بعض المؤونة ، ثم إنه لا يَحتمل زيادة ولا نقصاً ، فلا يستطيع الغلام أن
 يخونه فيه ، فهو إن أكل أذنًا أو عيناً أو نحو ذلك ، ظهر سيده على ما أكل ،
 ثم إن له فى الرأس مَرافق ، فهو يتخذ منه ألواناً مختلفة ، دون أن يتكلف لذلك
 الأثمان ، التى يتكلفها الذين يريدون أن يتخذوا من الطعام ألواناً مختلفة ، فهو
 يأكل الأذنين لونا ، والعينين لونا آخر والغُلصمة لونا آخر ، وعلى هذا النحو .

وزعم ناس من الرواة أنهم مروا بمروان ، فنزلوا عنده في اليمامة ، فأطعمهم لحما ، فلما فرغوا من طعامهم دفع إلى غلامه فلساً وآنية ، ليشتري له شيئاً من الزيت يَطْعَمُ منه ، فذهب الغلام وعاد بالزيت ، ولكن مروان اتهمه بالسرقة والخيانة ، فجعل الغلام يسأله كيف أخونك في فلس واحد ، وجعل مروان يجيب : أخذت الفلس ، واستوهبت الزيت . ثم يتحدثون عن مروان نفسه أنه قال : ما فرحت لشيء قط كما فرحت يوماً وقد أجازني المهدي بمئة ألف درهم ، فوزتها فزادت درهما ، فاشتريت به لحماً ويقولون إنه مر بامرأة فأضافته ، فلما أراد الانصراف وعدها أن بلغت جائزته مئة ألف أن يهب لها درهما ، فلم تبلغ جائزته إلا ستين ألفاً ، وكان يريد معن ابن زائدة ، فوهب للمرأة أربعة دنانير ، وهو شيء لا يكاد يبلغ ثلثي الدرهم ، كما أن الجائزة لم تبلغ ثلثي المئة ألف .

وأحاديث مروان في البخل والحرص كثيرة ، روينا لك منها هذا الطَّرَفَ ، لنصور لك حبه للمال تصويراً كافياً ، على أن هذا التصوير في حاجة إلى أن تتمه ونكمله بقصة رواها أبو الفرج ، ولها قيمتها ، لأنها تمس شعر مروان ، وهي أنه مر ذات يوم برجل من باهلة وهو ينشد جماعة قصيدة له ، كان قد أنشأها في مدح مروان بن محمد الأموي ، قبل أن يبلغ هذا الشاعر الخليفة بقصيدته ، فاستمع مروان لهذه القصيدة ، فأعجبته ، وكان أولها :

مَرْوَانُ يَا بْنَ مُحَمَّدٍ أَنْتَ الَّذِي زِيدَتْ بِهِ شَرَفًا بَنُو مَرْوَانَ

فلما فرغ الشاعر من إنشاد قصيدته ، تبعه صاحبنا إلى بيته ، وقال له : إنك لم تظفر من هذه القصيدة بما كنت تريد ، فقد قُتل مروان ، وذهبت

دولته ، فَبِعَنَى هذه القصيدة ، لَأَتَحْلَهَا لِنَفْسِي ، وَتَفُوزُ أَنْتَ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَالِ ،
قَالَ الرَّجُلُ : قَدْ فَعَلْتُ . فَسَاوَمَهُ مَرْوَانَ ، وَانْتَهَيَا إِلَى ثَلَاثِ مِئَةِ دِرْهَمٍ ، ثُمَّ
اسْتَحْلَفَ مَرْوَانَ صَاحِبَهُ بِالطَّلَاقِ وَالْأَيْمَانَ الْمُخْرِجَةَ أَلَّا يَذْكُرَ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ ،
وَلَا يَرْوِيَهَا ، وَلَا يَنْسُبَهَا إِلَى نَفْسِهِ ، فَخَلَفَ الرَّجُلُ ، وَانصَرَفَ مَرْوَانُ
إِلَى بَيْتِهِ ، فَغَيَّرَ الْقَصِيدَةَ ، وَزَادَ فِيهَا ، وَنَقَصَ مِنْهَا ، وَحَوَّلَهَا إِلَى مَعْنَى
ابْنِ زَائِدَةَ ، فَقَالَ :

مَعْنَى ابْنِ زَائِدَةَ الَّذِي زِيدَتْ بِهِ شَرَفًا إِلَى شَرَفِ بَنُو شَيْبَانَ

وَوَفَدَ بِهَا عَلَى مَعْنَى ، فَلَا يَدِيهِ ، وَأَقَامَ عِنْدَهُ مَدَّةً ، حَتَّى أَثَرَى .

عَلَى أَنَّنَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَعْرِفَ كَيْفَ اتَّصَلَ مَرْوَانُ بْنُ أَبِي حَفْصَةَ بِنْتِ الْعَبَّاسِ ،
فَبَلَغَ عِنْدَهُمْ مِنَ الْحِظْوَةِ مَا بَلَغَ ، وَظَفَرَ مِنْهُمْ بِمَا كَانَ يَطْمَعُ فِيهِ مِنْ مَالٍ .
يُظْهِرُ أَنَّهُ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ لَمْ يَكُنْ يَفْكُرُ فِي الْإِتِّصَالِ بِهِمْ ، وَلَا فِي الْإِرْتِقَاءِ إِلَى
هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ ، مَنْزِلَةِ الشُّعْرَاءِ الَّذِي يَبْلَغُونَ قُصُورَ الْخُلَفَاءِ ، وَيَنْشُدُونَهُمْ فِيهَا الشُّعْرَ ،
وَكَأَنَّهُ كَانَ قَدْ تَرَكَ ذَلِكَ لِأَهْلِ الْعِرَاقِ ، وَاکْتَفَى بِحِظِّهِ مِنْ مَعْنَى بْنِ زَائِدَةَ ،
وَقَدْ كَانَ هَذَا الْحِظُّ عَظِيمًا مُوَفُورًا ، فَجُودَ مَعْنَى مَعْرُوفٌ ، وَقَدْ عَرَفَ مَرْوَانُ
كَيْفَ يَسْتَغْلُ هَذَا الْجُودَ وَيَسْتَثْمِرُهُ . لَكِنَّ مَعْنَى مَاتَ ، فَخَزَنَ عَلَيْهِ مَرْوَانُ ،
وَرَثَاءُ رِثَاءٍ كَثِيرًا جَيِّدًا ، مِنْهُ هَذَانِ الْبَيْتَانِ :

أَقْنَا بِالْيَمَامَةِ بَعْدَ مَعْنَى مُقَامًا لَا نَزِيدُ بِهِ زَوَالًا

وَقُلْنَا أَيْنَ نَرْحَلُ بَعْدَ مَعْنَى وَقَدْ ذَهَبَ النَّوَالُ فَلَا نَوَالًا

ثُمَّ بَدَّلَهُ ، فَوَفَدَ عَلَى الْمَهْدِيِّ فِيمَنْ وَفَدَ عَلَيْهِ مِنَ الشُّعْرَاءِ ، وَكَانَ اسْمُهُ
وَشَعْرُهُ قَدْ سَبَقَاهُ إِلَى الْمَهْدِيِّ ، كَمَا سَبَقَاهُ إِلَى الْمَنْصُورِ مِنْ قَبْلِ ، وَلَعَلَّ اسْمَ

معن هو الذي رفع مروان ، حتى انتهى به إلى قصور الخلفاء .

وفد على المهديّ ، فأنشده قصيدة يمدحه فيها ، فسأله المهديّ : من أنت ؟ قال شاعرك وعبدك ، مروان بن أبي حفصة ، قال المهديّ ألسنت القائل ، وذكر البيتين السابقين ، ثم قال لقد ذهب النوال فيما زعمت ، فلانوال لك عندنا ، ثم أمر به فسحب برجله ، حتى أخرج . ومن قبل المهديّ وَجِدَ المنصور على مروان ، لأنه أحسن مدح معن ووجد على معن ، لأنه أكثر العطاء لمروان ، حتى إنه لام مَعْنًا في ذلك ، ولكن مَعْنًا عرف كيف يخلص من لوم المنصور . كان المهديّ إذن واجداً على مروان ، حاسداً لمعن بن زائدة ، ولهذا حرم مروان وأهانته ، وكان مروان قد فهم هذا ، وكأنه قد استفاد من رحلته هذه ، فعرف الميول السياسية حول الخليفة ، واستفاد مما عرف ، فأقام عامّة في بلده اليمامة ، ثم استأنف الرحلة ، فدخل على المهديّ مع الشعراء ، وأنشده ، وكان الخامس أو السادس بين المنشدين ، وأنشده قصيدة يظهر أنها خَلَبَتْ أهل عصره ، وكان من حقها أن تَخْلِبَهُمْ ، فإنها آية من آيات الشعر السياسي ، وآية الجودة في اللفظ والمعنى ، وصفاء الأسلوب ورقته ، في غير ضعف ولا رِكة ولا تبذّل ، ومطلعها :

طَرَقَتْكَ زَائِرَةٌ فِي خَيَالِهَا بِيضَاءِ تَخْلِطُ بِالْجَمَالِ دَلَالِهَا

قَادَتْ فَوَادِكَ فَاسْتَقَادَ وَمِثْلَهَا قَادَ الْقُلُوبَ إِلَى الصَّبَا فَاَمَّا لَهَا

فلم يكذب يبدأ في إنشاده حتى أخذ على الناس أهواءهم ، فاستمعوا له معجبين ، وبلغ بهم ذلك أنهم كانوا كأنما تعلقوا بشفتي الشاعر ، حتى إذا هجم على الموضوع السياسي ، وأخذ يُحَاجُّ العلويين ، ويخاصمهم عن حق

بنى العباس فى وراثة الخلافة ، أخذ المهدي يزحف من صدر مُصلّاه ، حتى صار على البساط ، إعجابا بما يسمع . وإليك هذه الأبيات التى استخفت المهديّ ، وأحسب أنها ما تزال تستخف من له علم بالحياة السياسية يومئذ :

هَلْ تَطْمِسُونَ مِنَ السَّمَاءِ نَجْمَهَا بِأَكْفَكُمُ أَوْ تَسْتُرُونَ هِلَالَهَا
أَوْ تَجْحَدُونَ مَقَالََةً عَنْ رَبِّكُمْ جَبْرِيلُ بَلَّغَهَا النَّبِيَّ فَقَالَهَا
شَهِدْتُ مِنَ الْأَنْفَالِ آخِرَ آيَةٍ بَتَرَاهُمْ فَأَرَدْتُمْ إِبْطَالَهَا

فلما فرغ من إنشاده سأل المهدي عن القصيدة كم هى ؟ قال مروان : مئة بيت ، فأمر له بمئة ألف درهم ، وكانت هذه أول مئة ألف درهم نالها شاعر من خلفاء بنى العباس . قال الفضل بن الربيع ، وهو الذى شهد هذه القصة : فلما كانت أيام الرشيد دخل عليه مروان ، فأنشده قصيدة يمدحه فيها ، فسأله : ومن أنت ؟ قال : شاعرك وعبدك مروان بن أبى حفصة ، فذكر له ذينك البيتين ، اللذين رثابهما معن بن زائدة ، وقال له مثل مقالة المهدي ، وأمر به فأخرج ، قال الفضل بن الربيع : فلما كانت أيام تَلَطَّفَ مَرْوَانَ ، حتى دخل على الرشيد ، فأنشده قصيدته التى أولها :

لَعَمْرُكَ مَا أُنْسَى غَدَاةَ الْمُحْصَبِ إِشَارَةَ سَلَمِي بِالْبَنَانِ الْمُخَضَّبِ
وَقَدْ صَدَرَ الْحُجَّاجُ إِلَّا أَقْلَهُمْ مَصَادِرَ شَتَّى مَوْكِبًا بَعْدَ مَوْكِبِ

طرب الرشيد ، وسأله عن قصيدته كم هى ؟ قال : ستون أو سبعون ، فأمر له بعدد أبياتها ألوفاً ، وكان ذلك رسم مَرْوَانَ فى القصر حتى مات .

لعلك تريد الآن أن تعرف شيئاً عن شعر مروان ، وأنا آسف

الأسف كله ، لأننا لا نستطيع أن نتحدث في ذلك عن علم ولا عن بصيرة ،
إذ لم يحفظ لنا الرواة من شعر مروان إلا آياتا قليلة متفرقة ، ومع ذلك
فنستطيع أن نصور شعر مروان تصويراً مقاربا ، إن لم يكن صحيحاً ، وأكبر
الظن أنه صحيح .

لم يكن مروان متصرفاً في فنون الشعر ، ولعله لم يعد منها فناً أو فنين ،
فلسنا نعرف له غزلاً ، إلا هذا الغزل الذي تعود الشعراء أن يبدعوا به
مدائحهم ، ولسنا نعرف له هجاء إلا هذا النحو من الهجاء الذي يضطر إليه
الشعراء السياسيون ، حين يدافعون عن مذهبهم ، ويهاجمون خصومهم .
على أن موقف مروان كان في هذا دقيقاً جداً ، فهو لم يكن ينصر بني
العباس على بني أمية ، فيبلغ منهم ما يريد ، ويهجوهم في حرية ، وإنما كان
السيف هو الذي انتصر للعباسيين من بني أمية ، وكان العباسيون في حاجة
إلى من ينصرهم على العلويين وأتباعهم من بني هاشم ، ولم يكن هجاء
العلويين يسيراً ، كان الدين يأباه في ذلك الوقت . وكانت كرامة الخلافة
العباسية نفسها تأباه أيضاً ، فالعلويون من بني هاشم ، وهجاؤهم هجاء
للعباسيين ، ومن هنا سلك مروان وأمثاله من الشعراء السياسيين ، الذين
ناضلوا عن حقوق العباسيين ، مسئلك الدفاع والمناظرة الشريفة ، البريئة
من الشتم والقذف ، فكان دفاعهم أبلغ ، وكانت مناظراتهم أحسن وقعاً
من هجاء أولئك الشتامين المسرفين في الشتم . ثم لانعرف لمروان مجونا ولا
عبثاً ، فلم يكن كما قلنا ماجناً ولا عابثاً ، وإنما كان بخيلاً ، والبخل والعبث
شيئان لا يتفقان ، ومن ضنَّ على نفسه باللحم وطيبات الطعام ، لم يستبح

لنفسه خمرًا ولا ماتستتبعه الخمر . ثم لا نعرف مروان فخرًا ، وما نحسب أنه
فاخر أو مال إلى الفخر ، فقد كان رجلاً عملياً ، يعنيه أن يظفر بالمكانة
والثروة ، وكان يضمن بوقته وجهده على الفخر الذي لا يفيد .

لم يعرض إذن إلا لفنّين اثنين : المدح والرثاء ، وهو في المدح أشعر منه
في الرثاء ، وهذا طبعى ، فهو راغب حين يمدح ، يطلب المال ، ويحرص على أن
يظفر به ، فمعقول أن يجيد ، وأن يبلغ من الإجادة حظاً عظيماً ، أما في الرثاء
فهو لا يرغب ، ولا يطلب مالا ، وإنما يني بعهد ، ويشكر صنعة . ومعقول أن
موقفه هذا لا يدفعه إلى الإجادة ، إلا أن يكون حساساً ، دقيق الشعور ،
راقى النفس ، ولم يكن مروان من هذا كله فى شيء ، وإنما كان ، كما قلت
لك ، رجلاً عملياً يريد المال . على أن رثاءه لمعن ليس بالردىء ، وكذلك
رثاؤه للمهدى ، وهل نستطيع أن نعد رثاءه للمهدى رثاء ؟ هو مدح لأنه
عزاء للخليفة الجديد ، ففيه ذكر للخليفة الراحل ، والثناء على وارثه . وفيه
المثوبة والعطاء ، فهو إلى المدح أقرب منه إلى الرثاء . أما مدح مروان فمن
آيات المدح العربى ، ونحن لا نحفظ منه إلا متفرقات قليلة ، ولكنها تكفى
لنحكّم أن مروان كان قد أتقن المدح ، وبرع فيه ، بل نحسب أنه تفوق فى
هذا الفن على غيره من المعاصرين ، ولكن مدح مروان ينقسم إلى قسمين
متمايزين ، أحدهما المدح بالمعنى الشائع المعروف ، وهو موجه لمعن بن زائدة
فهو يَفْتَنُّ فى وصف معن بالجوّد والكرم والشجاعة والحب ، ثم يفتنّ فى
مدح بنى شيبان الذين ينتمى إليهم معن ، وهو لا يخرج فى مدحه هذا عن
سنة الشعراء من قبله ، ولكنه جيد المعانى منتقاها ، حسن الألفاظ صافياها .

وأما القسم الثانى فهو هذا المدح السياسى الذى كان ينشده الخلفاء من بنى العباس ، وهو مدح إن شئت ، ولكنه يمتاز عن المدح المعروف بما فيه من هذا النضال السياسى ، الذى كان يحتاج إلى مهارة وفطنة ، ودقة وخفة ، والذى كان يضطر صاحبه إلى أن يقهر العلويين دون أن يؤذيهم ، وإلى أن ينصر العباسيين دون أن يزدري خصومهم . وقد بلغ مروان من ذلك ما أراد ، فقد أغضب العلويين ، لأنه آذاهم أو هجاهم فيما نعتقد ، بل لأنه كان خصما قويا عنيدا ماهرا فى الخصام ، وقد رأيت فيما قدمنا أمثلة من خصومته ، وقوة حجته فى الخصومة .

ثم هناك شيئان لا بد من الإشارة إليهما ، ليكمل رأينا فى مروان ، ولنستطيع أن نحكم على شعره حكما مطلقا ، إن صح هذا التعبير .
الأول أن مروان لم يكن عراقيا ، ولم يرَض الإقامة فى العراق ، ولم يُطَل عشرة العراقيين ، من أهل المجون والعبث ، وإنما كان من أهل اليمامة ، أقام فيها ، لا يبرحها إلا وافدا على أمير أو وزير أو خليفة ، فإذا أشد قصيدته ، وظفر بجائزته ، عاد إلى اليمامة ، وأقام فيها عامه ، ثم استأنف الرحلة . ولهذا أثره فى شعر مروان : فهو أقرب إلى شعر الجاهليين والإسلاميين ، منه إلى شعر المحدثين ، من شعراء الحضارة العباسية ، تقروءه فتجد عليه هذه المسحة ، التى تخلو ، أو تكاد تخلو من الدعابة والخفة ، وتمتاز بشيء من الجلال والرصانة ، يمثل البادية تمثيلا صحيحا . ولهذا أثره من وجهة أخرى . فقد رضى علماء اللغة جميعا عن مروان ، وأحبوه من هذه الناحية ، وما أشك أنا فى أنهم كانوا يودون لو استطاعوا إشاره على بشار وأبى نواس ، لأنه كان أقرب منهما إلى

الأسلوب البدوي القديم ، ولكن أنى لهم ذلك وقد سلط الله عليهم لسان
بشار وأبى نواس ، فاضطروا إلى أن يحابوا هذين الشاعرين ويتملقوهما ،
وأجمعوا أو كادوا يجمعون على تقديم بشار ، وإيشاره على مروان . ومع ذلك
فليس إلى المقارنة سبيل بين الشاعرين ، إذا اتخذنا وجهة البحث والنقد ،
هذه الوجهة التي كان يعنى بها علماء اللغة . وهى وجهة المتانة والرصانة فى
اللفظ والأسلوب ، لا يقاس إلى مروان فى هذا أحد من شعراء العراق .
أما إذا اتخذنا وجهة أخرى للنقد ، إذا اتخذنا اختلاف الفنون التي طرقها
الشاعر ، وقرب المأخذ ، والدنو من أذهان الناس ، والقدرة على تمثيل حياتهم ،
فليس مروان يقاس إلى بشار ، ولا إلى أبى نواس بنوع خاص ، على أن من
علماء اللغة من استطاع أن يكون شجاعا شريفا فى فنه ، لا يخاف ولا يهاب ،
فصدّق نفسه ، وصدّق الناس ، وآثر مروان على غيره من الشعراء المعاصرين ،
وهذا العالم اللغوى هو ابن الأعرابي ، الذى ختم الشعر بمروان ، وأبى أن
يدون لأحد من المحدثين بعده ، والذى كان ينشد مع الإعجاب الشديد هذه
الآيات الجيدة من شعر مروان ، وهى :

بنو مطرٍ يوم اللقاء كأنهم	أسودّ لها فى بطن خفّان أشبلُ
همّ يمنعون الجار حتى كأنما	لجارهم بين السماكين منزلُ
لهاميم فى الإسلام سادوا ولم يكن	كأولهم فى الجاهلية أولُ
هم القوم: إن قالوا أصابوا، وإن دُعُوا	أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا
ولا يستطيع الفاعلون فعّالهم	وإن أحسنوا فى النائبات وأجملوا

وكان ابن الأعرابي يقول : لو أن معنا أعطى مروان كل ما مملك بهذه
الآيات لما بلغ حقه .

الثانى أن مروان لم يكن سريعاً فى الشعر، ولا متعجلاً، ولا مسترسلاً مع الطبع، وإنما كان بطيئاً متسهلاً. كان يجيد الشعر، لأنه كان يجوده. كان يسلك هذه الطريقة التى يزعم الرواة أن زهيراً كان يسلكها، فى هذه القصائد التى يسمونها الحوليّات. كان ينفق أشهراً فى إنشاء القصيدة، وأشهر فى إصلاحها، وأشهر فى عرضها، حتى إذا استقام له هذا كله، أنشد قصيدته لمدوحه، خليفة كان أوزيراً أو أميراً، فليس عجباً مع هذه الأناة أن يخلو شعره مما يستنكر، وأن يبرأ من الضعف والوحشية معاً. ولقد يحدثنا الرواة بطائفة من أخبار مروان مع اللغويين والشعراء، الذين كان يعرض عليهم شعره قبل أن ينشده الخلفاء. ولست أشير إلا إلى سيرته مع بشار، فلها معناها. كان مروان يعرض القصيدة على بشار، ويسأله رأيه فيها، فلا يحببه بشار بأنها جيدة أو بأنها رديئة، بل يقدر له قيمة القصيدة ما ليا، فيقول: سيعطونك عليها كذا وكذا... وقد صدق بشار مرتين، فأظهر له مروان العجب من ذلك، فقال بشار: ألم أقل لك إني أعلم الغيب؟ ولم يكن يعلم الغيب، وإنما كان يفهم مروان، ويفهم الخلفاء، ويفهم الميول السياسية، التى كان من شأنها أن تجزّل حظ مروان من العطاء.

كان مروان متناقضاً، ولكنه تناقض مفهوم، كان شديد الحرص على الإجابة، فكان يشك فى شعره، ويستشير فيه الشعراء والنحاة، ولكنه كان مع ذلك معجباً بنفسه، لا يقدم عليها أحداً بعد هؤلاء الشعراء الثلاثة:

الأخطل والفرزدق وجريرو . واسمع رأيهم في نفسه ، فقد عقده شعراً
ليثبت كما يقول :

ذهب الفرزدق بالفخار وإنما	حُلو القريض ومره لجريرو
ولقد هجأ فأمض أخطل تغليب	وحوى اللهى ببيانه المشهور
كل الثلاثة قد أجاد فمدحه	وهجأوه قد سار كل مسير
ولقد جريت ففت غير مهلل	بجراء لا قرف ولا مبهور
إني لآنف أن أحبر مدحة	أبدأ لغير خليفة ووزير
ماضني حسد اللئام ولم يزل	ذو الفضل يحسده ذوو التقصير

أما رأي مروان في النقد فبديع ، كان ينشد الشعر لا مري القيس ،
ويقول هو أشعر الناس ، ثم ينشد شعر الأعشى ، ويقول هو أشعر الناس ،
ثم ينشد شعر زهير ، ويقول هو أشعر الناس ، حتى إذا أنشد لطائفة كثيرة
من الشعراء ، فرآهم جميعاً أشعر الناس ، قال ضاحكاً : الناس أشعر الناس .
ولست أعرف رأياً كهذا الرأي ، يمثل الشك في نقد الناقدين المعاصرين
والسخرية بهذا النقد .

أظن أني قد صورت لك مروان بن أبي حفصة تصويراً مقارباً ، إن
لم يكن صحيحاً ، وكنت أريد أن أحدث معه عن السيد الحميري ، كما ترى
في عنوان هذا الحديث ، ولكنني أطلت فأرجى السيد إلى الحديث الآتي ،
وأختم هذا الفصل بموت مروان يقصه قاتله .

روى صاحب الأغاني عن رجل يقال له صالح بن عطية الأضجم ، أنه قال :

لما قال مروان :

أَنِّي يَكُونُ وَلَيْسَ ذَاكَ بِكَائِنٍ لِبَنِي الْبَنَاتِ وَرِاثَةِ الْأَعْمَامِ
لَزِمْتَهُ ، وَعَاهَدْتُ اللَّهَ أَنْ أَغْتَالَهُ ، فَأَقْتَلَهُ أَيَّ وَقْتٍ أَمَكْنِي ، وَمَا زِلْتُ الْأَظْفَه
وَأَبْرَثُهُ ، وَأَكْتُبُ أَشْعَارَهُ ، حَتَّى خُصِّصْتُ بِهِ ، فَأَنْسِ بِي جَدًا . وَعَرَفْتُ ذَلِكَ
بَنُو حَفْصَةَ جَمِيعًا ، فَأَنْسُوا بِي ، وَلَمْ أَزَلْ أَطْلُبُ غِرَّةً ، حَتَّى مَرَضَ مِنْ حَمِيٍّ
أَصَابَتْهُ ، فَلَمْ أَزَلْ أَظْهَرُ لَهُ الْجَزْعَ عَلَيْهِ ، وَالْأَازِمَةَ وَالْأَظْفَه ، حَتَّى خَلَّى الْبَيْتَ
يَوْمًا ، فَوُثِّبَتْ عَلَيْهِ ، فَأَخَذَتْ بِحَلْقِهِ ، فَمَا فَارَقَتْهُ حَتَّى مَاتَ ، فَخَرَجَتْ وَتَرَكَتَهُ ،
فَخَرَجَ إِلَيْهِ أَهْلُهُ بَعْدَ سَاعَةٍ ، فَوَجَدُوهُ مَيِّتًا ، وَارْتَفَعَتِ الصَّيِّحَةُ ، فَخَضِرَتْ
وَتَبَاكَيْتَ ، وَأَظْهَرْتَ الْجَزْعَ عَلَيْهِ حَتَّى دُفِنَ ، وَمَا فَطِنَ بِمَا فَعَلْتَ أَحَدٌ ،
وَلَا أَتَهَمَنِي بِهِ .

السيد الحميري^(١)

علويون ، وعباسيون

اضطربنا ذكر أبان بن عبد الحميد إلى أن نعرض للشعر السياسي في صدر أيام العباسيين ، فذكرنا أبان بن عبد الحميد نفسه ، ورأينا مذهبه ، وكيف كان يتخذ التشيع للعلويين لوناً سياسياً ، كسأدته البرامكة ، ثم كيف لم يمنعه هذا أن يكون حرباً على العلويين ، كسأدته البرامكة أيضاً . ثم ذكرنا هذا الشاعر الذي قصر شعره السياسي على بني العباس ، فدافع عنهم وناضل ، حتى قتله رجل من شيعة العلويين غيلة ، وهو مروان بن أبي حفصة ، الذي كان خليفاً أن يكون أمويّ النزعة ، ولكن حبه للمال ، وتهالكه عليه ، قطع الصلة بينه وبين قديمه ، وحمله على أن يقف شعره على من كان ييدهم المال والسلطان .

ونريد اليوم أن نرى شاعراً سياسياً ثالثاً ، يختلف كل الاختلاف عن هذين الرجلين ، اللذين رأيناها ، فهو لم يكن فارسياً ، ولا ميالاً إلى الفرس ، ولا متصلاً بزعمائهم ، ولا متأثراً بحضارتهم تأثراً خاصاً . وإنما هو رجل عربي خالص ، لأمه وأبيه ، وهو من عرب اليمن ، أبوه من حمير ، وأمه من الأزد ، وهو إسماعيل بن محمد ، المعروف بالسيد الحميري .

(١) نشرت بالسياسة في ٢١ ذو القعدة سنة ١٣٤٢ هـ - ٢٥ يونيو سنة ١٩٢٤ م

ليس فارسياً ولا متصلاً بأحد من زعماء الفرس ، وإذن فلم يكن
تشيعة طلاء سياسياً كاذباً ، يستر الشيوعية وبُغض العرب : ولم يكن أمويّ
النزعة ، بل لم تكن بين أسرته وبين الأمويين صلة مودة ، كما كانت الحال
بين آل أبي حفصة والمرأونة ، وإنما كان الأمر على عكس ذلك بالقياس
إلى السيد الحميريّ ، فإن جده يزيد بن مفرّغ هجا زيادا وآل زياد ، وعرف
سجن عبّيد الله بن زياد . وكان أبو السيد وأمه من الخوارج الإباضية ، فكانا
يكرهان الأمويين ، كما كانا يكرهان بني هاشم ، وكانا يشتمان معاوية ،
كما كانا يشتمان علياً ، ومع ذلك فقد كان السيد الحميريّ شيعة لعليّ وأبنائه ،
ولعل شيعة العلويين لم يظفروا بشاعر مثله في حياتهم السياسية كلها ،
وقف عليهم عمره وجهده ، وكاد يقف عليهم مدحه وثناءه ، مخلصاً في ذلك
كله إخلاصاً لا يشبهه إخلاص . ولم يكن السيد الحميريّ نفسه يعرف كيف
وصل التشيع إليه ، بل كان إذا سئل عن ذلك قال : غاصت رحمة الله علىّ
غوصاً ، وكان يسمع أبويه يشتمان علياً ، ويبالغان في شتمه ، فكان يكره
ذلك ، ثم صح له مذهبه في التشيع ، وظهر منه أبواه على هذا الرأي ، فيقال
إنهما هما بقتله ، فاستجار منهما بعقبة بن مسلم ، فأجاره حتى ماتا ، وتم
له ميراثهما .

هو إذن يخالف أبان بن عبد الحميد ، في أنه لم يكن فارسياً ولا ميالاً إلى
الفرس ، ويخالف مروان بن أبي حفصة ، في أنه لم يكن أموياً ولا ميالاً إلى
بني أمية ، ولكنه مع ذلك يوافق الرجلين ، في أنه لم يعبّ عن أموال بني
العباس ، بل تقرب إليهم ، وأثنى عليهم ، وأنشدهم شعره ، وأخذ من أموالهم

ما استطاع ، مع أنه لم يكن يحبهم ولا يهواهم ، وإنما كان هواه مع قوم آخرين ، هم آل عليّ .

على أن أمر السيد الحميريّ يخالف أمر صاحبيه من هذه الناحية أيضا ، فهو فيما بينه وبين نفسه لم يَأْثَم حين مدح العباسيين ، وظفر بجوائزهم ، وهو لم يقل كما قال ابن بن عبد الحميد لا أستحل ذلك ، ثم استحلّه ، وإنما كان السيد الحميريّ يستحل ذلك ، كان يستحل أن يظهر غير ما يضر ، وأن يمدح بني العباس بلسانه ، ويلعنهم في قلبه ، فيظفر بما لهم ، ويتق شرهم ، كان يستحل ذلك كما كانت تستحلّه عامة الشيعة ، الذين كانوا يقولون بمذهب التقيّة ، ويستبيحون لأنفسهم أن يروا في السياسية والدين رأيين ، رأيا تجاريا ، إن صح هذا التعبير ، يصطنعونه فيما بينهم وبين الناس ، ليعيشوا ويأمنوا ، ويستمتعوا بلذات الحياة والأمن ، ورأيا آخر يخفونه على الناس جميعا إلا أنصارهم وأولياءهم ، وهو الرأي الذي يصطنعونه فيما بينهم وبين الله ، وعلى هذه السيرة سارت الشيعة العلوية أيام الأمويين ، وعليها سارت أيضا أيام العباسيين ، وهي معقولة ، ممكنة التفسير ، فقد لقيت شيعة عليّ من الاضطهاد وألوان المحن أيام بني أمية ، ما لم يلقه حزب سياسي آخر ، إذا استثنينا الخوارج ، على أن المقارنة بينهم وبين الخوارج من هذه الناحية لا معنى لها ، وكانت شيعة عليّ من وجوه الناس وأشرفهم ، وذوى الثروة والمكانة فيهم ، فلم يكن لهم بد من أن يداروا الناس ويتقوهم ، ليحتفظوا بثرائهم ومكائدهم ، حتى إذا سنحت لهم فرصة ، أو برقت لهم بارقة أمل ، نهضوا لحقّهم ، فطالبوا به ، ودافعوا عنه ، وعلى هذا النحو استطاع الكميّ بن زيد ،

وهو الشاعر الذي يمكن أن يقرن إلى السيد الحميري ، أن يدح بنى أمية ، ويُفيد من أموالهم ، وعلى هذا النحو استطاع « كثير » أيضاً أن يدح الأمويين ، ويُصيب من جوائزهم ، بل على هذا النحو استطاع « الفرزدق » أن يضمير ميله إلى العلويين ، ويكنمه كتماناً ، وأن يقصّر مدحه أو يكاد يقصره على الخلفاء من بنى أمية .

فليس غريباً أن نرى السيد الحميري يدح بنى العباس ، ويتقرب إليهم ، مع أنه كان من غلاة العلويين ، الذين أسرفوا في علويتهم ، حتى تجاوزوا بها كل حد . كان السيد الحميري علوياً غالياً ، وكان من الرافضة ، وقد جنى عليه غلوه ورفضه هذان جناية عظيمة ، هي التي تعيننا ، وإن كانت لم تعنه ، ولم تنل منه ، ذلك أنه عاش عيشة هادئة مطمئنة ، فلم ينله أذى ، ولم يتعرض لخطر ، بل استمتع من نعيم الحياة بكثير ، ولكن رفضه وغلوه بغضاشعره إلى الناس ، وحملهم على أن يعرضوا عنه الإعراض كله ، إما لأنهم كانوا يكرهون أن يرووا شتم أبي بكر وعمر وغيرهما من أصحاب النبي وأزواجه ، وإما لأنهم كانوا يخشون السلطان إن رووا ذلك أو تناقلوه ، ومهما يكن من شيء ، فقد كان السيد الحميري أحد الشعراء الذين عُرفوا بكثرة الشعر ، ولم يتقدمهم في ذلك أحد ، في جاهلية أو إسلام ، وهم بشار ، وأبو العتاهية ، والسيد . فأما بشار فقد ذهب شعره ، لما كان فيه من زندقة ومجون وكفر ، وأما أبو العتاهية فقد حُفِظ له ديوانه ، لما كان فيه من زهد وورع ودين ، وأما السيد فقد ذهب شعره ، لما كان فيه من شتم السلف ، والطعن عليهم ، والإسراف في الزرابة بهم . ولقد احتاط أبو الفرج احتياطاً شديداً ، وتخرج تحرجاً

عظيما ، في رواية ماروي من أخباره وأشعاره القليلة ، ولو استطاع لأعرض
عن ذلك إعراضاً ، وكان الرواة وأئمة اللغة يتحرجون من شعره ،
ويختلسون الفرص اختلاسا يتلون فيها شيئا من شعره ، خفية دون أن
يظهر عليهم الناس ، وكان منهم من يأسف ويأسى ، لأنه فيما بينه وبين نفسه
يكبر هذا الشاعر ، ويقدر شعره ، ولكنه لا يستطيع ، لخوف أولدين ، أن
ينزله منزله الصحيحة من الشعراء ؛ كان الأصمعي يُقدِّمه على طبقة ، لولا
إسرافه في شتم السلف ، وكذلك كان أبو عبيدة ، وكذلك كان غيرهما من
الرواة الذين عاصروهما .

ولعلك تتساءل عن مصدر هذا الخوف العظيم ، الذي كان يشتمل على
الناس ، إذا ذكر السيد الجبيري أو شعره ، والذي كان يحمل أصدقاء الشاعر
والمعجبين به ، على أن يتناقلوا شعره سرا فيما بينهم ، فمصدر هذا الخوف
شيئان : أحدهما الدين ، والآخر السياسة . وما رأيك في رجل لم يدع نقية
من النقائص ، ولا مآثمة من المآثم ، ولا لونا من ألوان العيب ، إلا رمى
بها خيرة المسلمين وسلفهم الصالح ، لا يستثني من هؤلاء جميعا إلا بني هاشم
وشيعتهم ، فأما أبو بكر وعمر وعثمان وغيرهم من أصحاب النبي ، مهاجرين
وأنصارا ، فلم يساموا من لسانه ، ولم يأمنوا من ذمه ونعيه . أفظن أن أولئك
المسلمين الذين كانوا يعيشون أيام المنصور والمهدي ، على قرب عهدهم
بالسلف ، وشدة حرصهم على تكريمه وتعظيمه ، كانوا يستطيعون أن يرووا
هذا الشعر أو يسمعوه ، دون أن يأخذهم الألم ، وينالهم الاشتزاز ، ويصيبهم
شيء من الحرج في دينهم ، بصرفهم عن هذا الشعر صرفا غنيا ؟

أما السياسة فقد أريد أن أتم هذه الفرصة ، لأبين لك مقدار البغض والعداء
الذين كانا يفصلان بين آل العباس وآل علي ، أيام السيد الحميري ، وليس
أدل على ذلك ، ولا أنطق به ، ولا أبلغ في وصفه ، من هاتين الرسالتين اللتين
تبادلهما المنصور ومحمد بن عبد الله بن الحسين العلوي حين خرج بالمدينة .
هاتان الرسالتان اللتان أرويهما ، على طولهما ، تصفان لك هذا العداء الشديد ،
الذي كان يقسم بني هاشم قسمين : قسما يوالي العباسيين ، وقسما يوالي العلويين ،
وهما على هذا يبينان لك شيئا آخر ، أشرت إليه في فصل مضى ، وهو النظرية
السياسية والدينية ، التي كان يعتمد عليها العباسيون في إقامة ملكهم ، والتي
دافع عنها مروان بن أبي حفصة ، ودافع عنها أبان بن عبد الحميد ، والنظرية
السياسية الدينية التي كان يعتمد عليها العلويون في المطالبة بحقوقهم ، والتي قامت
عليها الثورات ، وسُفكت من أجلها الدماء ، واستغلها الفرس لأهوائهم
وشهواتهم السياسية .

لما خرج محمد بن عبد الله بالمدينة ، كتب إليه المنصور يرغبه ويرهبه ،
ويخوفه عاقبة الخروج والبغى ، ويبذل له الأمان إن تاب وعاد إلى رأي الجماعة .
فكتب إليه محمد بن عبد الله هذا الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم » من محمد عبد الله المهدي ، إلى عبد الله
ابن محمد . (طسم ، تلك آيات الكتاب المبين ، نتلو عليك من نبأ موسى
وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها
شيعا ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم ، إنه كان من
المفسدين . ونريد أن نمنَّ على الذين استضعفوا في الأرض ، ونجعلهم أئمة ،

ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) وأنا أعرض عليك من الأمان ، مثل الذي عرضت عليّ ، فإن الحق حقنا ، وإنما ادعيت هذا الأمر بنا ، وخرجتم له بشيعتنا ، وحظيتم بفضلنا ، وإن أبانا عليّا كان الوصيّ ، وكان الإمام ، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء ؟ ثم قد علمت أنه لم يطلب هذا الأمر أحده مثل نسبنا وشرفنا وحالنا ، وشرف آبائنا ، لسنا من أبناء اللعناء ولا الطرداء ولا الطلقاء ، وليس يمتُّ أحد من بني هاشم بمثل الذي تمتُّ به من القرابة والسابقة والفضل ، وإنا بنو أم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو في الجاهلية ، وبنو بنته فاطمة في الإسلام دونكم ، إن الله اختارنا واختار لنا ، فولدنا من النبيّين محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن السلف أولهم إسلاما عليّ ، ومن الأزواج أفضلهن خديجة الطاهرة ، وأول من صلّى القبلة ، ومن البنات خيرهن فاطمة ، سيدة نساء أهل الجنة ، ومن المولودين في الإسلام حسن وحسين سيدا شباب أهل الجنة ، وإن هاشما ولد عليا مرتين ، وإن عبدالمطلب ولد حسنا مرتين ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدني مرتين من قبل حسن وحسين ، وإنني أوسط بني هاشم نسبا ، وأصرحهم وأما أبا ، لم تُعْرِق فيّ العجم ، ولم تتنازع فيّ أمّهات الأولاد . فما زال الله يختار لي الآباء والأمهات في الجاهلية والإسلام ، حتى اختار لي في النار ، فأنا ابن أرفع النار درجة في الجنة ، وأهونهم عذابا في النار . وأنا ابن خير الأخيار ، وابن خير الأشرار ، وابن خير أهل الجنة ، وابن خير أهل النار ، ولك الله عليّ إن دخلت في طاعتي ، وأجبت دعوتي ، أن أوْمَنَكَ على نفسك ومالك ، وعلى كل أمر أحدثته ،

إلا حداً من حدود الله ، أو حقاً لمسلم أو معاهد . فقد علمت ما يلزمك من ذلك ، وأنا أولى بالأمر منك ، وأوفى بالعهد ، لأنك أعطيتني من العهد والأمان ما أعطيته رجالاً قبلي . فأى الأمانات تعطيني ؟ أمان بن هُبيرة ، أم أمان عمك عبد الله بن علي ، أم أمان أبي مسلم ؟

فانظر إلى هذا الكتاب كيف عرض فيه محمد بن عبد الله نظرية العلويين السياسية والدينية ، وهى أنهم ورثوا الخلافة عن النبي ، لأن أباهم كان وصى النبي ، ولأن أمهم بنت النبي ، وما كان لغيرهم أن يلى الخلافة وهم أحياء ، ثم انظر كيف افتخر بمكانه من النبي فى الإسلام والجاهلية ، وبهذه الكرامة التى خص الله بها أهل البيت . وكيف ذكر أنه ابن خير الأخيار ، وخير الأشرار ، وخير أهل الجنة ، وخير أهل النار ، يريد أبا طالب ، الذى مات ولم يسلم ، فيروى أنه أقل أهل النار عذاباً ، ثم انظر كيف ختم كتابه بهذا التعبير ، يصف فيه المنصور ، لأنه نقض العهد ، وخان الدمة مع قوم آمنوه ، فقتل منهم من قتل ، وسجن منهم من سجن .

وكان وقع هذا الكتاب شديداً فى قصر المنصور ، فقد انتدب الكتابُ والأمراء للرد عليه ، وأبى المنصور إلا أن يرد بنفسه ، فكتب هذا الكتاب . (بسم الله الرحمن الرحيم) أما بعد ، فقد بلغنى كلامك ، وقرأت كتابك ، فإذا جُلْ نخرِك بقرابة النساء ، لتضل به الجفافة والغوغاء ، ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء ، ولا كالعصبة والأولياء ، لأن الله جعل العم أباً ، وبدأ به فى كتابه على الوالدة الدنيا ، ولو كان اختيار الله لهن على قدر قرابتهن ، كانت آمنة أقربهن رحماً ، وأعظمهن حقاً ، وأول من يدخل الجنة غداً ، ولكن

اختيار الله خلقه على علمه ، لما مضى منهم ، واصطفائه لهم .
وأما ما ذكرت من فاطمة أم أبي طالب وولادتها ، فإن الله لم يرزق
أحدًا رزق الإسلام ، لا بنتًا ولا ابنًا ، ولو أن أحدًا رزق الإسلام بالقرابة ،
رُزقه عبد الله ، أولاهم بكل خير في الدنيا والآخرة ، ولكن الأمر لله يختار
لدينه من يشاء قال الله عز وجل : « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ
يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » ولقد بعث الله محمدًا عليه السلام وله
عمومة أربعة ، فأنزل الله عز وجل : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » فأنذرهم ،
ودعاهم ، فأجاب اثنان ، أحدهما أبي ، وأبي اثنان : أحدهما أبوك ، فقطع الله
ولايتهما منه ، ولم يجعل بينه وبينهما إلا ولا ذمة ولا ميراثًا .

وزعمت أنك ابن أخف أهل النار عذابًا ، وابن خير الأشرار ، وليس في
الكفر بالله صغير ، ولا في عذاب الله خفيف ولا يسير ، وليس في الشر خيار
ولا ينبغي لمؤمن يؤمن بالله أن يفخر بالنار . وسترد فتعلم ، « وسيعلم الذين
ظلموا أي منقلب ينقلبون » .

أما ما فخرت به من فاطمة أم علي ، وأن هاشما ولده مرتين ، ومن
فاطمة أم حسن ، وأن عبد المطلب ولده مرتين ، وأن النبي صلى الله عليه
وسلم ولدك مرتين ، فخير الأولين والآخرين رسول الله (صلعم) لم يله
هاشم إلا مرة ، ولا عبد المطلب إلا مرة ، وزعمت أنك أوسط بني هاشم
نسبًا ، وأصرحهم أمًّا وأبًّا ، وأنه لم تلدك العجَم ، ولم تُعرق فيك أمهات
الأولاد ، فقد رأيتك فخرت على بني هاشم طرًّا ، وانظر ويحك أين أنت
من الله غدًّا ، فإنك قد تعديت طورك ، وفخرت على من هو خير منك نفسًا
وأبًّا ، وأولا وآخرًا ، إبراهيم ابن رسول الله (صلعم) وعلى ولد ولده ،

وما خيار بني أبيك خاصة ، وأهل الفضل منهم ، إلا بنو أمهات أولاد ، وما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله (صلعم) أفضل من علي بن حسين ، وهو لأم ولد ، ولهو خير من جدك حسين بن حسن ، وما كان فيكم بعده مثل ابنه محمد بن علي ، وجدته أم ولد ، ولهو خير من أبيك ، ولا مثل ابنه جعفر ، وجدته أم ولد ، ولهو خير منك .

أما قولك إنكم بنو رسول الله (صلعم) فإن الله تعالى يقول في كتابه : « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم » . ولكنكم بنو ابنته ، وإنها لقربة قريبة ، ولكنها لا تحوز الميراث ، ولا ترث الولاية ، ولا تجوز لها الإمامة ، فكيف تورث بها ، ولقد طلب بها أبوك بكل وجه ، فأخرجها نهاراً ، ومرّضها سراً ، ودفنها ليلاً ، فأبى الناس إلا الشيخين وتفضيلهما ، ولقد جاءت السنة التي لا اختلاف فيها بين المسلمين ، أن الجد أبا الأم والخال لا يرثون ، وأما ما نخرت به من عليّ وسابقته ، فقد حضرت رسول الله (صلعم) الوفاة ، فأمر غيره بالصلاة ، ثم أخذ الناس رجلاً بعد رجل ، فلم يأخذوه ، وكان في الستة فتركوه كلهم ، دفعاً له عنها ، ولم يروا له حقاً فيها . أما عبد الرحمن فقدم عليه عثمان ، وقتل عثمان وهو له متهم ، وقتل طلحة والزبير ، وأبى سعد بيعته ، وأغلق دونه بابه ، ثم بايع معاوية بعده ، ثم طلبها بكل وجه ، وقتل عليها ، وتفرق عنه أصحابه ، وشك فيه شيعته قبل الحكومة ، ثم حكم حكمين رضى بهما ، وأعطاهما عهده ومشايقه ، فاجتمعوا على خلعه ، ثم كان حسن ، فباعها من معاوية بخرق ودرهم ، ولحق بالحجاز ، وأسلم شيعته بيد معاوية ، ودفع الأمر إلى غير أهله ، وأخذ مالا من غير ولائه ولا حيلة . فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه ،

وأخذتم ثمنه ، ثم خرج عمك حسين بن عليّ على ابن مرّجانة ، فكان الناس معه عليه حتى قتلوه ، وأتوا برأسه إليه ، ثم خرجتم على بني أميّة فقتلوكم ، وصلبوكم على جذوع النخل ، وأحرقوكم بالنيران ، ونفوكم من البلدان ، حتى قتل يحيى بن زيد بخراسان ، وقتلوا رجالكم ، وأسروا الصّبية والنساء ، وحملوهم بلا وطاء من المحامل ، كالصبي المجلوب إلى الشام ، حتى خرجنا عليهم ، فطلبنا بثأركم ، وأدر كنا بدمائكم ، وأورثناكم أرضهم وديارهم ، وسنّينا سلفكم وفضلناهم ، فاتخذت ذلك علينا حجة ، وظننت أنا ذكرنا أباك وفضلناهم ، للتقدمة مناله على حمزة والعباس وجعفر ، وليس ذلك كما ظننت ، ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين ، متسلماً منهم ، مجتمعاً عليهم بالفضل ، وابتلى أبوك بالقتال والحرب ، وكانت بنو أميّة تلعنه كما تلعن الكفرة في الصلاة المكتوبة ، فاحتججنا له ، وذكرناهم فضله ، وعنفناهم وظاهناهم بما نالوا منه . ولقد علمت أن مكرمتنا في الجاهلية سقاية الحجيح الأعظم ، وولاية زمزم ، فصارت للعباس من بين إخوته ، فنازعنا فيها أبوك ، ففقدنا لنا عليه عمر ، فما نزل عنها في الجاهلية والإسلام ، ولقد قحط أهل المدينة ، فلم يتوسل عمر إلى ربه ، ولم يتقرب إليه إلا بأينا ، حتى نعشهم الله ، وسقاهم الغيث ، وأبوك حاضر لم يتوسل به ، ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بني عبد المطلب بعد النبي (صلم) غيره ، فكان وارثه من عمومته ، ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بني هاشم ، فلم ينله إلا ولده ، فالسقاية سقايته ، وميراث النبي له ، والخلافة في ولده ، فلم يبق شرف ولا فضل في جاهلية ولا إسلام ، في دنيا ولا آخرة ، إلا والعباس وارثه ومورثه

وأما ما ذكرت من بدر ، فإن الإسلام جاء والعباس يمون أبا طالب وعياله ،
وينفق عليهم ، للأزمة التي أصابته ، ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كرها
لمات طالب وعقيل جوعا ، وللحق جفان عتبة وشيبة ، ولكنه كان من
المطعمين ، فأذهب عنكم العار والشبهة ، وكفاكم النفقة والمؤونة ، ثم فدى
عقيل يوم بدر ، فكيف تفخر علينا وقد غلناكم في الكفر ، وفديناكم من
الأسر ، وحزننا عليكم مكارم الآباء ، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء ، وطلبنا
بثأركم ، فأدركنا منه ما عجزتم عنه ، ولم تدركوا إلا أنفسكم . والسلام عليكم
ورحمة الله . (الطبرى جزء تاسع) .

أترى إلى المنصور كيف استطاع أن يهدم مفاخر ابن عمه ، وأن يقيم
على أنقاضها مفاخر العباسيين . ثم أترى إلى نظرية العباسيين في خلافتهم ،
هذه التي تقوم على أن العلم أحق بالوراثة من البنت ، وعلى أن العباس قد
ورث النبي ، فأبناؤه يرثونه ، وعلى أن بنى على قد نزلوا عن حقهم في الخلافة
حين باعها الحسن من معاوية بخرق ودراهم ، وهو نفس الكلام الذى
كان يردده مروان بن أبى حفصة ، وأبان بن عبد الحميد ، وغيرهما من الشعراء
السياسيين لبني العباس ، فالمنصور هو الذى وضع هذه النظرية ، واحتج لها
بالفقه والسنة ، وجعلها مذهباً سياسياً ودينياً ناضل عن الشعراء .

ثم انظر إليه كيف عيّر العلويين نكرانهم للجميل ، وكفرهم بالنعمة ،
فقد نهض بنو العباس يثأرون لهم ، ويطلبون بدمائهم ، حتى أدركوا الثأر ،
ومحووا العار ، وأذلوا دولة بنى أمية ، فلم يروا من أبناء عمهم إلا عقوقا وجحودا .
ولسنا نريد أن نحكم بين العباسيين والعلويين في هذه القضية ، فذلك

شئ لا يعنيننا الآن ، وإنما نريد أن نمثل العداء الذي كان بين هاتين الأسرتين ،
ونحسب أن هذين الكتابين يمثلانه تمثيلاً قوياً ، وأنت تعلم أن الحرب اتصلت
بين المنصور ومحمد هذا ، حتى قتل محمد في المدينة ، وقتل أخوه إبراهيم في
البصرة ، وكل هذا يبين لك إلى أي أحد كان الناس يخافون من رواية
الشعر الذي يدافع عن العلويين ، ويؤثرهم على غيرهم بالخلافة ، في ظل رجل
قوى كالمنصور .

على أن شاعرنا السيّد الحميريّ ، لم يكن من أنصار الحسن والحسين ،
أو بعبارة أصح لم يكن من أنصار ولد الحسن والحسين ، وإنما كان من
الكنيسانية ، الذين كانوا ينصرون الابن الثالث من أبناء علي ، محمد بن خولة
الحنفية ، والذين كانوا يدينون بأنه لم يمت ، وإنما تغيب عن الناس ، واحتجب
عنهم حيناً ، وسيعود فيملاً الأرض عدلاً ، كما مُلئت جوراً ، فلم يكن على
السيد الحميريّ بأس أن يمدح بنى العباس ، ويتقرب منهم ، مادام صاحبه محمد
ابن الحنفية لم يعد من غيبته بعد .

ثم نستطيع أن نميز هذا الشاعر بخصلة لم نرها في شاعر من الذين
تحدثنا عنهم قبل اليوم ، وهي أنه كان سخيلاً ضعيف العقل ، شديد الإيمان
بالخرافات والأوهام ، ويظهر أن هذه الخصلة جاءت من مذهبه نفسه في
الرجعة ، فقد أسرف في هذا المذهب ، كما أسرف في مدح العلويين ، والإيمان
بهم ، حتى وصفهم من الخير والكرامة بما يقبل ومالا يقبل ، فكان كل
خير يمكن أن ينسب إلى العلويين ، رضيه العقل أو لم يرضه ، وكان كل
شر يمكن أن ينسب إلى خصوم العلويين ، رضيه العقل أم لم يرضه ،
وكان يكفي أن يسمع رجلاً من أهل القصص ورواة الأساطير ، يروى

كرامة من الكرامات ، يضيفها إلى أحد العلويين ، حتى ينظم فيها قصيدة طويلة جيدة ، ويتخذ هذه النصيدة وسيلة إلى ذم السلف ، والنعي عليه . وخصلة أخرى تقربه من الزنادقة الذين عاصروه ، ولكنها تجعل الصلة بينه وبينهم ضعيفة واهية في الوقت نفسه ، وهي أنه كان يستبيح ضروباً من اللهو المنكر ، ويسرف في شرب الخمر ، وغير ذلك من ألوان العبت ، لأنه كان يحجد الدين أو يزدرية ، بل لأنه كان يُدَلّ على صاحب الدين . كان يحب النبي وآله ، ويعتقد أنهم سيصرفون له ذلك ، وسيشفعون له في ذنوبه وآثامه ، لما قدّم بين يديه من مدح العلويين ، ونصرهم على خصومهم ، وكان بنو هاشم وبنو علي خاصة يطمعون في ذلك ، ويعترفون له به ، فإذا ذكر لهم أنه يلهو ويشرب الخمر ، قالوا : وأى ذنب يعظم على الله أن يغفره لرجل من أنصار أهل البيت ؟ بل قال أحدهم إن من أحب آل علي لم تزل له قدم إلا ثبتت له أخرى . وعلى هذا كان السيد الحميري يلهو آمناً في دينه ودنياه ، يعتمد في دينه على العلويين ، ويعتمد في دنياه على العباسيين ، يقدر أن العلويين سيشفعون له عند الله ، ويعلم أن العباسيين يتقون شره ، ويؤثرون مدحه على هجائه . وكان من معاصريه من يكره ذلك ، ويعقته كل المقت ، ويضمر للسيد عداً وحقداً لا يعدلها عداً ولا حقد . ومن هؤلاء سَوَّار بن عبد الله العنبري ، قاضي البصرة المنصور ، فقد كان العداً بينه وبين السيد شديداً ، وكان قد أجمع ألا يقبل للسيد شهادة ، وكان قد سعى بالسيد عند المنصور غير مرة ، وكان السيد قد هجاه ، فأسرف في هجائه ، فشكا ذلك إلى المنصور ، فنهاه عنه ، وأمره أن يذهب إلى القاضي ، فيعتذر إليه ، وأبى القاضي أن يقبل

معذرتة ، فاستأنف السيد الهجاء ، وألح فيه . ويقال إن سَوَّاراً أعد شهوداً على السيد بالسرقة ، ليقطع يده ، فعلم السيد ذلك ، فجزع وفزع إلى المنصور ، فعزل المنصور سَوَّاراً من القضاء للسيد أو عليه ، ولم يلبث سوار أن مات ، فتبعه السيد بعدائه وبغضه وهجائه . وتستطيع أن تقرأ هجاء السيد لسوَّار في الأغاني ، فهو كثير ، لا أروى منه شيئاً ، لأنني قد أطلت ، بل لست أروى من شعر السيد إلا أبياتاً تمثل لك مذهبه الشعري . على أني أعتقد أن السيد لا يمتاز عن غيره من الشعراء من الوجهة الفنية إلا بشيئين اثنين ، أحدهما الإكثار الذي لم يشاركه فيه إلا بشار وأبو العتاهية ، فقد زعم الرواة أن قصائده في آل على كادت تبلغ الثلاثة الآلاف .

الثاني أنه كان سهلاً مطبوعاً ، شديد النفرة من الغريب ، وقد سئل عن ذلك ، فأجاب بأنه يؤثر أن يقول كلاماً يفهمه الناس ، على أن يقول كلاماً يعجب به الرواة . وهذا طبعي بالقياس إلى شاعر سياسي ، يدافع عن حزب مضطهد ، كالسيد الحميري ، فهو لا ينظم شعره للخاسة وحدهم ، وإنما ينظمه للعامة ، الذين يريد أن يتخذ منهم أنصاراً .

وانظر إلى هذه الأبيات يذكر فيها قبر الحسين :

امرُزْ على جَدَّتِ الحَسَيْنِ قُفْلَ لأَعْظَمِهِ الزَكِيَّةِ
 آعْظُمًا لَازَلَتْ مِنْ وَطْفَاءِ سَاكِبَةِ رَوِيَّةِ
 وَإِذَا مَرَرْتَ بِقَبْرِهِ فَأُطِّلْ بِهِ وَقِفِ الْمَطِيَّةِ
 وَابْكِ الْمَطَهَّرَ لِلْمَطَهَّرِ وَالْمُطَهَّرَةَ النَّقِيَّةِ
 كَبُكَاءَ مُعْوَلَةٍ أَتَتْ يَوْمًا لَوَاحِدَهَا الْمَنِيَّةِ

وانظر إلى هذه الآيات ، التي بعث بها إلى المهدي، يسأله ألا يعطى آل أبي بكر وعمر من مال الدولة :

قل لابن عباس سمى محمد	لا تعطينَ بنى عديّ درهما
إحرم بنى تيم بن مرة إنهم	شرّ البرية آخراً ومقدماً
إن تعطيهم لن يشكروا لك نعمة	ويكافئون بأن تُذمّ وتُسَمّا
وان ائتمنتهم أو استعملتهم	خانوك واتخذوا خراجك مغنا
ولئن منعتمهم لقد بدؤوكم	بالمَنع إذ ملكوا وكانوا أظما
منعوا تراث محمد أعمامه	وبنيه وابنته عديلة مريمَا
وتآمروا من غير أن يستخلفوا	وكفى بما فعلوا هنا لك مأثما
لم يشكروا لمحمد إنعامه	أفيشكرون لغيره أن أنعمَا
والله من عليهم بمحمد	وهذا هم وكسا الجنوب وأطعما
ثم انبروا لوصيه ووليّه	بالمُنكرات فجرعوه العلقما

وانظر إلى هذه الآيات يهني بها أبا العباس السفاح :

دونكموها يا بني هاشم	فجددوا من عهدها الدارِسا
دونكموها لأعلا كعب من	كان عليكم مُلكها نافِسا
دونكموها فالبسوا تاجها	لا تعدموا منكم له لابسَا
لو خير المنبر قرّسّانه	ما اختار إلا منكم فارسَا
قد ساسها قبلكم ساسَة	لم يتركوا رطباً ولا يابسَا

والآن وقد فرغنا من شعراء المجون والسياسة في هذا العصر ، فسنحدثك عن شعراء آخرين لم يسلكوا في شعرهم مجوناً ولا سياسة ، وإنما ذهبوا مذهب غيرهم من الشعراء

القديم والجديد^(١)

تقرأ في الرسائل الفارسية « لمنسكيو » رسالة لا تخلو من فكهة ولذة . تناول فيها بالعبث والمزاح خصومة الأدباء ، الذين كانوا يتنازعون في عصره حول القديم والجديد ، وحول القدماء والمحدثين . نجد في الرسالة أن الباريسيين يحبون القهوة ، ويكلفون بها . قد ظهر حبهم إياها ، وكلفهم بها ، حتى أنشئت أندية خاصة يختلف إليها الناس ، يقرءون الصحف ، ويتناقلون الأخبار في بعضها ، ويلعبون بالشطرنج في بعضها الآخر ، وتقدم إليهم كئوس القهوة في أثناء القراءة واللعب . ومن بين هذه الأندية ناد خاص ، يظهر أن للقهوة فيه فضلا على غيرها من القهوات التي تقدم في الأندية الأخرى ، كأن فيها شيئا يشحذ العقل ، وينبّه الخاطر ، ويزيد البصيرة نفوذا ، والدكاء توقدا ، والألسنة انطلاقا ، فالذين يختلفون إلى هذا النادي ، ويتناولون القهوة التي تقدم فيه ، أفصح الناس لسانا ، وأعذبهم بيانا ، وأقدرهم على التصرف في فنون السحر ، وأبرعهم في اصطناع ضروب الجدال ، فهم يتحدثون ويتناقشون ويتجادلون ، وهم يتقاذفون ويتشامتون ، كأعنف ما يتقاذف الناس ، وأقبح ما يتشامتون ، كل ذلك في ألفاظ مختارة منتقاة ،

(١) نشرت بالسياسة في ١ رجب سنة ١٣٤٢ هـ - ٦ فبراير سنة ١٩٢٤ م

تقع وقع الصواعق ، وتنفذ نفوذ السهام ، وكل هذه المناقشة ، وكل هذا العنف ، وكل هذا الجدل ، إنما يدور حول شاعر يوناني ، عاش أو لم يعيش منذ ألفي سنة ، بُكبره بعضهم ، حتى يبلغ به منزلة لا تعدلها منزلة ، ويحقره بعضهم ، حتى يبلغ به من الخسة دركا ليس دونه درك ، وهم يختصمون ويتنابدون ويقتتلون ، دفاعا عن هذا الشاعر ، أو هجوما عليه . ويعتبط الكاتب بأنه ليس هذا الشاعر ، ويحمد الكاتب الظروف التي أماتت هذا الشاعر ، قبل أن تقوم هذه المعركة العنيفة حول اسمه ومكائنه ، فلو قد أدركها لقتلته ، أو لئالته بشر من الموت ، إن كان هناك شر من الموت .

على هذا النحو يتحدث « منتسكيو » عن أدباء الفرنسيين ، الذين كانوا يختصمون في القرن الثامن عشر حول القدماء والمحدثين ، ويظهر أن عبث « منتسكيو » وسخريته من هؤلاء المختصمين ، وأن عبث غيير « منتسكيو » وسخريته من هؤلاء المختصمين ، لم يصرفهم عن الخصومة ، ولم يلهيهم عن القديم والجديد ، فظلوا يختصمون في القرن الثامن عشر ، كما كانوا يختصمون في القرن السابع عشر ، وكما اختصموا من قبل ذلك ، وكما اختصموا من بعده ، حتى انتصر جديد على قديم ، ثم أصبح هذا الجديد قديما ، واختصم الناس حوله وحول جديد آخر ، فما زالت الخصومة حتى انتصر هذا الجديد على ذلك القديم .

ويظهر أن هذه الخصومة ستستمر أبدا في كل لغة ، وفي كل جيل ، وحول كل أدب ، على شرط أن يكون للغة والأدب والجيل الذي يتصرف فيها حظ من الحياة ؛ وقد تأخذ الخصومة حول القديم والجديد أشكالا

مختلفة ، وصورا متباينة ، تمثل العصر الذى تنشأ فيه ، والظروف التى تحيط بها ، ولكنها مهما تختلف أشكالها ، وتتباين صورها ، ومهما تختلف العصور التى تنشأ فيها ، والظروف التى تحيط بها ، خصومة بين القديم والجديد ، لا مصدر لها إلا الحياة من حيث هى حياة ، ولا منصرف عنها ، لأنها الحياة . نقول هذا كله بعد أن فرغنا من قراءة فصل فى مجلة « الهلال » ، التى صدرت أول هذا الشهر ، وكاتب هذا الفصل الذى نسجل مسرورين أنه ممتع ، هو الأستاذ مصطفى صادق الرافعى ، كتبه يدافع به عن المذهب القديم فى الأدب ، لأن كاتباً آخر هو الأستاذ سلامة موسى ، كتب فى مجلة « الهلال » ، التى صدرت فى الشهر الماضى فصلاً عن الأستاذ الرافعى ، هاجم فيه المذهب القديم فى الأدب مهاجمة عنيفة ، وجعل فيه الأستاذ مصطفى الرافعى زعيماً من زعماء هذا المذهب القديم ، فلم يكن بد للأستاذ من أن يدفع هذا الهجوم العنيف دفعا عنيفاً ، ولم يكن بدّ لقارئ « الهلال » من أن يقرأ هذين الفصلين العنيفين ، ثم تساءل فيم يختصم الكاتبان ؟ وما أصل هذا العنف فى خصومتها ؟ وهل لهذه الخصومة نتيجة أو أثر فى الأدب القديم ، أو فى الأدب الجديد ؟

الحق أن ميدان هذه الخصومة أوسع من مجلة « الهلال » ، وأن أبطال هذه الخصومة أكثر من الأستاذين سلامة موسى ومصطفى الرافعى ، وإذا كان لنا ألا نسرف فى استقصاء التاريخ ، وألا نذهب بالقارئ إلى ما بعد به العهد ، فقد يكون لنا أن نذكر القارئ بأن مصدر هذه الخصومة فى هذه الأيام الأخيرة ، إنما هى صحيفة الأدب فى « السياسة » ، فى الصيف

الماضى اشتدت الخصومة بين الأستاذ الرافعى وطائفة من الكتاب المصريين حول رسالة له، بعث بها إلى «السياسية»، تحت عنوان: «أسلوب فى العتب»، وذهب فيها مذهب المتكلفين من بعض الكتاب القدماء، فأنكر عليه بعض الكتاب المصريين جمال هذا الأسلوب، وكانت حول هذا الإنكار خصومة طويلة، انتهت إلى الشتم والتناؤد، ثم لم تكد تنتهى السنة الماضية حتى نشرت «السياسة» لكاتب أديب من كتاب فلسطين، هو الأستاذ خليل السكاكى. رسالة حول الأسلوب القديم والأسلوب الجديد، وحول الإيجاز والإطناب، تناول فيها بالنقد كاتباً أديباً من كتاب سورية، هو الأمير شكيب أرسلان، فرد عليه الأمير ردّاً طويلاً، واشتدت المناقشة بين الكاتبين، حتى انتهت إلى شئ من العنف ليس بقليل. ثم عرض الأستاذ سلامة موسى للأستاذ الرافعى فى مجلة «الهلل»، فعده مع الأمير شكيب أرسلان، من زعماء المذهب القديم، وأشار إلى الكاتب الأديب خليل أفندى السكاكى، على أنه من أنصار المذهب الحديث.

هذا هو التاريخ القريب لهذه الخصومة بين القديم والجديد فى الأدب، ويخطئ من يظن أن هذه الخصومة ستنتهى غداً أو بعد غد، ويخطئ من يسأل نفسه عن قيمة هذه الخصومة، وعن آثارها حسنة أو السيئة، فستستمر هذه الخصومة فى الأدب العربى، كما استمرت فى الآداب الأخرى، وكما استمرت فى الأدب العربى القديم نفسه، وستنتج نتائجها التى أنتجها فى كل زمان، وفى كل مكان، فينتصر قديم على جديد، ثم يصبح هذا الجديد قديماً، وتكون الخصومة حوله وحول جديد آخر، ينتصر متى آن له الانتصار،

وستظل الحال كذلك مادام للغة العربية والأدب العربي حظ من حياة .
هذه الخصومة إذن مشروعة ، سواء أكانت نافعة أم لم تكن ، فليس
الأدب العربي بدعا من الآداب ، وليس الأدب العربي العصري بدعا من
الآداب العربية المختلفة . فليختصم الأستاذان سلامة موسى ومصطفى صادق
الرافعي ، وليختصم الأديبان خليل السكاكيني وشكيب أرسلان ، ولكننا
نظن أن من حقنا نحن القراء على هؤلاء المختصمين أن نسألهم : فيم
يختصمون ؟ وأن نطلب إليهم ، في رفق ولين ، أن يتفضلوا فيحددوا لنا
موضوع الخصومة ، حتى نتبهم فيها على بصيرة من أمرها ومن أمرنا ، فقد
ظهر لنا إلى الآن ، أن هؤلاء المختصمين يختلفون في أشياء ، لم يستطيعوا بعد
أن يحدوها ، وآية ذلك أنك تقرأ مقال الأستاذ الرافعي ، فتجده يسأل ما
« المذهب الجديد » ؟ وما « المذهب القديم » ؟ ويحاول أن يتبين هذين
المذهبيين ، وما بينهما من فروق . ولو كانت الخصومة بينه وبين صاحبه
واضحة الموضوع ، بينة الحدود ، لما كلف نفسه هذا السؤال ، ولما احتاج
إلى أن يكتب كل هذا الفصل الطويل . وقل مثل هذا في الخصومة بين
الأديبين خليل السكاكيني ، وشكيب أرسلان : فهما يختلفان في الإيجاز
والإطناب والمساواة ، يرى أحدهما أن الإطناب خصلة من خصال اللغة
العربية ، قد عمد إليها أكبر الكتاب ، وأرفعهم قدراً ، منذ كان النثر العربي
إلى الآن ، فمن الحق أن نتبع طريقهم في ذلك . ويرى الآخر أن الإطناب
خصلة من خصال اللغة العربية ، ولكن له مقامه ، فلا ينبغي أن يعمد إليه
الكااتب ، ولا سيما في هذا العصر ، إلا بمقدار ، وإلا حين تدعو إليه الحاجة

الأدبية . ويدور المختصمون جميعاً حول الذوق ، دون أن يحددوا هذا الذوق .
أليس من حقنا أن نسألهم عن هذا الذوق ماهو ؟ وما حده ؟ وما الذى
يريدون منه ؟ ولا تقل إن الأستاذ الرافعى قد أجاب عن هذا السؤال ، فنحن
نعترف بأن جوابه أدق من أن نفهمه ، وأشد غموضاً من أن نظهر عليه ،
وانظر إلى مايقول فى الذوق : « وأنت تعلم أن الذوق الأدبى فى شىء إنما
هو فهمه ، وأن الحكم على شىء إنما هو أثر الذوق فيه ، وأن النقد إنما هو
الذوق والفهم جميعاً . » نعترف بأننا لانفهم هذا الكلام ، بل نعترف بأننا
نعتقد أن هذا الكلام ليس من شأنه أن يُفهم . فإذا كان الذوق الأدبى فى
شىء إنما هو فهمه ، وإذا كان الحكم على شىء إنما هو أثر الذوق فيه ،
فكيف نستطيع أن نفهم أن النقد إنما هو الفهم والذوق جميعاً ؟ ذلك أن
الجملة الأولى صريحة فى أن الذوق هو الفهم ، وإذن فالذوق والفهم لفظان
يدلان على معنى واحد ، وإذن فليس شيئين ، وإنما هما شىء واحد ، هو
الفهم ، وإذن فالنقد والفهم والحكم والذوق كل أولئك شىء واحد ، تدل
عليه ألفاظ مختلفة . نعترف كما قلنا بأننا لم نفهم هذه الجملة ، ولم ندقها ،
وإذن فنحن لانستطيع أن نعتقدها ، ولا نحكم فيها ، لأن الذوق هو الفهم ،
والفهم هو الحكم ، والنقد هو الذوق والفهم معاً ، وتستطيع أن تدور فى
ذلك ما شاء الله أن تدور . فما زال الأستاذ الرافعى مُطالباً بأن يوضح لنا
نظريته هذه فى الذوق ، ونحسبه يحتاج فى توضيحها إلى عناء كثير ، ذلك أنه
يُحِيلُ إلينا أن الذوق شىء ، والفهم شىء آخر ، وأن من الإسراف أن تقول إن
الذوق هو الفهم ، فقد نفهم أشياء كثيرة دون أن ندوقها ، وآية ذلك أنا

نفهم كثيراً من كلام الأستاذ الرافي ، دون أن ندوقه أو نُعْجَبَ به . وربما كان لنا أن نذهب إلى أكثر من هذا ، فنزعم أننا قد ندوق أشياء كثيرة ، دون أن نفهمها ، وإثبات ذلك ليس بالشيء العسير ، فما نظن أن الذين يدوقون الموسيقى ، ويطربون لها ، يفهمونها جميعاً ، بل نعتقد أن الكثرة المطلقة من الذين يسمعون للموسيقى ، فيطربون ويتأثرون ، وينتهي بهم ذلك إلى شيء يشبه الذهول ، لا يفهمون الموسيقى كما يفهمها الموسيقيون الإخصائيون . فأنت ترى أن الذوق والفهم شيان مختلفان ، قد يجتمعان حينما تفهم قصيدة من الشعر أو فصلاً من النثر وتُعْجَبَ بهما ، وحينما تفهم قطعة من الموسيقى وتطرب لها ، ولكنهما قد يفترقان حينما تقرأ فصلاً من فصول الكتاب المتكفين ، أو قصيدة من نظم الشعراء المتكفين ، فتفهم النظم ، وتفهم النثر ، ولكنك تكرههما ، وتسخط عليهما السخط الشديد ، وحينما تسمع قطعة من الموسيقى ، فتعْجَبُ وتطْرَبُ ، دون أن تفهم ما أراد الموسيقي .

وللأستاذ الرافي في فصله هذا آراء كهذا الرأي ، محتاجة إلى شيء من المناقشة ، ومنها ما كان يحتاج إلى شيء من التواضع قبل أن يُنْشَرُ ويُعلَنَ إلى الناس . أنظر إليه مثلاً يزعم أن المذهب الجديد في الأدب ليس في حقيقة الأمر إلا نتيجة لضعف في اللغة والأدب العربي ، وقوة في اللغة والأدب الأجنبي ؛ وأن الذين يزعمون أنهم من أنصار المذهب الجديد ، إنما هم قوم أضاعوا حظهم من لغة العرب وآدابهم ، وأخذوا بنصيب موفور من لغات الفرنج وآدابهم ، فكانت قوتهم في هذه اللغات والآداب ، وضعفهم في اللغة العربية وآدابها ، مصدر تورطهم في فنون سخيفة من

القول ، وكان اعتزازهم بالمذهب الجديد ، وإنكارهم للمذهب القديم ، ضرباً من الاعتذار لأنفسهم ، ولونا من ألوان الغرور بأنفسهم أيضاً .

نعتقد أن الأستاذ الرافعي مسرف في هذا الحكم ، ولعل مصدر إسرافه في هذا الحكم ، إن صحت نظريته السابقة ، أنه أخطأ فهم ما يكتب أنصار المذهب الجديد ، وهو إنما أخطأ الفهم ، لأنه أخطأ الذوق ، أو هو إنما أخطأ الذوق ، لأنه أخطأ الفهم ، وتستطيع أن تدور مع الأستاذ الرافعي حول الذوق الذي هو الفهم ، أو حول الذوق الذي ليس هو الفهم ، حتى تتعبا ، فتسقطا معا ، وقد بلغ منك الكلال والإعياء ، ولكن الأستاذ الرافعي معذور على كل حال ، فما كان له أن يحكم فيحسن الحكم ، دون أن يفهم ويدوق ، وهو قد يخطئه الفهم والذوق أحيانا ، فتخطئه الإصابة في الحكم . ونظن أن للأستاذ الرافعي حظاً من الإنصاف ، وأنه يرى معنا أن بعض أنصار المذهب الجديد قد أخذوا من اللغة العربية وآدابها بحظ لا بأس به ، وأن قوتهم في اللغة الأجنبية وآدابها لم تحملهم على أن يضيعوا حظهم من اللغة العربية وآدابها ، فهم يستطيعون أن يفهموا الجاحظ ، كما يستطيعون أن يفهموا « فولتير » . وإذن فانتصار هؤلاء لمذهب جديد ليس ضعفاً ، وليس اعتذاراً لأنفسهم ، وليس تعصباً للأدب الأجنبي الذي تفوقوا فيه . وما نظن أن الأستاذ ينكر على خصمه سلامة موسى أنه يفهم الأدب العربي ، كما يفهم الأدب الإنكليزي ، ويستطيع أن يحكم فيهما عن فهم هو الذوق ، أو ذوق هو الفهم ، أو فهم ليس ذوقاً ، أو ذوق ليس فهماً ، وما نظن أن الأستاذ ينكر علينا نحن أننا نستطيع أن نفهم الأدب العربي ، وأن نفهم الأدب الفرنسي ، وأن نحكم فيهما أحيانا عن ذوق وفهم ، أو عن فهم دون ذوق ، أو عن ذوق دون فهم . ثم

هب سلامة موسى وغيره من خصوم الأستاذ الرافعى ، وأنصار المذهب
 الجديد ، ضعافا فى اللغة العربية وآدابها ، فهناك قوم ينصرون المذهب الجديد ،
 وليس لهم من اللغات الأجنبية وآدابها حظ ، وحظهم من اللغة العربية
 وآدابها موفور ، تدل عليه آثارهم وما ينشرون ، فما رأى الأستاذ
 فى هؤلاء ، وما أصل مذهبهم الجديد ، وهم يجهلون اللغات الأجنبية ، ولا
 يتعصبون لها ؟ ثم مالنا نذهب بالأستاذ بعيدا عن الموضوع الذى أتقنه
 وبرع فيه ! فلسنا نشك فى أن الأستاذ أتقن الأدب العربى ، وأحسن روايته
 وفهمه وتقليده ، وأسرف فى هذا التقليد ، وهو يناقض نفسه بعض
 المناقضة ، فيصرح بأن العرب عرفوا القديم والجديد ، فكان القرآن الكريم
 جديداً ، وكانت الآداب العباسية جديدة من بعض وجوهها ، وتجددت
 الآداب العربية غير مرة ، يصرح بهذا ، ولكنه فى الوقت نفسه يزعم أن
 أحداً من العرب وأدبائهم لم يذكر مذهباً جديداً ولا قديماً ، وإذن فقد
 تجددت الآداب العربية غير مرة ، دون أن يشعر العرب بهذا التجدد ،
 أو شعر العرب بهذا التجدد دون أن يذكره . والحق أن الآداب تجددت
 غير مرة ، وأن العرب شعروا بهذا التجدد ، وأنهم ذكروه ، واختصموا
 فيه ، كما يختصم فيه الأستاذ الرافعى وأصحابه الآن . وقد كتبنا فى هذا
 المكان من (السياسة) فصولا طويلا فى العام الماضى ، فصلنا فيها بعض
 ما كان من الخصومة بين أنصار القديم وأنصار الجديد أيام بنى العباس .
 وإذا كان العرب لم يصطنعوا لفظة « المذهب الجديد » و « المذهب القديم » ،
 فليس ذلك دليلا على أنهم لم يعرفوا القديم والجديد ، ولم يذكروها ، ولم

يختصموا حولهما ، وما معنى لفظ « البديع » ؟ وهل كان البديع جديداً أم هل كان قديماً ؟ وهل اختصم الناس حول البديع أم هل قبلوه دون مناقشة ولا جدال ؟ وهل امتاز بالبديع من الكتاب والشعراء قوم غلّوا فيه ، فرضي عنهم قوم ، وأنكرهم آخرون ؟ أم هل قبله الناس جميعاً ، وأخذوا منه بحظوظ متساوية ؟ وإذا كان الأستاذ لا ينكر أن العرب اختصموا حول القديم والجديد في الشعر وفي النثر ، فهل يستطيع أن يعلل لنا هذا الاختصام ؟ فليس من شك في أن أنصار الجديد من العباسيين مثلاً لم يكونوا ضعافاً في اللغة العربية وآدابها ، ولم يستندوا لأنفسهم عن هذا الضعف ، بتعلقهم بالجديد وغلّوهم فيه ، أكان أبو نواس ضعيفاً في اللغة العربية وآدابها ؟ أكان أبو تمام ضعيفاً في اللغة العربية وآدابها ؟ أكان المتنبي ضعيفاً في اللغة العربية وآدابها ؟ ومع ذلك فقد جدد أبو نواس ، وانتصر للجديد ، وقد جدد أبو تمام ، وانتصر للجديد ، وقد جدد المتنبي ، وانتصر للجديد ، وقد اختصم الناس حول هؤلاء الشعراء وتجديدهم ، فانتصر لهم قوم ، وسخط عليهم قوم آخرون . ونستطيع أن نوكد للأستاذ الرافعي أن الأدباء الفرنسيين الذين كانوا يختصمون حول القديم والجديد ، كانوا يفهمون اللاتينية واليونانية وآدابهما ، كما يفهمون الفرنسية وآدابها ، وكان منهم مع ذلك من يؤثر اللاتينية واليونانية ، ومنهم من يؤثر الفرنسية ، وكان منهم من يؤثر مذهب القدماء ، ومنهم من يؤثر مذهب المحدثين ، فليس المذهب الجديد قائماً على جهل أو ضعف أو تعصب ، وإنما هو قائم على شيء آخر غير هذا كله ، قائم على الفهم قبل كل شيء ، قائم على أن الذين ينصرون هذا المذهب الجديد يحسون مالا يحسه أنصار

المذهب القديم ، ويرون ما لا يراه أنصار المذهب القديم ، ويشعرون بأنهم
يَحْيَوْنَ ، فيريدون أن يأخذوا بحظهم من الحياة ، يريدون أن يفهموا الناس ،
وأن يفهمهم الناس ، يعيشون مع الجيل الذي هم فيه ، دون أن يقطعوا الصلة
بينهم وبين الأجيال الماضية .

ورأى آخر للأستاذ الرافعى يحسن أن تناقشه ولو قليلا . فهو يرى أن
من الخير لأنصار المذهب الجديد أن يولدوا من جديد ، وأن يتعاملوا الأدب
العربى من جديد ، ليأخذوا منه بالحظ الوفور ، فيسلكوا فيه سبيل القدماء ،
ذلك خير لهم من أن ينتحلوا مذهبهم الجديد ، ولغتهم الجديدة ، فيدخلوا
فى اللغة والأدب ما ليس من حقهم أن يدخلوه ، ذلك لأن اللغة موروثه ، وهى
ملك الملايين من الأعمار ، ولطائفة طويلة من العصور ، فيجب أن تقبلها كما
ورثناها ، دون أن ندخل فيها شيئا من عندنا أنفسنا .

ونحن نعتزف بأننا نخالف الأستاذ كل المخالفة فى هذا الرأى ، ونسمح
لأنفسنا بأن نراه عَقْما ، ونسمح لأنفسنا بأن نزعم أن لنا فى هذه اللغة التى
تسكلمها ، ونتخذها أداة للفهم والإفهام ، حظا يجعلها ملكا لنا ، ويجعل من
الحق علينا أن نضيف إليها ، ونزيد فيها ، كلما دعت إلى ذلك الحاجة ، أو
قضت ضرورة الفهم والإفهام ، أو كلما دعا إليه الظرف الفنى ، لا يقيدنا فى
ذلك إلا قواعد اللغة العامة ، التى تفسد اللغة إذا تجاوزناها . فليس لأحد أن
يمنعك أو يمنعنى أن نضيف إلى اللغة لفظا جديدا ، أو ندخل فيها أسلوبا جديدا
مادام هذا اللفظ أو هذا الأسلوب ليس من شأنهما أن يفسدا أصلا من أصول
اللغة ، أو يخرجها عن طريقها المألوفة . ولولا هذا وأن اللغة ملك لا بناؤها ،

يضيفون إليها ، ويدخلون فيها ، لما نمت اللغة ، ولما شاعت ، ولما استطاعت
أن تفي بحاجات أهلها ، التي تتجدد وتتغير بتجدد الأزمنة ، وتبدل الظروف ،
والكتاب والشعراء في كل عصر وفي كل مكان ، يضيفون إلى لغاتهم ،
ويدخلون فيها ، ويجددونها ، فمنهم من يسعدده الحظ ، فتروج ألفاظه وأساليبه
ويقبلها الناس ، ويتهاككون عليها ، حتى تشيع وتصبح جزءاً من اللغة المألوفة ،
ومنهم من يخطئه هذا الحظ ، فلا يحفل الناس بما أدخل ، ولا بما أضاف .
ومما يحسن أن يُنبّه إليه الأستاذ الرافعي ، في رفق ولين أيضاً ، أنه
يُسرف في سوء الظن بأوربا وأمريكا ، وفي سوء الحكم عليهما ، ولعل مصدر
ذلك أنه يقرأ لغة أوربا وأمريكا ولا يفهمها ولا يذوقها ، فهو يخطئ في الحكم
على أوربا وأمريكا ، وهو مسرف حين يظن « أن في أوربا وأمريكا من الغفلة
مذهباً ، ومن الرقاعة مذهباً ، ومن تسفل الشهوات مذهباً ، ومن الجنون
مذهباً ، ومن كل شذوذ مذهباً ، ومن غير المذهب مذهباً ... » هو مسرف
في ذلك ، فليست أوربا وأمريكا من السوء بحيث يظن ، ولو قد بلغنا من
السوء هذا الحد ، لما كان لهما التفوق على غيرهما من بلاد الله . ثم إن
اختلاف المذاهب وتنوعها في أوربا وأمريكا ، ليس شيئاً جديداً ، وإنما هو
شيء عرفه الإنسان منذ تحضر ، ومنذ فكر . ويسوءنا أن نقول أن الإنسان
قد عرف الديانات منذ تحضر ، ومنذ فكر أيضاً ، فاستطاعت الديانات أن
تقضي على اختلاف المذاهب ، ولا استطاع اختلاف المذاهب أن يقضي
على الديانات ، وإنما الإنسان إنسان ، فيه الخير وفيه الشر ، فيه الإيمان ،

وفيه الإلحاد ، فيه الفضيلة وفيه الرذيلة ، فيه الإباحة التي لا حد لها ، وفيه التحرش الشديد .

والأستاذ الرافعي كغيره من أنصار المذهب القديم ، مشفق كل الإشفاق على القرآن الكريم وعلى الإسلام ، أن يصيبها من المذهب الجديد شر ، أو ينالها ضيم ، ونظن من السخف والإطالة التي لا تجدى ، أن نهون على الأستاذ ، ونهديء من روعه ، فليس ما يدعو إلى الإشفاق ، ونظن أننا ونحن من أنصار المذهب الجديد ، المتشدين في نصره ، نستطيع أن نفهم القرآن الكريم ونذوقه ، كما يفهمه الأستاذ وأصحابه ويدوقونه .

ذلك أن مذهبنا الجديد لا يقتل اللغة ، ولا يصرف الناس عنها ، ولا يغير من أصولها وقواعدها ، وإنما يريد أن تكون اللغة حية نامية ، ومن ذكر الحياة والنمو فقد ذكره التطور ، ومن ذكر التطور وآمن به ، فهو من أنصار المذهب الجديد ، سواء أَرْضَى ذلك أم أنكره .

تم الجزء الثاني

ويليه

الجزء الثالث

فهرست الموضوعات

صفحة	موضوع	صفحة	موضوع
١٠٤	الخمر عند أبي نواس	٥١	القدماء والمحدثون :
١١٦	الخمر عند أبي نواس		الجهاد بين القديم والجديد
١٢٨	الغزل في شعر أبي نواس	١٠	القدماء والمحدثون :
١٣٦	الغزل عند أبي نواس		الشعراء في العصر الأموي .
١٤٧	جد أبي نواس	١٦	القدماء والمحدثون :
١٥٩	خاتمة القول في أبي نواس		الشعر في العصر العباسي
١٧٢	الوليد بن يزيد	٢٤	القدماء والمحدثون :
١٨٥	مطيع بن إياس		الأندية الأدبية .
٢٠١	حماد مجرد	٣٣	القدماء والمحدثون :
٢١٧	الحسين بن الضحاك		الأندية الأدبية
٢٣٨	بشار بن برد	٤١	القدماء والمحدثون :
٢٥٠	شعر بشار		الأندية الأدبية
٢٦٩	والبة بن الحُباب - أبان	٥٠	القدماء والمحدثون :
	ابن عبد الحميد		أبو نواس
٢٨٦	مروان بن أبي حفصة -	٦٢	القدماء والمحدثون :
	السيد الحميري		تمثيل أبي نواس لعصره
٣٠٥	السيد الحميري	٧٢	إلى الأستاذ طه حسين
	علو يون ، وعباسيون	٧٩	رد على نقد :
٣٢١	القديم والجديد		كيف نفهم التاريخ
		٨٩	الخمر قبل أبي نواس

فهرست الأعلام والقبائل

أشجع السلمي ١٦٣

الأصمعي ٤٥ ، ٦٩ ، ١٥٤ ، ٢٤٨ ، ٢٦٥ ،

٣٠٩

أبو الأطول ٢٧٩

ابن الأعرابي ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٩٠ ، ٣٠١

الأعشى ٦٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٥ ،

٩٨ ، ٢٨٧ ، ٣٠٣

اغسطس ٤٤ ، ٨٥

أمرئ القيس ٦ ، ١٣١ ، ١٤٤ ، ٢٦٧ ،

٣٠٣

الأمين ١٣ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٤ ، ٥١ ، ٥٧ ،

٥٨ ، ٨٨ ، ٩٩ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٥٧ ،

١٦١ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ،

٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩

بنو أمية (الأمويون) ٧ ، ١٦ ، ١٨ ،

١٩ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٩ ،

٧٣ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ،

١٠٠ ، ١٠٢ ، ١١٩ ، ١٣١ ، ١٣٨ ،

١٦٧ ، ١٧٢ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٨٤ ،

١٩١ ، ١٩٢ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ،

٢٤٥ ، ٢٦٦ ، ٢٨٥ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ،

٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٨ ، ٣٠٦ ،

٣٠٨ ، ٣١٥ ، ٣١٦

اورليان ٢٨٨ ، ٢٨٩

(١)

أبان بن عبد الحميد اللاحق ٨٨ ، ٢٦٩ ،

٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ،

٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ،

٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ،

٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ،

٣١٠ ، ٣١٦

إبراهيم بن رسول الله ٣١٣

إبراهيم بن عبد الله العلوي ٢٦٥ ، ٣١٧

أحمد بن حمزة بن زياد الريني ٥٥

أحمد شوقي بك ٦٤

الأحوص بن محمد ٩٧

الأخطل ٢٢ ، ٦٨ ، ٨٩ ، ٩٧ ، ٩٨ ،

١٥٢ ، ٣٠٣

الأخفش ٢٤٨

الادريسيون ٨٢

الأزد ٣٠٥

أزهر بن سعد السمان ٥٤

إسحق الموصلي ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ،

بنو أسد ١٢٠ ، ١٢١ ، ٢٧٠ ،

إسماعيل بن صبيح ١٦٧

إسماعيل بن محمد (ن : السيد الحميري)

(ب)

باهلة ٢٤٨ ، ٢٩٤

بثينة ١٩

البحتري ٦ ، ٨ ، ٦٧

بحيش ٢١٥

البرامكة ١٤ ، ١٥٧ ، ١٦١ ، ١٦٧ ،

١٦٨ ، ١٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ،

٢٧٧ ، ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ،

٢٨٨ ، ٣٠٥

بركليش ٤٤

بشار بن برد ٦ ، ١٣ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ،

٥١ ، ٦٢ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٨٨ ، ١٦٩ ،

٢٠٣ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ،

٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ،

٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ،

٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ،

٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ،

٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ،

٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ،

٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ،

٢٧١ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٨ ،

٣١٩

بصبص ٢٣٦

أبو بكر الصديق ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣٢٠

بلوتارك ٨٣

بوربون ٢٨٨

(ت)

أبو تمام ٦ ، ٨ ، ٣٣٠

تيمم ١٢١

توبة ٢١

بنو تيم بن مرة ٣٢٠

تين ٦٥

(ث)

ثعلب ٦٧ ، ٦٨ ، ٢٣٤

ثمامة بن الأشرس ٢٢٤

ثمود ١٠٦

(ج)

جابر (خمار بالحيرة) ٥٧

الجاحظ ٢٩ ، ٥٥ ، ٦٣ ، ٦٧ ، ٣٢٨

جبريل ٢٩٧

جرير ٦ ، ٢٢ ، ٦٧ ، ١٥٢ ، ٢٦٥ ،

٢٨٧ ، ٣٠٣

جعفر البرمكي ٢٨١

جعفر الصادق ٣١٤

الحسين بن علي ٣١١ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ،
٣١٩

حشيش ٢١٥

بنو حفصة ٣٠٤ ، ٣٠٦

حكم الوادي ٢١٦

الحمدون ٢٠١ ، ٢٠٣

حماد بن حماد ٥٤

حماد الراوية ٢٠١ ، ٢٠٢

حماد بن الزبرقان ٢٠١

حماد بن زيد ٥٤

حماد عجرد ٣٦ ، ٨٨ ، ١٨٨ ، ١٩٥ ،

١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ،

٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ،

٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ،

٢٤٤ ، ٢٥٦ ، ٢٧٠ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥

حمزه (عم الرسول) ٣١٥

حير ١٩٣ ، ٣٠٥

ابو حنيفة النعمان ٣٦ ، ٢١٣ ، ٢١٤

(خ)

خالد القسري ١٩٢

خديجة بنت خويلد ٣١١

الخزر ٢٦١

خشة ١٩٨ ، ٢١٢

الخصيب ١٥٨ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٥

جعفر بن المنصور ١٩٣ ، ٢١٥ ، ٢١٦

جميل ١٩ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ١٣٦ ، ١٣٧

جنان ١٣٣ ، ١٣٤ ، ٢٧٨

جول لمر ٦٦

جوهر (جارية أبي عون) ٢١٣

(ح)

حافظ إبراهيم ٦٤ ، ١٠٧

الحافظ بن عساكر ٢٨ ، ٥٤ ، ٧٧

الحجاج بن يوسف ٢٩١

حسان بن ثابت ٥٢

الحسن البصري ١٠٤

الحسن بن رجاء ٢٣٤ ، ٢٣٥

الحسن بن سهل ٢٣٦

الحسن بن سيرين ١٠٤ ، ٢٧٦

الحسن بن علي ٣١١ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ،

حسين بن حسن ٣١٤

الحسين الخياط ٤٧ ، ٤٨

الحسين بن الضحاك ٢٩ ، ٣٧ ، ٤٧ ،

٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ،

٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ،

٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ،

٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٩ ، ٢٥٦ ،

٢٧٤ ، ٢٧٥

سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان ١٧٩ ،

١٨٢

سعيد بن المسيب ٥٥ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ،

السفاح ٣٢٠

سفيان الثوري ٥٣

سلامه موسى ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٨ ،

٣٢٩

سلمى (في شعر مروان) ٢٩٧

سلمى بنت سعيد بن خالد ١٠١ ، ١٠٢ ،

١٨١ ، ١٨٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥

سليم بن منصور ٥٦

سليمان بن علي ٢١٦

سليمى (في شعر بشار) ٢٥١

سمراء (في شعر أبي نواس) ١٥٣

سهم بن عبد الحميد ٢١٠ ، ٢١١

سوار بن عبد الله العنبري ٣١٨ ، ٣١٩

سيبويه ٢٤٨

السيد الحميري ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٩ ،

٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ،

٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩

(ش)

الشافعي ٢٨ ، ٥٥

شكيب أرسلان ٣٢٤ ، ٣٢٥

الشيخ ١٥٢

ابن خلدون ٤٣ ، ٤٤ ، ٧٤ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٧

الخليع (ن : الحسين بن الضحاك)

خليل السكاكيني ٣٢٤ ، ٣٢٥

(د)

داود بن رزين الواسطي ٤٦ ، ١٦٩

(ر)

رفيق بك العظم ٧٩ ، ٨١ ، ٨٨ ، ١٠٠

الرقاشي ٣٧ ، ٤٧ ، ٨٨ ، ١٦٩

روح بن حاتم ٢٤٢ ، ٢٤٣

(ز)

زبيدة ١١٢

الزبير بن العوام ٣١٤

زفر بن الحارث ٩٧ ، ٩٨

زهير بن أبي سلمى ٣٠٢ ، ٣٠٣

زياد بن أبيه ٣٠٦

زينب بنت سليمان بن علي ٢١٦

(س)

سانت بيث ٦٥

سعد بن عبادة ٥٥

سعد بن أبي وقاص ٣١٤

أبو الشمقمق ٢٥٨

بنو شيان ٢٩٩ ، ٢٩٥

شيبة ٥٦

(ص)

صالح بن داود ٢٦٨

صالح بن الرشيد ٢٢١ ، ٢٢٤ ، ٢٣١ ،

٢٣٢

صالح بن عطية الأضجم ٣٠٣

(ط)

أبو طالب ٣١٢ ، ٣١٦

طلحة بن عبيد الله ٣١٤

طه حسين بك ٧٢ ، ٧٦ ، ٧٧

(ظ)

ظبية الوادي (ن : خشة)

(ع)

عاد ١٠٦

ابن عائشة ٥٥

بنو العباس ١٦ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٤١ ،

٧٣ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١١٩ ،

١٣١ ، ١٣٥ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٧ ،

١٨٤ ، ١٩٢ ، ١٩٤ ، ٢٠١ ، ٢٠٥ ،

٢٤٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ،

٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ،

٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ،

٣٠٠ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ ،

٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ،

العباس بن الأحنف ٢٩ ، ٣٧ ، ٨٨

العباس بن عبيد الله بن جعفر ١٥٣ ،

١٥٧ ، ١٥٨

العباس بن الفضل بن الربيع ١٥٧

العباس بن محمد ١٩٣

عبد الرحمن بن عوف ٣١٤

عبد الله بن الزبير ٥٢

عبد الله بن عباس ٥٢ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ،

عبد الله بن علي العباسي ٣١٢

عبد الله بن عبد المطلب ٣١٣

عبد الله بن المقفع ٨٨ ، ١٨٨

عبد المطلب بن هاشم ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ،

عبد الملك بن مروان ٩٧ ، ٩٨

عَبْدَةُ ٢٦٣ ، ٢٦٤

عبد الواحد بن زياد ٥٤ ، ٥٥

عبدوس (راوية أبي نواس) ٥٨ ، ٧٧

عبيد الله بن زياد ٣٠٦

عبيد الله بن محمد العباسي ٥٥

أبو عبيدة (انظر معمر بن المثنى)

أبو العتاهية ٦٩ ، ٩٢ ، ٢٢٢ ، ٢٧٠ ،

٣٠٨

عثمان بن عفان ٩٦ ، ٢٩٠ ، ٣٠٩ ، ٣١٤

بنو على ٣٢٠

على بن زيد ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٥

عروة بن حزام ١٤٢

عزة ٢٠

عفراء ١٥٣

عقبة بن مسلم ٣٠٦

عقيل بن أبي طالب ٣١٦

أبو العلاء المعري ١٧٠ ، ١٧١ ، ٢٣٩

بنو على (العلويون) ١٤ ، ١٧ ، ٢٨٤ ،

٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ،

٢٩٢ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠٥ ،

٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ،

٣١٨ ، ٣١٩

على بن أبي طالب ٩٦ ، ١٧٢ ، ٢٤٤ ،

٢٦٦ ، ٣٠٦ ، ٣١١

على بن الحسين ٣١٤

عمر بن الخطاب ٩٦ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٥ ،

٣٢٠

عمر بن أبي ربيعة ١٩ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٩٧ ،

١٣١ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ،

١٤٤

أبو عمرو بن العلاء ٦ ، ٦٧ ، ٦٨

عمرو بن كلثوم ٢٤٤

عمرو بن مسعدة ٢٢٤

عمرو بن معديكرب ٩٦

عمرو الوراق ٤٧

عنزة العبسي ٧٥ ، ٩٣

أبو عيسى بن الرشيد ٢٢١ ، ٢٣١

عبس بن عمرو ٢٠٧

(غ)

الغمر بن يزيد بن عبد الملك ١٧٣ ، ١٩١ ،

(ف)

فاطمة بنت الرسول ٣١١ ، ٣١٣

فاطمة بنت عمرو ٣١١ ، ٣١٣

أبو الفرج الاصفهاني ١٠٢ ، ١٧٨ ، ١٨٣ ،

١٨٥ ، ١٩٥ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٨ ،

٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ،

٢٧٧ ، ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٩٤ ، ٣٠٨ ،

الفرزدق ٢٢ ، ٥٢ ، ٦٧ ، ١٥٢ ، ٢٦٥ ،

٢٨٧ ، ٣٠٣ ، ٣٠٨

الفضل بن الربيع ١٤ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ،

١٦١ ، ٢٢٠ ، ٢٩٧

الفضل بن سهل ١٤

الفضل بن يحيى ٢٨١ ، ٢٨٤

(ق)

قتادة ٥٥

ابن قتيبة ١٥٨

قحطان ٢٠٧

قريش ١٧٣، ١٦٧، ٩٦

قيس ١٢١

قيس بن ذريح ٢٠

قيس بن الملوح ٢٠

كثير ١٣٧، ١٣٦، ٢٠

ابن كثير الصيرفي ٥٥

الكسائي ٣٩

(ل)

لبنى ٢٠

لوط ١٦٨

لويس الرابع عشر ٩٥، ٤٤

لويس الخامس عشر ٨٥

ليلي (في شعر أبي نواس) ١١٤، ١٥٣،

ليلي الأخيلية ٢١

ليلي العامرية ٢٠

(م)

المأمون ١٣، ٤٣، ٤٤، ٦٨، ٧٢، ٧٦،

٩٠، ١١١، ٢٠٣، ٢٢١، ٢٢٢،

٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٦، ٢٢٧

ماني ١٨٣، ٢٧٤

المبرد ٦٣، ٧٠

المتنبي ٨، ٦، ٣٣٠

المتوكل ٢٢٦، ٢٣٦

محمد رسول الله ٢٨، ٥٢، ١٦٤، ١٩٣،

٢٤٤، ٢٤٦، ٢٨٢، ٢٩١، ٢٩٧،

٣٠٨، ٣٠٩، ٣١١، ٣١٢، ٣١٣،

٣١٤، ٣١٥، ٣١٨، ٣٢٠

محمد بن ابراهيم ٥٥

محمد بن جعفر غندر ٥٥، ٥٦

محمد بن الحارث بن بسختر ٢٣٥

محمد بن الحنفية ٣١٧

محمد بن خالد الثقفي ٢٧٨

محمد بن سليمان بن علي ٢١٦

محمد بن ضوء بن الصلصال ٥٧

محمد بن طلحة ٢١١

محمد بن أبي العباس ٢١٥، ٢١٦

محمد بن عبد الله بن الحسين العلوي ٣١٠،

٣١٢، ٣١٧

محمد بن علي بن الحسين ٣١٤

محمد بن الفضل بن الربيع ١٥٧

مروان بن أبي حفصة ١٧٣، ٢٨٣، ٢٨٤،

٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١،

٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦،

معتمر بن سليمان ٥٤	٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ،
المعدل ٢٧٧	٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ،
معمر بن المثنى ٤٣ ، ٤٥ ، ٦٧ ، ١٥٤ ،	٣١٠ ، ٣١٦ ،
١٦٨ ، ٢٦٥ ، ٣٠٩ ،	مروان بن الحكم ٢٩٠
معن بن زائدة ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ،	مروان بن محمد ٢٩٤
٣٠١ ، ٢٩٩	مریم بنت عمران ٣٢٠
منتسكيو ٣٢٢ ، ٣٢١	أبو مسلم الخراساني ٢٦٥ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ،
المنخل اليشكري ٨٩ ، ٩٣	٢٨٨ ، ٣١٢ ،
المنصور ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٩ ، ٢١٦ ،	مسلمة بن هشام ١٧٤
٢٦٥ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ،	مسلم بن الوليد ٦ ، ٨ ، ٢٩ ، ٣٧ ، ٦٧ ،
٣١٢ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ،	٨٨ ، ١٥١ ،
المهدي ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ١٧٤ ، ١٩٣ ،	المسيح ٨٥ ، ٢٧٤
١٩٤ ، ١٩٩ ، ٢٠٩ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ،	مصطفى صادق الرافعي ٣٢٣ ، ٣٢٤ ،
٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٥٣ ،	٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ،
٢٥٤ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ،	٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ،
٢٦٢ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ،	بنو مطر ٣٠١
٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠٩ ،	مطيع بن إياس ٣٦ ، ٨٨ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ،
٣٢٠	١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ،
موسى (كليم الله) ٢٧٤	١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ،
(ن)	٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ،
الناطقة الجعدى ١٤٢	٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٤٤ ، ٢٥٦ ،
الناطقة الذيباني ٩٣	١٦٢ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ،
النظام ٣١ ، ٣٢ ، ٥٤ ، ١٦٨ ،	معاوية بن أبي سفيان ٣٠٦ ، ٣١٤ ،
	٣١٦
	المعتصم ٢٢٦ ، ٢٢٧ ،

النعمان بن المنذر ٩٣

ابن نهبي [انظر حماد عجرد]

النوار ٥٢

أبو نواس ٦، ٨، ١٣، ٢٧، ٢٨، ٢٩،
٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٧، ٣٩، ٤٢، ٤٣،
٤٦، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٣، ٥٤،
٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦١،
٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠،
٧١، ٧٢، ٧٤، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٨٨،
٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٩،
١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥،
١٠٦، ١٠٧، ١٠٩، ١١٠، ١١١،
١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٦، ١١٧،
١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢،
١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧،
١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢،
١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٨،
١٣٩، ١٤٠، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧،
١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢،
١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧،
١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢،
١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧،
١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢،
١٧٨، ١٨١، ١٨٣، ١٨٥، ١٨٦،
١٨٧، ١٩٠، ١٩١، ٢١٤، ٢١٩،
٢٢٠، ٢٢٣، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩،
٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٤٩،
٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٥، ٢٦٩، ٢٧٠،
٢٧١، ٢٧٣، ٢٧٥، ٢٧٧، ٢٧٨،
٢٨٧، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٣٠

بنو نوبخت ١٦٩

نوح ١٠٦، ١٥٨

نير يوس ٨٧

نيرون ٨٥

(ه)

المهادي ٢٩٢

هاشم ١٦٧، ١٧٢، ٣٠٣

بنو هاشم ٢٠٥، ٢٨٥، ٢٨٩، ٢٩٨،

٣٠٦، ٣١٠، ٣١١، ٣١٥، ٣١٨، ٣٢٠،

ابن هيرة ٢٦٧، ٣١٢

هرون الرشيد ١٣، ٣٦، ٣٩، ٤٣، ٤٤،

٥١، ٧٢، ٧٤، ٧٦، ٨٠، ٨٢، ٨٣،

١١٤، ١٥٢، ١٥٧، ١٦١، ١٦٢،

١٦٣، ١٦٧، ١٧٣، ١٩٩، ٢٢٠،

٢٢٦، ٢٧٠، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥،

٢٨٧، ٢٩٢، ٢٩٧

هسيود ٢٨٠

أبو هشام الباهلي ٢١٧

هشام بن عبد الملك ٩٩، ١٠٠، ١٠١،

١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٩،

١٨١، ١٨٢، ١٨٣

هشام الكلبي ١٦٨

هند (في شعر أبي نواس) ١١٤

هند (زوج أبي سفيان) ٥٢

هوراس ٣٤

الهيثم بن عدى ١٦٨

هيروdot ٨٣

(و)

الواثق ٢٣٦ ، ٢٣٤

الواقدي ٧٥

واصل بن عطاء ٢٤٣ ، ٢٤٤

والبة بن الحباب ٣٦ ، ٣٧ ، ١٨٨ ، ٢٦٩ ،

٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥

الوليد بن عقبة ٩٦

الوليد بن يزيد ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٩ ،

١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،

١١٦ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ،

١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ،

١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ،

١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٤ ،

١٩٥ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢١٤ ، ٢٢٩ ،

٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٧٠

(ي)

يحيى بن أكرم ٤٣

يحيى بن خالد البرمكى ٢٨١

يحيى بن زياد ٣٦ ، ٨٨ ، ١٨٨ ، ١٩٥ ،

١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٣ ، ٢١٣ ،

٢١٤ ، ٢١٥

يحيى بن زيد ٣١٥

يحيى بن القطار ٥٤

يزيد بن عبد الملك ١٧٤

يزيد بن معاوية ٩٨

يزيد بن المفرغ ٣٠٦

يزيد بن منصور الحميري ٢٥٣ ، ٢٥٤

يسر (غلام أبي عيسى بن الرشيد) ٢٣١ ،

٢٣٢

يعقوب ١٤١

يعقوب بن داود ٢٦٨

يعقوب بن زيد الفارسي ٥٥

أبويوسف القاضي ٢٨٢

يونس بن حبيب ٦٧ ، ٢٤٨ ، ٢٦٨ ،

٢٨٦

DEC 12 1945

893.782

H95

v.2

35930 v.2
d3

